

مكتبة المخطوطات النسخة رقم ١٠٠٠

وزارة المعارف

إدارة للأبحاث والناسخ والأرشيف النسخية

تاريخ الحضارة الإسلامية

للصَّفِّ الثَّالِثِ الثَّانَوِيِّ
(القِسْمُ الأدَبِيُّ)

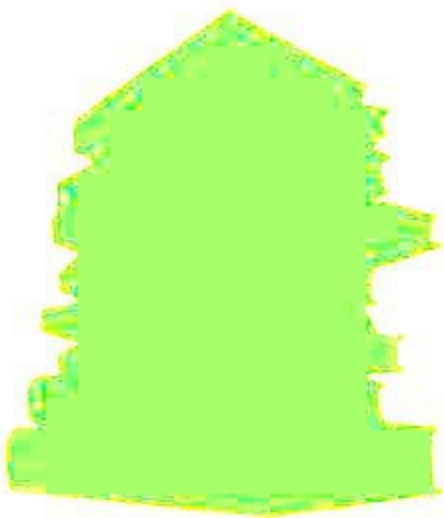
يوزع مجاناً ولا يباع

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

الطبعة الثانية

**Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.**

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ
پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ



المملكة العربية السعودية

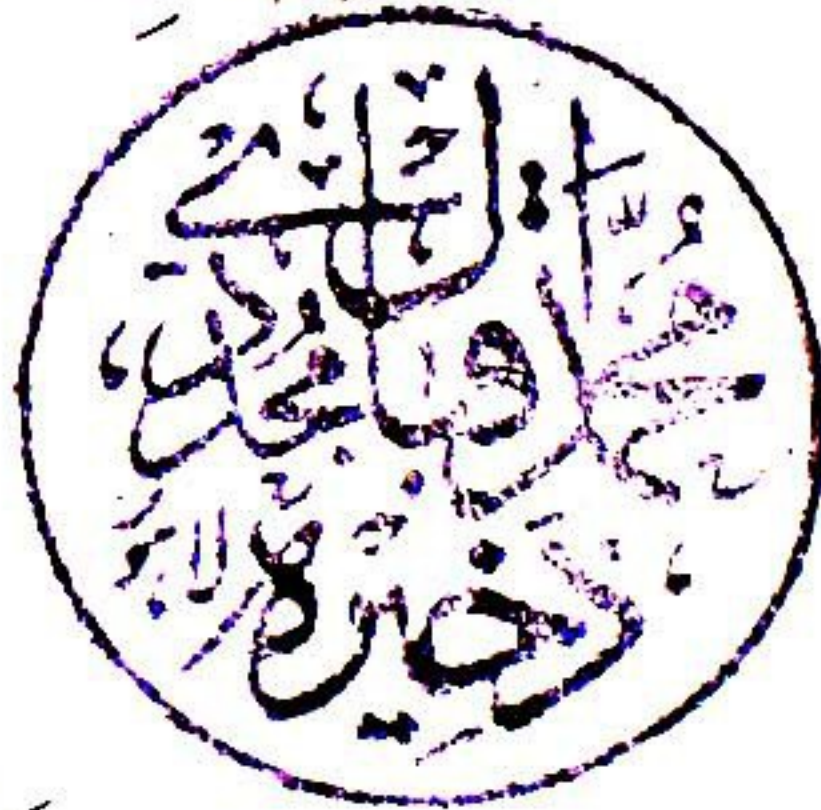
وزارة المعارف

إدارة العامة للأبحاث والناسخ والمواد التعليمية

قررت وزارة المعارف تدرّس هذا الكتاب وطبعه على نفقتها

تاريخ الحضارة الإسلامية

للصّف الثالث الثانوى
(القسم الأدبى)



تأليف

الدكتور محمد سعيد السعفى
الأستاذ أحمد موسى البكرى
الدكتور عبد الرحمن حميد
الدكتور حامد شاكر حامى
الدكتور طه عثمان الفراء
الأستاذ محمود شاكر

الطبعة الثانية

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

يوزع مجاناً ولا يُباع

132349

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم الرسل والنبیین وبعد ، فبعد التوكل على الله جل شأنه ، قمنا ، بناء على تكليف من وزارة المعارف الموقرة بتأليف هذا الكتاب الذى يتناول منهج التاريخ للصف الثالث الثانوى / القسم الأدبى فى الحضارة الإسلامية .

ولقد عملنا جاهدين على إبراز الحقائق الأساسية لحضارتنا الإسلامية التليدة فى جميع نواحيها ، ودعمنا ذلك بالأرقام الضرورية والوسائل التعليمية المناسبة التى تعكس شمس حضارتنا فى مجالات الصناعة والعمارة والفنون .

ولجأنا إلى لغة واضحة فى إخراج هذا الكتاب الذى اختتمناه بفصل عن ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشارها وبيان فضلها على العالم بعامة وأوروبا بخاصة لكى نوضح موقفنا، نحن المسلمين، من الحضارة الغربية.

ونأمل أن نخرج من هذا كله إلى زيادة اعتزازنا بماضينا الحضارى الحى لننتقل بعزم المؤمنین وحماسة المصلحين وخبرة العارفين إلى إثراء إرثنا الحضارى هذا والوصول إلى مصاف الأمم الراقية كما كنا سادة لمدينة العالم فى الماضى .

إننا نرجو أن ينال جهدنا المتواضع هذا عناية أبناء هذه الأمة الكريمة التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس .

والله نسأل أن يشد فى أزرنا ويعيننا على ما يحبه ربنا ويرضاه . إنه جلت قدرته نعم المولى ونعم النصير .

المؤلفون

محتويات منهج التاريخ للفص الثالث الثانوى

الفرع الأدبى (ثلاث حصص فى الأسبوع)

.....

الحضارة الإسلامية وأثرها فى الحضارات الأخرى

(أ) النظم

١ - النظم الإسلامية: شمول الشريعة الإسلامية لما يكفل مصالح البشرية فى كل عصر ، بناء النظم الإسلامية على ما يحقق هذه المصالح .

٢ - النظام السياسى :

(أ) الخلافة .

(ب) الحجابة .

(ج) الوزارة بنوعيتها : وزارة التنفيذ ، ووزارة التفويض .

(د) الكتابة بأنواعها : كتابة الرسائل ، كتابة الخراج ، كتابة

الجند ، كتابة الشرطة ، كتابة القضاء .

(هـ) تولية العمال والولاية .

٣ - النظام الإدارى :

(أ) الدواوين : ديوان الخراج ، ديوان الرسائل ، ديوان

المستغلات ، ديوان النفقات ، ديوان الصدقات ، ديوان

الجند ، ديوان الطراز ، ديوان البريد ، ديوان الخاتم ،

ديوان الزمام « الديوان الرابط لجميع الدواوين » ، ديوان

المظالم ، ديوان الصوافى ، ديوان الاستخراج .

- (ب) الجيش : الجيش النظامى ، المتطوعة ، عدة الجيش وإعداده وتفقدته .. المهمة الإسلامية للجيش ، الصوائف والشواتى ، الثغور والعواصم .
- (ج) البحرية وبناء السفن والشوانى وتجهيزها بالأسلحة والمدافع والمكاحل .
- (د) البريد : صاحب البريد ومهامه ، أنواع البريد : السريع ، الجوى (بالحمائم الزاجل) ، الإشارى الضوئى : (الاتصال بالإشارات الضوئية) .
- (هـ) السكة ودار الضرب .
- (و) الشرطة والعسس .
- (ز) الحسبة .
- (ح) نظام الزراعة والصناعة والتجارة .

٤ - النظام المالى :

- (ا) بيت المال ، مهمته ، تاريخه ، أنواعه ، علاقته بدرجة الرقى الحضارى .
- (ب) موارد بيت المال : الزكاة ، الخراج ، الجزية ، الغنيمة ، الفىء ، العشور ، ريع المناجم الحكومية ، الموارىث الحشرية (موارىث من لا وارث لهم) .
- (ج) مصارف بيت المال ، مصارف الزكاة ، مصارف بيت المال العام .
- (د) أمثلة على وضع بيت المال فى عهود : عمر ، والوليد ، والمنصور . وعبد الرحمن الناصر ، والمماليك ، والعثمانيين .

٥ - النظام القضائى :

- (ا) مهمة القضاء وأسسها والشروط التى تراعى فى القضاة .
- (ب) استقلال القضاء ، سموه ، سلطانه .
- (ج) نشأة القضاء وتاريخه وموقف الخلفاء والحكام منه .

- (د) سمات القضاء العامة ، ومكانته في المجتمع الإسلامي .
 (هـ) صور من القضاء الإسلامي خلال العصور .
 (و) نماذج من رجال القضاء : كشريح القاضي ، وإياس بن معاوية ، وشريك ، وبكار بن قتيبة ، والمنذر بن سعيد البلوطي ، عبد العزيز بن عبد السلام ، والفناري .
 (ز) نظام الأوقاف ، وعلاقته بالقضاء .

٦ - محاسن النظام الإسلامي ، وبيان أن ما قد يعرض له أحيانا من سوء التنفيذ لا يضره ولا يخل بمزاياه .

(ب) الحياة العلمية

١ - ما كان للعلم من أهمية لدى الفرد والمجتمع ، الحرص عليه والاهتمام به والتحمل في سبيله ، تشجيع الخلفاء والأمراء عليه ورعايتهم له وتكريمهم لأهله .

٢ - التربية :

(أ) صفات العلماء وأخلاقهم ، خطتهم في التعلم ، طرائقهم في التعليم ، الخصائص العامة للتربية الإسلامية .

(ب) المدارس ، نشوؤها المبكر ، تعدد أنواعها ، الجامعات الإسلامية الكبرى منذ القرن الرابع ، التنافس في بناء المدارس والوقف عليها ، كثرتها المذهلة .

(ج) خزائن الكتب : الحرص على اقتناء الكتب لدى الحكام والأفراد ، والبذل لها ، وترتيب النساخ للنسخ المتواصل ، نماذج من خزائن الكتب في الأندلس والمغرب والعراق والشام وفارس وغيرها .

٣ - العلوم الأساسية :

(أ) تمهيد عن العلوم لدى المسلمين ، وفروعها العديدة ، واهتمامهم بها ، والتصانيف الكثيرة في كل علم منها وفن وفي كل شعبة وفرع .

(ب) أهم العلوم التي تميز بها المسلمون :

العلوم القرآنية : التفسير والقراءات وعلوم القرآن .

علوم السنة : الحديث ، مصطلح الحديث ، علم الرجال ، علم الجرح والتعديل .

العلوم الفقهية : أصول الفقه ، الفقه .

(ج) العلوم الكونية والصناعات :

١ - العلوم الكونية :

(ا) نبوغ المسلمين المبكر في هذا الجانب أيضاً ، استثناسهم بما عند

الأمم الأخرى ثم تمحيصهم له وتنقيحه والابتكار الواسع بعد ذلك .

(ب) منهجهم في البحث ، انحراف بعض من أغرق منهم في الفلسفة .

(ج) رعايتهم من قبل الحكام وتشجيع السلاطين للبحث والإنتاج

والتأليف .

٢ - مآثر العلماء المسلمين في العلوم الكونية :

(ا) في العلوم الرياضية :

في الحساب ، في الجبر ، في الهندسة - بأنواعها - في المثلثات

في الفلك والازياج والآلات الفلكية .

(ب) في العلوم الطبيعية :

في الكيمياء ، في الفيزياء - بفروعها - ..

(ج) في الطب والأحياء :

في الطب ، في الجراحة ، في الصيدلة ، في الحيوان ، في

النبات .

٣ - الصناعات :

(ا) رقى الصناعة ، وانتشارها وإنتاجها الغزير الذي كان يسد

حاجات العالم الإسلامي الواسع والعالم الأوربي .

(ب) أبرز الصناعات :

- صناعة الورق .
- صناعة الزجاج ، بأنواعه ، الرقيق الصافي ، والملون .
- صناعة السكر .
- صناعة الأقمشة بأنواعها المختلفة .. والفراء .
- صناعة الأصبغة .
- صناعة السفن .
- صناعة الآلات الحربية ، صناعة البارود .
- صناعة النفط .
- صناعة الساعات ، صناعة الأجهزة والأدوات المختلفة .
- صناعة الفخار والخزف ، صناعة القاشاني ، صناعة الفسيفساء .
- صناعة الحلى ، الصياغة .
- صناعة الآلات الفلكية .
- صناعة الآلات الجراحية .
- صناعة الأدوية .
- الصناعات المعدنية .
- صناعة التجليد ، صناعة العاج ، صناعة الحرير ، صناعة الجلود ، صناعة زيت الزيتون .

٤ - العمران والمرافق العامة :

(ا) البناء .

- بناء المساجد ، بناء المدارس ، بناء البيمارستانات ، بناء المراصد ، بناء القصور وغيرها .

(ب) المرافق العامة :

- تخطيط المدن ، الشوارع ، الشبكة المائية ، كرى الأنهار ، السدود ، الجسور والقناطر ، المرافق الأخرى .

٥ - ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشارها في دول العالم عامة وفي أوروبا

خاصة عن طريق الاحتكاك بالمسلمين في الأندلس وصقلية والحروب الصليبية .

قيام الحضارة الأوروبية على الجانب المادي من الحضارة الإسلامية .

انعكاس ذلك على العالم الإسلامي .

ضرورة قيام الحضارة الإسلامية المتكاملة روحا ومادة .

الباب الأول

النظم الإسلامية

الفصل الأول

خصائص النظم الإسلامية ومحاسنها

لكل أمة من الأمم نظمها الخاصة بها في مجالات الحكم والإدارة والقضاء والاقتصاد والمال . وبهذه النظم تتميز كل أمة لأنها جوهرها ونسيج وحدتها . بل إن هذه النظم هي عنوان حضارة الأمة وقوتها في الإعمار الحضارى . وتصبح هذه النظم قوة دفع حضارى إن حرص أبناؤها على المحافظة عليها والذود عنها لأنها شخصيتهم التى بها يعرفون ويتميزون بين الأمم .

وللأمة الإسلامية نظمها التى أسهمت فى بناء حضارتها وتاريخها المجيد ، واستمرت تثرى البشرية بمعطياتها الروحية وتجاربها الإنسانية الرفيعة . وجدير بنا أن ننتقل الآن لتلمس ملامح هذه النظم الإسلامية وخصائصها المتميزة .

أما النظم الإسلامية ، التى نمت واتسقت عبر العصور الإسلامية والتى سنتعرض لها بإذن الله بمزيد من التفصيل فى فصول هذا الباب ، فهى تشمل : النظام السياسى الذى يتناول نظام الخلافة (رياسة الدولة) ، والحجابه ، والوزارة ، والكتابة ، والإمارة ، والتعريف بكل من هذه النظم مهامها والشروط التى تتوافر فىمن يتولون شئونها .

كما تشمل النظام الإدارى الذى يضم الدواوين والجيش والبحرية السكة (النقود) ، والشرطة والحسبة، والتعريف بكل هذه النظم ومهامها ما يقدم كل منها من خدمات .

كما تشمل النظام المالى الذى كانت تسير بموجبه الدولة الإسلامية فى

شئونها المالية والذي يتمثل في بيت مال المسلمين وسبل تنمية موارده والإنفاق على المشروعات العلمية والدينية والمصالح العامة كتلافي الفقر والجهل والمرض .

ومن هذه النظم أيضا النظام القضائي الذي أشاع العدل بين رعايا الدولة الإسلامية من المسلمين والملل الأخرى . امثالاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

إن هذه النظم ، التي بنيت على تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وم فيها من خير للبشرية جمعاء ، تتميز بالكثير من الخصائص والميزات التي نلخصها بالآتي :

١ - إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المعين الخالد الذي استقت منه كل النظم الإسلامية مقوماتها .

ففي القرآن الكريم دعوة صريحة لاستغلال ما في هذا الكون من طاقات ونعم متعددة وذلك بالعمل الدعوب من أجل رفاهية الإنسان وتطبيق ما منحه الله تعالى من مواهب في كل ما يسعى إليه من أعمال في هدى التوجيهات الربانية . ثم جاءت السنة النبوية وتعاليم الخلفاء الراشدين لتضفي على هذه النظم إشراقها الحضاري ومتانتها في دنيا الواقع .

٢ - إن هذه النظم جاءت شاملة ومتكاملة وإنسانية فيما ترمى إليه من سعادة الفرد والمجتمع معا ، لأنها تناولت كل ما ينشده الإنسان في سبيل الخير والرحمة والكرامة .

٣ - إن هذه النظم أبدعت في تثبيت العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي . فكما رتبها بين أفراد الأسرة الواحدة ، نظمتها بين مختلف الأفراد والجماعات والشعوب . وحددتا بين العبد وربيه فالناس كلهم عبيد الله وكلهم سواسية أمامه لا فرق بين غنيهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم وعربيهم وعجميهم ولا فضل لأحد غيرهم إلا بالتقوى أي بالعمل الصالح وفق أحكام الشريعة .

٤ - إن هذه النظم تميزت بالرفعة والقدرة العجيبة لمقابلة الأحوال الإنسانية المتغيرة في الزمان والمكان . فتطورت مع تطور المجتمعات

الإسلامى عبر عهوده المتعددة . فقد ابتكر المسلمون واقتبسوا وأوجدوا أصولاً حضارية وقواعد في السلوك وفي الفكر والعمل عمّ نفعها العالم بأسره . ذلك لأن الإسلام يمقت الجمود والتخلف والجهل . إنه يرفع من كرامة الإنسان ويحضه على أن يكون قوة فاعلة للبناء والإعمار والخير .

٥ - إن هذه النظم بمرونتها وشمولها وإنسانيتها ومساواتها للناس وبتوكيدها على العناية بالعلم والمعرفة ، عملت على نشر الدين الإسلامى في مختلف أرجاء العالم . فعمرت قلوب معتنقيه من بنى البشر بتقوى الله وبقيمة الإنسان في هذا الكون وبمكانته فيه فأعادت له إنسانيته الحقّة .

ولما في هذه النظم من تنسيق دقيق وشامل وعادل ، فقد سارت بموجبها الأقاليم الأوربية التي تأثرت بالفتح الإسلامى لا سيما صقلية في عهد الملوك النورمان الذين بقوا رديحاً من الزمن يسرون بموجبها حتى إنهم أتوا بمن يطبقها في دولتهم من المسلمين .

إن هذه النظم التي أعطت للحضارة الإسلامية أصالتها وللمسلمين قوتهم، قد تأثرت بما أصاب العالم الإسلامى من خراب ودمار بفعل غارات التتار حتى أقفرت كثير من الأراضى الزراعية وساءت الأحوال الاقتصادية واضطهد العلماء وشردوا في البلاد فانحط المستوى العلمى وضاق مستوى الطموح بين الناس . ولم يعد تفكير عامتهم يتجاوز الحياة اليومية العادية . وهكذا أسدل ستار من التخلف والجهل والفقر على العالم الإسلامى للقرون التي تلت سقوط الخلافة الإسلامية عام ٦٥٦ هـ . وكان الزحف الصليبي وما فعله الصليبيون من جرائم منكرة وذبحهم للعلماء الذين أووا إلى المسجد الأقصى .

وفي القرن الماضى خضعت معظم بقاع العالم الإسلامى للاستعمار الغربى بكافة أشكاله . والمستعمرون لا يفكرون إلا بإبقاء الأمم ، لا سيما الخاضعة منها لهم ، متخلفة لامتصاص خيراتها ونشر المبادئ المنحرفة بين

أهلها حتى يبقوا مستعبدين لمن هم تحت حكمهم .

ومن الأمور الأخرى التي يلجأ إليها المستعمرون للوصول إلى هذه النتيجة إشاعة الأقاويل عن عدم قدرة نظم البلاد المستعمرة عن مسايرة التطور الحضارى . لقد أشاع المستعمرون هذه الأقاويل بالنسبة للمسلمين إلا أن المنطق السليم يدحض هذه الافتراءات . فالنظم الإسلامية مرنة وتساير كل تطور وإن حدث ما يتعارض مع هذه الحقيقة فإن مرده عدم تطبيق المسلمين لنظمهم الإسلامية تطبيقاً سليماً ودقيقاً . إذ عندما اتبع المسلمون في مختلف عهودهم نظمهم وساروا بموجبها سادوا العالم ونشروا في ربوعه الخير والاستقرار .

هذا وقد بدأ العالم الإسلامى يستيقظ من غفلته التي عاشها من بعد أفول شمس حضارته ، وأخذ يعود إلى التمسك بدينه القويم ونظمه السليمة . وأخذ يعمل على بعث تراثه الحضارى الحى من جديد لأن الإسلام دين قوة وعزة ونظمه دليل تاريخى شامخ على هذا كله .

إن كل ما يقارب بين المسلمين ويدفعهم إلى البناء والإعمار ، فيه قوة للأمة الإسلامية ودفع لطلائع حضارتها الجديدة التي هي آتية لا محالة بإذن الله تعالى .

الفصل الثانى

النظام السياسى

تشمل دراسة النظام السياسى فى الإسلام التعرف على النواحي الآتية : الخلافة ، الحجابة ، الوزارة ، الكتابة ، والإمارة . ولنبدأ كلامنا بالحديث عن الخلافة ثم ننتقل بعد ذلك إلى دراسة النواحي الأخرى .

أولا : نظام الخلافة :

(١) تعريف الخلافة : الخلافة هى رئاسة عامة فى أمور الدين والدنيانياة عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقد عرفها ابن خلدون بأنها : (حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخرى والذنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة . فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا) . أما الماوردى فقد ذكر أن : (الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا) .

والخلافة نوعان : اختيارية وقهرية . فالاختيارية هى التى تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتهها برضاها . أما القهرية فهى التى ينالها صاحبها بالغلب والقوة ، ويرى الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها .

ومن الثابت تاريخيا أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يضع قواعد معينة لانتخاب خلف له يقود الأمة ويرعى شئونها وفقا للكتاب والسنة ، بل ترك الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا من بينهم من يخلفه فى رئاسة الدولة الإسلامية فى أمور الدين والدنيا . فلما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ، اختار المسلمون أبا بكر الصديق رضى الله عنه خليفة له لما توافرت فيه من صفات القيادة الحكيمة والخلق الرفيع . وهكذا كان أبو بكر

الصديق هو أول من حمل لقب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه خلفه في رئاسة الدولة الإسلامية ورعاية شئون المسلمين الدينية والدنيوية والذود عن حياض الدين الإسلامي الحنيف .

ثم تلا الصّديقَ الفاروقُ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان يلقب بخليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكى لا تتكرر لفظة خليفة لمن يتولى أمور المسلمين بعد أبى بكر ، فقد رأى عمر أن يستبدل هذا اللقب بلقب أمير المؤمنين (ولقب على بن أبى طالب بالإمام) .

وأمير المؤمنين أو الخليفة يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية . فلا يقتصر عمله على المحافظة على الدين فحسب ، بل لأنه حامى الدين ، فإنه يعلن الحرب على الكفار ويدافع عن ديار المسلمين ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس فى الصلاة ويلقى خطبة الجمعة

(ب) وجوب الخلافة : الخلافة فى الإسلام أمر واجب شرعا وعقلا . فالمسلمون لا بد لهم من حاكم منهم يرعى أمورهم ويتولى إدارة شئون دولتهم . وهذا الواجب قد يكون مرجعه العقل أو الشرع أو الاثنان معا . وهذا الرأى الأخير هو ما ذهب إليه الفقهاء المسلمون . فما كان العقل ليتعارض مع الشرع بحال من الأحوال لأن الشريعة الإسلامية معقولة الأحكام والغايات . يقول ابن خلدون : (إن تنصيب الإمام واجب قد عرف وجوبه بالشرع بإجماع الصحابة والتابعين ، لأن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبى بكر رضى الله عنه وتسليم النظر إليه فى أمورهم واستقر ذلك إجماعياً دالاً على وجوب تنصيب الإمام) .

فالمسلمون ، إذن ، لا بد لهم من إمام يرعى مصالحهم ويتولى تطبيق الأحكام الشرعية وإقامة الحدود والدفاع عن ديار المسلمين ونشر الأمن والطمأنينة فى ربوعها وتنمية موارد بيت مال المسلمين وتنظيم الجيوش للجهاد فى سبيل الله وتقسيم الغنائم بين المسلمين وإقامة الجمع والأعياد ومساعدة المحتاجين ورعاية اليتامى والقاصرين .

وحيث أن تنصيب الخليفة فى الإسلام أمر واجب فقد صار لزاما على

المسلمين إطاعته طالما كان ملتزما بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم امتثالاً لأمر الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) . (١)

(ج) شروط الخلافة : اشترط الفقهاء المسلمون أموراً أساسية ثلاثة لمن يتولى هذا المنصب الجليل هي : الإسلام والذكورة والرشد ، بمعنى أن يكون الخليفة رجلاً مسلماً بالغاً عاقلاً . كما اشترطوا فيه ، كما يقول ابن خلدون والماوردي ، العدالة على شروطها الجامعة بمعنى أن يكون الخليفة صاحب استقامة في السيرة والسلوك متجنباً المعاصي . ويشترط في الخليفة أيضاً العلم المؤدى إلى الاجتهاد في النوازل ومعرفة الأحكام الشرعية . هذا بالإضافة إلى سلامة الحواس ولاسيما السمع والبصر وسلامة اللسان والقدرة على الحركة وسرعة النهوض . كما يشترط أن يكون الخليفة متحملاً بالرأى السديد فيما يتصل بسياسة الرعية وتدبير المصالح العامة ، وأن يكون شجاعاً غيوراً على نجدة المسلمين وحماية أوطانهم وجهاد العدو . واختلف الفقهاء المسلمون في شرط آخر هو النسب القرشي .

(د) تدرج نظام الخلافة عبر العصور الإسلامية :

١ - الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين : ليس في القرآن الكريم نص صريح يبين شكل أو كيفية انتخاب خليفة المسلمين ، بل جعل الأمر شورى بين المسلمين لقوله تعالى : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) (٢) ، مع التوكيد على أن يكون المسلمون أخوة مؤمنين متماسكين لقوله تعالى : (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (٣) وقوله تعالى (وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَالُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ) (٤) .

كذلك ليس في الحديث الشريف ما يؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد

(١) من الآية (٥٩) من سورة النساء .
(٢) الآية (٣٨) من سورة الشورى .
(٣) من الآية (١٠٣) من سورة ال عمران .
(٤) من الآية (٤٦) من سورة الانفال .

أوصى بالخلافة لأحد من بعده ، أو أنه عليه الصلاة والسلام قد وضع نظاما خاصا بانتخاب من يخلفه . بل ترك الأمر شورى للمسلمين ، كما أشرنا ، ليختاروا من أرادوا وليأخذوا من نظم الحكم ما يتلاءم وأحوالهم لأن ظروف حياتهم ليست على حال واحدة بل تتبع سنة الله تعالى في التغير .
أما كيف بويع أول خليفة في الإسلام فما نحن نسوق إليك ذلك .

على أثر انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه ، اجتمع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة بالمدينة المنورة ليختاروا من بينهم خليفة . فرشحوا سيد الخزرج وهو سعد بن عبادة والذي قام فيهم خطيبا فأوضح مكانة الأنصار في الإسلام وأنهم أحق بالخلافة قائلا : (يا معشر الأنصار . لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . أثنى الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير العين . استبدوا بهذا الأمر دون سائر الناس فإنه لكم دون الناس) .

وعندما علم بذلك الاجتماع بعض المهاجرين ، أسرع إلى السقيفة كل من أبى بكر وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم . وحصل بين المهاجرين والأنصار حوار وجدال قام على أثره أبو بكر خطيبا فبرر موقف المهاجرين وأحقيتهم بالخلافة قائلا : (فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له بالصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياه . فهم أول من عبد الله في الأرض وأمن بالله وبالرسول . وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم في ذلك إلا ظالم . وأنتم يا معشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضىكم الله أنصارا لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور) .

وانضم الأوس من الأنصار إلى جانب المهاجرين . ثم قام عمر بن

الخطاب فبايع أبا بكر الصديق بالخلافة وقال له : (ألم يأمر النبي بأن
تصلي أنت يا أبا بكر فأنت خليفته ونحن نبايعك) . ثم قال له : ابسط يدك
أبايعك فبسط يده فبايعه ثم تبعه أبو عبيدة بن الجراح فاقتدى بهما الأنصار
والمهاجرون . وتسمى هذه البيعة (البيعة الخاصة) ، لأن الذين
شاركوا في البيعة لم يكونوا غير نفر قليل من المسلمين حضروا السقيفة . وفي
اليوم التالي لوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم جلس أبو بكر على المنبر
بالمسجد فبايعه عامة الناس وتسمى هذه البيعة (البيعة العامة) . وكان
ذلك يوم ١٣ / ٣ / ١١ هـ .

وقبل وفاة الخليفة «أبي بكر» ، رأى أن يعهد بالخلافة إلى رجل تتوفر
فيه صفات التقوى والكفاية والقدرة على القيام بمهام الدولة لا سيما وأن
جيوش المسلمين كانت تخوض حرباً ضروساً ضد دولتي الفرس والروم .
فوقع اختياره على عمر بن الخطاب بعد أن استشار كبار الصحابة فيه فأثنوا
على عمر ووافقوا على اختياره . وكتب عثمان رضى الله عنه كتاب العهد لعمر
بأمر أبي بكر وإملائه . ثم خرج عثمان إلى الناس ومعه عمر قائلاً لهم :
(أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟) . فقالوا : نعم . وبذلك رضوا به
وبايعوه . ومما جاء في كتاب أبي بكر ما يلي : (بسم الله الرحمن الرحيم ،
هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند آخر عهده
بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقى
الفاجر . إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فان بر وعدك فذلك علمى به
ورأى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب . والخير أردت ، ولكل امرئ
ما اكتسب «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون») .

ونخلص من هذا أن خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه تمت
كالتالى :

- ١ - بترشيح الخليفة القائم ، أبا بكر .
- ٢ - باستشارة أهل الحل والعقد فى المدينة .
- ٣ - بموافقة العامة ورضاهم على ما اتفق عليه أهل الحل والعقد بمبايعة
عمر .
- ٤ - تطبيق نظام الشورى فى انتخابه . بمعنى أن أبا بكر لم ينتخب أحداً

من أبنائه أو أقربائه بل بما أجمع الناس عليه .

ولما طعن عمر بن الخطاب ، دخل عليه نفر من الصحابة فقالوا له : (يا أمير المؤمنين لو استخلفت ؟) . قال : (من أستخلف ؟ ، لو كان أبو عبيدة ابن الجراح حياً لاستخلفته ، فان سألتني ربي ، قلت سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول : «إنه أمين هذه الأمة» . ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته ، فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول : «إن سالماً شديد الحب لله») . فقال أحدهم : ليكن عبد الله بن عمر . فقال : (قاتلك الله ، كفى آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد) . ثم اختار ستة من الصحابة هم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ابن العوام ، وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهم جميعاً . ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر . ووضع الفاروق نظاماً ينتخبون به الخليفة من بينهم . وانتهت المشورة بانتخاب عثمان بن عفان خليفة بالإجماع .

وبعد مقتل عثمان رضى الله عنه ، قام الثوار بالمدينة فبايعوا عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه بالخلافة . ولم يكن بالمدينة آنذاك سوى عدد قليل من الصحابة على رأسهم طلحة والزبير . وتخلف بنو أمية الذين لحق بعضهم بالشام وبعضهم الآخر بمكة . وأبى معاوية الإذعان لأمر عليّ من عزل ولاية عثمان . وقامت الحرب بسبب ذلك بينهما . ثم عقد بينهما التحكيم في صفين وقتل عليّ بعد ذلك بمسجد الكوفة . وأبى عليّ أن يعهد لابنه الحسن رضى الله عنهما حين سأله بعض المسلمين وهو على فراش الموت فقال : (لا أمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر) . ثم تنازل الحسن عن المطالبة بالخلافة لمعاوية ، وفق شروط معينة ، فقامت على أثر ذلك الدولة الأموية .

٢ - الخلافة في عهد الأمويين :

عندما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان قضى على نظام الشورى الذى كان أساس انتخاب الخلفاء الراشدين ، لأنه وجد أن العامل الأساسى الذى جر إلى انقسام المسلمين إنما هو المنافسة على الحكم . فعمل على تلافى

ذلك الخلافة بنقل الحكم من بعده إلى ابنه يزيد متأثراً في ذلك بالنظام الذي كان سائداً في الدولتين البيزنطية والساسانية . وبهذا العمل حرم معاوية المسلمين من حقهم الطبيعي في الشورى التي ألقها العرب وجاء بها القرآن الكريم وأيدتها الأحاديث النبوية . وتحولت الخلافة إلى ملك آل لصاحبه بقوة السيف والسياسة .

وقد نتج عن الاجراء الذي اتبعه معاوية بتعيين ابنه يزيد بأن يخلفه ، قيام نظام الوراثة . فكان الخليفة يعين ولي عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد في حضرته . أما في الأقاليم فكانت تتم بحضور الوالى نيابة عن الخليفة .

٣ - الخلافة في عهد العباسيين والفاطميين :

ظل نظام الخلافة معمولاً به في عهد الخلفاء العباسيين والفاطميين . وذهب العباسيون في بعض الأحيان إلى تولية ولاية العهد لأكثر من واحد كما حدث ذلك في عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) . فقد ولي عهده أولاده الثلاثة الأمين والمأمون والمعتصم . وقسم البلاد بينهم . وقد أدى ذلك إلى وقوع الفرقة وقيام الفتن والحروب الداخلية .

وقد أخذت سلطة الخليفة في العصر العباسي طابعا فرديا مطلقا (أوتوقراطيا) مستمدا من نظام الفرس . فلم يعد للناس حق المعارضة الذي كان قائما أيام الخلفاء الراشدين والامويين . فمن كان يعارض الخليفة كان يعتبر خارجا على الدين . كما بولغ في سلطة الخلفاء الفاطميين حيث كان للخليفة منهم صفة العصمة من جميع الخطايا (الكبائر والصغائر) . فكان الناس في مصر الفاطمية يسجدون للخليفة في الشوارع إذا أمرهم بذلك . وهذا كفر وظلم وإلحاد ، لأن السجود لا يكون إلا لله جل جلاله .

٤ - الخلافة بعد العباسيين :

بعد أن قضى المغول على الدولة العباسية في بغداد عام ٦٥٦ هـ - ٢٥٨م) انتقلت الخلافة العباسية إلى مصر . فقد استقدم سلاطين المماليك في

مصر أحد أبناء البيت العباسي ونصبوه خليفة باسم الخليفة العباسي المستنصر بالله وذلك لكي يكسبوا حكمهم صبغة الشرعية أمام رعاياهم . وكان السلطان بيبرس أول من فعل ذلك للقضاء على أطماع منافسيه . ولم يكن للخليفة أية سلطة إلا الظهور في الحفلات الدينية بجوار السلطان ، أو مبايعة السلطان الجديد وتفويضه في الولاية والأمر العامة . على أن السلطان بيبرس كان يهدف أيضاً من وراء استمرار الخلافة العباسية في مصر أن يمد ملكه ويوسع سلطانه بمساعدة الخليفة باعتباره حامى الدين .

وقد بقيت سلطة الخليفة في مصر روحية ، حتى فتح السلطان العثماني سليم الأول مصر عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) ، وقضى على دولة المماليك ونقل الخليفة العباسي إلى استانبول . وبذلك انتقلت الخلافة إلى العثمانيين . غير أن السلاطين العثمانيين لم يحملوا لقب خليفة إلا في وقت متأخر وذلك في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين . وقد زالت الخلافة نهائياً على أثر هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وقيام مصطفى كمال باشا وإعلان الجمهورية التركية عام ١٩٢٤ م .

ثانياً : نظام الحجابة :

(أ) تعريفها : الحجابة هي وظيفة يتولاها شخص يطلق عليه الحاجب . والحاجب هو الذى يعطى الاذن أو يرخص الناس بالدخول على الخلفاء .

(ب) الحجابة عبر العصور الإسلامية :

١ - الحجابة في عهد الخلفاء الراشدين : لم يعرف الخلفاء الراشدون نظم الحجابة لأنهم لم يحتاجوا إليه قط . ذلك لأنهم ببساطتهم وحسن عشرتهم للرعية لم يكونوا يمنعون أحداً من الدخول عليهم ليلاً أو نهاراً . فالخليفة لم يكن يعتبر نفسه إلا واحداً من المسلمين دون أدنى تمييز . فكان الفقير والغنى والضعيف والقوى يجلسون مع الخلفاء يكلمونها في حوائجهم ويتحدثون إليهم في كل ما يريدون .

٢ - الحجابة في عهد الأمويين :

يرتبط نشوء نظام الحجابة في الإسلام بقيام الدولة الأموية . إذ أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من اتخذ من الخلفاء المسلمين نظام الحجابة . وقد اتخذ ذلك كارهاً مضطراً بعد حادثة الخوارج وخوفاً من ازدحام الناس على بابيه الذي قد يذهب بحياته ، هذا بالإضافة إلى كثرة مشاغله عن النظر في مهام الدولة .

وكان الحاجب في عهد الأمويين يشغل منصباً رفيعاً في الدولة يشبه مدير التشريفات اليوم . ومهمته إدخال الناس على الخليفة مراعيًا في ذلك مقامهم وأهمية مراكزهم . ومع ذلك فإن الخلفاء ما كانوا يحجبون أبوابهم عن كل الناس ، فإن عبد الملك بن مروان لما ولي حاجبه قال له : (وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فإنه داعي الله ، وصاحب البريد ، وصاحب الطعام) .

وكانوا يختارون الحاجب من أفضل رجالهم . فإن عبد الملك بن مروان ، مثلاً ، يوصى أخاه عبد العزيز بن مروان قائلاً له : انظر حاجبك فليكن خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده .

٣ - الحجابة في عهد العباسيين :

لقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببني أمية . فاتخذوا الحجاب وزادوا في منع الناس عن لقاء الخليفة إلا في الأمور المهمة . بل ربما أسرفوا في منع الناس من المقابلات الرسمية . ولعل هذا كان السبب الرئيس في نشأة ما أسماه ابن خلدون **الحاجب الثاني** . فكان بين الناس والخليفة **حاجران** عبارة عن دارين إحداهما يقال لها **دار الخاصة** ، والأخرى **دار العامة** . وكان الخليفة يقابل كل طائفة بحسب حالاتها وظروفها في مكان يعين في إحدى هاتين الدارين تبعاً لإرادة الحجاب على أبوابها .

ولما اشتد ضعف الدولة ، رأى الخلفاء أنه من المستحسن أن يزيدوا

حاجباً ثالثاً لكي يحجب السلطان عن العامة . وبذلك أحاط الحاجب نفسه بهالة من الإجلال ، وقوى في الدولة نفوذه وسلطانه . وعلت مرتبة الحاجب بتعاقب الأيام حتى أضحي مستشار الخليفة في جميع الشئون المهمة ، وفي مختلف اتجاهات الدولة ومرافقها الحيوية . وقد استطاع الأقوياء من الحجاب أن يضعفوا من قوة الوزراء عند الخلفاء إذ كانوا يستبدون بالأمر ويحولون دون تنفيذ أى قرار لا يوافقون عليه . وكثيراً ما كان الحجاب يتدخلون في أمور الدولة ، ويستبدون بالنفوذ لدرجة أنهم كانوا يلزمون أصحاب الدواوين بالرجوع إليهم في كل أمور الدولة وألا يتخذوا أى قرار إلا بعد الحصول على موافقتهم .

ومن أبرز الحجاب في العصر العباسي الأول الفضل بن الربيع الذي أوقع بالبرامكة عند الرشيد ، والذي كان له أثر ظاهر في إحداث الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون .

٤ - الحجابة في الأندلس :

كانت الحجابة في عهد الدولة الأموية بالأندلس لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء ومن دونهم . فكانت الحجابة عندهم رفيعة الغاية .

ولما جاء ملوك الطوائف في الأندلس بعد زوال دولة بنى أمية بها ، لم يتركوا لقب حاجب لأنهم كانوا يعتبرونه شرفاً لهم . وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب .

٥ - الحجابة في مصر زمن الفاطميين وبعدهم :

لم يكن الحاجب في عهد الفاطميين في مصر يتمتع بذلك النفوذ الذي كان يتمتع به في البلدان الإسلامية الأخرى . ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين وحدهم ، بل لقد اتخذ (قاضي القضاة) (١) أو الوزير حاجباً أو أكثر . وكان صاحب الباب من كبار الموظفين في عهد الفاطميين .

(١) قاضي القضاة هو الاسم التاريخي لرئيس القضاة

وفي عهد سلاطين المماليك في مصر لم تقتصر مهمة الحاجب على إدخال الناس على السلطان بل تجاوزتها إلى الفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود . ثم اتسعت سلطته تدريجياً حتى صار يقضى بين المغول الذين استوطنوا مصر تبعاً لأحكام السياسة التي وضعها ملوكهم إيلخانات المغول .

ثالثاً : الوزارة :

(أ) تعريفها : تعنى الوزارة المعاونة والمؤازرة في تحمل أعباء الحكم . وقد وردت لفظة وزير في القرآن الكريم حين طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يمهده برجل من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم : (وَأَجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي ^(٢٩) هَارُونَ أَخِي ^(٣٠) أَشَدُّ بِهِ نَازِئاً ^(٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ^(٣٢)) . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه أو يفاوضهم في الأمور الخاصة والعامة ويخص أبا بكر رضي الله عنه ببعض الأمور لدرجة أن العرب الذين كانوا على دراية بأحوال الفرس والروم ، كانوا يسمون أبا بكر وزيراً .

(ب) تدرج مفهوم الوزارة عبر العصور الإسلامية :

١ - مفهوم الوزارة في عهد الخلفاء الراشدين : وكما لم يجر الاسم بنظام الوزارة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لم يكن معروفاً أيضاً في عهد الخلفاء الراشدين وذلك لبساطة الإسلام وبعده عن أبهة الملك . هذا على الرغم من أن الخليفة كان يستعين ببعض الصحابة في تنفيذ بعض المصالح العامة . فقد أوكل أبو بكر رضي الله عنه أمر الإشراف على القضاء وتوزيع الصدقات إلى عمر بن الخطاب ، كما أسند إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الإشراف على أسرى الحرب وشئونهم . وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين خصَّ علياً وعثمان رضي الله عنهما ببعض أمور الدولة . وهكذا أيضاً شأن علي وعثمان في خلافتهم .

(١) من سورة طه : الآيات (٢٩ - ٣٢)

٢ - مفهوم الوزارة في عهد الأمويين :

عندما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، احتاج خلفاؤهم إلى من يستشيرونه أيضاً في سياسة دولتهم ومهام أمورهم من ذوى الرأي ليكونوا لهم بمثابة وزراء يتحملون بعض الأعباء العامة وإن لم يلقبوا بلقب وزراء . ومع ذلك فإننا نجد أن زياد بن أبيه يلقب بلقب الوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان وروح بن زنباع الجذامى في عهد عبد الملك بن مروان .

٣ - الوزارة في عهد العباسيين :

استحدث منصب وزير مباشرة بعد انتقال الخلافة إلى بني العباس . ولعل ذلك يعود إلى تشعب أعمال الدولة واتجاهها نحو التمركز وتوزيع السلطات .

وأول وزراء بني العباس هو حفص بن سليمان (أبوسلمة الخلال) . فقد استوزره أبو العباس السفاح وفوض الأمور إليه ، وسلم له الدواوين ما عدا ديوان الخراج وديوان الجند ، ولقب وزير آل محمد .

وقد ركن الخلفاء العباسيون إلى الوزراء وسلموا إليهم أمور الدولة . وأشهر وزراءهم البرامكة الذين استفحل أمرهم واتجه نظر الناس إليهم حتى اضطر الرشيد إلى الفتك بهم .

وفي عهد المأمون أطلقت يد الوزير الفضل بن سهل في الأمور السياسية فقد فوضه المأمون قيادة الحرب ورياسة الشئون الإدارية وسماه ذا الرياستين .

وفي أواخر عهد العباسيين تقلص نفوذ الوزراء بتقلص نفوذ الخلفاء .

(ج) نوعا الوزارة :

انقسمت الوزارة في عهد الدولة العباسية إلى نوعين اثنين هما : وزارة التنفيذ ، ووزارة التفويض .

١ - وزارة التنفيذ : ينحصر عمل هذه الوزارة في تنفيذ أوامر الخليفة . ولا يتصرف فيها الوزير تصرفاً شخصياً مستقلاً . وإنما الوزير هنا هو بمثابة حلقة وصل بين الخليفة والرعية .

وكان يشترط في من يتولى وزارة التنفيذ الأمور الآتية :

- ١ - الأمانة فلا يخون ولا يغش .
- ٢ - صدق اللهجة حتى يوثق بخبره .
- ٣ - قلة الطمع حتى لا يرتشى .
- ٤ - أن يكون ذكياً حصيماً حتى لا يدلس عليه .
- ٥ - ألا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل .
- ٦ - أن يؤتى الحنكة والتجربة التي تؤديه إلى صواب التدبير .

٢ - وزارة التفويض : في هذه الوزارة يفوض الخليفة من يستوزره تدبير الأمور برأيه دون الرجوع إليه . فالوزير هنا ذو ولاية عامة . فهو يحكم ويقلد الحكام تماماً كما يفعل الخليفة . ويجوز له أن يتولى الجهاد بنفسه ، وأن يقلد أمر الجهاد من يتولاه .

وهكذا فإن لصاحب وزارة التفويض ما للخليفة من سلطات إلا في ثلاثة أمور هي :

- ١ - للخليفة أن يعهد بولاية العهد إلى من يرى . وليس ذلك للوزير .
- ٢ - للخليفة أن يستعفى الأمة من الإمامة . وليس ذلك للوزير .
- ٣ - للخليفة أن يعزل من يقلده الوزير . وليس للوزير أن يعزل من قلده الخليفة .

مقارنة بين وزارتي التفويض والتنفيذ :

- ١ - يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم . وليس ذلك من حق وزير التنفيذ .
- ٢ - يجوز لوزير التفويض أن يستبد برأيه في تقليد الولاية ولاياتهم ، وليس لوزير التنفيذ .

٣ - يحق لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ووضع الخطط العسكرية . وليس ذلك لوزير التنفيذ .

٤ - يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في بيت المال .

تعدد الوزراء :

لتصريف الأمور بسهولة كان يجوز للخليفة أن يقلد وزيرى تنفيذ معا أو الواحد بعد الآخر . لكنه كان لا يقلد وزيرى تفويض لعموم ولايتهما .

كما كان الخليفة يقلد وزيرين معا : وزير تفويض ووزير تنفيذ . فيكون الأول مطلق التصرف ويكون الثانى منفذاً لأوامر الخليفة .

هذا وإذا فوض الخليفة تدبير الأقاليم إلى ولايتها ، ووكل النظر فيها إلى المسئول عنها ، جاز لوالى كل إقليم أن يطلب وزيراً ، ويكون حكم وزيره معه كحكم وزير الخليفة مع الخليفة في اعتبار الوزارتين .

رابعاً : الكتابة :

(١) تعريفها : يطلق كلمة كاتب على كل من يقوم بالكتابة والتحرير ، ومهمة الكاتب الكتابة بأشكالها المختلفة من إنشائية وحسابية ومالية وغير ذلك - وقد جرت العادة أن يتخذ أولياء الأمور كتاباً يستعينون بهم في إنشاء المكاتبات الخاصة بهم ، وفي عمل الحسابات اللازمة . ثم تطور مفهوم الكاتب مع مضي الزمن ، وذلك بتكاثر الأعباء ، فأصبح من الضروري أن يعين الوزير موظفين يعاونونه في الإشراف على الدواوين أى الوزارات في العصر الحديث . ويصف ابن خلدون وظيفة الكاتب بقوله : « وإما أن تكون في مخاطباته (أى الخليفة) لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان » .

(ب) تدرج الكتابة عبر العصور الإسلامية :

١ - الكتابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين :

لما ظهر الإسلام في مكة لم يكن يعرف القراءة والكتابة من العرب إلا القليل لا يتجاوز بضعة عشر رجلاً من بينهم : عمر وعثمان وعلي وطلحة وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سفيان وابناه : معاوية ويزيد .

ومن كُتَّاب النوحى في العهد النبوى : على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان والمغيرة بن شعبة والأرقم بن الأرقم وسعيد بن العاص وغيرهم رضوان الله عليهم جميعاً . وكانوا يكتبون كذلك الرسائل التى كان يوجهها النبى صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء . وابتداء من ذلك الوقت صار للخلفاء كُتَّاب من ذوى العلم والمعرفة الملمين بالكتابة . ولما تولى أبو بكر الخلافة ، اتخذ عثمان كاتباً له ، يكتب إلى العمال والقواد ، وغدت الكتابة منصباً ذا أهمية في الدولة .

وحين تولى عمر الخلافة ، كتب له زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم . ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، أنشئت الدواوين وظهرت الحاجة للكتابة ؛ فعين عمر كاتباً لكل ولاية يكتب في ديوانها ، كما عين محمد بن شاهين الزهرى كاتباً للجيش .

وكان الكاتب يكتب في أول الأمر لديوان الجند . أما الجباية والخراج في الولايات فكان يقوم بالكتابة بها رجال من أهلها ، حيث تمَّ تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) . وقد سار كل من عثمان وعلي رضي الله عنهما على نفس السياسة التى طبقها كل من أبى بكر وعمر فاتخذا لهما كُتَّاباً .

وخلاصة القول أنه وجد في عهد الخلفاء الراشدين ثلاثة أنواع من الكُتَّاب هم : كاتب الرسائل ، وكاتب ديوان الجند وكاتب المال والجبايات .

٢ - الكتابة في عهدى الأمويين والعباسيين :

ولما انتظمت الخلافة إلى بنى أمية ، وتعددت مصالح الدولة ، تعدد الكُتَّاب وصاروا خمسة :

١- كاتب الرسائل : يخاطب الملوك والأمراء والعمال وغيرهم وهو

أهمهم .

٢ - كاتب الخراج : يُدَوّن حساب الخراج داخله وخارجه .

٣ - كاتب الجند : يقيد أسماء الأجناد وطبقاتهم وأعطيتهم ونفقات الأسلحة وغير ذلك .

٤ - كاتب الشرطة : يكتب التقارير عما يقع من أحوال القصاص .

٥ - كاتب القاضي : يكتب الشروط والأحكام .

وأهم هؤلاء الكتاب في المرتبة هو كاتب الرسائل وقد يسمى كاتب السر ، وهو يد الخليفة ومستودع سره . ولخطورة هذا المنصب كان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا أقاربهم وخاصتهم ، وظلوا على ذلك حتى أيام العباسيين .

وقد زادت أهمية ديوان الرسائل في عهد العباسيين لدرجة أن صاحب هذا الديوان ينفرد بالأمر دون الخليفة . وكانت مهمته إذاعة المراسيم والبراءات ، وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخليفة بعد اعتمادها منه ، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه . كما كان كاتب الرسائل يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة .

ومن الكتاب الذين ذاع صيتهم في عهد بني أمية : زياد بن أبيه كاتب أبي موسى الأشعري ، وعبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . واشتهر في العصر العباسي من الكتاب : يحيى بن خالد البرمكي والفضل والحسن ابناسهل ، ومحمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وغيرهم .

وأول من وقَّع على الرقاع بين يدي الخليفة الرشيد ، هو وزيره وكاتبه جعفر بن يحيى البرمكي ، لما أطلق الرشيد يده في أمور الدولة ومقاليدها .

وفي أواخر عهد العباسيين استقلت الكتابة . وكان يقال لرجالها كتاب الإنشاء ، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الإنشاء ، أو كاتب السر ، وكان يسمى أيضا الديوان العزيزي وهو يشبه وزارة الخارجية في هذه

ويقول ابن خلدون في مقدمته : « ولسمو هذه المرتبة كان صاحبها لا يُختار إلا من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم » .

ويعتبر عبد الحميد الكاتب أحسن من استوعب الصفات والشروط التي يجب أن تتوافر في أهل صناعة الكتابة ، فجاء في رسالته الشهيرة إلى الكتاب كما ذكر ابن خلدون ما يلي : « فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، ارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم » .

وكان الكتاب في الولايات التابعة للخلافة الإسلامية يسرون على نهج كتاب الخلافة ، وحسب أنظمتهم ، ففي مصر مثلاً : كان هناك كتاب الخراج ويتولون كتابة حساب الأرض ، وكتاب الرسائل ويتولون تحرير رسائل الوالى ، واستمر ذلك في عصر الطولونيين والإخشيديين .

خامساً : الإمارة :

(أ) تعريفها : تعنى الإمارة تعيين العمال والولاية على أجزاء الدولة الإسلامية ليسهل تنظيم أمورها وإدارة شئونها .

(ب) الإمارة عبر العصور الإسلامية :

١ - كان من الطبيعي بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية ، وكثرت مشاغل الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يلجأ إلى أن ينيب عنه بعض العمال في بعض المدن والقبائل الكبيرة في كل من الحجاز واليمن . ومن هنا نشأت اللجنة الأولى للتنظيم الإدارى الذى كانت تغلب عليه الصبغة الدينية . وتتلخص وظائف أولئك العمال : فى إمامة المسلمين فى الصلاة ، وإصدار الأوامر فى جمع الزكاة وجباتها . ومن ثم لم يكن لهؤلاء العمال صفة

سياسية . وكان عليه الصلاة والسلام يتخير عماله ممن اشتهروا بالصلاح والتقوى والعلم والتفقه في الدين . وقد خصص النبي صلى الله عليه وسلم لعتاب بن أسيد نائبه على مكة بدرهم واحد كل يوم ، وعدّه الصحابة يوم عرفوا بالأمر غنياً ، لما كان يغلب عليهم من حياة التقشف والزهد . ويستدل من هذا أنه عليه السلام كان أول ما وضع من الرواتب للعمال ، أما كبار الصحابة فكانوا يعطون نصيبهم من الغنائم .

٢ - الامارة في عهد الخلفاء الراشدين :

ولما ولى أبوبكر (رضى الله عنه) الخلافة ، كانت الجزيرة العربية هي البلاد التي تحت الإدارة الإسلامية . فأقر عمال الرسول صلى الله عليه وسلم في أعمالهم ، فجعل أبا عبيدة على المال ، وترك لعمر أمر القضاء ، ولعليّ أمر الفتوى وجعل العمال يختارون القضاة ويعينونهم في البلدان المختلفة التي كانوا يولون أمرها .

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، قسم الدولة أقساماً إدارية كبيرة ، ليسهل حكمها والإشراف على مواردها ، وكان يختار الولاة من أفضل القوم ديناً وخلقاً ، يتعهدهم بالنصح والإرشاد ومن ذلك نصيحته لبعض عماله يقول فيها « انى لم أبعثكم جبابرة ، ولكن بعثتكم أئمة ، فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم^(١) فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم فتظلموهم » . وقد خطب عمر الناس يوماً فقال : « أيها الناس إنى والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم (جلودكم) ، ولا ليأخذوا أعشاركم (أموالكم) ، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم . فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلىّ . فوالذى نفس عمر بيده لأقضين له منه » . وكان هؤلاء يستمدون سلطتهم من الخليفة الذى جمع في يده السلطات التنفيذية والقضائية والتشريعية . وكان عمر (رضى الله عنه) يحاسب عماله ويقتص منهم . كما أنه كان يختارهم من العرب لا تعظيماً لعرقهم أو جنسهم ولكن لمقدرتهم على فهم أصول الشريعة وتعاليمها . فإن عليهم أن يقيموا بالناس الصلاة ، ويقضوا

(١) جمر الأمير الجيش : إذا طال حبسهم ولم يأن لهم بالرجوع إلى أهلهم .

بينهم بالحق ، ويقسموا بينهم الأموال والغنائم والعشور .

ولما ولي عثمان (رضى الله عنه) الخلافة سار في أول الامر على سياسة عمر (رضى الله عنه) ولكن في النصف الأخير من خلافته ، ضعفت الإدارة في شيخوخته مما أدى إلى تدمير المسلمين في الولايات الإسلامية ، فشقوا عصا الطاعة ، وأضرموا الفتنة التي انتهت بقتله رضى الله عنه . ثم ولي عليُّ (رضى الله عنه) الخلافة فبادر بعزل عمال عثمان للقضاء على أسباب الشكوى والتدمير .

٣ - في عهد الأمويين :

باتساع الدولة الإسلامية وتطوير أنظمتها الإدارية وذلك بتقسيمها إلى أقاليم إدارية كبيرة ، استعملت كلمة والى لتدل على النفوذ والسلطان وكذلك استخدمت كلمة أمير لتدل على الوالى الذى يتمتع بسلطة مطلقة في عهد الدولة الأموية . وأصبحت كلمة عامل تطلق على رئيس الناحية الإدارية كالمدير الآن .

ومن ثم أصبح في كل إقليم والٍ أو أمير يقوم بتولى شئون الولاية السياسية ويعمل معه جنبا إلى جنب عامل الخراج الذى كان أهم عمال الولاية ويتولى شئون الولاية المالية .

وقد سار الخلفاء الأمويون على سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة من العرب ، فكانت دولتهم لذلك عربية صحيحة . وبلغ اهتمامهم باختيار الولاة أنه كان بعضهم يسند هذا المنصب إلى أفراد البيت الأموى ، فقد تولى عبد العزيز بن مروان ولاية مصر في عهد خلافة أخيه عبد الملك بن مروان ، كما ازداد نفوذ الوالى في هذا العهد ، فكان الحجاج مثلا يجمع الأموال بطريقته الشخصية ولا يجد نفسه مضطرا إلى مراجعة الخليفة وفي أغلب الأحوال كادت سلطة الولاة تطغى على سلطة الخليفة .

٤ - الإمارة في عهد العباسيين :

في العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) أصبح النظام الإداري نظاماً مركزياً ، واقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند ، لأن الوظائف الأخرى في الولاية كان لها موظفون من قبل الخليفة أهمهم : صاحب المال ، وصاحب البريد والقاضي ، وبذلك استحال النظام اللامركزي الذي كان سائداً في العهد الأموي ، إلى نظام مركزي . وفضل الولاية في هذا العصر البقاء في بغداد ، وينيبون عنهم من يلي الأمر باسمهم في الأقاليم ، حتى جنح أولئك الولاية إلى الثورة والاستقلال بولاياتهم ولاسيما بعد ضعف الدولة العباسية . فاستقلت بعض الولايات عن الخلافة مثل - الدولة الطولونية ، والدولة الإخشيدية في مصر ، والدولة الطاهرية والصفارية في المشرق وهكذا .

ولقد وضع الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) النظام السياسي الذي سارت عليه الدولة العباسية والدويلات التي انفصلت عنها ، وقد ظل نظام الحكم مطلقاً إلى عهد الرشيد (١٧٠ - ١٩٢ هـ) حيث كان الخليفة مصدر كل قوة كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة ، أما الوزير فكان ساعد الخليفة الأيمن ، يقضى باسمه جميع شئون الدولة ، فكان ينوب عن الخليفة في حكم البلاد . وكان الخلفاء يعزلون الولاية من ولاياتهم بعد زمن قليل . وفي هذه الحالة كان لا بد للوالي المعزول أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئون ولايته .

الفصل الثالث

النظام الإدارى

سنتناول فى هذا الفصل دراسة النواحي الست الآتية للنظام الإدارى فى الإسلام : الدواوين ، الجيش ، البحرية ، السكة ، الشرطة ، والحسبة . ولننتقل الآن للتعرف على الدواوين الإسلامية .

أولا : الدواوين :

(ا) تعريف الديوان :

الديوان كلمة فارسية معربة وأصلها بالفارسية الدفتر أو السجل وقيل إن الكلمة عربية ومعناها الأصل الذى يرجع إليه ويعمل به . ومنه قول ابن عباس (رضى الله عنه) : « إذا سألتموني عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب » ويقول سيبويه : إن الكلمة عربية إذ يقال دونه بمعنى أثبته .

(ب) نشأة الديوان فى الإسلام :

إن أول من أدخل نظام الدواوين فى الدولة الإسلامية هو الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . وكان ذلك بعد أن اتسعت الفتوح الإسلامية ، فأنشأ ديوان الجند سنة (٢٠ هـ) لكتابة أسماء الجند ومعرفة ما يخص كلا منهم من العطاء ، وديوان الجباية أو ما يقال له ديوان الخراج لمعرفة ما يرد إلى بيت المال ، وما يفرض لكل مسلم من العطاء . والمعروف أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) جعل لكل واحد من المسلمين عطاء مراعى فى ذلك السبق إلى الإسلام ونصرة الرسول فى حروبه ، بحيث رتب الناس طبقات ، مبتدئين بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم بنى هاشم ، ثم بمن

« يوزع مجازا ولا يباع »

بعدهم واستمر ذلك الشأن في خلافة عثمان (رضى الله عنه) .

(ج) الدواوين في العهد الأموى :

عندما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية ، أصبحت الحاجة ماسة إلى دواوين جديدة تنظم إدارة الدولة المترامية الأطراف وتتلاءم مع تطورها . ومع هذا ظلت الدواوين تمر بدور انتقالى ولم تستقر إلا في العصر العباسى وأهم الدواوين في العهد الأموى :

١ - ديوان الخراج : وهو الذى يتولى تنظيم أمور الخراج ، والنظر في مشكلاتها وهو كديوان الخراج الذى عرف منذ عصر عمر (رضى الله عنه) إلا أن بعض المشكلات الجديدة طرأت في العصر الأموى ، فلم يكن بد من معالجتها بروح جديدة تتلاءم ومتطلبات العصر .

٢ - ديوان الرسائل : هو الدائرة الرسمية التى كانت تشرف على مراسلات الخليفة كالنشرات والرسائل والأوامر التى ترسل إلى عمال وولاة الأقاليم والدول الأخرى وكذلك القيام بالتنسيق بين جميع الدواوين الأخرى .

٣ - ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة : التى تتول إلى الدولة من أملاك غير منقولة كالأراضى والأبنية الحكومية .

٤ - ديوان النفقات : وكانت مهمته الكبرى تتمثل في صرف ما ينفق على تسليح الجيش ورواتبه وألبسته ، والإدارة المركزية .

٥ - ديوان الصدقات : واسمه مأخوذ من آية الصدقات في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين .. » . ومهمته توزيع موارد الزكاة على أصحاب الحقوق فيها على النحو الذى ورد في القرآن الكريم .

٦ - ديوان الجند : ويقصد به إحصاء أسماء الجنود وتحديد عطاياهم ورواتبهم .

٧ - ديوان الطراز : ويشرف على المعامل التى كانت تنتج الأزياء الرسمية والأعلام في الحرب ويشرف كذلك على أمور الصاغة والحاكة ،

ويجرب عليهم الأرزاق ويفقد أعمالهم .

٨ - ديوان البريد : كان معاوية أول حاكم مسلم أنشأ نظاماً للبريد . وكان مخصصاً في الأصل لخدمة أغراض الدولة ، ثم أبيع للرعية فيما بعد أن ينتفعوا به في نقل رسائلهم . وقسمت البلاد إلى مراحل أو محطات حيث كانت المسافة بين كل مرحلتين اثني عشر ميلاً وبكل منها خيل معدة لحمل البريد ، وقد استخدمت الإبل في بلاد العرب والشام لهذا الغرض . والجدير بالذكر أن أذناب خيل الرسل وأعرافها كانت مقطوعة لتميزها عن الخيل الأخرى ، ولتميز راكبيها بأنه رسول الدولة . وقد تحسن نظام البريد بدرجة ملحوظة في عهد عبد الملك بن مروان .

٩ - ديوان الخاتم : وقد أنشأ معاوية أيضاً فكان هذا الديوان يسجل كل أمر يصدره الخليفة ثم يختم الأصل ويرسل . ويمكن أن يقارن اليوم بينه وبين ما نسميه بالأرشفيف والسجلات .

وفي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان عُرِّبت الدواوين في كل من الشام والعراق ، ثم عربت دواوين مصر في خلافة الوليد الأول ودواوين خراسان في خلافة هشام بن عبد الملك ، وأمست اللغة الرسمية في السياسة والإدارة هي اللغة العربية ، بعد أن نقلت إليها أدق المصطلحات الفارسية واليونانية في الحساب والفنون المعروفة في تلك العصور .

د - الدواوين في العهد العباسي :

كثرت الدواوين وتنوعت اختصاصاتها في العهد العباسي فبالإضافة إلى الدواوين التي كانت قائمة في العهد الأموي ، والتي أبقى العباسيون عليها استخدموا مزيداً من الدواوين مع استكمال النقص فيما احتفظوا به وحددوا الكثير من موضوعات تلك الدواوين وأشكالها .

ومن بين ما استحدثوه من الدواوين التالي :

١ - ديوان الزمام : وقد استحدث في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٨ هـ) ، وهو الديوان الرابط لجميع الدواوين ، ويشبه ديوان المحاسبة

اليوم ، وفي بداية الأمر كان عبارة عن دوائر صغيرة تشرف على أعمال الدواوين الكبيرة ومهمته كانت تنحصر بالدرجة الأولى في التدقيق في الحسابات والشئون المالية ، التي يتصرف فيها كل ديوان من الدواوين الصغيرة . ويقصد أيضاً بديوان الأزمة أو الزمام الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان فيتخذ دواوين الأزمة ويولى رجلاً على كل منها يخضع له جميع الموظفين المختصين بمراجعة الحسابات في الولايات كما كان هذا الديوان أداة لتحسين الإدارة .

٢ - وأنشأ العباسيون أيضاً ديواناً سموه ديوان النظر أو المكاتب والمراجعات ويقسم الديوان إلى أربعة أقسام : ديوان الجيش ويقوم بالإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقول . وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال وينظر في الدخل والخرج .

٣ - ديوان المظالم : وهو من الدواوين التي أنشئت - كذلك - في عهد الخليفة المهدي ، وقد أنشئ لمعرفة ماتشكومنه الرعية من ظلم بعض ولايتها وجورهم وتعسفهم ، فتقدم الشكاوى والدعاوى إليه . وقد تولى جعفر البرمكي رئاسة هذا الديوان في عهد الرشيد ، ويقال إن جعفر فصل في يوم واحد في ألف قضية خاصة . وشرح عليها بإيجاز . وخصص المأمون يوم الأحد للفصل في قضايا المظالم وحدث أن جاءت امرأة بشكوى ضد ابن الخليفة . فأمر المأمون أحد قضاة بالاستماع إلى الشكوى والفصل فيها في حضرته . وأصدر القاضي حكماً ضد الأمير ونفذ الحكم .

كما كان هذا الديوان ينظر في غلاء الأسعار إذا زاد عن حده ، كما كان ينظر في كثرة إيداع الناس السجن من غير نظر دقيق في دعاويهم ، وأحياناً كان ينظر فيما وقع ظلماً من مصادرة أملاك الناس رغماً عنهم بأن تلك المصادرة جاءت بغير حق .

٤ - ديوان الصوافي : وقد استحدث هذا الديوان في عهد الخليفة الرشيد والصوافي تعنى أراضى الدولة .

٥ - ديوان الاستخراج : وقد استحدث هذا الديوان في العصر

العباسي الثاني وهذا الديوان ليست له علاقة بالخراج ، إنما كان عبارة عن إدارة مهمتها تتبع أخبار الوزراء والكتاب والحجاب والعمال والولاية المتهمين بالمحسوبية والرشوة لكي تحصى أسماءهم وتحدد أوضاعهم، ثم تصدر بأمر من الخليفة أموالهم التي جمعوها من الحرام .

٦ - وهناك دواوين أخرى ظهرت في عهد العباسيين منها ديوان الغلمان ، وديوان الأحداث والشرطة وديوان المنح والمقاضاة ، وديوان الأكرهة للإشراف على القنوات والترع والجسور وشئون الري . وأخيرا ديوان الدية .

ثانيا : الجيش :

الجيش في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :

إن أول جيش نشأ في الإسلام كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وكانت مهمته الدفاع عن الإسلام والمسلمين من تحرشات الكافرين ومؤامراتهم وبخاصة مشركي قريش . وقد أمر الله سبحانه المسلمين أن يكونوا دائما على جانب من القوة وأن يتسلحوا ليرهبوا به أعداءهم لقوله تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِءٍ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) (١)

وقد شرع القتال في الإسلام بعد الهجرة النبوية إلى المدينة وتنظيم شئون المسلمين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هناك . فنزلت الآية الكريمة : (أُوذِيَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَيُّهَا اللَّهُ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ لَقَدِيرٌ ۗ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَيٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالَّذِينَ فِيهَا يُكْفَرُونَ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (٢)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتولى بنفسه تنظيم المسلمين

(١) من الآية (٦٠) من سورة الأنفال .

(٢) الايتان (٣٩ - ٤٠) من سورة الحج .

وإعدادهم لشئون الجهاد ومقاتلة أعداء الله وأعدائهم . وكان النصر حليف المسلمين ما أطاعوا الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ووهبوا نفوسهم رخيصة لله . فقد نصرهم الله تعالى وهم قلة (٣١٣ مقاتلا) على أعدائهم من المشركين في أول لقاء حربي بين الطرفين وكان المشركون يفوقونهم بثلاثة أمثالهم تقريبا . قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (١) .

واستمر الجيش الإسلامي ينمو ويزداد قوة ومنعة حتى فتح الله على المسلمين بالفتح العظيم فدخلوا مكة وطهروا أول بيت وضع لعبادة الله من رجس الشرك والوثنية . وبعد فتح مكة واصل الجيش الإسلامي انتصاراته على فلول المشركين في غزوتى الطائف وحنين . كما توجه إلى شمال الجزيرة لينزل الرعب في نفوس الروم كما حدث في غزوة مؤتة التي استشهد فيها جعفر بن أبي طالب الملقب بالطيار رضى الله عنه وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم .

الجيش في عهد الخلفاء الراشدين :

وكانت روح الجهاد التي أحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم غرسها في نفوس المسلمين هي التي دفعتهم في عهد الخلفاء الراشدين ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، إلى نشر راية الإسلام في أصقاع لم تخطر ببال الناس قبل الفتح الإسلامي المبين بسنين .

ولم يكن الجيش الإسلامي في عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه نظاميا ، بل كان يتكون من المتطوعين الذين يرغبون في الجهاد في سبيل الله . غير أن الأمر تغير في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وبخاصة بعد فتح العراق والشام وفلسطين ومصر وانصراف بعض المسلمين الى حياة الاستقرار . ولم يكن عمر بن الخطاب يرضيه تطوع المتطوعين . فلما دُونَ الدواوين ورتب للمسلمين أرزاقهم السنوية خرجت فكرته عن التجنيد الإجبارى إلى حيز الوجود . وهكذا اقترنت نشأة الديوان بنشأة التجنيد

(١) الآية (١٢٣) من سورة آل عمران

النظامى فى الإسلام . وحددت للجنود النظاميين عطاياهم ورواتبهم من بيت مال المسلمين . واستمر العمل بهذا النظام فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

أما المتطوعون المسلمون الذين وهبوا حياتهم فى سبيل إعلاء كلمة التوحيد فقد التحقوا بالجيش غالباً لمحاربة البيزنطيين والزرادشتيين المجوس والهنود والترک فى بلاد ما وراء النهر وغيرهم . وعندما تنتهى مهمة المتطوعين كانوا أحراراً فى العودة إلى أوطانهم .

الجيش فى عهد الأمويين :

وفى عهد الأمويين بلغ الجيش الإسلامى مرحلة متقدمة من التنظيم والخبرة القتالية وحسن الأداء . وبفضل روح الجهاد العالية والقيادات الفذة لموسى بن نصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم الثقفى وقتيبة بن مسلم ، استطاعت الدولة الأموية أن تمد رقعة الإسلام من جبال الهمالايا وأواسط آسيا شرقاً إلى جنوبى بلاد الغال (فرنسا اليوم) غرباً . وكثيراً ما كان يطلب إلى الأقاليم الإسلامية فى سائر أرجاء الدولة إمداد الجيوش النظامية بالمجاهدين . وفى سنة ٨٠ هـ ألزم والى الأمويين على العراق ، الحجاج بن يوسف الثقفى ، أهل البصرة والكوفة بأن يقدم كل منهما ٢٠,٠٠٠ رجل لتعزيز الجيوش الإسلامية فى فارس مهدداً إياهم بإيقاف أعطياتهم .

الجيش فى عهد العباسيين :

واتسع الجيش النظامى فى عهد العباسيين حتى صار يعد بمئات الآلاف . فقد بلغت قوات المأمون التى جاءت لمحاربة الأمين فى العراق ١٢٥,٠٠٠ جندي ، هذا بالإضافة إلى القوات التى تركها المأمون وراءه لحراسة الولايات الشرقية . وبلغ عدد الجند فى عرض عسكري أقيم فى بغداد تحت إشراف الخليفة المقتدر وفى حضرة الرسل البيزنطيين نحو ١٦٠,٠٠٠

من الفرسان والمشاة . وكان الجند يتسلمون رواتبهم بصورة منتظمة . وإلى جانب الجند النظامي كان هناك طائفة أخرى من الجنود المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين كانوا يحاربون ضد البيزنطيين وغيرهم بدافع من الحماس الديني . كما شاركت في الحروب ضد الكفار أعداد من النساء المسلمات .

تعبئة الجيش الإسلامي :

كان العرب في جاهليتهم يحاربون بطريقة الكر والفر من غير أن يتبعوا في ذلك نظاما . فلما جاء الإسلام ابتداء التنظيم في جيوش المسلمين . تمشيا مع قوله تعالى : (**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ** **مَرْصُوصٌ**) (١) . وقد رتب النبي صلى الله عليه وسلم جيش المسلمين يوم بدر بأن جعلهم صفوفاً . فقسم الجيش إلى خمسة أقسام ، حيث جعل الرماحة في الصف الأول ، فوقفوا برماحهم على أهبة الرمي انتظاراً لهجوم العدو ، وتترسوا بتروس طويلة ساذغة يحمون بها جسومهم ، على حين وضع عليه الصلاة والسلام في النقط الأمامية رجالاً آخرين تسريلوا بالزرود والدروع . أما الرماة الذين كونوا الخط الثاني ، فقد وقفوا متأهبين بأقواسهم وسهامهم لضرب العدو حين يقترب ولمنع خيالته من تطويق جيش المسلمين . واضطلعت الساقة بحماية المؤخرة وتولت رعاية الأمتعة والأحمال والمؤن ودواب الحمل . وكان أهل مكة قد بدءوا الهجوم ، على حين انتظرهم المسلمون حتى اقتربوا من صفوفهم ، ثم حملوا عليهم في قوة هائلة وعزم متين (وكأنهم بنيان مرصوص) . فحلت بالمشركين الهزيمة .

ولما اتسعت الفتوحات ، والتقت جيوش المسلمين بجيوش الفرس والروم – وهى جيوش تسير في حروبها وفق خطط ونظم معروفة – عدل المسلمون تعبئة جيوشهم بما يتفق وطرائق أعدائهم، وأصبح تنظيم الجيش الإسلامي وتعبئته وترتيبه العسكري على النحو التالي :

١ – المقدمة : وهى التى تبدأ المناوشات مع العدو ، وتتعرف على

(١) الآية (٤) من سورة الصف .

مواضعه ومسالكه . ٢ - الجناحان ٣ - الساقية : أى الذين يكونون في مؤخرة الجيش .

وكل فرقة من هذه الفرق مقسمة إلى كراديس ، ولها أمير يأتمر بأمر القائد العام للجيش . وكان المسلمون يهتمون بأمر الفرسان لما لهم من شأن عظيم في القتال ، وفي الاحتفاظ بخط الرجعة حتى لا يؤتوا من خلفهم . وتعتبر مواقع أجنادين واليرموك والقادسية ونهاوند من المواقع الحربية التى تعد مثالا فريداً فى تعبئة الجيوش الإسلامية وحسن قيادتها . ففى موقعة اليرموك كان عدد جيش المسلمين ٤٠,٠٠٠ جندي كلهم راكب مقابل ٢٤٠,٠٠٠ من المشاة والفرسان للعدو . وأمام هذا الجيش الجرار ، اتبع خالد بن الوليد رضى الله عنه أسلوباً فى الحرب كان جديداً على المسلمين . إذ قسم جيشه إلى ٣٨ كردوساً بكل كردوس أكثر من ألف جندي ، ثم رتبهم فى ثلاثة فيالق وجعل القلب مؤلفاً من ١٨ كردوساً أمر عليها أبا عبيدة بن الجراح ، والجناحين من عشرة كراديس . أسند قيادة الجناح الأيمن لعمر بن العاص ، والأيسر ليزيد بن أبى سفيان ، على حين احتفظ خالد لنفسه بالقيادة العليا .

وعندما شن البيزنطيون الهجوم على المسلمين ، أمر خالد الجناحين الأيمن والأيسر بالتقدم والتصدي للهجوم . وبينما كان الجناحان يشغلان العدو أمر خالد القلب بالتقدم حيث شطر خيالة العدو عن مشاته . وبذلك فرت خيالة العدو بعد أن انعزلت . وهكذا ألحقت الهزيمة بالبيزنطيين .

وظل هذا النظام معمولاً به فى عهد الدولة الأموية (فى المشرق وفى الأندلس) وكذلك فى عهد الدولة العباسية، مع تعديل بما يوافق تطور الحروب وخطط الأعداء .

عدة الجيش وأسلحته :

١ - الأسلحة التقليدية :

كانت الدولة الإسلامية تتعهد الجيش بكل ما يحتاج إليه من سلاح

ومؤن وكان يتكون من الفرسان والرجالة . وكانت أسلحة الفرسان هي :
الدروع والسيوف والرماح وهي السلاح الرئيسي للفرسان ، أما أسلحة
الرجالة فهي : الدروع والحراب والأقواس والسهام . فالقوس للرمى
بالسهم في أول الحرب ، فإذا تقاربت الصفوف بدأ الطعن بالرماح ، فإذا
وقع الالتحام كان الضرب بالسيوف .

وكان الرماة أهم عناصر الرجالة ، وكانوا يقفون في صفوف مترابطة
يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان وكان للجند المسلمين مهارة
فائقة في استعمال الأقواس لحدة أبصارهم ، وحاجتهم إليها في الصيد .

ب - المنجنيق : استخدم المسلمون المنجنيق لأول مرة في حصار
الطائف في أثناء مطاردتهم لفلول ثقيف التي اعتصمت بالحصون ورمت
المسلمين بالنبل . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين ببناء المنجنيق
وقذف الحجارة به على الأعداء .

وقد طور المسلمون المنجنيق في العهد الأموي بأن أطالوا ذراعه
وأحرزوا نتائج باهرة في ذلك كثير من الحصون والقلاع . كما استخدم بعد
ذلك في العصر العباسي في قذف قذائف النفط وذلك بأن يخلط الكبريت مع
النفط والحجارة ثم تلف جميعا في نسيج الكتان . ثم توضع هذه الكور
النارية في ذراع المنجنيق وتطلق بعدئذ على الجدران التي تشطرها الحرارة
شظيرين . وقد استخدم هارون الرشيد مثل هذه الكور في حصار هرقله سنة
١٨٧ هـ . وكان النفاطون يرتدون ملابس تقيهم النار وتمكنهم من التوغل
ساعين داخل حصون العدو المشتعلة . وفي إحدى حملات الرشيد سد
الإمبراطور نقفور البيزنطي الطريق على المسلمين بأشجار قطعت واشتعلت
فيها النار . فقام النفاطون بملابسهم الوقائية الخاصة ، واندفعوا وسط
الأشجار المشتعلة وطهروا الطريق للجيش .

ج - الدبابات : كذلك استخدم المسلمون في حروبهم الدبابات
وهي آلات كبيرة من الخشب يرجح أنه كان لها ألواح من حديد لتحميها من
الحريق إذا ما ألقى عليها قضبان من حديد متوهج . وكان النقالون

يحيطون بتلك الدبابة الهائلة التي تجر على عجلات ، والتي يدفع بها إلى جدران البلدة المحاصرة . وكانت هذه الدبابات تحمي المجاهدين من قذائف العدو وتمكنهم من إحداث ثغرة بأسوارهم .

د - الأسلحة الوقائية والهجومية : استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم الحسك وأحاط به عسكريه ليمنع العدو من الاقتراب من جنده تماما كما تستعمل الجيوش الحديثة الأسلاك الشائكة . واستعمل المسلمون الخوذة لوقاية الرأس ، والبيضة لوقاية الرأس والعنق ، والقرس لصد الحراب والسهام والرماح والسيوف . كما عرف المسلمون حرب الأعصاب واستخدموا النار الإغريقية وجعلوا في جيوشهم فرقة خاصة لاستخدامها عرفت باسم فرقة النفاطين سبقت الإشارة إليها .

كذلك عرف المسلمون البارود قبل أن تعرفه أوروبا بنصف قرن . وقد ترتب على اختراع البارود ظهور المدفع حيث عرف المماليك في مصر منه الكبير والصغير ، كما استعملوا البندقية أيضاً .

وكان الجيش الإسلامى يزود بمعدات ضرورية مثل الخيام والدواب كالفيلة والجمال والخيول التي كانت بعض سروجها مجوفة ومبطنة بصفائح من القصدير لحفظ الماء فيها . بل إن الجيش الإسلامى كان يمون بكل شىء حتى الإبر والخيوط . أما الرايات فكان الجيش الإسلامى يستكثر منها . وكانت تتميز في أيامه الأولى أنها تحمل عقيدة الإسلام : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ثم صارت بعد ذلك تحمل أسماء الخلفاء وألقابهم ، وأصبح لون الرايات يدل على مذهب الدولة الإسلامية . فكان للعباسيين رايات سود ، وللأمويين رايات بيض ، كذلك كانت الجيوش الإسلامية تكثر من استخدام الطبل والبوق لانكاء روح الحماس بين أفرادها ، وكان يصحب الجيش رجال الدين فى غزواتهم .

الصوائف والشواتى :

كان المسلمون يغزون أراضى الروم فى أوقات معينة من السنة . فإن كانت الإغارات فى فصل الربيع أو الصيف سميت **الصوائف** وإن جاءت فى

الشتاء سميت الشواتى • فغزو الربيع يبدأ من منتصف مايو - أيار - حين تكون الخيول قد سمنت وقويت من رعيها فى كلاً الربيع ومراعيه ، ويستمر الغزو عادة حتى منتصف حزيران^(١) • وفى هذه الاغارات تجد الخيول غذاء وفيرا من مراعى الروم التى تمر بها • ثم يجنح المسلمون الى السكينة ويريحون خيولهم من منتصف حزيران الى منتصف تموز حيث تبدأ اغارات الصيف • وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوماً • أما اغارات الشتاء فلم يقدم المسلمون عليها الا فى حالات الضرورة القصوى ، دون أن يمعنوا فى التوغل داخل أراضى الروم فلم تستغرق الشواتى أكثر من عشرين يوماً يأخذ فيها الجند مؤنهم الضرورية التى تقوم بأودهم خلال هذه الاسابيع الثلاثة • وكانت هذه الشواتى تقع عادة فى الفترة ما بين أواخر شباط والـ نصف الأول من مارس آذار •

ومنذ أيام الخليفة هارون الرشيد تكاد تكون إغارات المسلمين منتظمة سنوياً فى أراضى دولة الروم ، عدا تلك الفترات التى انشغلت فيها السلطات الإسلامية بإخماد بعض الفتن الداخلية والقتال . وقد شجعت الأحوال الداخلية فى دولة الروم هارون الرشيد على التوغل فى إقليم أسيا الصغرى وحصوله على كثير من الغنائم . على أن أهم إغارات هارون الرشيد كانت فى عهد نقفور . فى صيف ١٩٠ هـ عندما قاد الخليفة الجيوش الإسلامية بنفسه ، والتى بلغ عدد أفرادها ١٢٥,٠٠٠ جندي عدا المتطوعين ، واستولى على عدة معاقل مهمة منها هرقله وطوانه شمال قلعة اللؤلؤة واضطر الإمبراطور نقفور إلى طلب الصلح ودفع ٥٠٠٠٠ دينار مقابل تخلى الخليفة هارون عما بيده من أراضى الروم .

اهتم المسلمون والروم بتحسين مناطق الحدود بينهما . وكان خط الحدود يتكون من سلسلتى جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة الحربية (الاستراتيجية) الممتازة لوقوعها عند تقاطع الطرق التى تخترق تلك السلسلة الجبلية ، ولتحكمها كذلك فى الممرات الجبلية الضيقة . وحرص

(١) إن أسماء هذه الشهور السريانية الاصل (السريانية من اللغات السامية) كانت مستعملة فى بلاد الروم وممتلكاتهم . بل إن عد الأشهر لا زال يجرى بها فى جميع أقطار الهلال الخصيب وتركيا .

كل من المسلمين والروم على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الرئيسية للهجوم أو الدفاع . فوضع الروم منطقة الأطراف التي واجهت أراضي الدولة الإسلامية والتي سميت باسم منطقة الممرات أو الثغور تحت إشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور . وقامت الدولة الإسلامية زمن العباسيين بمثل ما قامت به دولة الروم بتحسين حدودها . فأقبل خلفاؤها على ترميم المعقل والحصون في منطقة الحدود المطلة على أراضي الروم .

والمعروف أن الخليفة هارون الرشيد هو صاحب الخطوة الرئيسية في تأمين الحدود الإسلامية . فقد أسس إقليماً مشابهاً لإقليم الأطراف عند الروم على حدود البلاد الإسلامية الشمالية وسماه **إقليم العواصم والثغور** ، وعاصمته قنسرين وجعل عليه ابنه المعتصم . وكان الإقليم الجديد قسماً من أرض قنسرين فصله هارون الرشيد عنها تماماً ، وشمل حلب ومنبج وأنطاكية غرباً إلى الساحل .

ويقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ، لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم ، وفي نفس الوقت للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة لحدود الروم ، وهي الحصون التي سميت بإقليم الثغور لمواجهة الثغرات أو المنافذ في أرض العدو .

وكان إقليم الثغور ينقسم إلى قسمين أحدهما في الشمال الشرقي ويسمى **بالثغور الجزرية** التي تدافع عن شمال العراق وعن منطقة الجزيرة الفراتية ، والقسم الآخر يسمى **بالثغور الشامية** في الجنوب الغربي حيث يقترب من ساحل خليج الإسكندرونة .

وكانت الدول الإسلامية تنفق بسخاء على أقاليم الثغور ، إذ كان خراجها قليلاً لا يقوم بأود الدفاع عنها . فكان يجبي من الثغور الشامية بما فيها طرطوس وأدنة ألف دينار ، كانت تنفق جميعها على المرافق العامة لتلك المناطق ، من دفع أجور الجواسيس والبريد ومسالح الدروب الجبلية وتقوية مخاضات الأنهر هناك . أما نفقات الغزوات التي كانت تشن من هذه المناطق صيفا وشتاء ، فكانت الدولة الإسلامية تتكفل بها أحياناً ، وبلغت

مائتى ألف او ثلاثمائة ألف دينار وهكذا كانت الدولة الإسلامية تعنى كل العناية بتقوية مناطق الحدود بينها وبين دولة الروم والإنفاق عليها بسخاء لتكون دائما على أهبة الاستعداد والدفاع .

ثالثا : البحرية :

لم يكن للعرب قبل الإسلام إلا معرفة محدودة للغاية بشئون البحر لبدأوتهم أساسا وعدم تعودهم ركوب البحر وممارستهم أحواله . ولذا فان أول حملة بحرية إسلامية فى عهد عمر ، والتي قادها العلاء بن الحضرمي ضد فارس ، دون أن يحصل على موافقة سابقة من الخليفة ، تعتبر أول خبرة للأسطول الإسلامى . وقد غضب الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لهذا لأنه كان يكره للمسلمين ركوب البحر .

غير أنه عندما دخلت كل من الشام ومصر تحت لواء الدولة الإسلامية ، أصبح لها سواحل طويلة . وكانت هذه السواحل تقف عقبة امام تقدم جيوشها فى الوقت الذى كانت تستعمل نقطة هجوم لأعدائها عليهم . ونظرا لقلة خبرة المسلمين بالبحر ومعارضة الخليفة لهم على ركوبه ، فقد لجئوا إلى إصلاح الحصون الساحلية القديمة التى كان العدو يستعملها من قبل ، كما أنشئوا مناظر أى أماكن يراقب منها العدو ، وكانت تتخذ المواقيد لطلب الأمداد إذا حدث هجوم مفاجئ .

وكان معاوية بن أبى سفيان والى الشام قد ألح على الخليفة عمر بن الخطاب فى أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحرا لقربها منه ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص والى مصر بأن يصف له البحر ، فأجابه ابن العاص قائلا : (يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركذ أحزن القلوب ، وإن ثار ازاع العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق) .

فكتب الخليفة إلى معاوية يقول : (لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا) . لكن معاوية لم يزل يلح على الخليفة ، حتى تحقق

طلبه في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه . إلا أنه أمره بألا يحمل أحداً على ركوب البحر كرهاً ، بل يجعل الأمر اختيارياً ، فشرع معاوية في بناء كثير من السفن . وكان ملاحو السفن في بداية الأمر غالباً من الروم . أما المحاربون فكان معظمهم من العرب . وقد تفوق المسلمون على الروم وغيرهم وكثر عدد السفن وأتقن تسليحها فساعد هذا على اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، كما ساعد هذا على الدفاع عنها وإلقاء الهزيمة بأعدائها ، كما حدث في موقعة ذات السوارى في البحر الأبيض المتوسط التي حدثت بين والى مصر من قبل عثمان بن عفان ، عبد الله بن أبى السرح ، وبين قسطنطين بن هرقل امبراطور الدولة البيزنطية . وقد انتصر المسلمون فيها مع أن عدد سفنهم لم يتجاوز ٢٠٠ سفينة بينما كانت سفن العدو نحو ٦٠٠ سفينة . وقد استخدم المسلمون في هذه المعركة أساليب مبتكرة منها :

١ - أنهم ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل ثقيلة فأصبحت صفوفهم كالبنيان المرصوص بحيث عجز البيزنطيون عن اختراقها .

٢ - استخدم المسلمون خطاطيف (كلاليب) طويلة أخذوا يقذفون بها سوارى السفن البيزنطية وأشرعتها .

٣ - ربط المسلمون سفنهم إلى السفن البيزنطية ثم وثبوا عليها يضربون البيزنطيين بالسيوف وبالخناجر .

ولما انتقلت الخلافة إلى معاوية ، أولع بإنشاء السفن الحربية ، حتى كان أسطوله مؤلفاً من ١٧٠٠ سفينة . وفي عهد الوليد بن عبد الملك بلغ الأسطول الإسلامى أوج مجده . ففتحت أسبانيا والسند ومعظم جزر البحر الأبيض المتوسط الغربى . وحاول الأسطول الإسلامى آنذاك فتح القسطنطينية ففي سنة ٤٩ هـ وجه معاوية حملة بحرية بقيادة ابنه يزيد لمهاجمتها إلا أن الحملة عجزت عن اقتحام القسطنطينية وقد كرر المحاولة في سنة ٥٤ هـ حيث استمرت المناوشات بين المسلمين والبيزنطيين مدة سبع سنوات دون أن يحقق الأسطول الإسلامى أهدافه بسبب استخدام البيزنطيين للنار الإغريقية .

وأصبح الأسطول يتكون من خمس وحدات : أسطول الشام ومقره اللاذقية ، وأسطول إفريقيا ومقره تونس ، وأسطول مصر وكانت الإسكندرية قاعدته، وأسطول النيل ومقره بابليون ، وأسطول خاص لحراسة مداخل النيل لمنع البيزنطيين من الهجوم على السواحل .

وعندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وكثرت مشاغلها انقسمت البحرية الإسلامية إلى قسمين منفصلين ، أسطول البحر الأبيض المتوسط ، وأسطول المحيط الهندي ، وكانت نماذج السفن التي استخدمت في هاتين المنطقتين مختلفة تمام الاختلاف ، وقد دارت معارك بحرية شتى بين المسلمين وأعدائهم استطاع على أثرها الأسطول الإسلامي أن يظهر تفوقا كبيرا على أعدائه . ففي عهد هارون الرشيد أغار الأسطول السوري على قبرس (١) سنة ١٩٠ هـ . وفي اليوم التالي قام بحملة ثانية على رودس . وفي عهد المأمون شن هجوما على جزر وشواطئ آسيا الصغرى فيما بين ٢٠٦ هـ و ٢٠٨ هـ . وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري تكونت قوة بحرية إسلامية عند حدود طرطوس استطاعت أن تقوم في ٢٤٦ هـ بهجوم على القاعدة البيزنطية في الأناضول وفي سنة ٢٩١ هـ استطاع ليو الطرابلسي أمير صور أن يبحر بأساطيل من طرابلس وسائر مدن سورية الساحلية ويغير على سالونيك وقد صار هذا الأسطول مصدر فزع لنصارى بحر إيجه جيلا من الزمان . وفي عهد الأغالبة وكانت قاعدتهم تونس (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) اجتاحوا شواطئ إيطاليا وفرنسا وجزيرتي كورسيكا وسردينيا وحققوا بأسطولهم القوى سيادتهم على المناطق الوسطى في حوض البحر المتوسط وفتحت صقلية في سنة ٢٨٩ هـ . واستمر نمو البحرية الإسلامية بشكل مطرد حتى أصبحت في العهد المملوكي والعثماني قوة يخشى بأسها استطاعت الدفاع عن المقدسات الإسلامية ضد البرتغاليين ورد اعتداءاتهم عن البلاد الإسلامية كما استطاعت الدولة العثمانية نشر الإسلام في أوروبا وتطهير البحر الأبيض المتوسط من أساطيل الدول المسيحية .

(١) كانت تكتب بالسين وليس بالصاد كما هو الحال اليوم .

انواع السفن البحرية :

كانت المراكب البحرية أنواعاً مختلفة ، وقد تم بناؤها في دور صناعة السفن في كل من سواحل مصر وتونس والأندلس وصقلية وغيرها . ومن هذه الأنواع :

١ - الشونة، أو الشوانى : وهى سفن كبيرة كان المسلمون يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم ، ويجدف لها بثلاثة وأربعين ومائة مجداف ، وتحتوى على أهراء لخبز القمح ، وصهاريج لخبز الماء العذب.

٢ - الحراقة : وتعتبر من كبار المراكب ، إلا أنها أقل حجماً من الشوانى ، وتستخدم على الأخص في حرق سفن العدو حيث كانوا يحملون فيها المنجنيقات ليرمى بها النفط المشتعل على العدو .

٣ - البطس : وهى من السفن الحربية العظيمة ، التى تشتمل على عدة طبقات وعلى قلوب كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعة ، وتستخدم في حمل الأزواد والذخيرة والرجال ، فيقول المقرئى المؤرخ إن إحدى البطس كانت تحمل خمسمائة وألف شخص .

٤ - الأخرية : وهى من المراكب الحربية الشديدة البأس ، وسميت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها ، فكان على شكل رأس غراب .

٥ - الطريدة : أو الطرائد وكانت تستخدم في نقل الخيل .

٦ - الطراد : أو الطرادات ، وهى من السفن الصغيرة على هيئة البراميل وكانت تستخدم في مطاردة العدو لسرعتها .

٧ - الشلندى : وهى من كبار السفن المسلحة ، وتستخدم في نقل البضائع .

٨ - القرقورة : وهى معدة لنقل المؤن للأسطول .

٩ - الحمالات : وهى التى تحمل الذخيرة للأسطول .

الأسلحة البحرية ومعدات السفن :

كانت السفن الحربية تجهز بمعدات مساعدة للملاحة كالبوصله التى تستعمل فى توجيه السفينة الوجهة المطلوبة والإسطرلاب الذى يعين على تحديد دوائر عرض الميناء وإلى جانب الأدوات الفلكية ، كان الربابنة يستخدمون الخرائط والصور وسجلات الارشادات البحرية .

كذلك كانت السفن تجهز بالأسلحة اللازمة للدفاع والهجوم ، ومنها :

١ - التوابيت : وهى صناديق مفتوحة من أعلاها كانت تجعل فى أعلى السوارى ويصعد إليها الرجال ومعهم حجارة فى مخلاة تعلق بجانب الصندوق فيرمون العدو بالأحجار وهم مستورون بالصناديق . وقد يكون معهم قوارير النفط أو جرار النورة وهى مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ يعمى غباره وقد يلتهب . وقد يرمون على الأعداء أيضاً قدور الحيات والعقارب أو قدور الصابون اللين فتتزلق أقدامهم .

٢ - الستائر : وهى آلات وقائية تمنع عن السفن ما يقترب منها .

٣ - الكلابيب : وهى خطاطيف من حديد ، يلقونها على إحدى سفن العدو ، فيوقفونها ، ثم يشدونها إليهم ، ويرمون عليها الألواح كالجسور ، ثم يدخلون إلى السفن لقتال العدو .

٤ - اللجام : وهو أداة كالفأس ، تجعل فى مقدمات المراكب وهى عبارة عن حديدة طويلة محددة الرأس أسفلها مجوف تجعل فى مقدمات السفينة لطعن جوانب السفن المعادية وخرقها .

٥ - المكاحل (المدافع) : وقد استخدمها المسلمون برا وبحرا بعدم عرفوا البارود قبل أن تعرفه أوربا بنصف قرن .

٦ - المنجنيق : وهو آلة لرمى الأحجار وغيرها على العدو . وقد استخدم المسلمون نوعاً من المنجنيق عرف أحياناً باسم قوس الزيار وأحياناً باسم منجنيق السهام .

قيادة الأساطيل :

كان لكل أسطول قائد ورئيس ونواتية ، فالقائد هو المسئول الأول عن الأسطول . والرئيس يأتمر بأوامر القائد من حيث توجيه الأسطول وإرساؤه في المرفأ . وأما النواتية فيعملون بأمر الرئيس . وإذا اجتمعت جملة أساطيل ، ولوا عليها أميرا من أعلى طبقات الدولة يسمونه (أمير البحر) ، ومن هذا اللفظ ، أخذ لفظ (أدميرال) الإفرنجي^(١) .

وقد اشتهر من أمراء البحر المسلمين عدد كبير منهم : عبد الله بن أبي سرح، وعبد الله الحارثي ، وجنادة بن أمية ، وأحمد الصقلي قائد أساطيل المغرب ، في القرن السادس الهجري ، الذي بلغت البحرية الإسلامية في عهده ، منزلة لم تبلغها قبله ولا بعده .

رابعا : البريد :

تعريف البريد : يرى البعض أن البريد كلمة فارسية معربة ، أصلها بالفارسية « بريده دم » ومعناها : مقصوص الذنب لأن الفرس كانوا يقصون أذنان بغال البريد ليميزوها عن غيرها من الدواب الأخرى ، ثم أطلقوا البريد تجاوزاً على الرسول الذي يحمله .

ويرى البعض الآخر أن كلمة (بريد) كلمة عربية مشتقة من برد أو أبرد بمعنى أرسل ، فتقول بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه والبريد في اللغة مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلا . والبريد في الاصطلاح : هو أن تُجهز خيل مضمرة في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

وأول من وضع نظام البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان اقتداء

(١) Admiral

بما كان قبله في الشام أو بما أشار عليه به عماله في العراق .

نشوء البريد وتطوره :

ورغم أن المصادر التاريخية لا تذكر شيئاً عن وجود البريد زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، إلا أن الأدلة التاريخية تؤكد بأنه قد عرف شبيهه له في ذلك الوقت . نستنتج ذلك من الأخبار التاريخية التي تذكر إرسال الكتب من الرسول والخلفاء من بعده إلى من جاورهم من الملوك والأمراء بدعوتهم إلى الإسلام والاتصال الدائم بالقواد والأمراء والولاة . وكذلك نقل خبر وفاة الخلفاء وتولية آخرين كما حدث في موقعة اليرموك عندما جاء البريد يحمل خبر وفاة أبي بكر رضى الله عنه ، وتولية عمر رضى الله عنه ، وعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجند وتولية أبي عبيدة بن الجراح مكانه وهكذا .

صاحب البريد ومهامه :

وفي عهد الخليفة عبد الملك أدخلت على البريد تحسينات كثيرة الأهمية في تأمين المواصلات والأخبار بين الخليفة والولاة . ويبلغ من اهتمامه بالبريد أن صاحب البريد كان يدخل عليه في أى وقت . ومما أوصى به حاجبه ألا يمنع صاحب البريد من الدخول عليه في الليل أو في النهار ، لأن عدم المبادرة إلى دخوله ساعة قد يفسد أعمال الولاية سنة .

كما جعل الخلفاء والأمراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامات سرية يتفقون عليها ، حتى لا يزور عليهم شئ ، ولو كان مختوما بخاتمهم من ذلك ما فعله أبو مسلم الخراساني حين دخل على المنصور وكان يخشى مغبة هذه المقابلة ، فقد استخلف أبو مسلم على عسكريه أبا نصر بن الهيثم وقال له : إن جاءك كتابى وهو مختوم بنصف خاتمى فهو خاتمى ، وإن كان مختوما بكل الخاتم فاعلم أنه ليس خاتمى . . ولما أمر المنصور بقتل أبى مسلم ، أخذ خاتمه وختم به رسالة إلى ابن الهيثم ، فلما اطلع عليه هذا الأخير عرف أنه كتب وختم رغم إرادة أبى مسلم أو دون علمه .

وقد أصبح البريد في العصر العباسي شبيها بقلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن . إذ يراقب صاحبه العمال ، ويتجسس على الأعداء ، وأنشئ له ديوان كبير . وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم : أما أحدهم فقاوض لا تأخذه في الله لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج لا يظلم الرعية . والرابع ... (ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات وقال : صاحب بريد يكتب إلىّ بخبر هؤلاء على الصحة) » .

ومهام صاحب البريد كما نلاحظ مما سبق أنه كان واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل أوامر الخلفاء إلى ولايتهم وأخبار الولاة إلى خلفائهم . ولم يقتصر عمله على مراقبة توزيع المكاتبات الرسمية فحسب ، بل كان يتعداها إلى موافاة الخليفة بكافة الأخبار والحوادث التي يمدده بها أعوانه المنتشرون في أنحاء الأقاليم ، فقد كان يرفع إلى الخليفة التقارير عن أحوال الجند والمال وأحكام القضاة وأسعار الحاجيات ، كما كان من جملة أعماله أيضاً حفظ الطرق وصيانتها من قطاع والأعداء والجواسيس .

أنواع البريد :

أ - ما ذكرناه هو النقل البرى الذى يحمل على دواب ، على هيئة قطار يتألف من دابة فأكثر . ثم بلغ نظام البريد في عهد بنى بويه مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة ، حتى كانت الدولة تنقل البريد في أثناء الحرب بالجمازات وهى محامل أشبه بالعربات التى تجرها الخيل السريعة . وفى بعض الأحوال كان يعتمد على السعاة لنقل البريد وهم رجال خفاف تعودوا الجرى والسير على السير ثلاث مراحل فى مرحلة واحدة .

ب - البريد الجوى (الحمام الزاجل) لم يكتف المسلمون بما وصل إليه نظام البريد البرى ، ولكنهم خطوا خطوات واسعة فى تنظيم نظمه وسرعة وصوله ، واستعملوا فى ذلك الحمام الزاجل . وكان يكتب المطلوب بصيغة مقتضبة كالتى تستعمل فى البرقيات فى وقتنا الحاضر . وكانت الرسالة تشد

تحت جناح الطائر أو في ذيله ويكتب منها صورتان ترسلان مع طائرين يطلقان في أوقات متباعدة قليلاً حتى إذا ضل أحدهما أو قتل أمكن الاعتماد على وصول الآخر . وقد جرت العادة ألا يطلق الحمام في الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافي . وقد اعتنى بهذا النوع من البريد خلفاء بني العباس كالخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) ، وتنافس فيه عليه القوم في العراق ، وبالفوا في أثمانه ، حتى بلغ ثمن الطائر الواحد منها سبعمائة دينار . وفي أوائل القرن الرابع الهجري تجد أخباراً كثيرة عن استخدام الحمام الزاجل في نقل وسرعة توصيل الأخبار، وذكر الثعالبي : أن الرسائل كانت تصل في ذلك العصر من الموصل إلى بغداد (٥٦٠ كم) ومن البصرة إلى بغداد (٥٤٠ كم) في حوالي يوم وليلة . وقد أفردت بعض الدول الإسلامية للحمام ديواناً خاصاً، وألف الكتاب في أنساب الحمام المستخدم كتباً .

ج - الاتصال بالإشارات الضوئية :

استخدم المسلمون في المراسلة طريقة أسرع من الحمام الزاجل ، وهي بناء المنائر كالأبراج العالية ، على المرتفعات ونقل الإشارات عليها بإشعال النار ، فينتقل الخبر بها من منارة إلى أخرى ، حتى تصل المكان المطلوب .

ويقول آدم مِتَز : إن المسلمين استخدموها استخداماً حسناً في القرن الثالث الهجري على الساحل الإفريقي الشمالي فقد كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبته في ليلة واحدة ، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات .

خامساً : السكة ودور الضرب :

لم يكن العرب المسلمون يعرفون صناعة العملة حينما فتحوا البلدان ، فأبقوا على العملة السائدة في التداول دون تغيير ، وهي العملة البيزنطية والفارسية وحتى اليمنية القديمة . فبقيت صورة الصليب منقوشة على الأولى ، وصورة بيت النار منقوشة على الثانية .

وعندما اتسعت الدولة الإسلامية وتدفقت عليها جميع المسكوكات ،

التي كان بعضها مزيفاً ، لجأ الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في سنة ١٨ هـ إلى سك دراهم يزن الواحد منها ١٤ قيراطاً على مثال النقود الفارسية . وكان منقوشاً على بعضها « الحمد لله » وعلى الآخر « محمد رسول الله » وعلى البعض الآخر كذلك « لا إله إلا الله » . وأصدر عثمان رضى الله عنه بعض الدراهم منقوشاً عليها « الله أكبر » . كما أن معاوية ضرب نقوداً ذهبية على مثال الدينار الفارسي وعليها اسمه . وضرب مصعب عملة باسم أخيه عبد الله بن الزبير ، حيث وجدت قطع فضية تحمل اسمه . وكان عبد الله بن الزبير أول من سك الدرهم الدائري الشكل إذ كان شكل الدراهم السابقة غيرتامة الاستدارة ووجهها خشن غير مكتمل . وكان على أحد وجهي الدرهم نقش (محمد رسول الله) وعلى الآخر (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) .

ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان ، قرر سك عملة عربية إسلامية بدلا من العملة الأجنبية وذلك تقديراً منه بأنها بالإضافة إلى قيمتها الاقتصادية فإنها وسيلة للإعلان عن سيادة الدولة الإسلامية بما هو منقوش عليها من عبارات دينية فضلاً عن أنها إعلان لشرعية حكم الخليفة ، ينقش اسمه عليها . وقد بنى داراً لضرب النقود في دمشق ، وأمر بسحب العملة المستعملة في جميع أنحاء الدولة الإسلامية .

وسك الحجاج أيضاً بأمر عبد الملك الدراهم وطرحها للتداول وكان الدرهم مستدير الشكل ، ونقش على أحد جانبيه (قل هو الله أحد) وعلى الجانب الآخر (لا إله إلا الله) وكان للجانبين طوقان جميلان ، على أحدهما نقش (ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وكذا) وفي الطوق الآخر محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) .

وقد أوجدت دور لضرب النقود في العواصم الإسلامية وفي مراكز ولايات ، وكانت دور الضرب تتناول واحداً من المئة عن كمية الأموال التي ضربها للشعب كأجر للعمل وثمان للوقود .

وكانت صناعة ضرب النقود بسيطة ، يؤخذ طابع من حديد تنقش عليه

الكلمات التي يراد ضربها على النقود مقلوبة ثم توزن المعادن ويوضع الطابع فوق كل قطعة ويضرب عليها بمطرقة ثقيلة حتى تظهر الكتابة عليها .

وفي اللوحة التالية نماذج متنوعة من النقود الإسلامية في مختلف عهود الدولة الإسلامية .

سادساً : الشرطة والعسس :

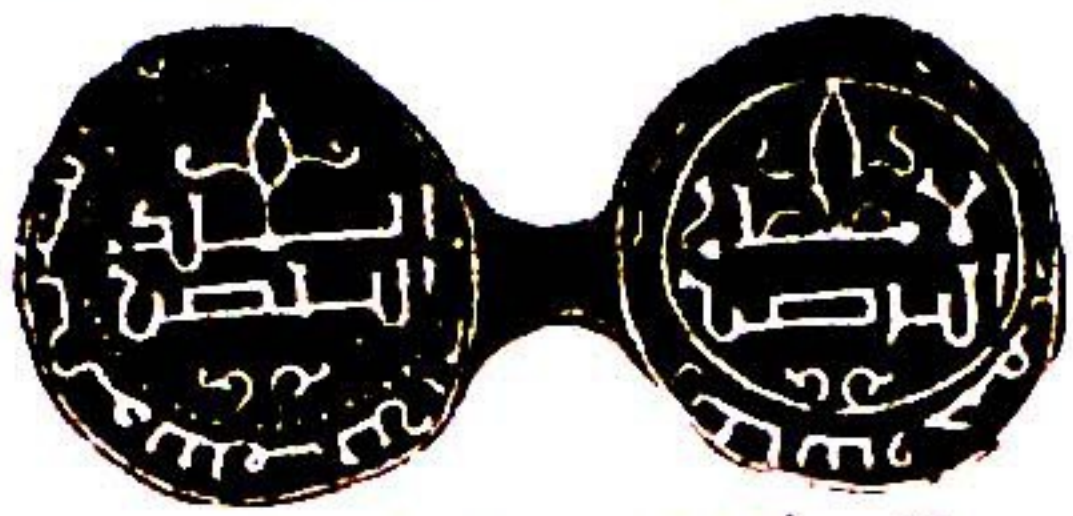
الشرطة هم الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة ، أو الوالى فى حفظ الأمن ، والقبض على الجناة والمفسدين ، والضرب على أيدي المريبين والمذنبين وتأديبهم وما يتصل بذلك مما يكفل سلامة الناس ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم . ويذكر السيوطى أن أول من شرط الشرطة فى الإسلام عمرو بن العاص لما ولى إمارة مصر . وفى عهد على بن أبى طالب رضى الله عنه نظمت الشرطة لحراسة المدينة ولقب رئيسها بصاحب الشرطة وكان يختار من علية القوم ، وهو أشبه بمدير الأمن اليوم ، لأنه يتولى رئاسة الجند الذين يساعدون الوالى على استتباب الأمن .

ومن ناحية أخرى يذكر الطبرى أنه وكل إلى أربعمائة منهم (أى من رجال الشرطة) حراسة بيت المال والسجن فى البصرة منذ زمن أبى موسى الأشعري ، وقد برهنوا على تمسكهم بواجبهم فقاوموا الزبير عندما جاء يحرض البصريين على الخليفة على بن أبى طالب ، فلم يسلموه المنشآت التى وكلوا بحراستها إلا بعد أن أقنعهم بأحقية دعواه . وذكر المدائنى أن زياد ابن أبىه كلف شرطته بوظيفة حفظ الأمن ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق والأشقياء والمتمردين والثوار .

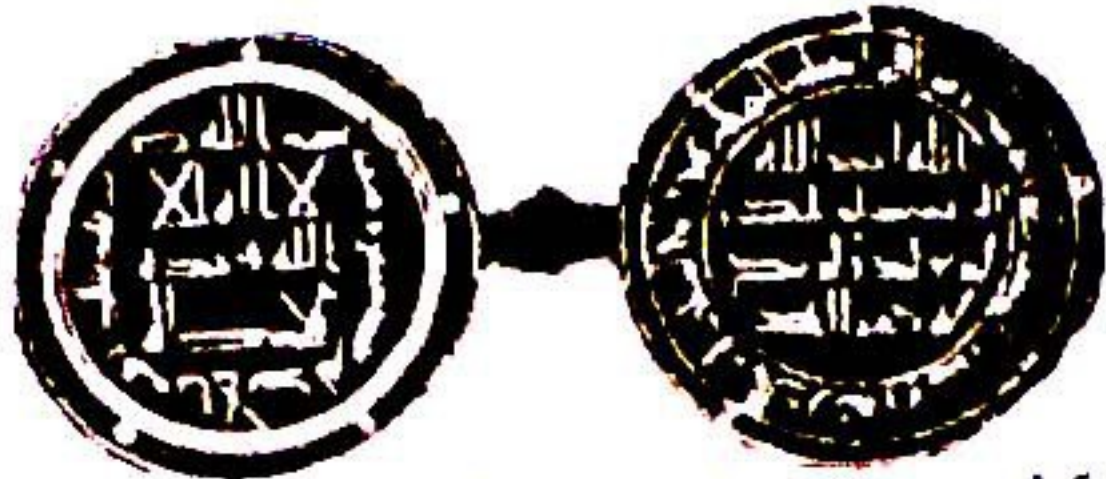
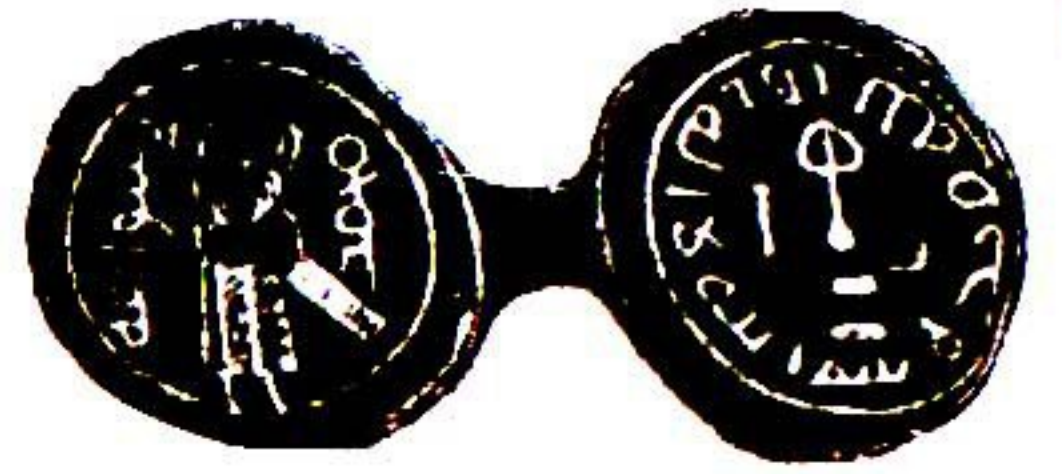
وقد جعل لكل حى فرقة من الشرطة مسئولة عن حفظ النظام وإقرار الأمن فيه ليلاً ونهاراً .

والشرطة فى الأصل تابعة للقضاء لأن المراد بها تنفيذ أحكام القضاء أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، وإقامة التعزيزات والتأديب فى حق من لم ينته عن الجريمة ، ومساعدة القاضى فى إثبات الذنب على

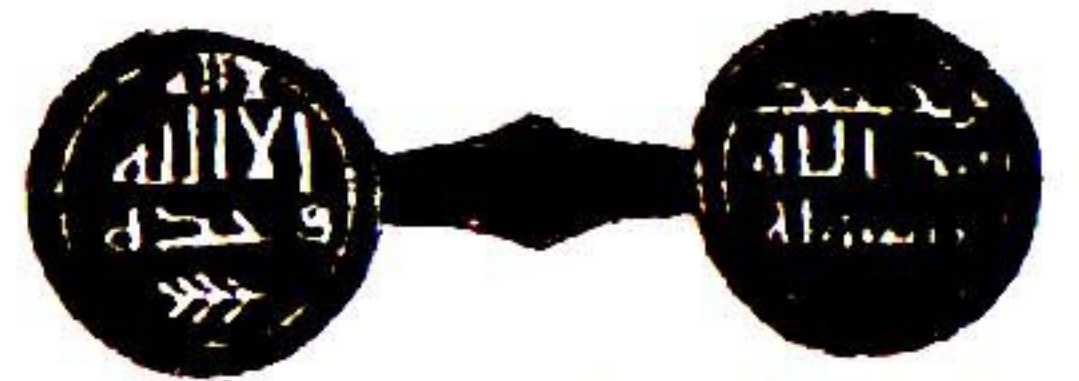
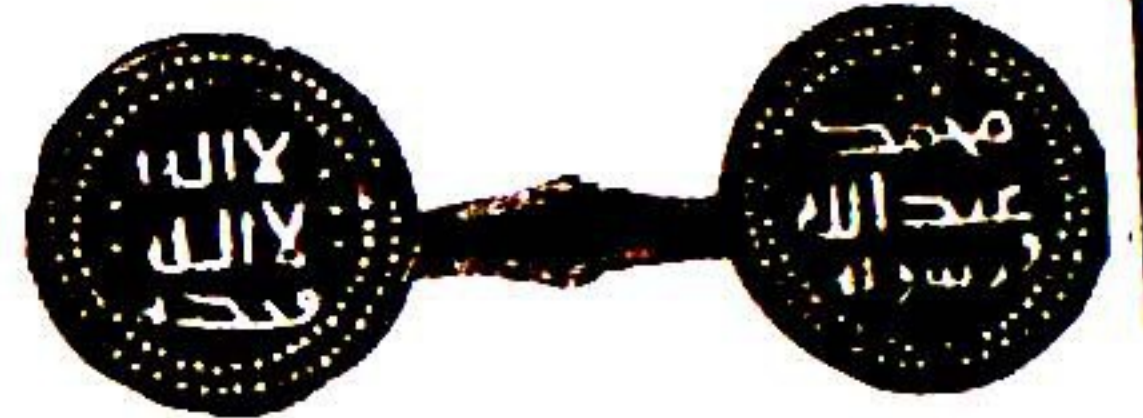
لوحة من النقود الإسلامية في مختلف عهود الدولة الإسلامية



نقود أموي لصدر الدين



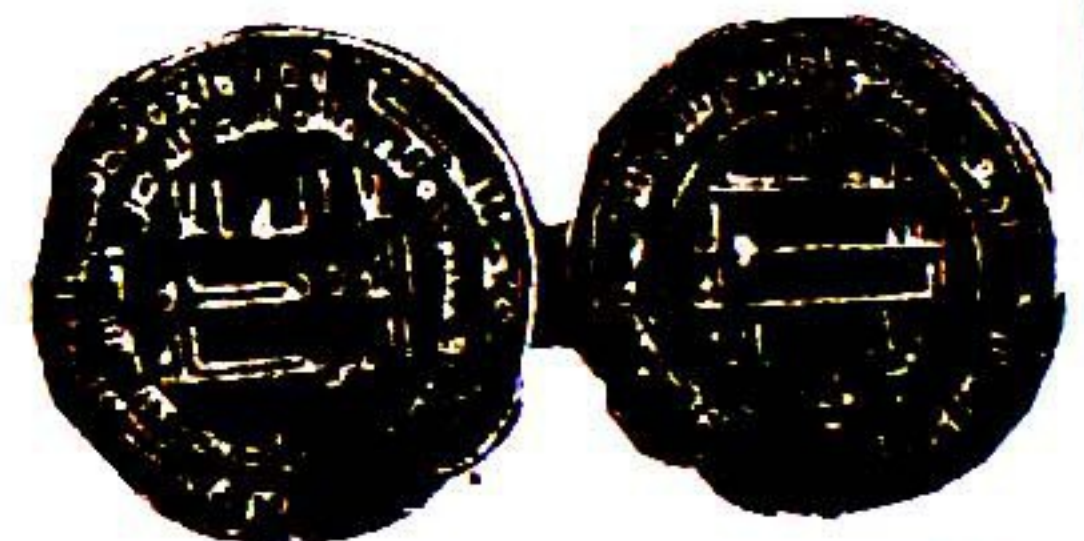
قطعة من نقود الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (رشحه) ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م



نقود قطيع من نقود الخلفاء الراشدين



قطعة من نقود الخليفة العباسي المهدي ١٦٢ هـ / ٧٧٩ م



قطعة من نقود الخليفة العباسي الرشيد ٢٤٨ هـ / ٩٢٣ م



قطعة من نقود الخليفة العباسي المأمون ٢١٨ هـ / ٨٢٣ م



قطعة نقود زنجية للخليفة الراضي



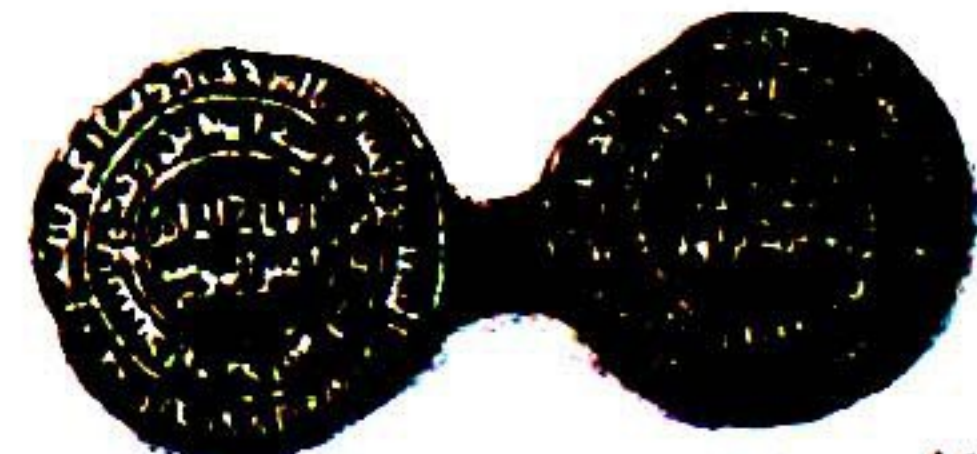
قطعتان من نقود الخليفة العباسي المتوكل ٤٤٢ هـ / ٤٦٥ م



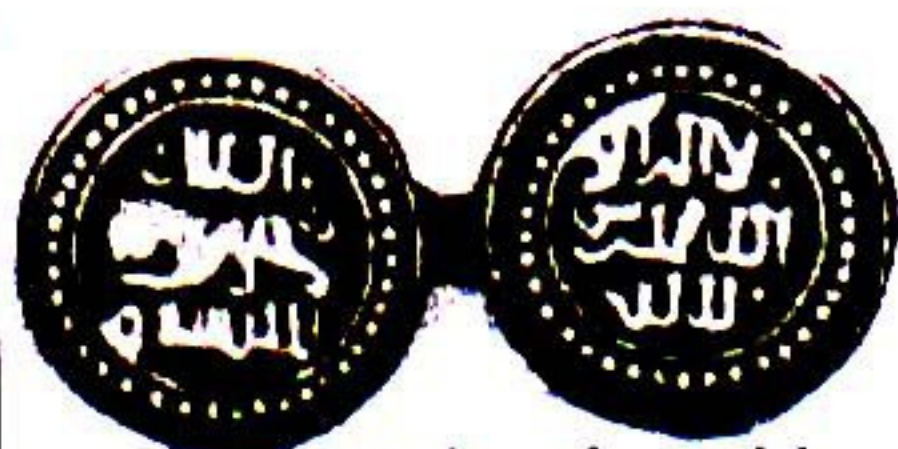
قطعة من نقود الخليفة العباسي المتوكل ١٥٧ هـ / ٨٧٠ م



قطعتان من نقود ملك كمال وعلى وبنو أمية اسم الخليفة العباسي - بنو ١٣ هيدري



قطعة من نقود صدر الدين افندي برمشه ٥٨٢ هـ // ١١٨٧ م



قطعة من نقود ظاهر بوبرسي

مرتكبه ، وإقامة الحدود كحد الزنا وحد شرب الخمر . ثم ما لبثت أن استقلت وانفصلت عن القضاء ، وأصبح لصاحب الشرطة حق النظر في الجرائم وذلك ابتداء من عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) الذي أنشأ نظاماً وسطاً بين شرطة الأمن وشرطة الجيش سماه (نظام الأحداث) أما في عهد دولة الأمويين في الأندلس فكان يسمى صاحب (المدينة) ، وانقسمت الشرطة في عهدهم إلى قسمين :

أ - الشرطة الكبرى وتختص بالخاصة من أهل المراتب والسلطان ، والضرب على أيديهم وأيدي أقاربهم في الظلمات المقدمة ضدهم .

ب - الشرطة الصغرى وقد جعلوا حكمها على العامة .
أما عن تطور الشرطة وسلطة صاحبها فيلاحظ أن الشرطة في العهد الأموي كانت آلة تنفيذ فقط . لا يقوم صاحبها بعمل إلا بأمر الخليفة أو الأمير ، ثم لما جاء العهد العباسي ازدادت سلطته وأصبح له حق النظر في الجرائم وإيقاع العقوبات .

أما عن العسس فيرجع تأسيسها إلى زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حيث ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن مسعود كان أميراً على العسس في عهد أبي بكر . وأن عمر بن الخطاب تولى هو نفسه العسس ، وكان يصطحب معه ، مولاه وربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف .

وكان الناس يتولون حراسة أنفسهم نهاراً . أما ليلاً فكان رجال العسس يتولون أمر السهر عليهم .

سابعاً : الحسبة :

يقول العلماء : إنها أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . وهكذا عرفها ابن خلدون بقوله : (أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين) .

وعرفها ابن تيمية بأنها « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من اختصاص الولاية والقضاة والديوان ونحوهم » فالمحتسب يأمر الناس

بالجمعة والجماعات وبصدق الحديث وأداء الأمانات ، وينهى عن المنكرات مثل الكذب والخيانة وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والمبيعات والديانات ونحو ذلك . والغش يدخل في البيوع بكتمان الصواب وتدليس السلع ، كما يدخل في الصناعات .

منشأ الحسبة : يقول بعض المؤرخين إن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان أول محتسب إذ نهى عن الغش حين قال « من غشنا فليس منا » . ويروى أنه عليه السلام ولى سعيد بن العاص على السوق بعد فتح مكة . وولى عمر بعده أم الشفاء الأنصارية على السوق وذلك لمراقبة الغشاشين في البيع ونحو ذلك .

مهام المحتسب : أعماله كثيرة تشمل نواحي أدبية ودينية وعمرانية وأخلاقية ، ولا تجد في الوقت الحاضر موظفاً حكومياً أو دائرة رسمية لها سلطة شبيهة بسلطة المحتسب ، فإنه يشبه رئيس البلدية ومدير الإعاشة ورئيس الشرطة الأخلاقية ، ومدير الشئون الاجتماعية وغير ذلك من الوظائف .

فكما ينظر المحتسب في مراعاة الأحكام الشرعية ، والسهر على إقامة الحدود على مستحقيها ، تمتد سلطته إلى الإشراف على الأسواق فيتفقد اللحوم والمأكول والمطبوخات ويزيل ما يبرز من الحوانيت التي تعيق نظام المرور ويحول دون مضايقة الناس في الطرقات ، ويمنع معلمى الكتاتيب من ضرب الصبيان ، ويحكم في الدعاوى المتعلقة بالغش والتدليس . ويحمل الماطلين على أداء ما عليهم من ديون ، ويمنع ارتفاع مبانى أهل الذمة على مبانى المسلمين .

وقد تطورت الحسبة بتطور البيئات والعصور ، فكانت لها في الأندلس خطة تسمى (خطة الاحتساب) . وكان لها في عهد الفاطميين نواب يطوفون في الأسواق ، ويعاقبون فوراً من يرتكب المخالفات ، ويستعينون بالشرطة لتنفيذ ما يروونه مناسباً من الأحكام .

ثامناً : نظام الزراعة والصناعة والتجارة :

(ا) الزراعة :

دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العناية بالزراعة والغرس ومن ذلك قوله « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ » (١) .

وقد حمل هذا المؤمنون على الاعتناء بأراضيهم الزراعية واستخراج خيراتها وكان الإصلاح الزراعي قسمة عادلة بين الدولة والملاك . وقد وجهت الدولة الإسلامية عنايتها بوسائل الري ، فأنشأت القنوات وبنيت السدود .

وبلغ من عناية الخلفاء الراشدين بالزراعة والفلاحة أنه في حركة الفتوح لم يتعرض للفلاحين بشئ من الضرائب ، فقد أوصى أبو بكر خالد بن الوليد عندما وجهه إلى فتح العراق بالألا يأخذ من الفلاحين والزراع أى شئ من المال ، بل يقر الذين لم يحاربوا منهم ويكفل حمايتهم وحماية أراضيهم . ولما انتقلت الخلافة إلى الأمويين ، اهتموا بإصلاح وترميم شبكات الري التي وجدوها في البلاد المفتوحة وخاصة في الشام ويؤثر عن الخليفة يزيد أنه أمر بحفر مجرى نهر يزيد في دمشق لإرواء الأراضي المرتفعة التي لم تصلها مياه بردى .

كما اهتموا بتجفيف المستنقعات ، وقد فعلوا ذلك في البطائح وهى مستنقعات في أسفل العراق بين البصرة والكوفة .

وبالإضافة إلى ذلك بنوا السدود وشقوا القنوات والترع والأنهار وأقاموا عليها الجسور والقناطر وبذلوا في سبيل ذلك أموالاً طائلة واستخدموا فيها عدداً كبيراً من العمال .

وقد اهتم العباسيون بشئون الزراعة فراقبوا أمورها مراقبة دقيقة فجددوا حفر القنوات القديمة واستحدثوا قنوات جديدة وعملوا على شق الجداول وترميمها وعلى جميع أعمال الري التي تتوقف

(١) الترغيب والترهيب (للمندرى) .

عليها الحاصلات الزراعية . وقد كتب أبو يوسف رئيس
القضاة في عهد الرشيد كتاباً عنونه إلى الخليفة
يبين فيه أن من واجب الحكومة تشييد الجداول الجديدة على نفقتها الخاصة
لتحسين الزراعة وتنظيف الجداول الحالية وترميمها والاشتراك في التعاون
مع الشعب في تحمل نفقات صيانتها وتوزيع المياه . كما يوصى بتشكيل
شرطة نهريّة ذات كفاءة ممتازة . ويبلغ من اهتمامهم بالرى أن أوجدوا له
ديواناً خاصاً عرف بديوان الماء بلغ عدد المشتغلين فيه عدة آلاف . وقد كان
للعراق نصيب الأسد من اهتمام الدولة العباسية لدرجة أنه أصبح ما بين
النهرين - دجلة والفرات - أشبه بشبكة من القنوات والأنهار وسموها باسم
(النواظم) لأنها نظمت توزيع المياه . كما أن الخلفاء عمدوا إلى تجفيف
المستنقعات في البطائح حيث رشحت بنظام ترشيح دقيق . واستثمرت في
الزراعة وكثرت حاصلاتها .

وقد زرعوا كل نوع من نباتات في التربة الصالحة له ، بعد أن درسوا
صلاحية كل تربة لأنواع النباتات المختلفة ، وبذلك أمكن استغلال الأراضي
الزراعية أحسن استغلال . واعتنوا أيضاً بتحسين الأرض عناية كبيرة ،
بعد أن عرفوا السماد الجالح لكل نوع من النباتات ، فزاد محصول الأرض
تبعاً لذلك زيادة واضحة .

وعرفوا إلى جانب ذلك التلقيح ، وكذلك تطعيم بعض الأشجار من
بعض لاستخراج أصناف جديدة . كما أحضروا إلى بلادهم أنواعاً جديدة
من الأشجار ، وأبدعوا في تنسيق الحدائق ، وعنوا عناية عظيمة بالأزهار
تصدير عطورها ودهونها وعصيرها ، لذلك راجت في شيراز ودمشق وغيرها
صناعة المستخرجات العطرية من الورد والبنفسج .

ومن أنظمة أساليب استثمار الأرض في العصور الإسلامية وبالذات
لعهد العباسي الإيجار . أو أن تبنى الأرض من قبل صاحبها ثم تعهد إلى
فلاح بالزراعة أو تبنى ويشرف عليها صاحبها وتحصد من قبل الفلاح وهذا
ما يدعى بالمخايرة . وفي كلتا الحالتين يحتفظ الفلاح لنفسه بجزء معين من
لحصول . وهناك أيضاً المغارسة وهي أن يعطى صاحب الأرض أرضه
للفلاح يفرسها بالأشجار ويستفيد منها خلال سنوات معدودة وينال نصف

الأرض المغروسة عند انتهاء مدة العقد . أما المساقاة فهي أن يعطى المالك بستاناً للنخيل ليروى ويسمد ويصان ويحمى من الطيور أو اللصوص مقابل حصة من الثمار بعد جنيها وتجفيفها . ويقدم المالك الآلات ودواب الحمل وغير ذلك .

أما عن الحاصلات الزراعية فكانت كثيرة ومتنوعة ، ويرجع ذلك إلى تعدد أقاليم الدولة الإسلامية واختلاف جوها . ومن أشهر حاصلات الحبوب فيها الحنطة التي كثرت في العراق وبلاد خوزستان ، والذرة التي كثرت في جنوب الجزيرة العربية وجنوب مصر وفي بلاد النوبة . ثم الأرز الذي يزرع حيث يكثر الماء ، كما في خوزستان لكثرة المستنقعات فيها .

ومن الأشجار المثمرة والفواكه : النخيل والبن والكرم والتين والزيتون والخوخ والكمثرى والمشمش والجوز والسفرجل والرمان والكرز والبطيخ والتفاح . ومن المزروعات الصناعية : القطن وقصب السكر والكتان والنباتات التي يستخرج منها مواد الصباغة كالنييلة والقرمز والزعفران .

ب - الصناعة :

لم يهتم سكان شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بالصناعة ، فقد اعتمدوا في حياتهم بالدرجة الأولى على التجارة وتربية المواشى ومن بعدهما على الزراعة ومن ثم على الصناعة إلا أنها كانت ضعيفة وبسيطة . أما في صدر الإسلام فقد شغل العرب بالفتوحات وعندما استقرت الأحوال السياسية والاقتصادية في العهد العباسي اضطر المسلمون إلى تعلم مختلف الصناعات والارتزاق منها . وقد نشطت الصناعة وازدهرت . وكان من أسباب ذلك ارتفاع مستوى المعيشة ، وكثرة الأموال ونشاط التجارة واكتمال رقى الدولة الإسلامية . وبذلك يقول ابن خلدون : « وبقدراً تزيد عوائد الحضارة وتستدعى أحوال الترف تحدث صنائع ... إن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو بفسوخ الحضارة وطول أمدها والصنائع منها البسيط ومنها المركب ، والبسيط هو الذي يكون للكليات . »

وارتفعت الصناعة بتوالي الأجيال ، وامتازت كل منطقة إسلامية

بصناعات خاصة بها . وأهم الصناعات التي اشتهرت بها البلاد الإسلامية :

- ١ - صناعة الحديد : في فارس وإفريقية وصقلية .
- ٢ - النحاس الأصفر : في أصفهان وبخارى .
- ٣ - الذهب والفضة : في مصر والسودان .
- ٤ - صناعة السكر : في البصرة والأندلس وخراسان .
- ٥ - صناعة الحرير : في خوزستان ومرو .
- ٦ - صناعة القطن : في فارس وما وراء النهر وفي كابل بأفغانستان .
- ٧ - صناعة الكتان : في مصر .
- ٨ - العطور : في فارس والعراق والشام .
- ٩ - الورق : في سمرقند ببلاد ما وراء النهر ثم انتقل إلى الشام .
- ١٠ - السجاد : في فارس وبخارى وأرمينية ثم انتقلت إلى أزمير .

هذه نبذة مختصرة عن الصناعات بشكل عام وسنتناولها بمزيد من التفصيل في الباب الثالث إن شاء الله .

ج - التجارة :

كان للعرب معرفة بالتجارة قبل الإسلام وخبرة بها ، وقد ساعدتهم على ذلك موقع الجزيرة العربية الممتاز ، فالجزيرة تحتل مركز القلب من لعالم القديم ولا يمكن أن يتم اتصال في البر والبحر إلا عن طريقها وبواسطة سكانها . ولما جاء الإسلام واتسعت الفتوحات وارتقت الزراعة والصناعة ، شطت التجارة ونمت واتسعت باتساع الفتوحات وازدياد رقعة الدولة الإسلامية حتى بلغت أوجها في العصر العباسي .

وكان من أهم أسباب ازدهار التجارة في العالم الإسلامي :

- ١ - اتساع مساحة البلاد الخاضعة لسلطة العرب المسلمين ، فكانت تقدر مساحتها بثلاثة ملايين ونصف مليون ميل مربع أي نحو مساحة أوروبا كلها .

٢ - وحدة النقد مما سهل التعامل التجاري بين مختلف أنحاء الدولة .
٣ - رقى الصناعة وتقدمها وكثرة إنتاجها ، مما دفع التجار إلى تصريف الفائض .

٤ - ارتفاع مستوى المعيشة وحياة الرخاء والبذخ والترف .

٥ - كثرة الأموال واتساع الثروات .

٦ - نشوء الدويلات المستقلة ، وسعى كل منها إلى التشبّه بالدولة الأم .

فأصبح للمسلمين صلات تجارية مع معظم بلاد العالم ، وامتدت تجارتهم إلى الشرق حتى وصلت إلى الفلبين والصين وإلى الغرب حتى وصلت إلى بلاد الفرنجة ، وإلى الشمال حتى وصلت إلى بلاد الروس ، التي ظلت إلى ما بعد الحروب الصليبية ، هي الطريق بين شمال أوروبا والشرق ، وإلى الجنوب حتى وصلت إلى نيجيريا والحبشة وسواحل إفريقيا . وسرعان ما أصبح كثير من البلاد الإسلامية ، مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجاري البرى والبحرى ، ومن أهم هذه المدن : بغداد والبصرة ، والقاهرة والإسكندرية ، وسيراف وأصفهان ومرافئ الشام كطرابلس وصيدا وبيروت . وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكمالية على الأقل .

ومما ساعد العرب في رحلاتهم البحرية مهارتهم في ركوب البحر ، ومعرفتهم بالبوصلة والانتفاع بها ، فتمكنوا من ارتياد البحار في جراحة ومهارة فائقة ، حتى ملكوا في أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب وحملت سفنهم وقوافلهم المنسوجات والأطياب والتمور والسكر والقطن وأنيب الزجاج إلى أقاصى آسيا وإفريقية ، وعادت منها محملة بالتوابل والكافور والحرير من أقاصى القارة الآسيوية ، والعاج والأبنوس من القار الإفريقية .

أساليب التعامل التجاري : جرت العادة أن يتجمع أصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد في حى أو عدد من الأحياء الخاص مؤلفين بذلك سوقا وكانت تقام للتجار الأغرأب خانات أو فنادق . كما أنشأ التجار في كل مركز تجارى هام نقابة مسئولة عن مراقبته معاملات التجار

ومنع الغش والتدليس . وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الممتازين
ويسمى برئيس التجار . أما البيع فكان يتم وفق الشريعة الإسلامية .

وقد عرف نظام الرهون والودائع ، فالرهن يكفل للدائن دينه على تاجر
سافر لا يعرف عن أخباره شيئاً . أما نظام الودائع فهو تأمين للبضائع التي
لا يستطيع التاجر أن يحملها معه أو لا يكون أمناً عليها في مخزنه الخاص .
ويفضل أن يوجد شهود في كلتا الحالتين .

وقد أدى نشاط المسلمين التجارى إلى ابتكار بعض النظم التجارية
والمالية التي عرفت في أوروبا عنهم ، وقد أثبت بعض العلماء أن أول من عرف
نظام الحوالات المالية هم المسلمون ، وعندهم أخذتها أوروبا في القرن الرابع
لهجرى عن طريق أسبانيا وإيطاليا . مما دعا المستشرق الفرنسى ماسينيون
إلى القول بأن أصل نظام المصارف فى أوروبا إنما يرجع إلى المسلمين : ذلك
بأن اتساع التجارة استدعى قيام مؤسسات أو شركات مصرفية ، فكان
لتجار وكلاء أو عملاء فى أهم المدن التجارية ، يكتبون إليهم بحال السوق
فى الأقاليم التى يكونون فيها ، ويقرضونهم المال ، فيكتب أولئك التجار
لصيافة صكوكاً بديونهم بدلاً من أن يدفعوا إليهم نقداً ، إذ كان التجار ،
إدرا ما يدفعون المبالغ نقداً . وشاعت طريقة هذه الصكوك فى البصرة ،
فكان يوقع على الصك - أو وثيقة الدفع والدين - شاهدان فأكثر ، ثم تختم
بالشمع أو بنوع من الطين يثبت على الصك نفسه . وكثيراً ما كان التجار
يلجئون إلى تصفية الديون بطريقة التحويل من شخص إلى آخر فى المدينة
نفسها أو بين مدينتين مختلفتين .

ومما لا شك فيه أن المسلمين استفادوا من تجارتهم فضلاً عن الغنى
والثروة المالية ، خبرة بشئون الحياة ومعرفة أخلاق الناس وأصبحت
التجارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، مظهراً من مظاهر أبهة
الإسلام ، وحضارته ولها السيادة فى البلاد ، وغدت السفن الإسلامية
قوافل المسلمين تجوب كل البحار واحتلت المكان الأول للتجارة العالمية .

ونشأ عن هذا التقدم الحضارى ، ازدهار أحوال الجاليات

الاسلامية فى كثير من البلاد التى تغلب عليها غير المسلمين ، فكان
يرأسهم مسلم ، ولا يقبلون حكم غير المسلم فيهم ، ومن هذه الجاليات
ما كان فى بحر الخزر والهند والصين بل وكوريا وغانة •

الفصل الرابع

النظام المالى

يتناول هذا البحث التنظيم المالى فى الدولة الإسلامية ويشمل هذا التنظيم : بيت المال (خزانة الدولة) وتطوره ، والموارد التى تصب فى هذا البيت وبالتالى سبل إنفاقها . وفيما يلى عرض موجز لكل من هذه التنظيمات :

(١) **التعريف ببيت المال** : ونقصد به بيت مال الدولة ، ولا نعنى بذلك البناء الذى تجرى فيه حساباتها ، بل إن هذا الاصطلاح يطلق مجازاً أيضاً على مال الدولة ، وهو أشبه بخزينة الدولة العامة ، ويشبه وزارة المالية فى العصر الحاضر ، وهو يشمل النظر فى كل ما يتعلق بأموال الدولة من خراج وصدقة وأعشار وأخماس وجزية وغير ذلك ، وسمى فى العصر العباسى باسم (الديوان السامى) ، كما سُمى فى نفس العصر باسم (ديوان الأئمة) ، ويقال : إن الذى أنشأه هو الخليفة المهدي العباسى (١٥٨ - ١٦٨ هـ) ، وقد سُمى ديوان الأئمة فى العاصمة ، وديوان الزمام فى الولايات .

وهذا الديوان هو أصل الدواوين ومرجعها عندهم ، وعادة يكون مقره فى عاصمة الدولة الإسلامية ، ويشرف عليه الإمام بنفسه أو من ينوب عنه .

مهمة بيت المال : تتمثل مهمة بيت المال فيما يلى :

تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصروفاتها . وفى بيت المال يحفظ المال لصيانته ، وحتى يكون التصرف منه لصالح الجماعة الإسلامية . وفى الجرائد^(١) تُثَبَّت جميع أصول الأموال السلطانية مع أصنافها من عين وغلال وفئ وغنائم وأعشار وأخماس ، ويثبت ما تحصل من ذلك ، وتُتَّخَذُ

(١) الجرائد هى نوع من السجلات المالية .

بيوت لأصناف الأموال ، ويُجَعَلُ عليها حراس .

فالأموال والقماش لها ديوان الخزانة . ويجب أن يكون هذا الديوان تحت مباشرة قضاة المسلمين بلا نُوب عنهم ، ومعهم أمناء أكفاء من أقوى الناس ديانة وعفة . والغلال لها ديوان الأهراء ويجب أن يكون مباشره من أكبر العدول الدينين . والأسلحة والذخائر لها ديوان خزائن السلاح ، ويكون مباشره محتسب البلد لأنه يعرف أمور الاستعمالات ، وأجور الصناعات ، وأسعار الآلات .

وكما أن بيت المال يشرف على كل موارد الدولة ، يشرف كذلك على النفقات .

تاريخ بيت المال :

(١) في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم : لم يكن للدولة الإسلامية لأول عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، نظام مالي محددة أبوابه من إيرادات ومصروفات ، إلى أن نزلت الآيات التي أوجبت على المسلمين الزكاة في أموالهم ، وبينت الفئات المستحقة لها ، وتولت السنة النبوية بيان الأموال التي تجب فيها الزكاة ، ومقدار النصاب ، والواجب فيه ، والشروط التي يجب توافرها في المزكى ، وفي المال نفسه ، فكانت الزكاة هي المصدر الأول من موارد بيت المال في الدولة الإسلامية .

ثم يأتي المورد الثاني من الموارد المالية للدولة الإسلامية ، وهو الغنائم ، فقد جاء في قوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَأُولِي السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ) (١)

ثم يجيء المورد الثالث وهو الفئ ، فيقول القرآن : (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَأُولِي السَّبِيلِ كَمَا لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (٢)

(١) الآية ٤١ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٧ من سورة الحشر .

ثم يرد المورد الرابع وهو الجزية التي فرضت على غير المسلمين في قوله تعالى: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (١).

وقد عين الرسول صلى الله عليه وسلم عمالا لجمع هذه الأموال ، يلاحظ أنه لم يكن هناك بيت مال في عهد الرسول ، لكى تودع فيه هذه الأموال ، إذ كانت الأموال تجمع وتصرف في الحال على مستحقيها وكان من سياسة النبي صلى الله عليه وسلم ، ألا يؤخر تقسيم الأموال أو إنفاقها وجهها ، لذلك لم يكن هناك مال مدخر .

(٢) في عهد أبى بكر (رضى الله عنه) : لم يختلف النظام المالى في عهده رضى الله عنه عما كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكانت لموارد في عهده هى نفس الموارد التى كانت موجودة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد سار أبو بكر على نفس السياسة المالية التى سار عليها لرسول صلى الله عليه وسلم ، فسوى في العطاء بين الناس ، لأن ما كان يعطيه لهم فهو معاش .

وكانت سياسته إذا ما ورد المدينة (عاصمة الدولة الإسلامية) مال من بعض البلاد ، أحضره إلى مسجد الرسول ، وفرقه بين مستحقيه . وأتاب عنه في العام الأول من حكمه (أى سنة ١١ هـ) أبا عبيدة بن الجراح وقال له : « أنا أكفيك المال » . والسبب في التكليف هو انشغال أبى بكر في حروب المرتدين عن الإسلام .

(٣) في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

لما توفى أبو بكر رضى الله عنه في السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، جمع عمر رضى الله عنه الأمناء وفتحوا الخزانة التى كانت في منزل أبى بكر - ويمكن أن نعتبرها نواة لبيت المال - فلم يجدوا فيها شيئاً غير دينار واحد .

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبة .

ومعنى ذلك أنه لم يكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا في عهد
أبى بكر رضى الله عنه بيت مال . لكن الأحوال تغيرت في عهد عمر بن
الخطاب ، فقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، واستولى المسلمون على
أراضى كسرى وقيصر ، فكثرت الأموال كما كثر عدد الجند ، وأصبح من
العسير ضبط الأموال بدون كتاب (سجل) .

ولما اتسعت أرجاء الدولة الإسلامية بحيث شملت مساحات واسعة
جدا من البقاع ، كان لا بد من نظام تدار به هذه الدولة الواسعة ، ومن
وضع قواعد ثابتة للاستقرار ، ومن أجل هذا أنشأ عمر رضى الله عنه
الديوان . وعين عبد الله بن الأرقم أمينا له . وجعل لكل ولاية أمينا لبيت
المال ، له اختصاصات مستقلة عن عمل الوالى والقاضى ، ورتب لكل بيت
مال حرساً خاصاً لحراسته . واستمر الحال كذلك في عهد خلافة كل من
عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما .

وكان بيت المال يعتبر في عصر الراشدين ملكاً للمسلمين عامة ، لكل
منهم نصيب فيه ، ينال كل محارب أو موظف مقدارا معيناً منه كل شهر .
ولكن الأمويين اعتبروه ملكاً لهم يتصرفون فيه كيفما يشاءون فترى مثلاً
معاوية بن أبى سفيان قد وهب خراج مصر إلى عمرو بن العاص طيلة
حياته ، كذلك غير هذا الخليفة النظام المالى للدولة الإسلامية ففصل
(الصوافى (١)) عن بيت المال وجعلها للخليفة .

وإذا حاولنا كتابة تاريخ بيت المال من الوجهة العملية ، لكان معنى
ذلك تدوين تاريخ الحياة المالية لجميع الأقطار الإسلامية ، وليس هذا
ميسوراً .

واكتسبت فكرة بيت المال - شأن جميع النظم الأولى في التاريخ
الإسلامى - أهمية كبيرة ، بتطور الفكر الإسلامى ، (وكل ما يرد لبيت
المال مما نص عليه ، اعتُبر شرعياً ، في حين اعتبرت الموارد الأخرى للدول
مكوساً ، أى موارد غير شرعية) .

(١) الصوافى هي عبارة عن الأراضى التى كان يمتلكها كسرى وأهله بالإضافة إلى الأراضى التى
أصحابها في أثناء المعركة ، وعمم معاوية الصوافى على جميع أنحاء الدولة الإسلامية

أنواع بيت المال : ولما كان من الأمور المقررة ، أن الدولة الإسلامية ، ملك للمسلمين جميعاً ، فقد قضى - منذ صدر الإسلام - بالفصل بين (بيت المال العام) وبين خزانة الخليفة وهي المسماة (بيت مال الخاصة) . ولكن لما كان الذى يتولى الإنفاق من هاتين الخزانتين ، رجل واحد ، لا يقدم حساباً لأحد ، فقد كان مدى انفصالهما مسألة تتعلق بضميره^(١) ، ولذلك ترددت بعض الحكايات تبين مقدار عناية كل من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، بالفصل بين مال المسلمين ، ومالهم الخاص ، وكان هناك توازن بين بيتى المال ، فكان إذا ما نفذ ما فى بيت المال العام ، يجب على بيت مال الخليفة أن يمد يد المعونة، حتى لا تفلس الدولة .

علاقة بيت المال بدرجة الرقى الحضارى :

الحضارة الإسلامية بلغت أوج عظمتها فى القرنين الثالث والرابع الهجرى ، وليس معنى ذلك أن أمة الإسلام ، لم تكن لها حضارة قبل هذا التاريخ ، إنما أمة الإسلام نبعت حضارتها من أصول وأسس ، كان لكل منها دوره فى نشأتها وخصائصها ومثلها .

فالقرآن الكريم هو المنبع الرئيسى الذى نبعت منه الحضارة الإسلامية ، وهو المصدر الأساسى لتلك الحضارة ، وفيه يكمن سر أصالة عظمة هذه الحضارة ، فهو كتاب الله يهدى للتي هى أقوم ، ولا يأتية لباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فيه خير البشر من جميع الوجوه : الروحية العقلية والاجتماعية . فهو يدعو إلى عقيدة التوحيد (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ...) هو ينظم المجتمع على أسس قويمه وسليمة ، تضمن له الرخاء والسعادة ، هو يدعو إلى التعارف والتحاب : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) ، وهو ينص على المساواة : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىكُمْ) . وهو ينصف المرأة ويؤكد حقوقها وكيانها . إلا انه عمل للرجل الفضل لقيامه عليها .

وأمرنا بالاسلام بالتسليم بقضاء الله وقدره ، والإيمان بالبعث والجزاء (١) كان للوزير فى العهد العباسى - وهو رئيس بيت المال العام - شئ من الإشراف على بيت مال الخاصة أيضاً لأنه كان يوقع فى آخر رقاع الصرف بعد توقيع كبار رؤساء الحاشية (كتاب الوزراء ص ١٤٠) .

والثواب وهو الذى وضع أسس ومبادئ التنظيم السياسى والاقتصادى
والمعاملات وبذلك وضع أسس الفلاح للبشرية ، فدعا إلى العمل والتعمير
بأقصى ما يمكن من الجهد مع مراقبة الله تعالى : (وَأَبْنِعْ فِيهَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ
الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم « اَعْمَلْ
لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا ، وَاَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا » . وحض الإسلام
على العدل فقال : (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ) .

وكما أن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ، هو ثانى شطرى
العقيدة الإسلامية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، فإن الأساس الثانى
للحضارة الإسلامية هو : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه وسننه .
وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم حية فى ضمير المؤمنين بها يهتدون ،
ومنها يأخذون القدوة الصالحة : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

وتمتاز سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها محيطة بجوانب
الحياة ، وبأنها مطبقة وليست نظريات مجردة ، وبأنها حقيقية وصحيحة
وليست أساطير وخرافات .

ولقد لعب القرآن وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم دورا أساسيا
وفعالا فى بناء الحضارة الإسلامية . ومن هذا المنطلق أخذت الحضارة
الإسلامية تنمو تدريجيا حتى بلغت ذروتها - كما قلنا - فى القرنين الثالث
والرابع الهجرى .

وعلاقة بيت المال بدرجة الرقى الحضارى تأتى من أنه يمثل الجانب
المادى فى الحضارة الإسلامية ، وهو ما يعرف بالمدنية ، وهذا الجانب
المادى فى الحضارة الإسلامية لعب دورا فعالا فى هذه الناحية : بالفتوحات
والمنشآت والإصلاحات والاهتمام بالإنتاج الاقتصادى من زراعة وصناعات
وتجارة والاهتمام بالمعارف العامة بجميع جوانبها ، والاهتمام بالنظ
الإسلامية المختلفة . كل ذلك كان الجانب المادى فيه من أهم مقوماته

فلقد بدأت الفتوحات الإسلامية منذ خلافة أبى بكر رضى الله ع
وتمكن العرب المسلمون فى عهد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه م

لاستيلاء على كل أملاك الدولة الفارسية ، وضمت بلاداً واسعة من أملاك
 لدولة البيزنطية في آسيا وإفريقية ، واستمرت حركة الفتوحات في عهد
 الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ثم نشطت هذه الحركة في عهد الدولة
 الأموية حتى بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها في عهد الخليفة الوليد بن
 عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) فامتدت من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي
 غرباً ، وضمت كل بلاد الشمال الإفريقي ، كما ضمت بلاد الأندلس وجنوب
 فرنسا وجنوب إيطاليا وكل جزيرة صقلية . ولقد ساعد الوليد على ذلك أنه
 عندما تولى الخلافة ، وجد بيت مال المسلمين عامراً بالأموال التي تركها له
 والده عبد الملك بن مروان . فاستخدمها في الجهاد وفي توسيع رقعة
 لإسلام ، وفي التعمير حتى اعتبر عهده من ألمع العصور التاريخية .

أما عن المنشآت والإصلاحات والنظم في شتى الميادين فيقصر عن
 حصائها الإلمام ، وعلى سبيل المثال فبيت المال هو الذى مكن معاوية بن أبى
 سفيان من أن يجعل من بلاد الشام ولاية تدين له بالولاء والطاعة ، حتى
 كنته من الحصول على الخلافة ، وتأسيس الدولة الأموية ، التي حكمت
 واحداً وتسعين سنة (٤١ - ١٣٢ هـ) وبرز من بنى أمية خلفاء خدموا
 لدولة الإسلامية ، بما قاموا به من منشآت وإصلاحات أمثال عبد الملك بن
 مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) ، الذى أصلح نظام البريد الذى أنشأه معاوية ،
 كما بنى المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة في فلسطين ، كما اهتم
 بالأسطول الذى أنشأه معاوية بعد موافقة الخليفة عثمان بن عفان رضى الله
 عنه ، وجاء بعده ابنه الخليفة الوليد بن عبد الملك الذى لم
 يبلغ الدولة الإسلامية في عهده أقصى اتساعها فحسب ، بل إنه كان خليفة
 ببناء فأنشأ المسجد الأموي بدمشق وأكمل مسجد قبة الصخرة ، وأعاد بناء
 مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، واهتم بالمسجد الحرام ، واهتم ببناء
 لبيمارستانات (المستشفيات) . وفي خلافة عمر بن عبد العزيز كثرت
 لأعمال العمرانية والإصلاحات لصالح المسلمين حتى أن المؤرخين أطلقوا
 عليه اسم (الخليفة الراشد الخامس) .

أما بالنسبة للدولة العباسية ، التي بلغت في عهدها الحضارة

الإسلامية أوج عظمتها فذلك سببه وفرة الأموال في بيت مال المسلمين بعدما توقفت الفتوحات فكان الخليفة المأمون بن الرشيد يعطى وزن الكتاب المترجم إلى العربية ذهباً ، وكان سخاؤه وبذله هو وكثير من خلفاء بني العباس ، للأموال الطائلة في سبيل العلماء والمترجمين ، سبباً في حمل الكثير من غير العرب ، بل من غير المسلمين أن يقوموا بخدمة الخلفاء في هذا الميدان ، فتقاطر على بغداد المترجمون من أنحاء العراق وفارس والشام وغيرها ، رغبة في الحصول على الأموال الكثيرة فضلاً عن أن الخلفاء جعلوا لهم الرواتب الثابتة ، وبالغوا في إكرامهم .

ولقد بهرت أعمال العرب الحضارية في الأندلس كل أوربا ، فالعرب المسلمون عندما فتحوا الأندلس سنة ٩٢ هـ ، لم تكن معهم أموال ، ولكنهم بعدما استقروا في البلاد ، استطاعوا أن يحولوا أسبانيا مادياً وثقافياً في عدة قرون ، ويجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية ، لأنهم كانوا (أئمة العرب) متمسكين بالأسس القويمة التي رسمها لهم الإسلام .

ففى أقل من قرن من الزمان أحيوا موات الأرض هناك ، وعمرو خراب المدن وشيدوا أفخم المباني ، ووطدوا وثيق العلاقات التجارية مع الأمم المختلفة . ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ، ويترجموا كتب اليونان واللاتينيين وينشئون الجامعات التي ظلت ملجأ للثقافة في أوروبا زمناً طويلاً . وأخذت حضارة العرب تنهض في الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الناصر (٢٠٠ - ٣٥٠ هـ) فعدت قرطبة أرقى مدن العالم لمدة ثلاث قرون . ومن مظاهر الحضارة الإسلامية في الأندلس أن الخليفة الناصر أنشأ جامع قرطبة الشهير الذي يعد من عجائب الدنيا ، وصار هذا الخليفة ينفق دخل بيت المال في إصلاح البلاد وعمرانها بدلاً من إنفاقه في الغزوات البعيدة ونسج خلفائه على منواله .

وظلت الأندلس العربية ينبوعاً للحضارة لا ينضب ، اعتمدت على أوروبا اعتماداً كلياً عند إنشاء حضارتها . وبعد انتهاء حكمهم لها بسقوط غرناطة سنة ٨٩٢ هـ . في يد ملك أرغونة الكاثوليكي ، بدأت سيادة الاضطهاد والتعذيب للمسلمين في الأندلس ، وعملت محاكم التفتيش جاهدة

على القضاء على المسلمين بالتعميد (التحويل إلى النصرانية) أو الطرد من البلاد ، حتى خسرت الأندلس كما يقول المؤرخون الأجانب حوالى ثلاثة ملايين من البشر . ويقول المستشرق الفرنسى غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » : « ومما يرثى له أن أسبانيا حرمت عمداً من هؤلاء الملايين الثلاثة ، الذين كانت لهم امامة السكان الثقافية والصناعية ، وكان من نتيجة هذه المظالم أن هبطت أسبانيا الى أسفل دركات الانحطاط ، بعد أن بلغت قمة المجد » .

ب - موارد بيت المال :

أهم واردات بيت المال هى : الزكاة ، والخراج ، والجزية ، والغنيمية ، والفيء ، والعشور ، وموارد أخرى كريع المناجم والموارىث الحشرية .

١ - الزكاة :

الزكاة فريضة فرضها الله على المسلمين وهى أحد أركان الإسلام الخمسة وتسمى أيضاً الصدقة . يقول سبحانه وتعالى لنبيه : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِلَاةَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ) (١) بمقتضى الآية الكريمة أمر الله نبيه أن يأخذها من أموال الأغنياء ليردها على الفقراء .

أما مقادير الزكاة وتحديداتها فقد عرفت بالسنة النبوية لا بنص القرآن ، حيث حددت :

أ - زكاة السوائم أو المواشى (الإبل والغنم والبقر) . فالإبل إذا أصبح عددها بين ٥ - ٢٥ يؤخذ شاة عن كل خمسة منها . وإذا أصبحت بين (٢٦ - ٧٥) يؤخذ ناقة واحدة تختلف سننها باختلاف عدد الإبل .

أما الغنم ، فيؤخذ منها شاة إذا كان عددها بين ٤٠ - ١٢٠ ثم يكون فى كل مئة شاة واحدة . أما البقر فلا يؤخذ منها إلا إذا بلغ عددها (٣٠) فيؤخذ منها تباع أو تبيعة (وهو ما أوفى سنة) ، وإذا كانت ٤٠ فيؤخذ مسن

(١) الآية ١٠٣ من سورة التوبة .

(ما أوفى سنتين) ثم إذا كانت (٦٠) فضعف ما يؤخذ عن الثلاثين .

ولا زكاة في الخيل والبغال والحمير إلا إذا كانت للتجارة ففيها زكاة للتجارة . ولا تؤخذ الزكاة عن المواشى إلا إذا حال عليها الحول (أى مرور عام على الأقل على ملكيتها) كما لا تؤخذ إذا علفها صاحبها .

ب - زكاة النقدين (الذهب والفضة) ولا يؤخذ عليهما زكاة إلا إذا حال عليهما الحول وبلغا النصاب أى ٢٠٠ درهم للفضة و ٢٠ مثقالا للذهب ومقدار الزكاة ٢,٥ بالمائة .

ج - زكاة التجارة : يؤخذ عنها ٢,٥ بالمائة بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب أو الفضة وأن يحول عليها الحول .

د - زكاة المعادن والركاز : وهما مال وجد تحت الأرض سواء أكان مما ركزه الله في الأرض ثم لقيه أحد من البشر ، أو كان كنزاً تركه بعض الناس . فإذا وُجد في أرض الحرب ففيهما الخمس (أى مثل الغنائم) وإذا كانا في أرض السلم ففيهما الزكاة أى ٢,٥ بالمائة .

ه - زكاة الزرع والثمار : لا يدفع عنهما زكاة إلا إذا بلغا حداً معيناً . وحكم زكاتهما العشر إذا كانت الأرض تسقى بالمطر أو المياه الجارية ، ونصف العشر إذا كانت تسقى بالإنسان أو بواسطة أخرى تكلف نفقات .

٢ - الخراج :

وللخراج مقدار معين من المال أو الحاصلات ، يفرض على الأراضى التى صولح عليها المشركون . ويؤخذ الخراج :

(١) عن الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة ، إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين أو المجاهدين ، وغالباً ما كان ذلك يتم باسترض المجاهدين أو بتعويضهم عن نصيبهم كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله

عنه . فقد أعلن بعد جدل ونقاش مع الصحابة أن الأرض المفتوحة هي ملك جميع المسلمين وليست ملكاً للمقاتلين منهم فقط ، ولذا أبقى عليها أهلها مقابل « خراج » يدفعونه للدولة .

ب (عن الأراضى التى أفاء الله بها على المسلمين ، فملكوها صلحاً أى بدون قتال » على أن يدفعوا خراجاً معلوماً إلى بيت المال .

ج (عن الأراضى الموات التى أحيها المسلمون وكانت فى أرض خراج ولم يحتقر لها بئر أو يعمل لها قناة .

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من حاصلات زراعية أو غلال أو أموال قدية ، وإما حصة معينة مما يخرج من الأرض ، اصطلاح على تسميتها فيما بعد « بالمزارعة » أو - المعاملة ، فهذه أرض السواد بالعراق ، قدرت فيها ضريبة الفدان المزروع قمحاً فى عهد عمر بن الخطاب بأربعة عشر درهماً وتلك أرض خيبر على عهد النبى صلى الله عليه وسلم حيث عامل أهلها على نصف ما يخرج منها قليلاً أو كثيراً .

ولم تكن قيمة الخراج ثابتة ، بل كانت متغيرة تبعاً لوسائل الرى وجودة الأرض . وبحسب الأسعار والأزمنة وحاجة الدولة .

وكان الخراج يقوم على أساس مساحة القرية كلها ، أو على أساس المساحة المزروعة ، أو على أساس تقويم الانتاج ، وقد أبطلها المقتدر (٢٩٥ هـ - ٣١٠ هـ) لما فى ذلك من إجحاف بحق الفلاحين فى السنين العجاف .

وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ، ويحاسبون الولاة وعمال الخراج حساباً عسيراً ، وقد سن الأمويون نظاماً **دقيقاً** للإشراف على جباية الخراج ، فكان يعمل تحقيق مع الجباة وموظفى الخراج عند اعتزالهم أعمالهم ، ويردون إلى بيت المال ما سلبوه من الأموال وهو ما يسمى بالاستخراج أو التكشيف .

والخراج لا يتناول نوعين من الأراضى ، التى يكتفى أصحابها بدفع عشر محصولاتها وغلالاتها ، وهما :

١ - الأرض العشرية التي أسلم أهلها وهم عليها دون قتال .

ب - الأرض التي ملكها المسلمون عنوة وقسمها الخليفة على المجاهدين .

٣ - الجزية : وهي مبلغ معين من المال توضع على الرءوس ، وتسقط بالإسلام ، وقد ثبتت بنص القرآن بقوله تعالى : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (١) .

والفرق بين الجزية والخراج ، أن الخراج على الأرض ولا يسقط باعتراف الإسلام . ثم إنه استنبطت أحكامه بالاجتهاد لا بنص القرآن .

والأصل في فرض الجزية على الذميين هو التوازن في الدولة عن طريق التكافؤ فالمسلمون والذميون في نظر الإسلام رعية لدولة واحدة ، ويتمتعون بحقوق واحدة ، وينتفعون بمصالح الدولة بنسبة واحدة ومن هنا فرضت الجزية على أهل الذمة مقابل حماية المسلمين لهم وهي مقابل فرض الزكاة على المسلمين .

هذا وكانت الجزية تفرض على جميع الذكور الذميين القادرين على دفعها فلا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ الطاعنين بالسن ، الذين لا يستطيعون العمل ولا من العميان والمقعدين والمجانين ، ولا من رجال الدين إلا إذا كانوا أغنياء . أي إنها فرضت على كل الأشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد .

أما مقدار الجزية فلم يكن ثابتاً زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه ثم عيناها عمر رضي الله عنه . ولكنها عدلت بعد ذلك فكانت ٤٨ درهماً في السنة على الأغنياء ، و ٢٤ درهماً في السنة على متوسطي الحال ، و ١٢ درهماً في السنة على الفقراء بشرط أن يكونوا متكسبين ذوة حرفة .

وقد حثت السنة قادة المسلمين على الرفق والإنصاف في جباية الجزية من الذميين ، وحماية أرواحهم وأموالهم من عبث الجباة . والأدلة كثيرة على

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبة .

حسن معاملة المسلمين في صدر الاسلام لأهل الكتاب تشهد بروح العدل والرفق والشعور النبيل نحوهم ، ولقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ فَأَنَا حَاجِبُهُ » .

٤ - الغنيمة :

هى ما يغنمه المسلمون ويأخذونه من الأعداء وهى على أربعة اقسام : أسرى وسبى وأرضين وأموال منقولة . فالأسرى : هم المقاتلون الذين يقعون فى الأسر . واختلف فى حكمهم منها قبول الفدية عنهم أو قتلهم أو أن يمن الخليفة عليهم بإطلاق سراحهم . أما السبى فهم النساء والأطفال الذين يقعون فى أيدي المسلمين ولا يجوز قتلهم . أما الأرض التى يستولى عليها المسلمون عنوة وقهراً فتقسم بين الغانمين ، إلا أن يطيبوا نفساً بتركها فتجعل وقفاً على مصالح المسلمين . والأموال المنقولة هى ما يمكن نقله كالنقود والماشية .

وحيث تجمع الغنائم يقسمها الإمام خمسة أسهم أربعة أخماس للمقاتلين وخمس للرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . وذلك حسبما جاء فى قوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) .

٥ - الفئ :

وهو كل مال كسبه المسلمون عفواً دون قتال ، ويقسم أيضاً خمسة أخماس . ويكون خمسها الأول مقسوماً إلى خمسة أسهم كالغنيمة ، فالسهم الأول منها لرسول الله والأسهم الأربعة الباقية لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل عملاً بقوله تعالى : (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) .

٦ - العشور :

يرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويروى

قصة ذلك القاضي أبو يوسف : بأن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب : دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا (أى تأخذ العشور) فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه به ، فكان أول من عشر أهل الحرب ، وبعث زياد بن جدير على عشور أهل العراق والشام . ومن ثم كانت العشور تؤخذ في الإسلام على أنها ضرائب على بضائع التجار غير المسلمين (الكفار) حين ينقلون بضائعهم من دار الحرب (أى ديارهم) إلى دار الإسلام (أرض المسلمين) وهى أشبه بالمكوس أو الضرائب الجمركية في الوقت الحاضر . وكانت أحياناً تقل عن العشر أو تزيد حسب الظروف وتبعاً لرأى الإمام ، كما له أن يدفع ذلك عنهم نهائياً . إذا رأى المصلحة فيه ، بعد مشورة أولى العلم . والعشر يؤخذ مرة في العام ، حتى لو تكرر قدوم التاجر خلال السنة .

أما بالنسبة للتجار الذميين الذين يردون إلى دار الإسلام ، فيؤخذ منهم نصف العشر ، ويؤخذ من التجار المسلمين ربع العشر ، إذا بلغ ثمن السلعة مائتى درهم فأكثر .

٧ - ريع المناجم الحكومية :

يشير الفقهاء في بعض تفصيلاتهم إلى ما سمي بالمعدن والركاز وهما مال وجد تحت الأرض ، سواء أكان مما ركزه الله في الأرض من معادن أو غيرها أو كان كنزاً تركه بعض الناس وفيه يقول الحسن البصرى : « ما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس . وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة وهو ربع العشر » .

٨ - المواريث الحشرية :

(مواريث من لا وارث لهم) فكان يضم كل ما كان يملكه الشخص من هذا النوع الى بيت مال المسلمين .

ج - مصارف بيت المال :

إن مصارف بيت المال متنوعة إلا أنه بالإمكان تصنيفها في ثلاثة

بنود :

البند الاول : لقد جاءت موارده من الخراج والجزية وأموال تجارة الكفار وأهل الذمة . وهذه الأموال كانت تصرف في المصالح العامة مثل رواتب الخلفاء والولاة والقضاة ، والجند وبناء القناطر وإقامة الجسور وسد الثغور وحفر الترعة ، وإصلاح الأنهار وغير ذلك .

البند الثاني : وموارده من الزكاة التي تؤخذ من المسلمين وفق التشريع الإسلامي . وكان هذا البند ينفق في النواحي التي ذكرت في الآية الكريمة : (**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَامِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ**) (١) .

البند الثالث : وموارده من خمس الغنائم وينفق في الأوجه التي ذكرت في قوله تعالى : (**وَأَعْلَوْا إِنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ**) (٢) .

وبقيت أوجه الصرف بالنسبة للأعطيات الوارد ذكرها في البند الثالث سارية المفعول زمن الرسول عليه الصلاة والسلام وزمن الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه . إلا أنه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه نقل الاعتماد الخاص بالرسول وذوي القربى من هذا البند إلى مصارف البند الأول . وأصبحت نفقات البند الثالث تقتصر على ما يصرف في مصالح المسلمين العامة : كتجهيز الجيوش وسد الثغور والعمل على تقوية الدولة ، وعلى الاعتماد المخصص بهذا البند للفقراء والمساكين وابن السبيل الذي ظل في عهد عمر كما كان عليه في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

هذا ويستدل من الآيات الكريمة الخاصة بالزكاة أن هذا المورد خصص لما يسمى بلغة العصر الحاضر بالشئون الاجتماعية لأنها تنفق على الطبقات الاجتماعية التي تستحق العطف والمساعدة . فالفقير هو من لا يملك نصاب الزكاة والمسكين هو الفقير المحتاج المتعفف والسائل . ويشمل ذلك المسلمين والمعوزين من أهل الكتاب . ويستدل الفقهاء على ذلك من عمل عمر

(١) الآية ٦٠ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٤١ من سورة الانفال .

ابن الخطاب رضى الله عنه حين رأى زميئاً مكفوفاً مطروحاً على باب المدينة فأجرى عليه رزقاً مستمراً . والعاملون عليها الذين يتولون جمعها ويوزعونها على مستحقيها .

وقبل أن نأتى على نهاية مصارف بيت المال ، نورد الجدول الآتى المقتبس من مصادر شتى فيما يتعلق بميزانية المعاشات :

درهم	المدة	المخصصات
٢٥٠٠٠	سنوياً	للعباس بن عبد المطلب ينفق منها على آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .
٦٠٠٠	سنوياً	لكل واحدة من زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام .
٥٠٠٠	سنوياً	لكل من شهد بدرأ .
٤٠٠٠	سنوياً	لكل محارب جاهد فى صفوف المسلمين من بدر إلى الحديبية .
٣٠٠٠	سنوياً	لكل محارب جاهد فى صفوف المسلمين من الحديبية إلى آخر حروب الردة .
٢٠٠٠	سنوياً	لكل محارب جاهد فى صفوف المسلمين فى القادسية واليرموك .
١٠٠٠	سنوياً	لكل محارب جاهد فى صفوف المسلمين بعد اليرموك .

وتتناقص هذه المخصصات تدريجياً حتى تبلغ ١٠٠ درهم لكل من ثبت اشتراكه فى حرب من الحروب .

أما زوجات المحاربين فى المستويات المذكورة آنفاً فكانت تتراوح بين ٥٠٠ درهم سنوياً لمن جاهد فى بدر إلى ٢٠٠ درهم لمن جاهد فى اليرموك والقادسية .

د - أمثلة عن وضع بيت المال فى عهد كل من :

عمر بن الخطاب ، الوليد بن عبد الملك ، المنصور العباسى ، وعبد

الرحمن الناصر ، والمماليك .

أولا : في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) :

سبق أن ذكرنا أن عمر بن الخطاب هو أول من أنشأ « بيت المال » ، فيقول ابن خلدون في مقدمته « وأول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر بن الخطاب رضى الله عنه » . وعمر رضى الله عنه هو الذى قرر أن يكون الخراج مالا أو غلة . وقدر ضريبة الفدان المنزرع قمحا فى أرض العراق بمبلغ ١٤ درهماً على اعتبار أن متوسط جباية الجريب ٣٥٥ درهماً والفدان يساوى ٣/٢ جريباً . أما إذا دفع الزارع الغلة فتسمى المعاملة أو المزارعة كما عامل الرسول صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأرض قليلا كان أو كثيراً .

وعندما تم فتح بلاد الفرس ، ودخلت بلاد الشام ومصر وإفريقية تحت لواء الإسلام ، استبقى عمر رضى الله عنه ما كان فى هذه البلاد من دواوين خاصة بالضرائب وظل يعمل فيها موظفون من أهاليها حتى تم تعريب الدواوين فى عهدى عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك .

وعمر رضى الله عنه ، هو أول من فرض العطاء للناس جميعاً حتى للأطفال . وعلى الرغم من أن (بيت المال) فى عهده كان يضم ما لا يحصى كثرة من الأموال بسبب ما فتحه الله على المسلمين من فتوحات ، إلا أن عمر مكث زماناً لا يأكل من مال بيت المال شيئاً حتى دخلت عليه فى ذلك خصاصة ، فأرسل إلى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فاستشارهم وقال لهم : شغلت نفسى فى هذا الأمر ، فما يصلح لى منه ، فقال على رضى الله عنه : غداء وعشاء . فأخذ عمر بذلك .

فلما حج عمر سنة ٢٣ هـ ، أنفق فى حجه ١٦ ديناراً فقال عمر لابنه عبد الله : أسرقنا هذا المال ؟

ثم كتب عمر رضى الله عنه إلى حذيفة بن اليمان : أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم ، فكتب حذيفة للخليفة قائلاً : إنا قد فعلنا ، وبقي شئ

« يوزع مجازاً ولا يباع »

كثير ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه : إنه فيؤهم الذى أفاء الله عليهم ، ليس هو لعمر أو لآل عمر ، اقسمه بينهم . ويحكى أن أعرابيا جاء إلى عمر وطلب منه منحة فقال الأعرابى شعرا كالاتى :

يا عمر الخير جزيت الجنة أكس بُنيَّاتى وأمَّهنَّه
وكن لنا من الزمان جنه اقسمت بالله لتفعلنه

فلم يرتح عمر لترفقه ، ولا راعه قسمة عليه بل قال : فإن لم أفعل يكون ماذا؟ .

قال الأعرابى : إذن أبا حفص لأذهبنه .

فقال عمر : وإذا ذهبت يكون ماذا؟

قال الأعرابى :

يكون عن حالى لتسألنه يوم تكون الأعطيات هذا

وموقف المسئول بينهما إما إلى نار وإما إلى جن

فلما ذكر له الجنة والنار والموقف بين يدي المولى الجبار ، بكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه ، وقال : يا غلام ، أعطه قميصى هذا ، لئلا اليوم لا لشعره أما والله لا أملك غيره .

تصرف عمر فيما يخصه فقط ، مع أن خزائن بيت المال مملوء بالأموال وقال الفقهاء : لم يعطه من بيت المال ، لأن العطاء لم يكن لمصلحة المسلمين ، ولم يثبت عنده أن الأعرابى من جملة مصارف مال الصدقات

والمفروض أن عمر رضى الله عنه ، يعتبر قدوة للمؤمنين ، فهو يخش الله ويتقيه وبكى عندما ذكره الأعرابى بالجنة والنار ، فجاد بما يملكه ، ولا يتصرف بدرهم واحد من أموال المسلمين ، التى يجب أن تصرف لمصلحتهم

ثانياً : فى عهد الوليد بن عبد الملك :

كان الخليفة عبد الملك بن مروان هو أول من عرب الدواوين والسكة

الدولة الإسلامية ، وذلك عندما استعرت نار العداوة بينه وبين أباطرة دولة الروم . وعندما ظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتابة والحسابات نتيجة لرقى الحضارة وتمّ تعريب دواوين فارس والشام في عهده .

ولما تولى الخلافة بعده ابنه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦ هـ ، هذا الوليد حذو والده في سياسة التعريب ، فتم في عهده تحويل ديوان الخراج في مصر إلى العربية سنة ٨٧ هـ .

هذا ولقد ترك عبد الملك بن مروان لابنه دولة مستقرة موحدة ، كما ترك له بيت المال عامراً بالأموال فاستغلها الوليد لمصلحة الأمة الإسلامية في ميادين التعمير والإنشاءات والفتوحات .

(أ) أعماله العمرانية :

(١) بنى المسجد الأموي بدمشق الذي ما زال قائماً إلى اليوم وقد استغرق بناؤه تسع سنوات ابتداء من سنة ٨٧ هـ ويقول عنه ياقوت في معجمه « إنه إحدى عجائب الدنيا » .

(٢) أكمل مسجد قبة الصخرة في فلسطين وما زال هذا المسجد موجوداً إلى الآن في فلسطين المحتلة .

(٣) إعادة بناء الحرم المدني (مسجد المدينة) واستمر العمل فيه ثلاث سنوات في عهد ولاية عمر بن عبد العزيز عليها .

(٤) اهتم كذلك بالحرم المكي ، فقد قام بتوسيعه ، وبنى السور حول المسجد بالحجارة والرخام ، ووضع صفائح الذهب على باب الكعبة وميزابها ، فكان أول من ذهب البيت في الإسلام كما يقول المؤرخ الأزرقى ص ١٤٦ .

(٥) بناء البيمارستانات : لإيواء العجزة والمجنونين والعميان والمقعدين ، وأعطى لكل ضرير قائداً ، ولكل مقعد خادماً ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وفرض لهم ما يكفيهم .

(٦) عمل على إنارة الطرق في جميع مدن الدولة ، وأمر عماله بالأمصار بإعادة بناء المساجد وإصلاحها وتجميلها ، وحفر الآبار ، وإصلاح الطرق وغير ذلك .

(ب) الفتوحات في عهده : لقد بلغت الدولة الإسلامية في عهد الوليد إلى أقصى اتساعها فامتدت من الصين شرقاً حتى بلاد الأندلس والمغرب غرباً ، وضمت بلاد ما وراء النهر ، وبلاد السند ، وأوقفت الدولة البيزنطية عند حدودها بعد أن انتصرت جيوشه عليها عدة انتصارات ، وبعد أن حاصروا القسطنطينية نفسها .

ومعنى ذلك أن الوليد بن عبد الملك استغل أموال بيت المال في صالح المسلمين في جميع أنحاء الدولة الإسلامية .

ثالثاً : في عهد المنصور العباسي :

يقول السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء ص ٢٥٩ : (عندما تولى المنصور الخلافة خطب الناس قائلاً : أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ورشده ، وخازنه على فيئه ، أقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه ، وقد جعلني الله عليه قفلاً إذا شاء أن يفتحني فتحني للإعطاء ، وإن شاء أن يقفلني قفلني فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الذي وهب لكم فيه فضله أن يوفقني للصواب ويسددني للإرشاد ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ، ويفتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم بالعدل فإنه سميع مجيب) .

ومن هذا الخطاب فهم الناس بأن أمير المؤمنين أحال بخله ومنعه على ربه. ويقال إن جارية للمنصور رأت قميصه مرقوعاً ، فقالت : خليفة وقميص مرقوع فقال : ويحك أما سمعت قول الشاعر :

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه
خلق وجيب قميصه مرقوعاً

ومن حوادث بخله أن جاءه سلم الحادي فحدا به ، فطرب المنصور

حتى كاد يسقط من الراحلة ، فأجازه بنصف درهم ، فقال سلم : لقد حدوت بهشام فأجازني بعشرة آلاف ، فقال المنصور : ما كان له أن يعطيك ذلك من بيت المال .. وأمر أحد رجاله فقال : يا ربيع ، وكّل به من يقبضها منه . فما زالوا به حتى تركه على أن يحدو به ذهاباً وإياباً بغير شيء (١) .

ولما قام الخليفة المنصور بتنظيم الإدارة الحكومية في دولته ، عين الوزراء المختصين بشئون المال وهم : صاحب الأعمال المخزنية ، وكان لهذا اختصاصات وسلطات واسعة في السهر على تحصيل الأموال العامة وإنفاقها ، وفي رقابة العمال المشرفين ، وفي محاسبتهم والقبض عليهم . وكان لهم وكلاء في سائر المدن الكبرى يسمون بالمشرفين . وكان للمشرفين : خازن على المال ، وخازن على الطعام يتولى الإشراف على حركة الواردات والصادرات من المخازن العامة وإليها .

أما متولى المجابى فهو المختص بتحصيل الضرائب والجزيات مع مختلف صنوفها وله عمال في المدن والبادى .

أما متولى المستخلص فهو المشرف على الأموال الخليفة والمحافظة عليها ، وتحصيل ما يتعلق بها من مختلف أبواب الدخل ، وهى حقوق الخليفة وأنصبته الشرعية في الغنائم وغيرها ..

ويقال : إن أبا أيوب الوريانى الملقب بأبى أيوب الديوانى ، قد استوزره الخليفة المنصور وجعله يقوم بأمر جباية المال وإنفاقه وضبطه من جميع وجوهه ، وقد اهتم هذا الوزير بجمع المال ليتقرب به إلى المنصور ، ولكن مع ذلك نكبه الخليفة في ماله وأعدمه لما علم بعدم صدقه للعمل .

ولما قام المنصور بإنشاء مدينة بغداد ، بلغ ما أنفقه من الخراج عليها أربعة آلاف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً ، ولما فرغ من بنائها سنة ١٤٦ هـ حاسب القواد بما كان حول عليهم لعمارتها ، فألزمهم بالبواقي حتى استوفى من بعضهم ما اقتضاه الحساب خمسة عشر درهماً (٢) .

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٩ ، ص ٢٦٧ .

(٢) الفخرى : ابن الطقطقى ص ١٦٣ .

كل هذا يبين لنا مبلغ حرصه على أموال المسلمين ، بألا تصرف إلا في خدمة المصلحة العامة للمسلمين .

رابعاً : في عهد عبد الرحمن الناصر :

كانت الناحية المالية في الأندلس مضطربة قبل الفتح الإسلامي لها . ولم يكن هناك نظام مالي معين ، فلما تم فتحها ، قسّمها موسى بن نصير البكرى التابعى بين الفاتحين ، كما قسم بينهم سببها وسائر غنائمها بعد أن أخرج منها الخمس . وليس لدينا معلومات كافية عن الأموال ، وهل كانت ترسل إلى أبناء البيت الأموى أم لا ؟ والراجح أن معظم ما كان يصل إلى عمال الأندلس كان يضيع بين أرزاق الجند وأعطياتهم ونفقات الجهاد فيما وراء جبال البرانس استكمالاً لفتح شبه الجزيرة نفسها . هذا وقد أوجدت وظائف مالية مثل : صاحب أزمة الأرض والخراج .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) كان النظام المالى فى الأندلس يتألف من أمور ثلاثة :

(١) الخزانة العامة .

(٢) إدارة بيت المال .

(٣) إدارة خاصة بالخليفة .

وكانت موارد بيت المال مقتصرة على ما كان يرد عليها من الأعباس (الأوقاف) . وكان مقر هذا الديوان المسجد الكبير بقرطبة ، ويقوم على صيانة المنشآت الدينية ودفن رواتب موظفى المساجد ، وتوزيع الصدقات ويشرف عليه رئيس القضاة أو من ينوب عنه تحت إشراف الخليفة .

ويشرف على الخزانة العامة أحد كبار الموظفين ويسمى (خازن المال) ، وقصر الخزانة هو مقر الخليفة ، وتودع فيه أموال المدن والقرى وأموال التركات التى تبقى بلا وارث ، وضرائب التركات والرسوم الجمركية ، غير الخراج والجزية والعشور . وقيل إن عبد الرحمن الناصر خلف فى بيوت الأموال (خمسة آلاف ألف ألف) (٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ولا ندرى هل هذا الرقم بالدينار أو بالدرهم

ويغلب على الظن أنه بالدراهم ، فلو حسب بالدينار لبلغ (٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار ، وفي هذا الكثير من المبالغة .

وقد ذكر المقرئ في نفح الطيب (٣٧٩ / ١) أن ابن خلدون ذكر أن عبد الرحمن الناصر كان يقسم الجباية ثلاثة أقسام (ثلث للجند ، ثلث للبناء ، وثلث مدخر) وكانت جباية الأندلس يومئذ خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف (٥,٠٠٠,٤٨٠,٠٠٠) ومن السوق المستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف (٧٦٥,٠٠٠) أما أخماس الأموال فلا يحصل عليها شئ

وذكر ابن حوقل : « أن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يوفر في بيت المال حتى سنة ٣٤٠ هـ عشرين مليون دينار . وأنه لم يكن في زمانه سلطان يوفر مثل هذا المبلغ إلا أبا تغلب الغضنفرى بن ناصر الدولة الحمدانى (٣٥٨ - ٣٩٦ هـ) في الموصل .

خامساً : في عهد المماليك :

كانت موارد بيت المال في العصر المملوكى :

١ - الرسوم الجمركية على البضائع الواردة إلى الإسكندرية أو دمياط ، وكان الفقهاء في هذا العصر يرون أن موارد بيت المال التى فيها مكوس تعتبر حراماً فيلزم على الوزير المختص ألا يخلط المال الحلال بالمال الحرام ، وكان الوزير في هذا العصر هو الموظف المسئول عن النظر فى المكوس وغيرها من الأموال التى ترفع إلى السلطان وبيت المال .

٢ - ما يدخل بيت المال من التركات التى لا وارث لها وهو ما يعرف بالمواريث الحشرية .

٣ - ما يحصل من دار الضرب على النقود فى القاهرة .

٤ - ما يحبس من أموال الإقطاعات ، وكان ديوان الجيش هو الذى ينظم

الإقطاعات وربما أقطع هذا الديوان قرية كاملة لأحد الجنود ، فيقرر على هذا الشخص المقطع مبلغاً من المال يدفعه كل سنة إلى بيت المال .

ويقوم باستخلاص المال المقرر موظف يقال له **مشد الدواوين** ، فيضرب ويعاقب من جهل بالشرع حتى يؤدي ما عليه .

أما عن مصارف بيت المال في عهد المماليك فهي :

- ١ - أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم .
- ٢ - أرزاق الجند .
- ٣ - كرى الأنهار .
- ٤ - حفر الترع .
- ٥ - النفقة على المسجونين والأسرى .
- ٦ - المعدات الحربية .
- ٧ - العطايا والمنح .

وكان يعمل في بيت المال في هذا العهد كتاب بعضهم من الأقباط فكانوا لا يحرصون على الحلال والحرام ، لكن وكيل بيت المال هو المسئول عن ذلك ، ووظيفته أنه كان يصرف لليتامى ويبيع ما يفضل عن حاجة المسلمين .

وكان المتبع في هذا العصر أن يقسم خراج مصر إلى ٢٤ قيراطاً يوزع على النحو الآتي :

- ١ - أربعة قراريط تخصص للسكان .
- ٢ - عشرة قراريط تخصص للإصلاحات .
- ٣ - عشرة قراريط توزع على الأجناد .

سادساً : في العهد العثماني :

استمر نظام بيت المال في صدر الدولة العثمانية على النحو الذي كان

متبعاً في الدولة الإسلامية قبل قيام تلك الدولة من حيث موارده ونفقاته .

إلا أنه بعد إدخال التنظيمات الغربية إلى كثير من الإدارات العثمانية ، اتخذت الدولة العثمانية نظاماً مالياً معيناً لحصر مواردها ونفقاتها .

وكان النظام الذي تجبى بواسطته الضرائب سواء أكانت عينية أو نقدية يقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : نظام الالتزام السنوي وهو أن تطرح الدولة ضرائبها في كل ولاية من ولاياتها على رعايا تلك الولاية في المزاد العلني سنوياً ومن يتقدم بأعلى رقم تلزمه الدولة بجمع وارداتها من تلك الولاية .

وكان الملتزم يجمع أكبر قدر ممكن من الضرائب ليتمكن من دفع نصيب الدولة كاملاً وما تبقى يأخذه لنفسه . وكان الملتزم يستخدم كل الوسائل ليحصل على ما يريد .

الثاني : نظام الالتزام المالكاني : وينص هذا النظام على التزام الملتزم بجباية أموال الدولة في كل ولاية من ولاياتها بواسطة الالتزام مدى الحياة . وهذا النظام خَفَّفَ من جشع كثير من الملتزمين كما خَفَّفَ من الضغط الذي كان يقع على الرعايا نتيجة لنظام الالتزام السنوي .

الثالث : نظام الأمانة : وهو أن الدولة تجبى ضرائبها بواسطة موظفيها الذين يأخذون رواتبهم من الدولة .

أما النفقات فكانت تصرف على الرواتب ومخصصات الباب العالي ، وعلى الدفاع والتعليم ومد الطرق بأنواعها وإقامة المنشآت العامة والمساجد وبناء السفن إلى غير ذلك لا سيما الحروب .

الفصل الخامس

النظام القضائي

(١) نشأة القضاء في الإسلام ونموه :

عرف العرب في جاهليتهم نظام القضاء . فكانوا يسمون القضاء حكومة والقاضي حكماً . وكان شيخ القبيلة هو الذي يحكم بين من يختصمون لديه .

غير أن نظام القضاء في جاهلية العرب كان فيه عيوب كثيرة وبذلك فهو يختلف عن نظام القضاء الإسلامي في جملة أمور جوهرية أبرزها اثنان :

الأول : لم يستند القضاء في الجاهلية إلى قانون مكتوب ، وإنما كان يعتمد على العرف وعلى ما تتطلبه الحكمة والعدل . أما في الإسلام ، فإن القضاء يعتمد على الكتاب والسنة والقياس والإجماع .

الثاني : لم يكن حكم القاضي في الجاهلية ملزماً . فكثيراً ما كان يرفض أحد المتخاصمين حكم القاضي . أما في الإسلام ، فإن الحكم واجب الاتباع من قبل جميع الأطراف المتخاصمة . والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز : (فَلَا وَرَيْبَ لَآ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)^(١) . ومن هذه الآيات الكريمة تبدو القناعة التامة والرضاء المطلق بالحكم الإسلامي والالتزام به

— يرتبط نشوء نظام القضاء في الإسلام بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب . فقد أرسى رسول الله عليه الصلاة والسلام أصول نظام

(١) سورة النساء آية ٦٥

القضاء الاسلامى حين عقد الحلف المشهور بين المهاجرين وأهل يثرب من أنصار ويهود وغيرهم من المشركين وتقرر آنذاك : (وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله) .

فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام قاضياً كما كان للشريعة مبلغاً . ولم يكن للمسلمين في عهده قاض سواه . وكان عليه الصلاة والسلام يحكم بين الناس بما يوحى به إليه رب العالمين من الذكر الحكيم . وكان المتخاصمان يحصران إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مختارين فيسمع كلام كل منهما . وكان من طرق الإثبات عنده : البينة ، واليمين ، وشهادة الشهود ، والأشياء المكتوبة والفراسة . وكان عليه الصلاة والسلام يقول : (البينة على المدعى واليمين على من أنكر) .

والبينة في الشرع هي اسم لما يبين الحق ويظهره . وهذا يعنى أن المدعى مُلْزَمٌ بإظهار ما يبين صحة دعواه . فإذا أظهر صدقه بأحدى الطرق ، حكم له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أُمِرْتُ أَنْ أَحْكُمَ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ) . كما كان عليه الصلاة والسلام لا يحابى أحداً من المتخاصمين . فقد أثر عنه أنه قال : (إذا جلس بين يديك الخصمان ، فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء) . وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر) .

ولم يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه عين في بلد من البلدان رجلاً اختص بالقضاء بين المسلمين . بل كان عليه الصلاة والسلام يعهد بذلك إلى بعض الولاة ليكون القضاء جزءاً من أعمالهم . كما أنه كان يعهد إلى بعض أصحابه بقض بعض الخصومات . كما أن عليه الصلاة والسلام لنفر من أصحابه بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد ، فقد أذن أيضاً لبعض أصحابه بالفتيا بين الناس . ويبلغ عدد من اشتهروا بالفتيا من الصحابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم (١٢١) رجلاً

وامرأة . منهم : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب ، وأم المؤمنين عائشة ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ولما ولى الخلافة أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، أسند القضاء إلى عمر ابن الخطاب الذى لم يتلقب بلقب القاضى . غير أن اتساع رقعة الإسلام فى عهد عمر بن الخطاب واختلاط المسلمين العرب بغيرهم من الأمم ، استدعى إدخال نظام تشريعى لفض المسائل أو المشكلات التى تنشأ بين الأفراد المسلمين من العرب وغيرهم . وكان هذا النظام يقوم على أساس تعيين قضاة ينوبون عن الخليفة فى فض القضايا طبقاً لأحكام القرآن والسنة والقياس والإجماع (١) .

وهكذا ، فإن عمر بن الخطاب هو أول من عين القضاة فى الولايات الإسلامية . وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة أو الوالى إذا كانت ولاية عامة ، بمعنى أن تكون له الولاية على الخراج والصلاة متعاً . فولى الفاروق أبا الدرداء قضاء المدينة ، وولى شريح بن الحارث الكندى قضاء الكوفة . كما ولى أبا موسى الأشعري قضاء البصرة ، وولى عثمان بن قيس أبى العاص قضاء مصر . أما قضاء الشام فقد جعل له تنظيماً قضائياً مستقلاً .

وقد سن عمر رضى الله عنه لهؤلاء القضاة كتاباً يسيرون على هديه فى أحكامهم . ويعتبر هذا الكتاب أساس علم المرافعات فى القضاء الإسلامى ، وبعث بهذا الكتاب إلى أبى موسى الأشعري وإلى غيره من القضاة وهالك نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله

(١) السنة : هو كل ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو عمل أو تقرير . أما القياس فيقصد به أن القاضى إذا عرضت عليه قضية ولم يجد حكماً منصوصاً عليه فى القرآن ولا فى السنة ولم يكن قد صدر فيها حكم بإجماع الصحابة بحث عن مشكلة تشبه المشكلات التى بين يديه يكون قد صدر فيها حكم من القرآن أو السنة أو الإجماع ثم قاس الحكم فى القضية المعروضة عليه على ذلك .

ابن قيس (١) ، سلام عليك . أما بعد ، فالقضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة . فافهم إذا أُذِلَّ (جىء به) إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له بين الناس فساو بينهم في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك (جورك) ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق . فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك ، مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأمثال والأشياء وقس الأمور بنظائرها ، واجعل للمدعى حقا غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينة أخذ بحقه ، وإلا وجهت القضاء عليه ، فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً في شهادة زور أو ظنياً (متهماً) في ولاء أو قرابة . فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات ، وإياك والقلق والضجر والتأذى للناس ، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الزجر . فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه . يكفه الله ما بينه وبين الناس . ومن زين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شناه الله . »

ولما توسعت الدولة الإسلامية في العهدين الأموي والعباسي ، اتسع النظام القضائي من حيث التشكيل والاختصاصات ، وذلك من أجل تطبيق العدالة بين مختلف أفراد المجتمع وإدخال الطمأنينة إلى نفوسهم في ظل تعاليم الدين الإسلامي الحنيف . ولتحقيق هذه الأغراض أصبح النظام القضائي في العهدين أنفى الذكر يتكون من :

القاضي ، المحتسب ، قاضي المظالم . فأما القاضي فكانت مهامه في فض المنازعات المرتبطة بالأمور الدينية بوجه عام . أما وظيفة المحتسب فهي النظر بالقضايا المتعلقة بالنظام العام وأحياناً في الجنايات التي يحتاج الفصل فيها إلى السرعة . أما وظيفة قاضي المظالم فهي الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي أو المحتسب .

(١) هو اسم أبي موسى الأشعري .

وبما أن هذا الفصل يتناول القضاء بشكل مستفيض فإننا سنستعرض في العجالة التالية ما يلقي الضوء على وظيفتى المحتسب وقاضى المظالم .

وبالنسبة للمحتسب فإن الخليفة عمر بن الخطاب هو أول من أدخل نظام الحسبة إلا أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا فى عهد المهدي (الخليفة العباسى) . علماً بأن عمر رضى الله عنه كان يقوم بعمل المحتسب .

أما وظائف المحتسب فتشمل (١) : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، المحافظة على الآداب والفضيلة ، مراعاة تطبيق أحكام الشرع ، الإشراف على نظام الأسواق ، الكشف على الموازين والمكاييل ، منع التعدى على الجيران .

وكان للمحتسب دار خاصة يطلب الباعة إليها فى أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم لفحصها . فإن وجد فيها خلاصاً صادرها وألزم صاحبها بشراء غيرها أو إصلاحها .

وفى الأندلس يتولى الحسبة فى كل مدينة ، المحتسب أو صاحب السوق لأن معظم عمله يتعلق بالإشراف على أهل الأسواق . وكان هذا النظام فى الأندلس دقيقاً جداً لدرجة أن أثمان الحاجيات كانت محددة ، وكان الإشراف على الباعة تاماً . هذا وقد وضعت قوانين لنظام الاحتساب يَدْرُسُهَا المحتسبون كما يَدْرُسُونَ أحكام الفقه لأنه يدخل فى جميع المبيعات .

- أما الشروط التى لا بد من توافرها فى المحتسب فهى :
- ١ - أن يكون من المشهود لهم بالعلم والمعرفة والفتنة .
 - ٢ - أن يُختار من بين القضاة لأن عمله مرتبط بالقضاء .

وبالنسبة لقاضى المظالم : فهو يكون السلطة القضائية الثالثة . وكانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا فى عصرنا الحاضر .

(١) راجع مقدمة ابن خلدون صفحة (١٩٦) بصدد وظائف المحتسب .

ومن اختصاصات قاضي المظالم ما يلي :

١ - النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا حادوا عن طريق الحق والعدل والإنصاف .

٢ - النظر في القضايا المقامة على عمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب ، والقضايا المقامة على كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين نقصاً أو زيادة .

٣ - النظر في قضايا المرتزقة إذا أنقصت أرزاقهم أو تأخر دفعها إليهم .

٤ - تنفيذ ما يعجز القاضي أو المحتسب عن تنفيذه من الأحكام لا سيما إذا كان المحكوم عليه من قبلهما من علية القوم .

٥ - مراعاة إقامة العبادات كالجمع والعيدين والحج والجهاد .

ومن أجل كل هذه الاختصاصات ، كانت تسند وظيفة قاضي المظالم إلى رجل جليل القدر كثير الورع .

وبالنسبة للقضايا المقامة على ذوى الجاه ، فقد نظر الرسول عليه الصلاة والسلام في الشرب الذي تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار . وقال عليه الصلاة والسلام للزبير : (اسق أنت يا زبير ثم الأنصارى) . فقال الأنصارى : إنه لابن عمك يا رسول الله . فغضب الرسول من قوله وقال : (يا زبير اجرره على بطنه حتى يبلغ الماء إلى الكعبين) . وأمر بذلك تأديباً له .

أما في العهد الراشدى فلم يجلس أحد من الخلفاء الراشدين للمظالم ، لأن الناس كانوا في صدر الإسلام ينقادون للحق ويزجرهم الوعظ عن الظلم، باستثناء على بن أبى طالب فإنه احتاج إلى النظر فيها .

أما في العهد الأموى فقد أفرد الخلفاء يوماً خاصاً لأحوال المتظلمين . وكان عبد الملك بن مروان أول من فعل ذلك .

هذا وكان الخليفة يرأس محكمة المظالم ، كما كانت تعقد برئاسة

الوالى أو من ينيبه عنه .

وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد كغيرها من المحاكم . وتتألف تلك المحكمة من خمس جماعات لا بد من حضورهم لتصبح المحكمة قانونية وهؤلاء الجماعات هم :

١- الحماية والأعوان للتغلب على من يلجأ إلى القوة والعنف من المتخاصمين .

٢ - القضاة والحكام وهم بمثابة مستشارين لإمامهم بشتى الأمور الخاصة بالمتقاضين .

٣ - الفقهاء وهم الذين يرجع إليهم قاضى المظالم إذا أشكل عليه حكم شرعى .

٤ - الكتّاب وهم الذين يدونون ما يجرى بين الخصوم .

٥ - الشهود ومهمتهم الشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا يتنافى مع الحق والعدل .

هذا وقد أوجد فى العصر العباسى ما يسمى (بقاضى القضاة) (١) أى رئيس القضاة . ومركزه العاصمة وهو يولى من قبله قضاة ينوبون عنه فى الأقاليم والأمصار . وأول من لقب بهذا اللقب القاضى أبو يوسف صاحب كتاب الخراج . وكان ذلك فى عهد الخليفة هارون الرشيد . وفى الأندلس كان يطلق على رئيس القضاة لقب قاضى الجماعة ، ومركزه قرطبة

(ب) مهمة القضاء ومكانته وأسسها :

يعرف العلامة ابن خلدون القضاء بأنه (منصب الفصل بين الناس فى الخصومات حسماً للتداعى وقطعاً للتنازع) . ويعرفه القاضى الجرجانى بقوله : (القضاء فى الخصومة هو إظهار ما هو ثابت) . وقد عرف العلماء وظيفة القاضى بأنها الإخبار عن حكم شرعى على سبيل الإلزام ومعنى ذلك :

(١) قاضى القضاة هى التسمية التاريخية لرئيس القضاة .

أن القانون والقضاء متلازمان ولا معنى لوجود أحدهما دون وجود الآخر .
وأن ما يقوله القاضي له صفة الإلزام وليس مجرد فتوى .

فالقضاء ، إذن هو أحد الأركان الأساسية الثلاثة في نظام كل دولة .
أما الركنان الآخران فهما السلطان التشريعية والتنفيذية . ومنذ قديم
الزمان والقضاء يتبوأ مكانة رفيعة في المجتمع توجب احترام أحكامه . وقد
اعتبرت صفة الحكم في الإسلام من صفات الله تعالى فهو ، تبارك اسمه ،
أحكم الحاكمين . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد هذا المفهوم . فمن
ذلك قوله تعالى : (**إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ** يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ) (١) .
وقوله تعالى : (**وَاللَّهُ بِحُكْمِكُمْ لَمُعَقَّبٌ مُّحْكِمَةٌ** ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (٢) .
وقوله تعالى : (**فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الدِّينِ**) ٧ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ**) (٣) .

وقد شرف الله تعالى رسوله الكريم وخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم
بصفة الحكم فقال تعالى مخاطباً إياه : (**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**
لِتُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً) (٤) .

وهكذا يتبين لنا أن مهمة القضاء في الإسلام هي الفصل بين الناس في
القضايا المتنازع عليها على سبيل الإلزام وعلى أساس من الكتاب أو السنة أو
الإجماع أو القياس . وهذا الأساس يعنى أن يتوخى القاضي العدل
والمساواة في الأمور التي ينظر فيها .

فالعدل والمساواة ، إذن، من أسس نظام القضاء الإسلامى . فالله
سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، وإذا حكموا بين
الناس أن يحكموا بالعدل . قال تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ**
شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ) (٥) **إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ**
بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ تَعْرِضُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (٥)

(١) سورة الانعام - الآية (٥٧)

(٢) سورة الرعد : الآية (٤١)

(٣) سورة التين الآيتان : (٧ - ٨)

(٤) سورة النساء : الآية (١٠٥)

(٥) سورة النساء : الآية (١٣٥)

وقال تعالى : (وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (١)
 وقوله تعالى : (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى
 الْأُخْرَى فَقْتِلُوا الَّتِي تَبغى حَتَّى تَتَّبِعَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (٢) .

وفي الحديث الشريف : (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى بِنَاءٍ
 مِنْ نُورٍ عَلَى يَمِينِ الرَّحْمَنِ) . وأيضا : (عِدْلُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ
 سَنَةً ، وَجَوْزُ سَاعَةٍ فِي حُكْمٍ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مَعْصِي سِتِّينَ سَنَةً) .

وحين أرسل الخليفة عمر بن الخطاب شريحا قاضيا على البصرة ، أخذ
 يوصيه باتباع العدل . فقال عمرو بن العاص في ذلك :

إِنْ الْقَضَاةَ إِذَا أَرَادُوا عَدْلًا وَرَفَعُوا فَوْقَ الْخُصُومِ فَصَلَا
 وَحَزَبُوا بِالْعِلْمِ عَنْهُمْ جَهْلًا كَانُوا كَغَيْثٍ قَدْ أَصَابَ مَحَلًّا

ويروى عن الحكم المستنصر بالله ، أحد ملوك الأندلس ، قوله : (إِنْ
 أَكْبَرَ مَصِيبَةٍ تَحْدُثُ فِي الْمَمْلَكَةِ هِيَ أَقْلُ خَطَرًا مِنْ مَصَابِهَا بِمَوْتِ الْقَاضِي
 الْعَادِلِ) .

وتاريخنا الإسلامي حافل بالعديد من الشواهد على العدالة في
 الأحكام والمساواة بين الناس أمام الشرع ، وعلى ما للقضاة من المكانة
 الرفيعة في نظام الخلافة الإسلامية .

فمن تلك الشواهد قصة وردت في كتاب فتوح البلدان للبلاذري
 وتتلخص في : أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولى الخلافة جاءه وفد
 من أهل سمرقند وشكوا إليه قائده قتيبة بن مسلم الباهلي الذي قالوا بأنه
 دخل بلادهم سمرقند مع جيشه قبل أن يوجه إليهم الإنذار المتعارف عليه بين
 المسلمين في الفتوحات : إما الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال . فكتب
 الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عامله في العراق أن يُنصَّبَ لهم قاضيا خاصا

(١) سورة المائدة : الآية (٤٢) .

(٢) سورة الحجرات : الآية (٩) .

(بما يشبه المحاكم الاستثنائية في عصرنا الحاضر) . فنصب لهم (جميع ابن حاضر الباجي) . فسمع هذا شكواهم وحاكمهم مع القائد قتيبة وحكم بخروج المسلمين من سمرقند وأن يعود أهلها إلى حصونهم وأن ينذرهم حسب قواعد الإسلام في الفتوح ، ثم يحاربهم إن هم أبوا الدخول في الإسلام أو دفع الجزية . ولم يكن أمام قتيبة إلا أن يذعن للأمر ويهم بالانسحاب . فلما رأى أهل سمرقند أن الأمر جد وأنهم لم يشهدوا عدلاً مثل ذلك قالوا : مرحباً بكم أيها المسلمون سمعنا وأطعنا .

ومن الشواهد الأخرى ما حكم به الخليفة عمر بن الخطاب على ملك الغساسنة (جبلة بن الأيهم) الذي لطم رجلاً من عامة المسلمين في أثناء طوافه حول الكعبة لأنه داس إزاره بأن يفقدى الملك نفسه أو يلطمه الرجل . فتأثر جبلة من هذا الحكم بحجة أنه أمير وخصمه سوقي ، فقال له الخليفة قولته المشهورة : الإسلام ساوى بينكما .

ومما يروى عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله لوالديه علي مصر وهو يوضح له مكانة القاضي وأهميته : (أعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه تجده من خاصتك) .

ويقول المفكر الاجتماعي الفرنسي غوستاف لوبون في حديثه عن القضاء في الإسلام : لم يعرف التاريخ أمة أرحم من العرب . والرحمة والعدل عندهم متلازمان .

وقال صلاح الدين الأيوبي مخاطباً جنده وهو في أوج انتصاراته الحربية على الصليبيين : « لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل » .

وخطب سعد بن سويد بحمص بعد أن حمد الله وأثنى عليه قائلاً : أيها الناس ، إن للإسلام حائطاً منيعاً ، وباباً وثيقاً . فحائط الإسلام الحق وبابه العدل . ولا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان . وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط . ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل .

وللثقة التي تمنح للقضاة لما هم عليه من النزاهة والعدل ، فإن الدولة الإسلامية جعلتهم في مكان الصدارة احتراماً وتقديساً ووضعت أحكامهم موضع التنفيذ بكل قوة ودقة . والقرآن الكريم أمر المسلمين أن يسلموا تسليماً بما يقضى به الرسول عليه الصلاة والسلام .

هذا وقد أخذت معظم القوانين في العالم بمبدأ احترام القاضي وهو في مجلس الحكم وأعطته حق إخراج ومعاقبة كل من يخل بهيبة القاضي واحترامه . كما أقرت جميع الشرائع احترام القاضي . وما يصدر عنه من أحكام وأنه يجب الانقياد لها .

حدث أن جاء رجل إلى قاضي مدينة واسط في العهد العباسي فأغظ هذا الرجل بالقول فحبسه القاضي . فتوسط له أحدهم قائلاً للقاضي : إنك حبست الرجل لنفسك فإن رأيت أن تخرجه . فقال القاضي : لنفسي لا والله ، فلو شتمني وأنا على غير القضاء ما قلت له شيئاً ولكني حبسته للمسلمين ، لأن القاضي إذا وهن وهنت أحكامه وكان ذلك راجعاً للمسلمين (١) .

ويحكي عن قاضي بغداد أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد المتوفى عام ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م . أنه وقع من الخليفة العباسي أحمد القادر ما أوجب أن يكتب له القاضي أبو حامد بقوله : اعلم أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولانيها الله تعالى ، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاثة أعزلك عن خلافتك (٢) .

ويقول آدم مِتَز في كتابه « الحضارة الإسلامية » ص ٣٥٨ « وما يدل على رهبة منصب القضاء واحترامه في ذلك العهد ، أي العهد العباسي ، أننا نجد الأمراء والوزراء كثيراً ما يساقون إلى السجن ولا يحكى مثل ذلك إلا عن قليل من القضاة .. » .

ونذكر ستانلي لينبول في كتابه تاريخ مصر في العصور الوسطى : أن

(١) عن كتاب أخبار القضاة لمحمد بن خلف بن حيان . الجزء الثالث صفحة ٢١٢

(٢) عن كتاب طبقات السبكي الجزء الثالث صفحة ٢٦

القاضي في مصر في العهدين الأموي والعباسي ، كان له مركز هام ولشخصه نفوذ كبير ولم يكن يتبدل بتبدل العلماء الذين ينصبهم الخليفة ، ولم يكن أسرع من القاضي في تقديم استقالته إذا تدخل في أحكامه متدخل . وكان القاضي مشهوراً لدى الجمهور بالاستقامة وسمو الخلق . لذلك كان الولاة يفكرون طويلاً إذا حدثتهم أنفسهم بالإقدام على عزل قاض حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور . كما أن عزل القاضي في العهد العباسي لم يعد من سلطة الوالي وكذلك تعيين الولاة وتحديد رواتبهم . كل ذلك في الأمور الموكولة إلى الخليفة نفسه (١) .

ولما قدم الرشيد الحيرة ، أقام أربعين يوماً ولم يأت قاضياً القاسم ابن معن للسلام عليه . فقال له الفضل : يا أمير المؤمنين لم يبق أحد من أشرف الحيرة وقضائها أحد إلا وقد وقف على بابك إلا هذا القاضي . قال : ما أعرف أي شيء تريد ؟ تريد أن أعزله ، لا والله لا أعزله (٢) .

وهناك أمثلة متعددة جداً على مدى هيبة القضاة واحترامهم ومكانتهم .

(ج) شخصية القضاء المستقلة وصفات القضاة :

لاحظنا أن العدل والرحمة والمساواة كانت من أبرز السمات في نظام قضائنا الإسلامي عبر عصوره التاريخية المختلفة ، كما أن تاريخنا الإسلامي مليء بالشواهد التي تدل على استقلال القضاء في صدر الإسلام وعصور التقدم والازدهار . هذا وقد حرصت جميع الدساتير على توكيد استقلال القضاء وهيئته إزاء السلطة التنفيذية .

ففي عهد الخلفاء الراشدين كان القضاء مستقلاً محترماً الجانب ، وكان يراعى في اختيار القاضي الصفات الآتية : غزارة العلم والتقوى والورع والعدل . وكان القاضي يحكم أحياناً حسبما يمليه عليه اجتهاده ، وذلك بأن يرجع أولاً إلى الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما نصاً للبت فيما يعرض له من

(١) عن كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم حسن .

(٢) عن كتاب أخبار القضاة لمحمد بن خلف بن حيان الجزء الثالث ص ١٨٠ .

مسألة ، اجتهد برأيه وقاس الأمور بأشباهاها . ومن ثم أصبح الاجتهاد ، بمعنى الرأى أو القياس ، مبدأ يعتد به فى الأحكام القضائية فى العصور التالية . ولم يكن للقاضى كاتب أو سجل تدون فىه الأحكام لأنها كانت تنفذ على أثر البت فىها . وكان القاضى يقوم بتنفيذها بنفسه . كما كان القاضى يجلس للحكم فى منزله فى البداية ثم أصبح يجلس فى المجلس للفصل فى الخصومات فيما بعد . وقد استحدث السجن فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب . أما قبل ذلك فكان المتهم يمنع من الاختلاط بغيره وذلك بوضعه فى بيت أو مسجد وملازمة الخصم أو من ينبه عنه له . فلم يكن السجن إذن مكاناً يحبس فىه المجرم كما كانت عليه الحال فى عهد عمر ومن جاء بعده من الخلفاء .

هذا ، ولعل خير من وضع الأسس والشروط لاختيار القاضى ، هو الخليفة على بن أبى طالب رضى الله عنه وذلك فى كتابه الذى بعث به إلى عامله فى مصر الأشتر النخعى وقال فىه مخاطباً عامله :

ثم اختر للحكم بين الناس ، أفضل رعيته فى نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصد من الفئ إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم فى الشبهات وأخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل مما يزيل علة وتقل معه حاجته إلى الناس . وأعطه المنزلة لديك فلا يطمع فىه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك . فانظر فى ذلك نظراً بليغاً « (١) .

أما فى العهد الأموى فقد تميز القضاء بميزتين اثنتين هما :

الأولى : أن القاضى فى هذا العهد كان يستنبط الحكم بنفسه من الكتاب والسنة والإجماع أو يجتهد فى الحكم اجتهاداً ، لأن المذاهب الأربعة

(١) عن كتاب نهج البلاغة ج ٢ ص ٩٧ من خطب على كرم الله وجهه .

المعروفة التي تقيد بها القضاة لم تكن قد ظهرت بعد .

الثانية : أن القضاء لم يكن متأثراً بالسياسة . فالقضاة كانوا مستقلين في أحكامهم لا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة ، وكلمتهم نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج .

وكان القضاة في العصر الأموي من خيرة الناس يخشون الله ويحكمون بين الناس بالعدل . وعلى الرغم من أنهم كانوا مستقلين بأعمالهم ، إلا أن الخلافة كانت ترقب أحكامهم ، فتعزل من يشذ منهم عن الطريق السوي . ومن الأمثلة على ذلك ما حكاه الكندي في كتابه القضاء من أن هشام بن عبد الملك بلغه أن قاضي المسلمين في مصر يحيى بن ميمون الحضرمي لم ينصف يتيماً احتكم إليه بعد بلوغه . فكتب الخليفة الأموي إلى عامله على مصر يقول له : (اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً ، وتخير لقضاء جندك رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً سليماً من العيوب لا تأخذه في الله لومة لائم) .

فالعفة والورع والتقوى والشدة في حدود الله والحزم كانت ، إذن ، من الصفات التي يجب أن تتوافر في القاضي في العهد الأموي . وكان عمر بن عبد العزيز يرى أن القاضي إذا كانت فيه خمس خصال فقد كَمُلَ . وهذه الخصال أو الصفات هي : ١ - علم بما كان قبله ٢ - نزاهة عن الطمع ٣ - حلم عن الخصم . ٤ - اقتداء بالأئمة . ٥ - مشاركة أهل العلم والرأي . كما قال رضي الله عنه : « لا يصلح للقضاء إلا القوي على أمر الناس ، المستخف بسخطهم وملامتهم في حق الله ، العالم بأنه مهما اقترب من سخط الناس وملامتهم في الحق والعدل والقصد ، استفاد بذلك ثمناً ربيعاً من رضوان الله . واكتفى الإمام مالك بن أنس بتوفرِ خصلتين لمن يتوكى القضاء وهما : العلم والورع .

وفي عهد الدولة الأموية أيضاً ظهرت الحاجة إلى وجود سجلات تدون فيها الأحكام التي يصدرها القضاة . فقد حدث أن احتكم إلى سليم بن عنز قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان ورثة في قضية لهم فلما قضى بينهم تناكروا ورجعوا إليه فقضى بينهم مرة أخرى وكتب كتاباً بقضائه وأشهد فيه

شيوخ الجند . فكان بذلك أول قاض في العهد الأموي سجل أحكامه .

أما في العصر العباسي : فقد ضعفت روح الاجتهاد بسبب ظهور المذاهب الفقهية الأربعة . فأصبح القاضى يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب . فكان القاضى في العراق يحكم وفق مذهب أبى حنيفة ، وفي الشام والمغرب وفق مذهب الإمام مالك ، وفي مصر وفق المذهب الشافعى . وإذا تقدم متخصصان على غير المذهب الشائع في بلد من البلدان أناب القاضى عنه من يحكم بمذهب المتخصصين .

كما عمد بعض الخلفاء العباسيين إلى حمل القضاة على السير وفق رغباتهم ليكسبوا أعمالهم صبغة شرعية حتى إن كثيراً من الفقهاء امتنعوا عن تولى هذا المنصب خشية أن يحملهم الخلفاء على الافتاء بما يخالف الشرع الإسلامى . فاعتذر أبو حنيفة ، مثلاً ، عن تولى هذا المنصب زمن أبى جعفر المنصور .

وظل القضاة في هذا العصر يقتفون أثر الرسول صلى الله عليه وسلم في البعد عن مظاهر الكبرياء . وكثيراً ما ظل القاضى يشغل منصبه في عهد عدة ولاة . كما أن محبة الناس للقضاة جعلت الولاة يفكرون طويلاً قبل الإقدام على عزلهم حتى لا يتعرضوا لكرهية الجمهور . وصارت مراسيم تعيينهم تصدر من بغداد وأصبحت مسألة تحديد رواتبهم ودفعها لهم موكولة إلى الخليفة نفسه كما سبق ذكره آنفاً .

وأما في الأندلس فإن مركز القضاء كان ممتازاً ، فكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء لتعلق هذه الوظيفة بالدين . وكان رئيس القضاة يسمى « قاضى الجماعة » أيضاً كما سبقت الإشارة إلى ذلك وكان يشترط في القاضى أن يكون متعمقاً في الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة ولا يشترط أن يكون عربياً خالصاً . فكثيراً ما أسند هذا المنصب إلى بعض الموالى والمولدين والبربر . وكان القضاة يتبعون الفقهاء المالكى في أحكامهم .

د - صور من القضاء الإسلامي ونماذج من رجال القضاء خلال العصور الإسلامية :

أما وقد درست عن نظام القضاء في الإسلام ونموه عبر عصوره ، وعن الصفات التي يتمتع بها القضاة وما إلى هنالك ، نأتى على شئ من التطبيق سبقت دراسته فنتناول

- أولاً : صوراً من القضاء الإسلامي في مختلف العصور .
- ثانياً : نماذج من رجال القضاء عبر تلك العصور .
- وفيما يلي استعراض لكل من هذين الموضوعين :

أولاً : صور من القضاء الإسلامي :

أ - من أقضية للرسول صلى الله عليه وسلم :

القضية الأولى : القضاء في دعوى مواريث : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خصومة بيباب حجرته . فخرج فإذا رجلاً من الأنصار جاء بختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواريث بينهما قد درست في أرض تقادم شأنها وهلك من يعرف من أمرها . ليس عندهما بينة إلا عواهما فقال لهما رسول الله عليه الصلاة والسلام : « إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر مثلكم ولم ينزل عليّ فيه شئ ، وإنى إنما أقضى بينكم برأى فيما لم ينزل عليّ فيه . ولعل بعضكم أن يكون ألحن^(١) بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له . فإنى أقضى بينكم على نحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ظلماً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يطوق بها من سبع أرضين يأتي بها شكماً (أو اسكاماً) في عنقه يوم القيامة فليأخذها أو ليدعها » . فبكى الرجلان جميعاً لما سمعا ذلك وقال كل واحد منهما : يا رسول الله حقى هذا الذي أطلب ، لأخى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إذ قلتما هذا فإذها واقتسما ثم توخيا الحق فاجتهدا في قسّم الأرض شطرين ثم استهما ثم ليحلل كل منكما صاحبه .

القضية الثانية : وكانت في فض النزاع على الماء . وذلك أن رجلاً من

(١) الحن : أفصح وأظهر .

الأنصار خاصم الزبير بن العوام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ماء الحرة التي يسقون بها النخيل . فقال الأنصاري للزبير : سرح الماء ليمر بي . فأبى الزبير عليه ذلك . فاختصما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عليه الصلاة والسلام للزبير : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك . فغضب الأنصاري وقال : إن كان ابن عمك . فتلون وجهه عليه الصلاة والسلام ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر (الحد) . فقال الزبير والله إنى لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم .. إلى آخر الآية) .

ب - للخلفاء الراشدين :

روى أنه جاء رجل إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال له : إن أبي يريد أن يأخذ مالي كله يحتاجه . فقال أبو بكر للأب : إنما لك من ماله ما يكفيك . فقال: يا خليفة رسول الله . ألم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام « أنت ومالك لأبيك » ؟ فقال نعم . وإنما يعنى ذلك النفقة .

في عهد عمر رضي الله عنه : روى أن رقيقاً لحاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، فانتحروها فرفع الأمر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر كثير ابن الصلت أن يقطع أيديهم ثم قال عمر : أراك تجمعهم . ثم قال عمر : والله لأغرمناك غرمًا يشق عليك ، ثم قال للمزني ، وكم ثمن ناقتك ؟ فقال المزني قد كنت - والله - أمنعها من أربعمئة درهم . فقال عمر : أعطه ثمانمئة درهم .

وواجهت عثمان بن عفان رضي الله عنه قضية قتل خطيرة خلاصتها أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب سمع من عبد الرحمن بن أبي بكر غدا طعن أبيه . وأنه مربالأمس على أبي لؤلؤة والهرمزان وجفينة وهم يتناجون فلما رأوه اضطربوا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه . فله جاءوا بالخنجر الذي طعن به أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب وجد كما وصفه عبد الرحمن بن أبي بكر وعندئذ ترجع لدى عبيد الله أن أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة قد تأمروا على أبيه ، فأخذ سيفه ثم مضى إلى الهرمزان فقتله وإ.

جفينة فقتله وقتل كذلك ابنة أبي لؤلؤة ولم يرتض المسلمون بتصرف عبید الله . لأنه قتل من غير دليل فضلاً عن أنه لم يؤذن له في القصاص على فرض وجود الدليل . ولذلك ثار المسلمون فأمسكوا بعبید الله وحبسوه في دار سعد ابن ابی وقاص .

فلما تولى عثمان الخلافة طلب المسلمون منه النظر في قضية عبید الله وطالب البعض بالقصاص منه . فجمع عثمان بن عفان رضی الله عنه المهاجرين والأنصار وقال لهم «اشيروا علیّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق . فقال علیّ : أرى أن تقتله لأنه قتل عمداً . فيجب عليه القصاص» . ورأى بعض المهاجرين عدم قتله . وقالوا: قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ؟ ولكن عمرو بن العاص – وقد رأى عدم قتله – جاء بحجة أخرى حيث قال لعثمان : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعفك أن يكون هذا الحدث قد كان ولك على المسلمين سلطان . وإنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك .

هذا وقد اختلفت الرواية في حكم عثمان . فهناك رواية تقول إن عثمان رضی الله عنه قال : أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي . وقال: كيف أقتل رجلاً قتل أبوه بالأمس ؟ لا أفعل ولكن هذا رجل من أهل الأرض – أرض الإسلام – وأنا وليه وأعفو عنه وأؤدى ديته .

وفي رواية أخرى أن عثمان استدعى ابن الهرمزان وسلمه ابن عمر وقال له هذا قاتل أبيك وأنت أولى به منا . فاذهب فانتله . إلا أن الناس جميعاً طالبوا ابن الهرمزان بالعفو عن ابن عمر . فقال لهم – إلى قتلته ؟ قالوا نعم ، قال : أفلكم أن تمنعوه ؟ قالوا لا ، فتركه الله ثم لهم . فلما عفا عنه : حملوه على رءوسهم وأكتافهم حتى بلغوا به المنزل تكريماً له وتقديراً لعفوه عن ابن عمر .

ومن أقضية علی بن أبی طالب كرم الله وجهه : أن شاباً شكاً إليه نفراً خرجوا مع أبيه في سفر . فعادوا ولم يعد أبوه . فسألهم عنه . فقالوا له إنه مات . فسألهم عن ماله ، فقالوا له ما ترك شيئاً . وكان معه مال كثير . فلما ترفعوا إلى القاضي شريح استحلفهم وخلي سبيلهم .

وهنا دعا عليّ بالشرطي ، فوكل بكل رجل رجلين ، وأوصاهم ألا
 يمكنوا بعضهم يدنو من بعض ، ولا يمكنوا أحدا يكلمهم . ودعا كاتبه . ثم
 دعا أحد المتهمين فقال له : أخبرني عن أبي هذا الفتى أى يوم خرج معكم ؟
 وفى أى منزل نزلتم ؟ وكيف كان سيركم ؟ وبأى علة مات ؟ وكيف أصيب
 بماله ؟ ثم سأله عن غسله ودفنه ومن تولى الصلاة عليه وأين دفن ، ونحو
 ذلك من الأسئلة . وكان الكاتب يكتب أقواله . فكبر عليّ وكبر الحاضرون ،
 والمتهمون لا علم لهم إلا أنهم ظنوا أن صاحبهم قد أقر عليهم . ثم دعا آخر
 بعد أن غيَّب المتهم الأول عن مجلسه . فسأله كما سأل صاحبه . ثم
 استدعى الآخر كذلك حتى عرف ما عند الجميع . فوجد كل واحد منهم يخبر
 بصد ما أخبر به صاحبه . ثم أمر برد الأول فقال : يا عدو الله ، قد عرفت
 عنادك وكذلك بما سمعت من أصحابك ، وما ينجيك من العقوبة إلا
 الصدق . ثم أمر به إلى السجن ، وكبر وكبر معه الحاضرون . فلما أبصر
 القوم الحال لم يشكوا أن صاحبهم أقر عليهم . فدعا آخر فهدده فقال : يا
 أمير المؤمنين . والله لقد كنت كارها لما صنعوا . ثم دعا الجميع فأقروا
 بالقصة . واستدعى الذى فى السجن وقيل له : قد أقر أصحابك ولا ينجيك
 سوى الصدق ، فأقر بكل ما أقر به القوم . فأغرهم بالمال ، وأقاد (١) منهم
 بالقتيل .

ج - أقضية ومواقف قضائية لقضاة آخرين :

١ - قضاء أبى هريرة رضى الله عنه فى دَيْن : روى عن أبى الهزم أنه كان
 عند أبى هريرة . فأتاه رجل بغريم له ، فقال : إن لى عليه مالا .
 قال : ما تقول ؟ قال صدق . قال اقضه . قال ليس عندى إنى معسر .
 قال للآخر : ما تقول ؟ قال أريد أن تحبسه . قال هل تعلم أن له عين
 مال فأخذ منه ؟ فنعطيك . قال لا . قال فما تعلم أن له أصل مال
 فيبيعه ويقضيك ؟ قال لا . قال فما تريد منه ؟ قال أريد أن تحبسه
 قال : لا أحبسه لك ولكن ادعه يطلب لك ولنفسه ولعياله .

٢ - قضاء لأبى هريرة بين الخصوم : حدث محمد بن نعيم عن أبيه أنه

(١) أقاد : أقام الحد على أحدهم قصاصا .

شهد أبا هريرة يقضى . فجاء الحارث بن الحكم فجلس على وسادته
التي يتكى عليها . فظن أبو هريرة أنه بحاجة غير الحكم . فجاءه
رجل فجلس بين يدي أبي هريرة فقال له ما لك ؟ قال استأذني^(١) على
الحارث . فقال أبو هريرة : قم فاجلس مع خصمك . فانها سنة أبي
القاسم صلى الله عليه وسلم .

٣ - قضية معاذ بن جبل في اليمن :

روى أنه لما كان معاذ باليمن ، اختصم إليه جماعة في يهودى مات
وترك أبا مسلما . فقال معاذ : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : (إن الإسلام يزيد ولا ينقص .) فورثه .

وروى وكيع^(٢) في كتابه « أخبار القضاة » من الأفضية ما يلي :

٤ - قضاء للحسن البصرى :

أتى الحسن البصرى خصمان فجلسا بين يديه . فرفع أحدهما صوته
على الآخر . فبكى الحسن . وقال : ارحماني فإنى شيخ كبير . يعنى : إن
رضيت فهو جور فى الحكم .

٥ - قضاء آخر للحسن البصرى :

قال عمر بن أبى زائدة أخذت كتاباً من قاضى الكوفة وكان يدعى
انذاك ابن أشوع ، إلى إياس بن معاوية وهو على قضاء البصرة بحق لى على
رجل . فقدمت البصرة وقد عزل إياس وتولى القضاء مكانه الحسن
البصرى . فدفعت بكتابى إلى الحسن . فأنفذ ما فيه وأخذ لى بحقى .

٦ - قضاء ثالث للحسن البصرى :

توفى والد أحدهم فى الطاعون وهو لا يزال صغيراً فكفلته ظئره^(٣) .

(١) استأذنى : أى استعدى عليه . استغاث واستنصر .

(٢) وكيع هو محمد بن خلف قاض ومحدث وفقه معروف . عاش فى القرن الثالث الهجرى وتوفى عام
٣٠٦ هـ .

(٣) الظئر : المرضعة لغير ولدها .

وقال هذا الغلام : «ولما قاربت ، جاء عمّي فخاصم الظئر فيّ . ولما عرضت القضية على الحسن البصرى وهو على القضاء في المسجد وظهره إلى المناره . فقال : يا غلام هذا عمك وهذه ظئرك فاذهب مع أيهما شئت . فذهبت مع الظئر».

٧ - موقف قضائي لسوار^(١) مع الخليفة أبي جعفر المنصور :
كتب أبو جعفر المنصور إلى سوار في شيء عنده خلاف الحق . فلم ينفذ سوار كتابه وأمضى الحكم عليه . فاغتاظ الخليفة المنصور عليه وتوعده . فقبل له : إنما عدل سوار مضاف إليه وتزيين لخلافتك . فأمسك .

٨ - قضية لسوار في طلاق :

تقدمت إلى سوار امرأة قليلة : إن زوجي يطلقني في السر ويجحدني في العلانية . فقال لها : ألك بينة . قالت لا . قال فاستحلفه . ثم قال لها . ليس لك بينة وقد حلف . كان محمد بن سيرين يأمر بذلك أن يهرب .

٩ - قضية أخرى أمام سوار لماك مات أثناء غيبة شريكه :

قال أحدهم وهو يسار بن محدود إنه خرج إلى الصين بعد أن تضارب مع صهره سراج النحوى . وبعد وفاة سراج عاد يسار إلى بلاده ومعه مال وفير . فجاء إلى القاضي سوار وقال : علمت بوفاة سراج وأنه ترك صبية صفراء وقد قدمت ومعى مال للمتوفى وأردت أن تقبضه منى . فسأل سوار كم المال الذي أحضرته . هل هو عشرة آلاف ؟ فقال أكثر وما زال القاضي يزيد حتى قال له يسار إن المبلغ الذي أحضره هو سبعمائة ألف درهم . فقال له القاضي عد إلىّ في الغد حتى أدعوك . ولما جاء الغد دعاه وقال له : يا يسار لقد أسهرتني الليلة . وقد فكرت في هذا المال . رأيته ضربت به في كبد البحر . ثم أتيت إلى بلدك فجئتني ولا شاهد عليك تسألني أن أقبضه منك فلم أر أحداً أحق به منك . فأمسكه . ولكن ائتنى بابن أخيك حتى أضمنه قال فجئته به فضمنته وإياه . ثم جعل يشتري به لأولاد سراج الأرضين حتى أنفذه .

(١) سوار هو ابن عبد الله بن قدامة التميمي وكان على قضاء البصرة زمن الخليفة أبي جعفر المنصور .

١٠ - قضاء محارب بن دثار السدوسي في شهادة الزور :

روى عن أبي حنيفة قوله : كنت عند محارب بن دثار فتقدم إليه خصمان . فادعى أحدهما على الآخر . ثم أحضر شاهدين فشهدا . فالتفت الخصم إلى محارب فقال في أحد الشاهدين والله إنه لرجل صالح وإنه وإنه . فقال له محارب تثني عليه وقد شهد عليك . فقال إنه والله ما كانت منه هفوة مثل هذه . فقال محارب : حدثني ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الطير لتزكى مناقيرها وتخفق بأجنحتها يوم القيامة من هول ما ترى . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : شاهد الزور لا تزول قدماه حتى يتبوا مقعده من النار . قال فرجع الشاهدان عن شهادتهما .

١١ - قضاء آخر لمحارب بين بائع ومشتري :

قضى محارب بين رجلين اشترى أحدهما من صاحبه زئبقاً . فقال المشتري للقاضي لم أقبض الزئبق ولم أنقده المال . وقال البائع : بعته وأشهدت عليه وصار به عنى رضا . فقال المشتري : انى لم ار زئبقه . فقال البائع : إن الزئبق حديثه وعتيقه ورديئه كله سواء لا يفضل بعضه بعضا ، وإنما يشتريه التجار في جربة (قرية) ولا يفتح . فقال المشتري إنه مغشوش . فقال محارب إن كان مغشوشا فليس لك وإلا فقد جاز عليك البيع .

١٢ - قضاء إياس في الوديعة :

اختصم إلى إياس رجلان استودع أحدهما صاحبه وديعة . فقال صاحب الوديعة : استحلفه بالله ما لى عنده وديعة فقال إياس . بل أستحلفه بالله ما لك عنده وديعة ولا غيرها .

وروى في كتاب تاريخ قضاة الأندلس :

١٣ - إن العباس بن عبد الملك المرادى اغتصب ضيعة رجل . وقد توفى هذا الرجل وترك أيتاماً صغاراً . ولما كبروا جاءوا إلى قاضي قرطبة مصعب بن عمران وشكوا إليه ظلامتهم مع العباس أنف الذكر . وقد قدموا الإثبات الواجب إثباتها . فبعث القاضي إلى العباس وأعلمه بشكوى

الأيتام . وعرفه بالشهود عليه وأباح له الدفاع عن نفسه وحدد موعداً للجلسة القضائية .

فلما انتهت المدة ولم يحضر العباس . أعلمه القاضي أنه سيصدر الحكم عليه . ففزع العباس إلى الأمير الحكم بن هشام وسأله أن يوصي القاضي بالتخلي عن النظر في القضية المقامة ضده ، ويكون الأمير هو الذي ينظر فيها . فأوصل الأمير هذا الرأي إلى القاضي مع أكبر فتويانه . فلما قرأ القاضي هذه الوصية ، اشتد عليه الأمر وكتب إلى الأمير بما يلي : « إن القوم قد أثبتوا حقهم ، ولزمهم في ذلك عناء طويل ونصب شديد ، لبعد مكانهم وضعف حالتهم . وفي هذا على الأمير - أعزه الله - ما فيه . فلست أتخلي عن النظر وإنفاذ الحكم لوجهه . فليفعل الأمير بعده ما يراه صواباً من رأيه .

ولما رجع الرسول إلى الأمير وسلمه الجواب وجم منه . وجعل العباس يغيره بالقاضي مصعب ويقول : « قد أعلمت الأمير بشدة استخفافه وغلظة في نفسه وتقديره أن الحكم له . لا حكم للأمير عليه . فأعاد الأمير الرسول إلى القاضي ليقول له رداً على جوابه : لا بد لك من أن تكف عن النظر في هذه القضية لأكون أنا الناظر فيها . » فلما جاء الرسول بعزم الأمير . أمره بالعودة ثم أخذ قرطاساً وعقد فيه حكمه للقوم بالضيعة ثم أنفذه لوقته بالإشهاد عليه . ثم قال للرسول : « إذهب إلى الأمير - أصلحه الله - فأعلمه أني قد أنفذت ما لزمني إنفاذه من الحق خوف الحادثة على نفسي (خوف الحساب يوم الآخرة) . ورهبة السؤال عنه . وإن شاء نفذه فذلك له يتقدم منه ما شاء . » فذهب الرسول مغضباً وصرف كلام القاضي وقال إنه قال : قد حكمت بالعدل فلينقضه الأمير إن قدر . فاستشاهد الأمير غضباً ، وأطرق ملياً ، والعباس يهيج غضبه ، ثم رفع رأسه وقال للعباس : « أربع على ظلعك^(١) ، فما أشقاه من جرى عليه قلم القاضي . فقفا عند أمره فإنه أشبه بنا وأولى بك » . وبقي على حسن رأيه في القاضي ولا يعارضه .

(١) أربع على ظلعك معناها : أنك ضعيف فابتعد عما لا تطيقه والزم نفسك .

١٤ - روى أن رجلا شكوا المأمون إلى القاضي يحيى بن أكرم . فنودي الخليفة ليجلس مع خصمه . فأقبل ومعه غلام يحمل مصلى . فأمره القاضي بالجلوس فطرح المصلى ليقعد عليه . فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس . فطرح للخصم مصلى آخر فجلس عليه .

١٥ - وروى عن القاضي « نصر بن ظريف اليحصبي » الذي ولي القضاء في الأندلس زمناً طويلاً . وكان مثلاً في العدل والحق . إن حبيب القرشي شكوا هذا القاضي إلى الأمير عبد الرحمن بن معاوية قائلاً إنه أي القاضي يريد أن يسجل ضيعة ادعى الاغتصاب لها . وإن القاضي أسرع في حكمه دون تثبت . فأرسل الأمير إلى القاضي وحكمه في أمر حبيب وطلب منه عدم العجلة عليه . فخرج ابن ظريف وعمل بعكس ما طلب منه الأمير وأنفذ الحكم لقناعته بعدالته . ولما بلغ الخبر حبيباً ، دخل إلى الأمير وهو يتميز غيظاً لتصرفات القاضي ووصفه بالاستخفاف بالأمير . فغضب الأمير لهذا التصرف وأرسل في طلب القاضي وقال له : من أمرك على أن تنفذ حكماً ، وقد أمرتك بتأخيره والأناة به ؟ . فقال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإنما بعثه الله بالحق ليقضى به على القريب والبعيد والشريف والدنى . وأنت أيها الأمير ، ما الذي حملك على أن تتحامل لبعض رعييتك على بعض ؟ وأنت تجد مندوحة بأن ترضى من مالك من تعنى به وتُحَدُّ الحق لأجله ؟ فقال له : « جزاك الله يا ابن ظريف خيراً . »

وخرج القاضي فدعا بالقوم الذين صارت الضيعة إليهم وكلمهم فوجدهم راضين ببيعها إن أجزل لهم الثمن ، فعقد فيها البيع معهم وصارت إلى حبيب . فكان بعد ذلك يقول : جزى الله ابن ظريف عنا خيراً كانت بيدي ضيعة حرام فجعلها حلالاً .

وأخيراً وليس أخراً فهذا قليل جداً من أقضية ومواقف قضائية كثيرة جداً فإن دلت على شيء فإنما تدل على نزاهة القضاء الإسلامي واستقلاله .

وهناك مواقف قضائية سترد عند ذكر التراجم لبعض قضايا المسلمين في مختلف عهودهم لا تقل عن هذه في التمسك بالحق والعدل .

ثانياً : نماذج من رجال القضاء في الإسلام :

وإليك طائفة من القضاة في مراحل تاريخنا الإسلامى ممن أثروا بشخصياتهم الفذة تراثنا القضائى وكانوا للظالمين خصوماً وللمستضعفين أنصاراً وأعواناً . عرفوا بنزاهة الأحكام والثبات على الحق ورد البغى والضيم دون مداهنة أو تزلف . كان شعارهم تقوى الله ومخافته . فلا غرو أن أصبحوا نماذج حية للخلق الرصين والكلمة الحق .

١ - القاضى شريح : المتوفى عام ٨٧ هـ .

هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس الكندى . كان من كبار التابعين . استقضاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه على الكوفة . فأقام قاضياً خمسا وسبعين سنة لم يتعطل فيها سوى ثلاث سنوات إذ امتنع عن القضاء إبان الحروب الداخلية في عهد عبد الله بن الزبير ، إذ استعفى الحجاج بن يوسف الثقفى فأعفاه . وبقي كذلك حتى مات عام ٨٧ هـ . بعد أن بلغ من العمر نيفا ومئة سنة .

كان شريح أعلم الناس بالقضاء وكان ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل وإصابة كما كان شاعراً محسناً . وكان من القضاة الفقهاء في صدر الإسلام .

وعن مدى تقدير الخلفاء له ، روى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : اجمعوا إلىّ القراء فاجتمعوا في رحبة المسجد بالكوفة . فقال لهم : إني أوشك أن أفارقكم . فجعل يسألهم ما تقولون في كذا ؟ وما تقولون في كذا ؟ وشريح ساكت . ولما فرغ من الجميع قال لشريح اذهب فأنت من أفضل الناس ، أو من أفضل العرب ، كما روى . وكان شريح يعطى رأياً دون تمييز إذا ما استشير . وقد روى شريح : أنه لما توجه علىّ إلى قتال معاوية ، افتقد درعاً له . فلما رجع وجدها في يد يهودى يبيعهها في سوق الكوفة . فقال : يا يهودى « الدرع درعى لم أهب ولم أبع » . فقال اليهودى درعى وفي يدى ، قال شريح : يا أمير المؤمنين هل من بيّنة ؟ قال نعم الحسر ابنى . قال شريح : يا أمير المؤمنين شهادة الابن للأب لا تجوز . فقا

علي : سبحان الله رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته . سمعت رسول الله يقول : «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» . فقال له اليهودي : أمير المؤمنين قَدَّمَنِي إلى قاضيه . وقاضيه يقضى عليه . أشهد أن هذا الدين على الحق . وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين سقط منك ليلا . وتوجه مع عليّ يقاتل معه بالنهر وان فقتل (١) . ومن موافقه مع علي كرم الله وجهه : أن عليا دخل مع خصم له ذمى علي القاضي شريح فقام له . فقال هذا أول جورك ثم أسند ظهره إلى الجدار وقال :

أما إن خصمى لو كان مسلماً لجلست بجانبه .

٢ - القاضي إياس : (٤٦ - ١٢٢ هـ)

هو أبو وائلة إياس بن معاوية بن قررة بن إياس المزني . كان بليغاً لَسِيناً أَلْمَعِيّاً ذا رأى صائب ، وكان ذكياً فطناً ورأساً لأهل الفصاحة ورجحان العقل . كان صادق الظن لطيفاً في تصرفاته . وكان مشهوراً بالذكاء حتى ضربت الأمثال بذكائه فقال الحريري صاحب المقامات المعروف : (فإذا أَلْمَعِيَّتِي أَلْمَعِيَّةُ ابن عباس وفِرَاسَتِي فِرَاسَةُ إياس) .

وقبل أن يتولى قضاء البصرة طلب الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من نائبه بالعراق (عدى بن أرطاة) أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الحرشي ويولى قضاء البصرة أنفذهما . فلما جمع بينهما ، قال إياس : أيها الأمير سل عنى وعن زميلي القاسم فقيهي البصرة الحسن البصرى ومحمد بن سيرين ، وكان القاسم يأتيهما باستمرار وإياس لا يأتيهما . فقال القاسم وهو يعلم أنه لو سألهما لأشارا به : لا تسأل أيها الأمير عنى ولا عنه . فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياس أفقه منى وأعلم بالقضاء . فإن كنت كاذباً فما يحل لك أن تولينى القضاء وأنا كاذب . وإن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل قولى . فقال إياس : إنك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم فنجيت نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما

(١) من كتاب اخبار القضاة لمحمد بن خلف بن حيان . الجزء الثانى ص ٢٠٠

يخاف . فقال عدى بن أرطاة : أما إذ فهمتها فأنت لها واستقضاه .

ولما تولى إياس القضاء سأل أحدهم والده كيف ابنك لك ؟ فقال : نعم الابن ، كفاني أمر دنياى وفرغنى لآخرتى .

وفي مجال الفراسة والحكم على الأشياء ، روى عن إياس أنه قال : ما غلبنى أحد قط سوى رجل واحد . وذلك أننى كنت فى مجلس القضاء بالبصرة ، فدخل علىّ رجل شهد عندى أن البستان الفلانى - وذكر حدوده - هو ملك فلان . فقلت له : كم عدد شجره ؟ فسكت الرجل ثم قال : منذ كم سنة يحكم سيدنا القاضى فى هذا المجلس ؟ فقال منذ كذا . فقال كم عدد خشب سقفه ؟ فقال له : الحق معك . وأجاز شهادته .

وسمع إياس يهودياً يقول : ما أحقق المسلمين يزعمون أن أهل الجنة يأكلون ولا يُحْدِثُونَ . فقال له إياس : هل كل ما تأكله تحدثه ؟ قال لا . لأن الله تعالى يجعله غذاء . فقال : فلم تنكر أن الله تعالى يجعل كل ما يأكله أهل الجنة غذاء ؟

هذا وقد توفى إياس بمدينة واسط عام ١٢٢ هـ . وعمره ٧٦ سنة .

٣ - القاضى شريك : (٩٥ - ١٧٧ هـ)

هو أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبى شريك النَّخَعى ، ولد ببخارى عام ٩٥ هـ . تولى القضاء بالكوفة أيام الخليفة المهدي ثم بالأهواز ولكنه عزل فى أيام الخليفة موسى الهادى . هذا وقد توفى بالكوفة عام ١٧٧ هـ وكان الخليفة هارون الرشيد آنذاك فى الحيرة . فقصد الكوفة من أجل الصلاة عليه ولكنه عندما وصلها وجد الناس قد انتهوا من الصلاة عليه فعاد من حيث أتى .

كان شريك عالماً فقيهاً فهماً ذكياً فطناً جريئاً . ومن مواقفه التى تدا على جراته وفطنته : أنه جرى بينه وبين مصعب بن عبد الله بن الزبير كلاً بحضرة الخليفة المهدي . فقال له مصعب : أنت تنتقص أبا بكر وعمر رض

الله عنهما ؟ فقال له شريك : والله ما أنتقص جدك وهو دونهما .

وذكر أن معاوية بن أبي سفيان وصف أمامه بالحلم فقال شريك :
ليس بحليم من سفه الحق وقاتل على بن أبي طالب .

ودخل شريك مرة على الخليفة العباسي المهدي قبل أن يلي القضاء فقال
له : لا بد أن تجيبنى إلى خصلة من ثلاث خصال . قال : ما هن يا أمير المؤمنين
قال : إما أن تلي القضاء . أو تحدث ولدى وتعلمهم ، أو تأكل عندي أكلة .
نفكر ساعة ثم قال : الأكلة أخفها على نفسى ، فأجله . وتقدم إلى الطباخ أن
يصلح له ألوانا من الأكل فعملها وقدمها إليه فأكل . وهذا تقدم الطباخ لأمير
المؤمنين قائلاً : والله يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبدا .
نال الفضل بن الربيع وزير الخليفة : فحدثهم ، والله ، شريك بعد ذلك وعلم
أولادهم ، وولى القضاء لهم .

كان شريك عادلا في قضائه ، كثير الصواب ، حاضر الجواب . قال له
رجل يوماً : ما تقول فيمن أراد أن يقنت في الصبح قبل الركوع فقنت بعده ؟
قال هذا أراد أن يخطيء فأصاب .

٤ - القاضي بكار (١٨٢ - ٢٧٠ هـ)

القاضي بكار هو أبو بكرة بكار بن قتيبة بن أبي ذرعة الثقفي . ولد
بالبصرة عام ١٨٢ هـ . وكان حنفى المذهب . وقد تولى قضاء مصر في عهد
المتوكل الخليفة العباسي وذلك عام ٢٤٦ هـ . وتوفى وهو باق على القضاء
سجينا عام ٢٧٠ هـ . وبقيت مصر بعده بلا قاض مدة ثلاث سنوات .

كان بكار حسن السيرة جميل الطريقة . كان أحد البكائين العالمين
كتاب الله عز وجل . وإذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قصص
جميع من تقدموا إليه وما حكم به لهم أو عليهم وبكى .

كان بكار قبل أن يصدر حكمه على المحتكمين له ، يثير لهم الوعظ
والإرشاد . وإذا طلب منهم اليمين يذكرهم بأحكام الله ويتلو عليهم قوله
عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَمْنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ

فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١) .

هذا وكان لبيكار مواقف مشهودة مع أحمد بن طولون صاحب مصر .
ومن بين تلك المواقف : أن ابن طولون كان يدفع له كل سنة ألف دينار
بالإضافة إلى راتبه . وكان بكار لا يتصرف بها بل يبقيها في كيسها وعلى
ختمها . فلما دعاه ابن طولون إلى خلع الموفق بن المتوكل من ولاية العهد ،
امتنع لأن ابن طولون لم يكن على حق في طلبه . فاعتقله ابن طولون ثم طالبه
بجملة المبلغ الذي كان يأخذه منه كل سنة اعتقاداً منه أن بكار قد أنفقها
ويعجز عن ردها . فحمله إليه بختمه وكان ذلك المبلغ موضوعاً في ثمانية عشر
كيساً . فخجل ابن طولون كثيراً من موقفه مع القاضي . ثم لما اعتقل ابن
طولون بعدئذ القاضي بكار وسجنه ، أمره أن يسلم القضاء إلى محمد بن
شاذان الجوهري ففعل . وبقي بكار في السجن مدة سنتين يحدث من هم
معه . هذا وقد شكوا أصحاب الحديث إلى ابن طولون انقطاع سماع
الحديث من بكار وسألوه أن يأذن له بالحديث فاستمع إلى شكواهم وصر
لبيكار بالتحدث إلى الناس .

هذا ولبيكار مواقف أخرى كثيرة مشرفة تدل على مدى تمسكه بالحق
وتطبيق العدل في الأحكام وعدم انصياعه للباطل . له مصنفات كثيرة منها
(الوثائق والعقود) في الفقه .

٥ - القاضي منذر بن سعيد البلوطي : المتوفى عام (٣٥٥ هـ - ٦٥

م) .

هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النضري . عاش
الأندلس إبان حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث ولاه قضاء الجماء
بقرطبة عام ٣٣٩ هـ . وكان يفتي على مذهب الإمام مالك بن أنس . وكا
البلوطي فقيهاً خطيباً وشاعراً عظيماً ومع ذلك فإنه كثير التواضع في خطبه
وقد تحدث في إحداها يوماً إبان فيها تقصيره وختمها بقوله : اللهم فرغني

(١) آية ٧٧ من سورة آل عمران .

فكأن خلقني له . ولا تشغلني بما تكفلت لي به . ولا تحرمني وأنا أسألك . ولا تعذبني وأنا أستغفرك . يا أرحم الراحمين .

ومن مواقف البلوطي مع الخليفة الناصر لدين الله الذي كان شغوفاً بعمارة الأرض وإقامة المباني عليها - ومن مآثره مدينة الزهراء التي ذاع صيتها لما احتوته من قصور ومساجد ومرافق وحدائق واشتغل في هذا خلق كثير حتى عطل شهود الجمعة في المسجد الجامع . فتألم القاضي وأراد أن ثنى الخليفة عما هو عليه بالموعظة الحسنة والإنابة والرحمة . فأدخل في خطبته فصلاً مبتدئاً بقوله تعالى : (**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿٣٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَارِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٤٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٤١﴾ وَاتَّقُوا لَدَيْ أَمْدِكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْدَكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنِينَ ﴿٤٣﴾ وَجَنَّتْ وَعَيْبُونَ ﴿٤٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١) . ثم وعظ الناس قائلاً : ولا تقولوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . فمتاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى بهي دار القرار ومكان الجزاء . ووصل ذلك بكلام جزل وقول فصل . ومضى في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته والإسراف في الانفاق عليه . ثم دعا إلى الزهد في هذه الدار الفانية وأضاف إلى خطبته ما يطابق ذلك من آيات الكريمة والأحاديث الشريفة . ولم يكد البلوطي ينهي خطبته حتى أجهش المصلون بالبكاء والتضرع إلى الله طالبين العفو والمغفرة وبكى معهم لخليفة الذي علم أنه المقصود بالخطاب وندم على ما سلف واستعاذ بالله من سخطه .**

ومن مواقفه مع الخليفة الناصر، بشأن زخرفة البناء أيضاً والإنفاق عليه بسخاء ، ما يلي : من الأشياء التي اعتنى بها الناصر قبة الحجرة الخاصة به في المسجد حيث غشاها بالذهب والفضة . وجلس ذات يوم في تلك المقصورة وحوله الوزراء والأهل والمقربون وأخذ ينظر إلى القبة مفتخراً بجمالها والكل يشيد بهذا العمل الفذ . وأثناء ذلك دخل القاضي منذر بن سعيد واجماً منكس الرأس . ولما جلس، أخذ الخليفة يتحدث له عن القبة وما نفق عليها من أموال وما تتطلبه من جهد . فانحدرت دموع القاضي على

(١) الآيات ١٢٨ - ١٣٥ من سورة الشعراء

لحيته . وأخذ يعظ الخليفة في تلك الأثناء وتلا قوله تعالى :

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً جَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ

عَلَيْهَا يُظْهِرُونَ) (١) . فوجم الخليفة وأطرق ملياً ودموعه تتساقط خشوعاً لله

سبحانه وتعالى . ثم أقبل على منذر وقال له : جزاك الله عنا وعن نفسك خيراً

وعن الدين والمسلمين أجل جزائه . وكثر في الناس من أمثالك . فالذى قلته

هو الحق . وقام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة وسواها بغيرها .

ولنذر أقوال كثيرة في الأحكام التي يقضى بها ومن بينها تزكيات

الشهود التي قال عنها : اعلم أن العدالة من أشد الأشياء تفاوتاً وتبايناً

ومتى حصلت ذلك عرفت حالة الشهود ، لأن بين عدالة أصحاب النبي صلوا

الله عليه وسلم ، وعدالة التابعين ، رضوان الله عليهم ، بوناً عظيماً وتبايناً

شديداً . وبين عدالة أهل زماننا وعدالة أولئك مثل ما بين السماء والأرض

وعدالة أهل زماننا، على ما هي عليه ، بعيدة التباين أيضاً ، والأصل في هذا

عنده . والله الموفق للصواب . إن من كان الخير أغلب عليه من الشر وكما

متنزهاً عن الكبائر فواجب أن تقبل شهادته .

وقال: إنما كلفنا بالحكم على الظاهر فمن ظهر لنا أن خيره غلب

شره ، حكمنا له بحكم الله بعباده ولم نطلب له على الباطن . ولقد ثبت

الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : «إنما أنا بشر ، وأنتم تختصمون إليّ

ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض . فأحكم له على نحو ما أسم

بأحكام الدنيا على ما ظهر وأحكام الآخرة على ما بطن . لأن الله يعلم الظاهر

والباطن ونحن لا نعلم إلا الظاهر » .

وقيل إنه لم تحفظ على البلوطى طيلة مدة توليه القضاء قضية جور

وللبلوطى كتب في القرآن والسنة والرد على أهل الأهواء . من

« الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله » . والإبانة عن حقائق أص

الديانة » . و« الناسخ والمنسوخ » .

(١) الآية ٢٢ من سورة الزخرف .

٦ - القاضي عبد العزيز بن عبد السلام : (٥٧٨ هـ - ٦٦٠ هـ)

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب عز الدين أبو محمد السلمى الشافعى المذهب الملقب بسُلطان العلماء وشيخ الإسلام .

أصله مغربى إلا أنه ولد فى دمشق عام ٥٧٨ هـ . تفقه على الإمام فخر الدين عبد الرحمن بن عساكر . مهر فى العربية . ودرس وأفتى وصنف وبرع فى المذهب الشافعى وبلغ مرتبة الاجتهاد . قصدته الطلبة من مختلف الأقطار وتخرج أئمة على يديه فصار بذلك رأس الشافعية فى وقته .

كان ابن عبد السلام عاقلاً ناسكاً ورعاً زاهداً متقشفاً أماراً بالمعروف نهياً عن المنكر حتى لكان يضرب به المثل فى الزهد والعلم . كان لا يخاف فى الله لومة لائم . ويحكى أنه كان فى أول أمره فقيراً معدماً . ولم يشتغل بالعلم إلا على كبر .

وَلِيَّ خُطَابَةِ الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ بِدِمَشْقٍ فَأَزَالَ كَثِيرًا مِنَ الْبِدْعِ الَّتِي كَانَ الْخُطَبَاءُ يَفْعَلُونَهَا . ثُمَّ زَهَبَ إِلَى الْقَاهِرَةِ بَعْدَ أَنْ أَفْرَجَ عَنْهُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ أَيُّوبُ لِأَنَّهُ تَعَرَّضَ لَهُ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ بِسَبَبِ تَنَازُلِهِ عَنْ صَفَدٍ وَالشَّقِيفِ لِلْفَرَنْجِ . فَأَكْرَمَهُ هُنَاكَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ وَيَالِغَ فِي تَعْظِيمِهِ وَاحْتِرَامِهِ وَوَلَاهُ قِضَاءَ مَدِينَةِ مِصْرَ وَالْوَجْهَ الْقِبْلِيَّ وَأَضَافَ إِلَيْهِ خُطَابَةَ جَامِعِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ . وَلَمْ يَتَّغَيَّرْ عَنْ نَهْجِهِ مِنْ حَيْثُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَطَرَحَ التَّكَلُّفَ وَتَرَكَ الْإِحْتِفَالَ بِالْمَلْبَسِ .

وفى مجال الصراحة فى القول والشجاعة والجهربالحق ، يقال إنه طالع يوم العيد إلى القلعة والعساكر مصطفىون بين يدى السلطان والأمراء من حوله . ونادى فى ذلك الموكب مخاطباً السلطان بأعلى صوته بأن يزيل المنكرات المتفشية فى البلاد . فأصدر السلطان فى الحال مرسوماً يقضى بالعمل على مكافحة المنكرات .

لقد بالغ ابن عبد السلام فى القيام بالأمر بالمعروف والتشدد فيه ،

« يوزع مجازاً ولا يباع »

حتى إنه تشاجر مع الأمراء ودار بينه وبينهم نقاش حاد تطاول فيه عليهم بالحق فاستشاطوا غضباً وهموا بالإيقاع به حتى كاد أحدهم أن يقتله إلا أن الأمير تراجع عن فعلته لما أدرك أن الحق بيد الشيخ .

ومن مواقف الشيخ في التمسك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما حدث بينه وبين أحد غلمان الوزير عندما بنى هذا الغلام بناء على سطح المسجد فأنكر عليه الشيخ ذلك وقام هو وجماعته بهدم البناء . ولعلمه بأن الوزير والسلطان يغضبان لذلك ، اعتزل القضاء . فعظم ذلك على السلطان . ثم طالب المغرضون السلطان بعزله عن الخطابة محتجين أنه سيشتنع عليه في الخطبة فعزله . فأقام في بيته وأخذ يفقه الناس في أمور دينهم .

ولما بنى الملك الصالح المدارس الصالحة بالقاهرة ، فوَّض إلى الشيخ عز الدين تدريس الشافعية . واستمر على هذا الحال حتى توفي في ١٠ جمادى الأولى عام ٦٦٠ هـ .

ومن مواقفه مع السلطان المظفر قطز . أنه لما عزم هذا على محاربة المغول ، جمع عساكره فضاقت يده عن نفقاتهم . فاستشار الشيخ عز الدين فقال له : اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر . فقال السلطان: إن المال في خزائني قليل ، وأنا أريد أن اقترض من أموال التجار . فقال له: إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي المحرم اتخاذها ، وضربته سكة ونقداً ، وفرقته على الجيش ولم تعلم بكفائتهم، في ذلك الوقت اطلب القرض وأما قبل ذلك فلا . فامتثل الجميع لقوله وكان لقطز وقائد، بيبرس النصر المؤزر على المغول في معركة عين جالوت المشهورة .

ومن عظمة الشيخ في النفوس ، أن الملك بيبرس لم يبائع الخليفة العباسي إلا بعد أن تقدمه الشيخ بالمبايعة . ومن مواقفه في الفتيا أنه أفتى ث ظهر له أنه أخطأ . فنادى في مصر والقاهرة على نفسه : من أفتى له فلا بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ .

ومن مواقفه في البر والإحسان أنه وقع بدمشق غلاء كبير حتى صار

البساتين تباع بثمن بخس . فأعطته زوجته مصاغاً ليشتري بستاناً . فأخذ المصاغ وياعه وتصدق بثمنه على الفقراء .

وللقاضى ابن عبد السلام مصنفات كثيرة منها : تفسير القرآن ، ومختصر مسلم والمجاز وقواعد الإسلام . ومناسك الحج ، والصوم وفضله ، والفتاوى المجموعة .

٧ - الفنارى : (٧٥١ - ٨٢٢ هـ)

الفنارى هو شمس الدين محمد بن حمزة بن محمد . ولد عام ٧٥١ هـ . وكان عالماً كبيراً له مصنفات عديدة . وقد أمضى وقتاً طويلاً فى إعدادها ، رغم اشتغاله بالقضاء ، والتحدث إلى الكثير من الطلبة فى آسيا الصغرى الذين انتفعوا بعلمه . ولى القضاء فى بروسة من أعمال تركيا .

كان رحمه الله متصلباً فى الدين ومتشبعاً فى القضاء . وقد روى عنه فى هذا المجال أنه رد شهادة السلطان العثمانى بايزيد بن مراد فى قضية . ولما سأله السلطان عن سبب ذلك الرد قال : إنك تارك للجماعة . فبنى السلطان أمام قصره مسجداً وعين لنفسه فيه موضعاً ولم يترك الجماعة بعد ذلك .

ويمتدح السيد أبو الطيب صاحب التاج المكلل الفنارى بقوله : فله در هذا العالم الصادع بالحق مع ما هو فيه من التقلب فى نعمة سلطانه . ورب عالم لا يقدر على الكلمة الواحدة فى الحق لمن عليه أدنى نعمة محافظة على زوالها . بل رب عالم يمنعه رجاء العطية ونيل الرتبة السنوية عن تكلم بالحق ولم يكن بيده إلا مجرد الأمانى الأشعبية . ورحم الله هذا السلطان الذى سمع الحق فاتبع ولم تصده سؤرة الملك وما هو فيه من السلطان الذى كان يطبق الأرض .

كان الفنارى متزهداً فى ملبسه رغم عناية جيرانه بملابسهم الفاخرة وكان إذا ما عوتب فى ذلك يقول : إن ثيابى وطعامى من كسب يدي ولا يفى كسبى بأحسن من ذلك .

خلف الفنارى ثروة علمية طائلة تشمل عدة مصنفات منها : فصول

« يوزع مجازاً ولا يباع »

البدائع في أصول الشرائع (الذي مكث في إعداده ثلاثين سنة وهو يعد من أجل كتب الأصول وأنفعها وأكثرها فوائد) . ومنها رسالته التي أتى فيها بمسائل من مئة فن وأسمائها نموذج العلوم . ومن مصنفاته : شرح تلخيص الجامع الكبير في الفروع وشرح تلخيص المفتاح في المعاني ، وشرح المصباح في النحو . وله كتاب عين الأعيان في تفسير القرآن ، وكثير غيرها من المصنفات .

هـ - نظام الأوقاف في الإسلام وعلاقته بالقضاء :

(١) نظام الأوقاف في الإسلام :

تعريف الوقف (١) : الوقف هو منع التصرف في رقبة العين التي يمكن الانتفاع بها مع بقاء عينها ، وجعل المنفعة لجهة من جهات الخير ابتداءً وانتهاءً (٢) . والوقف الذي فيه حبس (وقف) العين على حكم الله تعالى والتصديق بالثمرة على جهة من جهات البر ، هو من أنواع الصدقات الجارية بعد وفاة المتصدق ، يعم خيرها ويكثر برها وتتضافر بها الجماعات في ذوى الحاجات وإقامة المعالم وإنشاء دور الخير من : مستشفى جامع لعموم الناس ، ونزل لإيواء أبناء السبيل ، وملاجئ تؤوى اليتامى ، وتقوم الأحداث شر الضياع . فيكونون قوة عاملة ولا يكونون قوة هدامة .

ومن هنا يتضح أن الوقف في الإسلام لا يقتصر على المعابد والمناسك وما رصد لها من أموال ينفق ريعها عليها كما كان موجوداً قبل الإسلام ، بل إنه يشمل جميع أنواع الصدقات كالوقف على الفقراء والمحتاجين ، وعلى الإعتاق من الرق وعلى القرض الحسن ويكون ذلك من الربيع (الغلات) كما أن الوقف يتجاوز القربات التي يكون الوقف عليها وذلك من قبيل العبادات أو التقرب إلى الله ، ويمكن الوقف على من يحب الواقف من الأهل والأقارب والأولاد والذرية .

(١) الوقف جمعها أوقاف . ويطلق على الوقف : كلمة حبس وجمعها أحباس .

(٢) يعتبر هذا التعريف بالوقف أضبط تعريف جامع لصور الوقف عند الفقهاء والذين قرأوه

الوقف في الفقه الإسلامي :

يعتمد وجود الوقف في الفقه الإسلامي على ثلاثة أصول هي :

١ - قول النبي صلى الله عليه وسلم : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : « صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . فالصدقة الجارية المذكورة تتحقق في الوقف على أصل معناه المقرر الثابت وهو كونه نوعاً من الصدقات .

٢ - ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : إنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى أصبت أرضاً بخير لم أحب مالا قط أنفس عندي منه ، فما تأمرني به ؟ قال : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها .

فتصدق بها عمر . وهى أنها لا تباع ولا توهب ولا تورث وتصدق بها : « في الفقراء وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم غير ممول » .

وفي رواية أخرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة وجد أرضاً واسعة قد هجرها أهلها وأن أجزاء منها رديئة ولا تسقى . فأعطى لرسول عليه الصلاة والسلام بعضها إلى عمر بن الخطاب الذى اشترى فيما بعد أرضاً من قوم يهود ضمها إلى ذلك البعض فأصبحت الأرض كلها ذات فائدة وأصبح رضى الله عنه معجباً بها وأصبح ذا مال بسببها ، وهنا سأل عمر رضى الله عنه ، الرسول عليه الصلاة والسلام ، عن كيفية التى يتصرف بها في ريع الأرض فقال له عليه الصلاة والسلام : حبس أصله (أى أصل المال) وسبل ثمرته ففعل عمر .

وما روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة . فقال من اشترى بئر رومة ، فيجعل دلوه مع أدلاء المسلمين بخير منها في الجنة . واشتريتها من صلب مالى . وفي رواية أخرى أنه أضاف يقول : قد خلقتها

للمسلمين . وفي هذا حبس رقبة العين .

٣ - ما يثبت من أن الصحابة جميعاً قد وقفوا . ولقد روى عن جابر قوله : لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ذا مقدرة إلا وحبس وقال الشافعي : لقد حفظنا الصدقات عن عدد كثير من المهاجرين والأنصار . ولقد حكى عن عدد كثير من أولادهم وأهليهم أنهم ما زالوا يلون صدقاتهم حتى ماتوا .

وروى الخصاف أكثر من عشرين خيراً في أوقاف الصحابة والتابعين وكلها حبس للعين عن التصرف . وفي كثير منها وقف على الذرية والأقارب وعلى هذه الأسس جميعها قرر فقهاء المسلمين نظام الوقف ووضعوا الأنظمة الخاصة به .

شروط الواقف في الإسلام :

وبما أن الوقف هو من التبرعات ، اشترط في الواقف أن يكون مدح يحق لهم التبرع بأن يكون : بالغاً عاقلاً ، حراً غير محجور عليه لسفه غفلة . وأن وقفه لا يكون إلا في عين مملوكة له ملكاً باتاً . وأن تكون معرفته تعريفاً كاملاً .

الولاية على الوقف : يحتاج الموقوف إلى من يقوم برعايته ، ويحافظ عليه بإصلاح ما ينهدم منه أو العمل على كل ما فيه بقاءه صالحاً نامياً . يقوم باستغلاله بكل طرق الاستغلال المشروعة وإنفاق الغلات في وجوهها وتوزيعها على مستحقيها ، وكل ذلك لا يكون إلا بولاية قائمة عليه تتصرف فيه بالمصلحة وتحفظ أمواله بالأمانة وتوزعها على أصحابها بالعدالة

فالولاية للواقف أي بمعنى أنه هو الذي يعين الوالي وله أن يعزله في حياته . وإذا مات الواقف بطلت ولاية القيم . ما لم يكن هناك نص مكتوب ثابت من الواقف بولاية شخص ما أو وصاية شخص ما . ولا تسقط الولاية عنه إلا إذا ثبت عدم كفايته أو مات . وفي هذه الحالة فإن القاضي الذي يتصرف بشأن الوقف لأنه يعتبر القائم بالولاية العامة التي قوامها رعاية المصالح ، ودفع الأضرار عن الأوقاف .

هذا ويشترط في المولى على الوقف سواء أكان ذلك المولى معيناً من قبل الواقف نفسه أو من قبل القاضي ، أن يكون بالغاً عاقلاً من ذوى الكفاية العدالة والأمانة . وإذا حاد عن جادة الصواب عزل .

وللوكيل أو المولى من قبل الواقف أو القاضي الحق في أن يولى من يشاء التصرفات التى يملكها أو بعضها .

وهناك ما يسمى بالتفويض : وهو إسناد الناظر (المتولى على الوقف) لولاية الوقف إلى غيره وتفريغ نفسه منها . وفي هذا التفويض ما عزل المتولى الأصيل وتمليك المفوض كل شئ وهذا يحق له التصرف الكامل .

٢ - علاقة القضاء بالأوقاف :

إن علاقة القضاء بالأوقاف تتناول ناحيتين هما :

الناحية الأولى : وهى الفصل فى المنازعات المتعلقة بالأوقاف، مثلاً : نزاع فى لزوم الوقف وعدم لزومه ، والنزاع فى الاستحقاق ، والنزاع فى تحقيق شرط الواقف وما إلى ذلك . وهذه الأمور كلها من اختصاص القضاء نذ أن وجد القضاء اعتباراً من العهد الراشدى حتى يومنا هذا .

الناحية الثانية : الإشراف على الأوقاف وإدارتها وتنميتها : كانت لأوقاف فى بادىء الأمر بأيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم إلى أن تولى قضاء مصر عام ١١٥ هـ القاضي توبة بن نمر الحضرمى زمن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، فوضع يده على الأحباس . وقد قال هذا القاضي نفسه فى هذا المجال ما يلى : « ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من التواء (الهلاك) ، والتوارث . » . وهكذا اهتم توبة بالأوقاف وأنشأ لها ديواناً تحت إشرافه لم يمت توبة حتى صار للأوقاف ديوان عظيم .

ولما ولى القاضي خير بن نعيم الحضرمى قضاء مصر، أدخل أموال

اليتامى بيت المال بموجب كتاب من أبى جعفر المنصور . وجعل سجلا
خاصا بتلك الأموال لتدوين ما يدخل وما يخرج منها . وقد عمل فيما بعد
صندوق خاص لحفظ أموال الأيتام ، والأموال التى لا وارث لها لوفاء
مالكها بدون وارث . ولشدة اهتمام القضاة بهذه الأموال ، كان بعضهم
مثل القاضى أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى قاضى مصر من قبل
الخليفة الهادى عام ١٧٠ هـ . يتفقد بنفسه الأحباس ثلاثة أيام فى كل شهر
ويعاقب المشرف عليها إذا هو أهملها .

وكان عبد الرحمن بن عبد الله العمرى قاضى مصر من قبل هارون
الرشيد ١٨٥ هـ . من أشد الناس اهتماما بعمارة الأحباس . إذ كان يقف
عليها بنفسه ويجلس مع البنائين أكثر نهاره . ولولا ترميم تلك الأحباس
وصيانتها المستمرة ما بقيت الأحباس لأهلها .

ولما ولى قضاء مصر هارون بن عبد الله فى رمضان ٢١٧ هـ لم يبق شئ
من أمور القضاء إلا وشاهده بنفسه . فولى الأحباس وشاهد أموال اليتامى
بنفسه وحاسب عليها . حتى إنه قاصَّ رجلا وجده فى حجرة يتيم ، ك
قاصَّ المتولى عليها . وأورد أموال الغائب ومن لا وارث له بيت المال وسد
ذلك جميعه .

ثم توسع ديوان الأوقاف إذ صار مكونا من ثلاث شعب فى عهد
الفاطميين : ديوان لأحباس المساجد ، ديوان لأحباس الحرمين وجهات
البر ، وديوان للأوقاف الأهلية . وكل ذلك تحت سلطان القضاء .

وقد استمرت تلك الدواوين فى عصر المماليك . وكان انتظام هذه
الدواوين يتبع أحوال الدولة فى نظامها فإذا كان الحكم منتظما ثاب
قوى الأركان ، كان لهذه الدواوين شئ من النظام ، والعكس بالعكس .

وبقى الوضع كذلك حتى جاء الفتح العثمانى لاسيما فى عهد محمد
الذى جمع أوقاف المساجد وجهات البر وجعلها تحت سلطانه وأصدر
١٢٥١ هـ أمرا بإنشاء ديوان لها . ثم ألغاه . وبعدئذ أعاده عباس الأول
وجعله تحت إشراف محاسبة نظار الأوقاف الخيرية على أن تتولى المهمة

جميع نفقات الديوان . ثم تدرج الوضع حتى أصبح للأوقاف ميزانية خاصة
بالبقاى ميزانيات الدولة . وأصبح عجز وقف ما، يسدده الفائض من وقف
آخر .

أما سلطة ديوان الأوقاف فهي مستمدة من القضاء الشرعى لأن
صاحب الديوان يعين من قبل القاضى .

ويدخل تحت إشراف صاحب الديوان ما يلى :

- ١ - الأوقاف التى آلت أو تتول للخيرات .
- ٢ - الأوقاف التى لا يعلم لها جهة استحقاق بمقتضى شرط الواقف ولا من
يستحق النظر فيها .
- ٣ - الأوقاف التى يرى القضاة الشرعيون إحالتها على ديوان الأوقاف فى
شكل مؤقت لسبب ما .
- ٤ - الأوقاف التى يقيم عليها الديوان حارساً قضائياً بعد إقامة مدير
الأوقاف ناظراً مؤقتاً عليها من قبل القاضى الشرعى .
- ٥ - الأوقاف التى يرغب جميع مستحقيها مع الناظر إحالتها على
الديوان .

وفى ضوء كل هذا فإن ديوان الأوقاف كان لا يستمد سلطته إلا من
القضاء الشرعى. وأخيراً تطورت الأوقاف حتى أصبحت رزارة وما قيل عن
القطر المصرى يقال عن باقى الدول العربية والإسلامية .

الباب الثاني

الحياة العلمية

الفصل الأول

اهتمام المسلمين بالعلم والتعليم

العلم والإيمان هما أساس الحضارة الإسلامية . والعلم في الإسلام يعتبر وسيلة إلى القرب من الله تعالى ، كما أنه وسيلة إلى بلوغ السعادة الدنيا والدار الآخرة . وقد ارتبط العلم بالإيمان في الإسلام منذ أن بزغ هذا الدين الحنيف في غار حراء قبل أربعة عشر قرناً . من هنا نستطيع أن نتلمس الحكمة الإلهية في التوكيد على القراءة باعتبارها وسيلة للعلم والمعرفة وبناء الحضارة في أول ما نزل من القرآن الكريم من آيات وهو قوله : (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْبَرُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ③ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ④) (١) .

والإسلام يدعو إلى التفكير والتأمل في حكمة الله وتدبيره . لذلك فهو يحض على استعمال العقل واعتماد اليقين أساساً بدلاً من الظن الذي يغني عن الحق شيئاً . ذلك أن الإنسان قابل للتعلم . فبالعلم ميز الله تعالى أبا البشر آدم عليه السلام عن الملائكة . وبالإيمان والعلم النافع والعقل الصحيح تنفتح أمام المسلم أبواب السعادة في الدارين . وهكذا يصح للإسلام بحق دين العلم والمعرفة والرقى الحضارى . بل إن الإسلام قد جعل طلب العلم عبادة أو جهاداً في سبيل الله تعالى .

(١) (الآيات ١ - ٥ من سورة العلق .

وسنحاول في هذا الفصل أن نتبين النواحي الآتية :

- ١ - منزلة العلم والعلماء في الإسلام .
- ٢ - أهمية العلم لدى الفرد والمجتمع في الإسلام .
- ٣ - تشجيع الخلفاء والأمراء للعلم والعلماء .
- ٤ - الرحلة في طلب العلم .

فلنبداً ، إذن ، حديثنا عن هذه النواحي تباعاً .

١ - منزلة العلم والعلماء في الإسلام :

وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف نصوص كثيرة تُشيد بفضيلة العلم والعلماء وتحضّ المسلمين على طلب العلم والاستزادة منه .
ما وردت أحاديث عديدة وأثار جليلة عن عناية الخلفاء الراشدين وكبار صحابة والتابعين بالعلم والتعلم . وإليك الشواهد الآتية :

(١) من القرآن الكريم :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (١) .

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (٢)

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) (٣)

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (٤)

(١) من الآية ٢٨ من سورة فاطر

(٢) الآية ١٢٢ من سورة التوبة

(٣) من الآية ١٨ من سورة آل عمران

(٤) من الآية ١١٣ من سورة النساء

(يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (١)

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (٢)

(فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (٣)

(وَقُلِّبَتْ لِي ذُنُوبِي) (٤)

وليس العلم والذكر في هذه الآيات هو علم الدين وحسب ، بل هو كعلم نافع يرفع من قدر الإنسان وينمي عقله ويجعله أكثر خبرة بالحياة واطلاعاً على أحوالها .

ب (من الحديث الشريف :

(طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) (٥)

(فَضِّلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ) (٦)

(تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ ، وَتَوَاضَعُوا

تَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ) (٧)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ

الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُمُ

فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) (٨)

(إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ :

صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ) (٩)

(مِنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَ

الْمَلَائِكَةُ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ لِرِضَى اللَّهِ عَنْهُ ، وَأَنَّ الْعِلْمَ

لَيْسَتْ غَفْرَةٌ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخَيْتَانِ فِي الْجَنَّةِ)

(١) من الآية ١١ من سورة المجادلة

(٢) من الآية ٩ من سورة الزمر

(٣) من الآية ٤٣ من سورة النحل

(٤) من الآية ١١٤ من سورة طه .

(٥) رواه ابن عبد البر

(٦) رواه الترمذی

(٧) رواه أبو نعیم

(٨) رواه الشيخان

(٩) رواه مسلم

الماء (١) .

(الْعِلْمُ خَزَائِنٌ وَمِفْتَاحُهَا السُّؤَالُ ، فَاسْأَلُوا يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُؤَجِّرُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ : السَّائِلُ ، وَالْمُعَلِّمُ ، وَالْمُسْتَمِعُ ، وَالْمُحِبُّ لَهُمْ) (٢) .
(مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ) (٣) .

ج - ومن المأثور في ذلك عن الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لكميل بن زياد رضى الله عنه :
يا كميل : العلم خير لك من المال . العلم يحرسك وأنت تحرس المال .
العلم خاكم والمال محكوم عليه . والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على
الإنفاق) . ومن أقواله أيضاً : (كفى بالعلم شرفاً أن يدعى من لا يحسنه
يفرح به إذا نسب إليه . وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه) .
قوله : (قيمة كل امرئ علمه) .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (يأبها الناس عليكم بالعلم
إن لله سبحانه وتعالى رداء يحبه ، فمن طلب باباً من العلم رداه الله عز وجل
ردائه ، فإن أذنب ذنباً استعبته ثلاث مرات لئلا يسلبه رداه ذلك وإن
طاول به الذنب حتى يموت) .

وقال الحسن بن علي رضى الله عنهما في قوله تعالى : (رَبَّنَا آتِنَا
فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً) : (إن الحسنة في الدنيا هي العلم
والعبادة ، وفي الآخرة هي الجنة) .

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : (تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنْ تَعَلَّمْتُمْ حَسَنَةً ،
طَلَبْتُمْ عِبَادَةَ ، وَمَذَاكَرْتُمْ تَسْبِيحَ ، وَابْحَثُوا عَنْهُ جِهَادَ ، وَبِذَلِهِ قُرْبَةَ ، وَتَعْلِيمَ
نَ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ) .

(١) رواه مسلم

(٢) رواه أبو نعيم

(٣) رواه أبو داود

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه : (ليس العلم ما حُفِظ ، العلم ما نَفَع) .

وكتب الإمام مالك رضي الله عنه للرشيد : (إذا علمت علماً فلير عليك أثره وسكينته ووقاره وحلمه) .

وقال عالم أهل اليمن وهب بن منبه الحافظ (المتوفى سنة ١٤ هـ) رضي الله عنه : (يتشعب مع العلم الشرف وإن كان صاحبه دينياً والعلم وإن كان مهيناً ، والقرب وإن كان قاصياً ، والغنى وإن كان فقيراً ، والمهابة وإن كان وضيعاً) .

إن هذه الشواهد وكثيرة غيرها تؤكد توكيداً قاطعاً على أن الإسلام يجعل العلم والعلماء الأبرار الذين يقصدون بعلمهم رضوان الله تعالى والرفق لديه في جنات النعيم ولا يطلبون العلم ليماروا به السفهاء أو يكاثروا العلماء لقول رسول الله عليه الصلاة والتسليم : (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً لِغَيْرِ اللَّهِ أَرَادَ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١) .

كما ظهر لنا مما تقدم من الشواهد أن الاشتغال بالعلم لله أفضل نوافل العبادات البدنية من صلاة وصيام وتسبيح ودعاء ونحو ذلك . ذلك لأن نفع العلم يعم صاحبه والناس . أما النوافل البدنية فمقصورة لصاحبها . كذلك فإن العلم مصحح لغيره من العبادات فهي تفتقر إليه وتتوقف عليه ولا يتوقف هو عليها . وكذلك فإن العلماء هم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وليس ذلك للمتعبدين . كما أن طاعة العالم واجب على غيره فيه . هذا بالإضافة إلى أن العلم يبقى أثره بعد موت صاحبه ويرثه من النوافل تنقطع بموت صاحبها . ثم إن في بقاء العلم إحياءاً للشريعة وحفظاً معالم الأمة .

٢ - أهمية العلم لدى الفرد والمجتمع

لقد كان شغف المسلمين بالعلم عظيماً إبان ازدهار حضارتهم

(١) أخرجه الترمذي

لإنسانية الرفيعة في العصور الوسطى . ويعود ذلك أساساً إلى عاملين
ثنين ، أحدهما ديني ، والآخر دنيوي - اجتماعي .

أسباب عناية المسلمين بالعلم :

فأما العامل الديني فيتجلى في نظرة العلماء المسلمين إلى العلم بوصفه
سبيلة إلى معرفة الله تعالى وابتغاء مرضاته . لذلك فقد حرصوا على التفقه في
الدين وتعلم أحكامه والتحلّي بالأخلاق الفاضلة . وهذا كان هدف عشرات
لوف من العلماء الذين بذلوا أعمارهم في سبيل العلم والبحث ولم يقبلوا
بليه أجراً ولا وظيفة ولا أباحوا لأنفسهم أن يقبلوا درهماً ولا ديناراً في سبيل
لعلم والبحث أمثال عشرات من الصحابة والتابعين وفي طليعتهم أبو بكر
عمر وعثمان وعلي وابن عباس وابن عمر وأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن
عنبل والأوزاعي وسيبويه والكسائي والخليل بن أحمد والأشعري والبخاري
مسلم والماوردي والذهبي والبيضاوي والسيوطي والزرنوجي رضوان الله
عليهم .

وأما العامل الدنيوي والاجتماعي فهو واضح في اتجاه العلماء
المسلمين إلى اكتشاف العالم الطبيعي واستغلاله لصالح الفرد والمجتمع .
ذلك فقد اندفعوا بحماس منقطع النظير إلى دراسة الكون والإنسان وإثراء
لحضارة الإنسانية بابتكارات وإضافات أصيلة في شتى حقول المعرفة ، في
لعلوم والآداب والفنون .

وهكذا نجد أن الطابع العام لطلب العلم عند المسلمين كان دينياً
دنيوياً معاً ، لقوله سبحانه وتعالى : (وَأَبْنَعُ فِيهَا أَشْكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
نُصَيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (١) ولقول رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام :
لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ ، وَلَا الْآخِرَةَ لِلدُّنْيَا ، وَلَكِنْ خَيْرُكُمْ مَنْ
خَذَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ .

طلب العلم للرزق والمنزلة الاجتماعية :

إن عناية المسلمين بالعالم الطبيعي ومعرفة سبل استغلال خيراته

(١) الآية ٧٧ من سورة القصص

والاستمتاع بما فيه من مظاهر الجمال والإبداع وفقاً لأحكام الشريعة
 السمحة يشير بوضوح إلى أن المسلمين قد فطنوا إلى القيمة الاجتماعية
 للتعليم باعتباره وسيلة لكسب العيش وسلماً إلى العز والجاه والرفعة
 وللمسلمين في ذلك مآثورات عديدة . فمن ذلك قول مصعب بن الزبير لابنه
 (تعلم العلم ، فإن يكن لك مال كان لك جمالا ، وإن لم يكن لك مال كان لك
 مالا) . ويروى أن عبد الملك بن مروان قال لبنيه : (يا بنيّ : تعلّموا
 العلم ، فإن كنتم سادة فقتم ، وإن كنتم وسطا سدتم ، وإن كنتم سوقا
 عشتم) .

بل إن هذا الاتجاه الواقعي لطلب العلم كوسيلة لكسب الرزق والترقي
 الاجتماعي قد ذهب إليه بعض أساطين الفكر التربوي الإسلامي . ويكفي
 أن نمثل هنا لرأي اثنين من العلماء المسلمين يعتبران بحق من أكثرهم أصالة
 وشهرة ونبوغاً . هذان العالمان هما ابن سينا وابن خلدون .

(أ) رأى ابن سينا في تعليم الصبى صنعة تناسبه :

يتحدث الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠ - ٤٣٨ هـ / ٩٨٠ - ١٠٣٧ م) في رسالته التربوية المسماة السياسة عن مسأرة مي
 الصبى ، ثم توجيهه إلى الصناعة أو المهنة التي تتفق مع ميوله فيقول
 (ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مؤاتية ، لكن ما شاكل طبيعته
 وناسبه ، وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام
 المشاكلة والملاءمة ، اذن ما كان أحد غفلا من الأدب وعارياً من صناعاته
 وإذن لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف وأرفع الصناعات) . لذلك
 (ينبغي لمدير الصبى إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولاً طبع الصبى
 ويسبر قريحته ويختبر نكاهه فيختار له الصناعات بحسب ذلك) .

(ب) رأى ابن خلدون في طلب العلم كصناعة ووسيلة للرزق :

اعتبر الفقيه التونسي عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) طلب العلم صناعة ضمن الصنائع التي تنشأ في
 المجتمعات لكونها ضرورية لحياة الأفراد فيها ، وأنها وسيلة لكسب الرزق

فبعد أن فصل الكلام في أن الصنائع لا بد لها من العلم، في الفصل السادس عشر من الباب الخامس من تاريخه الموسوم المقدمة، انتقل إلى بيان أنواع الصناعات التي تنشأ في المجتمعات المتحضرة قائلًا : (وتنقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة . ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها . ومن الثاني الوراقة وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر . والتعليم العلم وأمثال ذلك . ومن الثالث الجندية وأمثالها والله أعلم) .

فابن خلدون ، إذن ، يرى أن هدف الإنسان من السعى لتحصيل العلم هو الإحاطة بنواحي المعرفة التي تهيب للمرء وسيلة تساعد على حياة السعيدة في المجتمع المتحضر .

ويتضح مما تقدم أنه بينما كان معظم أئمة المسلمين يعتبرون العلم وسيلة للتقرب من الله تعالى وسعادة الآخرة ، كان هناك ثمة فريق آخر يعتقد أهمية التعلم من أجل كسب العيش وتحسين المنزلة الإجتماعية للفرد . من الثابت فإنه بفضل العلم استطاع كثير من فقراء المسلمين أن يتبوأ مكانة إجتماعية مرموقة أمثال الجاحظ والخليل بن أحمد الفراهيدي والإمام الغزالي .

اهتمام المجتمع الإسلامي بتعليم القرآن الكريم :

كان الكتاب ، وهو ما يعادل في عصرنا الحاضر المدرسة الابتدائية تقريباً ، يتولى تعليم القرآن الكريم للصبيان . وكان هذا الأسلوب معمولاً به في جميع أرجاء العالم الإسلامي . ذلك لأن تعليم القرآن للأولاد كان من أصول الحياة الإسلامية التي حرص عليها المجتمع الإسلامي في مختلف العصور . وهذا ما أكده المربون المسلمون بصورة عامة . ويجدر بنا أن ننقل مرة أخرى إلى كل من كتاب السياسة لابن سينا والمقدمة لابن خلدون لنتبين موقفيهما من تعليم كتاب الله للأولاد .

(ا) رأى ابن سينا في تربية الأولاد في الكتاب :

يرى ابن سينا أن يبدأ الطفل بتعلم القرآن الكريم بمجرد أن يتهيأ للتلقين جسماً وعقلياً . وفي الوقت نفسه يتعلم حروف الهجاء ويلقن معالماً الدين . ثم يروى الصبى الشعر مبتدئاً بالرجز ثم القصيدة لأن رواية الرجز أسهل وحفظه أيسر ، إذ أن بيوته أقصر ووزنه أخف ، على أن يختار من الشعر ما قيل في فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وما حث منه على حب الوالدين ، واصطناع المعروف وقرى الضيف . فإذا فرغ الصبى من حفظ القرآن وألمَّ بأصول اللغة نُظِرَ عند ذلك في توجيهه لما يلائم طبيعته واستعداده .

(ب) وصف ابن خلدون لتعليم القرآن في العالم الإسلامي :

عالج ابن خلدون بإسهاب التعليم في مرحلة الكُتَّاب في مختلف بقاع العالم الإسلامي . ويعتبر وصفه لحالة التعليم منطبقاً على الواقع ، ليدرك في المدة التي عاش فيها في القرنين الثامن والتاسع الهجريين فحسب . وإنما هو أيضاً ، في الفترة التي سبقت ذلك ببضعة قرون لأن الاحتفال بالتقاليد في تعليم الأبناء كان من أبرز مميزات التربية الإسلامية .

يبدأ ابن خلدون بالإشارة إلى أهمية تعليم القرآن الكريم للأطفال فيذكر أن تعليم القرآن هو نقطة البداية وأساس التعليم في مختلف البلدان الإسلامية . وذلك لأن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به المسلمون ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يؤدي إليه من رسوخ الإيمان ، ولذلك (صار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد ذلك من الملكات) . فمذهب أهل المغرب الإقتصار على تعليم القرآن ، فلا يدرس الولد معه شيئاً من الحديث أو الفقه أو الشعر أو الأدب (إلى أن يحذق فياخذ وينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن التعليم بالجملة) . أما أهل الأندلس فيبدؤون بتعليم القرآن إذ يعتبرونه منبع الدين والعلوم . لأنهم لا يقتصرون على تعلم القرآن (بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط

(كتاب) . وفي إفريقية يُخلط تعليم القرآن بالحديث في الغالب وتدرس
الدين العلوم ويُلقن بعض مسائلها (إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار
الردان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم
بخط تبعاً لذلك) . ويشبه أهل المشرق أهل إفريقية من ناحية تعليم بعض
علوم مع القرآن ، ولكنهم يعلمون الخط على انفراد فله معلمون مختصون
تعلمه النشء كما يتعلم سائر الصنائع .

تصنيف المسلمين للعلوم :

قسّم العلماء المسلمون العلوم من حيث أهميتها إلى قسمين رئيسين

أ :

فروض العين وفروض الكفاية .

(أ) **فروض العين** : وهي العلوم التي يجب على كل مسلم معرفتها مثل
وم الدين التي لا يستقيم توحيد المسلم لربه وأداء عبادته بدونها وعلى
سها القرآن الكريم والعلوم المتصلة به كالتفسير والحديث والفقهاء
لأصول .

(ب) **فروض الكفاية** : وهي العلوم التي يحتاج إليها في تسيير أمور
دنيا مثل علوم الحساب والطب والصناعات ، ويمكن أن يتعلمها البعض
من البعض الآخر .

أما الخط والتذهيب وما إلى ذلك فقد اعتبروها من العلوم المفيدة في
لحياة الاجتماعية الراقية . وأما السحر والشعوذة وما إلى
لك فقد حرمها الشرع الإسلامي .

نشوء العلوم وتقدمها :

إن عناية المسلمين بالدين لم تقتصر على دراسة القرآن الكريم وإنما
ت إلى الاهتمام بدراسات مختلفة لها صلة بالدين كعلوم اللغة وعلم
أخبار والحديث والتفسير . وقد نمت تلك العلوم في القرنين الأول والثاني
هجرة . ففي الكوفة والبصرة جد العلماء في وضع قوانين النحو لصيانة
لسان العربي والمحافظة على نقاوته لضرورة ذلك في فهم القرآن عماد

الإسلام . ومن أجل هذا الغرض درس الشعر دراسة علمية . فجمع نماذج من الأشعار العربية القديمة لتساعد على توضيح معنى بعض الآيات القرآنية . ولذلك كتبت التواريخ في أول الأمر مدفوعة بالعامل الديني . فكتب أول كتاب تاريخي قام بتدوينه علماء المسلمين السيرة النبوية لابن إسحاق المتوفى سنة ١٥٠ هـ . وتبع ذلك تاريخ الفتوح الإسلامية . ولم تكن التواريخ العامة إلا في القرن الثالث الهجري .

ونشأت الحاجة إلى التشريع والتقنين فظهرت علوم الفقه والأصول وطمح المسلمون إلى مزيد من التعرف على أحوال الكون لتسخيره وإعما فظهرت العناية بالعلوم التجريبية والمجردة كالرياضيات والفلك وعلوم الحياة . وأرادوا الاستفادة مما عند الأمم الأخرى فاستجرت دراسة علم الفلسفة والأديان والعقائد . وبلغت هذه الدراسات ذروتها في القرن الرابع الهجري . وهكذا لم يكتمل هذا القرن حتى كانت الشعوب الإسلامية أغنى الشعوب علماً وفكراً وثقافة وكفاية وأقواها عدّة وشخصية . فازدهرت العلم أو دور الحكمة في كل من بغداد والقاهرة حيث ترجمت إلى العربية ودرست علوم الإغريق والهنود والفرس من علوم رياضية وطبيعية وفلسفة وطب وغيرها .

وتعددت المؤلفات العامّة فظهرت كتب طبقات الرجال واختص كل من هذه الكتب بفئات خاصة من المفكرين . فهذه معاجم رجال الحديد وهذه معاجم رجال الأدب ، وهذه كتب طبقات الأطباء والحكماء ، وهذا مما لم يجتمع لأية أمة من الأمم لا في ماضيها ولا في حاضرها .

وقد خلف آلاف المفكرين والعلماء المسلمين آلاف الآلاف من المؤلفات والنفائس التي زخرت بها آلاف المكتبات التي كانت تغطي العالم الإسلامي من مشارف الصين إلى الأطلسي ومن تركستان إلى عدن ودلهي في أضحى نهضة ثقافية عرفها العالم حتى ذلك الحين . ولقد دامت هذه الثقافة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، وكانت بداية النهضة والتقدم في أوروبا والعالم الغربي كله .

ويلخص الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم المنهج الديني الأبي

ي كان يتبعه في القرن الرابع الهجري طلاب العلم في المراحل الدراسية
تقدمة على النحو الآتي :

- ١ - علم الفقه الذي يبحث في الصلاة والصوم والزكاة والزواج والبيع
والشراء.. الخ .
- ٢ - علم النحو .
- ٣ - علم الكلام
- ٤ - الكتابة
- ٥ - العروض
- ٦ - علم الأخبار وخصوصاً التاريخ الإسلامي وما قبل الإسلام وتاريخ
الفرس وتاريخ الإغريق والرومان .

وفي حالات كثيرة كان يدرس الحساب نظراً لفائدته في الميراث ومعرفة
تقويم .

أما أهم العلوم غير الشرعية التي كان يحتويها المنهج العلمي في ذلك
زمن فيلخصها الخوارزمي كالاتي :

- ١ - العلوم الطبيعية وتشمل الطب بفروعه : التشريح وعلم تشخيص
الأمراض وعلم العقاقير والعلاج والتغذية .. إلخ . ثم علم المعادن
والمناجم والنبات والحيوان وكيمياء تحويل المعادن إلى ذهب .
- ٢ - العلوم الرياضية : وتشمل الحساب والجبر والهندسة وعلم الفلك
والميكانيكا وعلم الآلات الرافعة .. الخ .
- ٣ - المنطق .

وعلى هذا فإن مناهج التعليم الإسلامي في العصور الوسطى لا تختلف
بشراً في شكلها ومضمونها عن المناهج الحديثة وبخاصة في المستويات
تعليمية المتقدمة .

٣ - تشجيع الخلفاء والأمراء للعلم والعلماء :

كان الخلفاء يعدون أنفسهم حماة للعلم ، ويرون أن قصورهم يجب

أن تكون مراكز تشع منها الثقافة والعرفان ونوادى يلتقى فيها العلماء والأدباء . ومن أجل هذا نجد أن المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) لما أراد بناء قصره (الشماسية) ببغداد استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقديره أراد ، فسئل عن ذلك ، فذكر أنه يريد له ليبنى فيه دورا ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ويجرى عليهم الأرزاق السنوية ، ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه . وعلى هذا أصبح تاريخ الصالونات الأدبية مرتبطا بتاريخ القصور وبخاصة قصور الخلفاء . فبدأ الصالونات منذ تربع في قصر شاهق معاوية الخليفة الأموي الأول .

وكان معاوية يستدعى إلى مجلسه بعض العلماء والأدباء وأرباب السير ليقرءوا له ويحدثوه عن تاريخ العرب ومواقعهم الشهيرة وعن تاريخ ملوك الفرس ونظم حكوماتهم وإداراتهم وسير الأمور في ممالكهم . ويذكر المؤرخون أن عبد الملك بن مروان وابنه سليمان وعمر بن عبد العزيز كانوا يرفعون الإمام رجاء بن حيوة ويقدمون إليه كل ما يحتاج إليه في سبيل العلم وتوطيد أركان الثقافة . كما أن خلفاء بني أمية أحاطوا بالإمام الأوزاعي بكل ضروب الإكبار والرعاية وأعانوه على إتمام بحوثه بإقامة حلقات الدرس في جامع دمشق بل وفي قصورهم أيضا . وكان عمر بن عبد العزيز يناقش بنفسه بعض الخوارج في معتقداتهم المذهبية . ويقال أن هشام بن عبد الملك كان أوصى غلامه سالما الرومي بالتنقيب عن بعض كتب الحكمة اليونانية القديمة لجمعها وترجمتها إلى اللغة العربية ، وأن سالما ترجم سالما هذا بعض آثار أرسطو . هذا بالإضافة إلى عناية الخلفاء الأمويين بالشعر وتشجيعهم للشعراء المبرزين أمثال جرير والفرزدق والأخطل .

وقد بدأ تشجيع الخلفاء العباسيين للعلم والعلماء يظهر في عهد الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) إذ كان الخليفة نفسه في درجة عالية من الثقة والمعرفة ، ثم كانت الدولة قد وصلت إلى حياة الاستقرار . ففي مجلس الرشيد كانت تعقد مناظرات بين الشعراء ومناقشات بين الفقهاء ومساجلات بين أهل الفنون والأدباء . وكانت هالة الرشيد في بغداد تتكون من أسماء لامعة

علماء معها الرشيد حوله ممن لهم باع طويل في كل ناحية من نواحي الثقافة . فمن
الولاء الشعراء : أبو نواس ، وأبو العتاهية ، ودعبل الخزاعي ، ومسلم
بن الوليد ، والعباس بن الأحنف .

ومن الموسيقيين : ابراهيم الموصلي وابنه إسحاق . ومن اللغويين :
بو عبيدة ، والأصمعي ، والكسائي (وكان معلم الرشيد) ، ثم ابن
لسمان الواعظ ، والواقدي المؤرخ ، وكثير غير هؤلاء .

ومن المناظرات الطريفة التي حدثت في مجلس الرشيد تلك المناظرة
لتي جرت بين الفقيه أبي يوسف والكسائي النحوي . إذ ادعى أبو
وسف أن الكسائي إنما يحسن شيئاً من كلام العرب . وقال الكسائي : من
بحر في علم اهتدى به إلى جميع العلوم . فقال له أبو يوسف : ما تقول فيمن
عها في سجود السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال الكسائي : لا . فسأله
بويوسف : لماذا ؟ فأجاب الكسائي : لأن النُّحاة تقول المصغر لا يصغر .

أما عهد المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) فكان بحق
زهرة فترة في تاريخ النهضة بالعالم الإسلامي . إذ كان الخليفة نفسه عالماً
من أساطين العلماء . واختار أصحابه ورجال دولته من الصفوة الأفاضل في
الشرق والغرب . هذا إلى جانب الأساتذة والمشيرين والمترجمين والمفكرين
الذين حلّ بهم بلاطه وزين ملكه . فكان بلاطه يموج بجمهرة عظيمة من
رجال العلم والأدب والشعراء والأطباء والفلاسفة ، الذين استدعاهم
المأمون من جهات متعددة من العالم المتمدين وشملهم جميعاً بعنايته مهما
اختلفت مشاربهم أو جنسياتهم .

وبموت الواثق (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) انتهى عهد الخلفاء الأقوياء ذوي
الهيبة والجلال وبدأ عهد الانحلال السياسي ، ولكن بعد أن أشرب القادة
والأمراء حب العلم والأدب وأصبحوا يجدون متعة ولذة في حماية العلم
وتكوين مجالس لهم على غرار تلك التي كان يعقدها الخلفاء . وعلى هذا
فالتدهور السياسي صحبته نهضة علمية ، وضعف العاصمة وضمحلها
نشأ عنه عدة عواصم كل منها مثّلت دور بغداد بنجاح عظيم .

ففى الممالك المستقلة أو شبه المستقلة التى انقسم لها العالم الإسلامى قامت أسر حاكمة وكانت هذه ينافس بعضها بعضاً فى حماية العلم والمتعلمين . فأصبحت القصور الجديدة فى العواصم المتعددة مراكز ثقافية خصبة .

فمن هذه القصور بلاط سيف الدولة الحمدانى فى حلب . فقد استطاع سيف الدولة أن يجمع حوله فى مملكته الصغيرة جماعة قل أن تضارع ، إذ كانت متعددة النواحي فى العبقرية . وقد كان كرمه الفائق سبباً فى أن ينجذب نحوه ذوو الرياسة من أدباء العصر وعلمائه (أمثال المتنبى الشاعر والغرابى الفيلسوف) فأحاطوا اسمه بإطار من السمعة الخالدة .

ومن هذه القصور أيضاً بلاط الغزنويين . فقد كان السلطان محمود الغزنوى شديد الرغبة والحماس فى أن ينال العظمة التى يستحقها ملك جعل من بلاطه ملتقى تدور فيه فنون من المناقشات فى الآداب والعلوم التى وصل إليها أساطين العلماء فى ذلك العهد . فقد ازدان بلاط هذا السلطان بالعباقرة أمثال العتبي المؤرخ العربى ، والبيرونى المؤلف والعالم الشهير والفردوسى الشاعر الفارسى اللامع . وكان السلطان محمود يحب العلم والعلماء ويكرمهم ويجالسهم ويحسن إليهم ، وكانت تعقد مناظرات طويلة بين يديه .

وحيثما استولى السلاجقة على بغداد وعلى أغلب العالم الإسلامى ظهر اسم الوزير نظام الملك (المتوفى سنة ٤٨٥ هـ) الذى كان السلطان الحقيقى لدولة السلاجقة الأولى . وكان هو نفسه فقيهاً وعالمياً . فكانت تعقد المناظرات فى حضرته . وقد خرج له الغزالي مرة وناظر الأئمة والعلماء مجلسه وقهر الخصوم وظهر كلامه على الجميع فولاه نظام الملك التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد . وطالما جرت مناظرات بين أبى إسحاق الشيرازى وإمام الحرمين أبى المعالى الجوينى بحضرة نظام الملك .

وفى بلاط الأخشيديين كانت تلقى أبحاث تاريخية كل مساء . وفى تربي كافور فى هذا البلاط وترقى إلى أن جعله الأخشىدي أتابك ولد

علمهما . فلما تسلم كافور الأمر أدنى الشعراء وأجازهم . وكانت تقرأ
نده في كل ليلة السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية . وأصبح كافور
بامياً للعلم والعلماء . وامتاز صالونه بأن ازدهى بالشعراء وعلى رأسهم أبو
طبيب المتنبي . كما أسبغ سيف الدولة الحمداني عطفه على الفيلسوف
ناسك أبي نصر الفارابي (المتوفى سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) صاحب
وؤلفات العديدة ومن أبرزها كتابه المعروف آراء أهل المدينة الفاضلة
الذي تأثر بما ضمّنه فيه من أفكار بالفيلسوف الأغرقي أفلاطون (٤٢٩ -
٣٤ ق.م) في كتابه المعروف الجمهورية .

وقد شجع الخلفاء الفاطميون العلماء المسلمين في شتى ضروب
عرفة ، في الفقه والحديث ، وفي الطب والعلوم والرياضيات والمنطق ، وفي
ير ذلك . وكان الحاكم بالله الفاطمي (المتوفى سنة ٣٨٦ هـ) يكرم العلماء
بغدق عليهم بسخاء ويقتني ألوان الكتب ويهيئ لطلاب العلم أسباب
اطلاع عليها والإفادة منها .

كذلك فقد تولى كل من نور الدين بن عماد الدين زنكي (المتوفى سنة
٥٦ هـ) وخلفه صلاح الدين الأيوبي (المتوفى سنة ٥٨٩ هـ) ، الذي
ان محباً لمجالس العلم ورعاية النهضة العلمية وإكرام العلماء الذين وفدوا
لى سورية ومصر من البلدان الإسلامية المجاورة . فقد قرب صلاح الدين
يه بهاء الدين والقاضي الفاضل وعماد الدين الكاتب .

وهكذا نجد أن الخلفاء والأمراء كانوا في طليعة حماة العلم بفضل ما
دموه لأهله من التشجيع والمؤازرة .

٤ - الرحلة في طلب العلم :

ويقصد بالرحلة ، وهي تقليد إسلامي أصيل ، انتقال طالب العلم من
لد إلى آخر للالتقاء بأستاذ مشهور في علم من العلوم ليأخذ عنه مباشرة .
المراجع الإسلامية تفيض بأسماء الأعلام الذين رحلوا في طلب العلم دون أن
قف في سبيلهم بعد المسافات ولا مشقة الأسفار . وقد تستغرق رحلة طالب

العلم عدة سنين يقضيها متنقلاً في مختلف البلاد الإسلامية يلتقى في أثناءها
بمشاهير العلماء فيستقى العلم من مناهله الأصلية .

وقد تحدث ابن خلدون بإفاضة عن أهمية الرحلات في طلب العلم في
الفصل الذي عقده في مقدمته بعنوان (في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء
الشيخة مزيد كمال في التعلم) حيث يبرز هذه الأهمية قائلاً : (والسبب في
ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب
والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاءً ، وتارة محاكاةً وتلقيناً بالباشرة . إلا أن
حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً . فعلى
قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها . والاصطلاحات أيضاً
في تعليم العلوم مخططة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من
العلم . ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين
فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من
اختلاف طرقهم فيها ، فيجرد العلم عنها ، ويعلم أنها أنحاء تعلم ، وطرق
توصل ، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان ، وتصحح معارفه
وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة
عند تعددهم وتنوعهم . وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية . فالرحلات
لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشر
الرجال) .

أما المستشرق البريطاني المعروف العلامة نيكلسون (١٨٦٨ م .
١٩٤٥ م) فقد تحدث عن هذه الرحلات حديثاً طريفاً حيث قال : (وكار
معظم الباحثين وطلاب العلم يرحلون في حماسة ظاهرة عبر القارات الثلاث
ثم يعودون إلى بلادهم كما يعود النحل محملاً بالعسل الشهي . ثم يجلس
هؤلاء الباحثون في بلادهم ليروا شغف الجماهير التي كانت تنتظر عودتهم
لتلتف حولهم فينالوا من علومهم ومعارفهم زادا وخيراً عميماً . كما كا
هؤلاء الباحثون يعكفون أحياناً على تدوين ما جمعوا وما سمعوا .
يخرجون للناس كتباً هي بدوائر المعارف أشبه ، مع نظام رائع وبلاغة
عذبة . وهذه الكتب هي المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحمله كلف
العلوم من معنى ، وهي مرجع العلماء والباحثين ، ومنها يستمدون فنوناً ما

الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون) .

وكانت الرحلة في أول الأمر لغرض جمع الأحاديث النبوية عندما شعر المسلمون بضرورة تدوينها وتمحيصها بوصفها المصدر الثاني للدين الإسلامي بعد القرآن الكريم . فانتشر العلماء في أنحاء الدولة الإسلامية في القرن الثاني للهجرة للاتصال بمن كانت لهم بالمعاصرين لرسول الله عليه الصلاة وأتم التسليم ولصحابته رضوان الله عليهم صلة .

فقد روى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (كان يبلغنا الحديث من رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلو أشاء أن أرسل إليه حتى يجيئني فيحدثني فعلت ، ولكنى كنت أذهب إليه فأقبل على بابي حتى خرج إليّ فيحدثني) . ويعزى إلى يحيى بن سعيد أنه قال : (إنى كنت أسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد) .

وهكذا فقد صار ديدن كثير من طلاب العلم المسلمين فى أن يشدوا لرحال إلى شتى أرجاء العالم الإسلامى المترامى الأطراف بحثاً عن حديث صحيح أو رواية إخبارية ، أو للاجتماع إلى عالم نحريز فى علوم الدين أو اللغة أو الأدب ، أو للتعرف على أحوال الأمم والأقاليم غير مبالين بوعثاء السفر ، ولا ببعد المسافات وشظف العيش . والأمثلة على ذلك لا تحصى ، هاك بعضاً منها :

فقد أراد الإمام البخارى (المتوفى عام ٢٦٥ هـ) رضى الله عنه أن يجمع أكبر قدر من الأحاديث الصحيحة ، فجمع أحاديث بلده بخارى (فى ولاية تركمان تحت الاستعباد السوفيتى اليوم) ، ثم رحل إلى بلخ بأفغانستان وسمع محدثيها وروى أحاديثهم . ثم رحل إلى مرو (فى ولاية تركمان المذكورة) ونيشابور^(١) والرى (فى شمال شرقى إيران اليوم) بغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ومصر ودمشق وحمص ثم قيسارية وعسقلان وهما تحت الاستعباد الاسرائيلى اليوم . فجمع بهذا ما تفرق من لحديث فى الأمصار . وأقام فى هذه الرحلات ستة عشر عاماً ، لقى فيها عناء شديداً لا يتحمله إلا المجاهدون الصابرون ، وأخيراً عاد إلى وطنه بعد أن وثق نحو أربعة آلاف حديث من أصل ثلاث ومئتى ألف حديث قام بجمعها .

(١) وتكتب أحياناً نيسابور

ويذكر عن تاج الإسلام ابي سعيد (المتوفى في القرن السادس الهجرى) أنه رحل في طلب العلم والحديث إلى شرقى الارض وغربها وشمالها وجنوبها ، وكان عدد شيوخه يزيد عن أربعة آلاف شيخ .

ويحكى عن ابن الأعرابى الذى كان لغويًا مشهورا بالكوفة في القرن الثانى للهجرة أنه رأى في مجلسه يوما رجلين يتحادثان فقال لأحدهما: من أين أنت ؟ فقال من أسبيجاب (وهى مدينة في أقصى بلاد الشرق من إقليم الصين أو قريبة منه) . وقال للآخر : من أين أنت ؟ فقال من الأندلس ، فعجب لذلك .

أما الحافظ أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادي (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ) صاحب كتاب (تاريخ بغداد أو مدينة السلام) الذى يعتبر من أمهات الكتب في دراسة تاريخ الدولة العباسية ويقع في أربعة عشر مجلدا فقد رحل في طلب العلم إلى بلدان عديدة وأخذ إجازات من شيوخ بغداد وخراسان والشام ومصر .

كذلك اختلف الحافظ أبو سعد عبد الكريم التميمى السمعانى (٥٠٦ هـ - ٥٦٢ هـ) ، الذى ولد بمدينة مرو وحاضرة خراسان ، في سبيل طلب العلم إلى كثير من البلدان . إذ رحل إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان والرى وأصبهان وهمذان وبلاد الجبل والعراق والحجاز والموصل والجزيرة وغيره من البلاد . ولقى في رحلاته كثيرا من العلماء الذين أخذ عنهم وروى عنهم حتى قيل إن شيوخه قد نيف على الأربعة آلاف . وقد خلف لنا السمعانى كثيرا من الكتب نخص بالذكر منها كتاب (تذييل تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ويقع في نحو خمسة عشر مجلدا ، (وتاريخ مرو) الذى يزيد على عشرين مجلدا ، وكتاب (الأنساب) ويقع في ثمان مجلدات .

أما البيرونى الخوارزمى عالم الرياضيات المعروف (ت ٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) الذى نشأ في عهد السلطان محمود الغزنوى ولازمه أغلب غزواته لبلاد الهند ونشر الإسلام في أكثر ربوعها ، فقد عاش بين الهنود ، فعرف لغتهم ودرس علومهم وفلسفتهم وأدابهم ، وتعرف عاداتهم وأخلاقهم ، وعرف قوانينهم وديانتهم وخرافاتهم العجيبة .

رس جغرافية البلاد وطبيعتها . واتسعت ثقافته بما أفاد من العلماء الهنود ، التاريخ والرياضيات والجغرافيا والعلوم الطبيعية . ثم حشد معرفته هذه من بلاد الهند في كتابه تاريخ الهند أو (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) . وللبيروني مؤلفات كثيرة أخرى ، منها تاريخه المشهور الآثار الباقية عن القرون الخالية) ، و (كتاب الصيدلة في الطب) ، و (كتاب الجماهير في معرفة الجواهر) ، و (كتاب الدستور) ، و (التفهيم أوائل صناعة التنجيم) ، وغير ذلك .

ولا بد لنا من أن نشير في خاتمة هذا الفصل إلى ذلك الدور الرائع الذي قام به الرحالة المسلمون في إثراء تراثنا الحضارى . هؤلاء الرحالة ليسوا لبايسعون ليجلسوا إلى الأساتذة والشيخ ، وإنما هم علماء باحثون لهم بول مختلفة في دراساتهم . فمنهم من يميل إلى الدراسات الدينية ، ومنهم من يجد متعة بالغة في تتبع الأحوال الاجتماعية للأمم والشعوب في البلدان مختلفة . وقد عمد هؤلاء الرحالة إلى جمع المادة التي كانوا يصبون إليها من الكتب أو النقلة ، بل من انطباعاتهم الشخصية وملاحظاتهم خاصة . فزاروا البلاد وجابوا البقاع يسجلون ما يلاحظون ويدونون ما عرفون عليه . وقد ترك هؤلاء ثروة من المعلومات لا غنى عنها لطالب دراسات الإسلامية ، وبخاصة في المجالات الجغرافية والتاريخية . ومن هؤلاء الرحالين أو الجغرافيين الأصطخرى الفارسى الذى عاش في القرن رابع الهجرى (العاشر الميلادى) وصاحب كتاب (المسالك والممالك) ، المقدسى (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) صاحب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ، وابن حوقل (ت ٣٨٠ هـ) ، وناصر خسرو (ت ٤٨١ هـ - / ١٠٨٨ م) الذى دون مشاهداته في فارس والعراق والحجاز والشام مصر ، ولا سيما ثروة البلاط الفاطمى وأبهته ، في كتابه الذى وضعه الفارسية (سفرنامه) أو زاد المسافر ، واليعقوبى (ت ٥٨٢ هـ - / ١١٨٦ م) صاحب كتاب (البلدان) ، والمسعودى (ت ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م) صاحب (مروج الذهب) ، وابن جبير (ت ٦١٤ هـ - / ١٢١٧ م) ، وياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) صاحب معجم البلدان) والإدريسى (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) الذى رسم

خارطة للعالم على كرة من فضة تحدث عنها في كتابه (نزهة المشتاق في ذكر
الأمصار والأقطار والبلدان) ، وابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٨ م)
صاحب كتاب (تحفة النظار في غرائب الأمصار) .

الفصل الثانى

نظام التربية الإسلامية

كان للمسلمين فى جميع أنحاء دولتهم المترامية الأطراف فى العصور الوسطى، نظام تعليمى واحد ساعد على تحقيق الوحدة الروحية والعقلية بين شتى الأجناس والشعوب التى تألفت منها الدولة الإسلامية . وكان من مظاهر ذلك النظام الفريد الذى عنى بتربية الإنسان المسلم عقلاً وجسماً وخلقاً ظهور مؤسسات تعليمية متعددة نشأت فى أزمنة مختلفة بتأثير ظروف خاصة أملت فيها طبيعة الحياة الإسلامية آنذاك . كما كان من مظاهر ذلك النظام ظهور مربين أفذاذ سبقوا علماء التربية فى العصر الحديث إلى كثير من حقائق التربية وأصولها الأولى . وسنحاول فى هذا الفصل أن نتعرف على أبرز جوانب ذلك النظام من خلال معالجتنا للأمور الآتية :

- ١ - معاهد التربية الإسلامية .
- ٢ - طرائق التعليم عند المسلمين .
- ٣ - صفات العلماء المسلمين وأخلاقهم .
- ٤ - بعض قادة الفكر التربوى الإسلامى .
- ٥ - خصائص التربية الإسلامية .

ويجدر بنا أن ننتقل الآن إلى بيان هذه الأمور فقرة فقرة .

١ - معاهد التربية الإسلامية :

كانت حلقات التعليم الإسلامى تجرى فى أمكنة مختلفة ، منها المساجد ، والكتاتيب ، والمكتبات (خزائن الكتب) والخوانك ، والزوايا ، والربط، والبيمارستانات ، والمدارس .

(١) المسجد : والحق فإن المسجد يعتبر أول وأقدم معاهد التربية الإسلامية . ففي مسجد المدينة كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الناس أمور دينهم ودنياهم . فالمسجد لم يكن ، إذن ، مكاناً للصلاة فحسب ، بل كان أيضاً معهداً للتعليم ، وداراً للقضاء واستقبال الوفود ، وساحة تتجمع فيها جموع المجاهدين في سبيل الله .

ولما كان المسجد هو المدرسة الأولى في الإسلام ، فقد صار من المألوف أن نجد عامة الناس الذين يرغبون في تعليم أولادهم يبعثون بهم إلى المساجد حيث كانت تعقد حلقات لتعليم القرآن الكريم والحديث الشريف . وعلى ذلك فإن أقدم المعلمين في الإسلام هم القراء .

وقد كثرت المساجد وزاد انتشارها بتوسع الإسلام ، وأصبح من المتبع أن يبني مسجد أو أكثر في كل مكان فتحه المسلمون أو في كل قرية أو مدينة أسسوها . وهذا ما حصل عند بناء كل من البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وبغداد وغيرها . وبمرور الزمن ، زاد عدد المساجد زيادة مطردة وبخاصة في عاصمة الخلافة العباسية . فما أن جاء القرن الثالث الهجري حتى كانت بغداد تغص بالمساجد ، إذ يحكى اليعقوبى (ت ٥٨٢ هـ) أنه عد فيها ٣٠,٠٠٠ مسجد . وهكذا الحال في بقية البلدان الإسلامية ، فقد ذكر الرحالة المسلم ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) أن بمدينة الإسكندرية التي زارها حوالي ١٢,٠٠٠ مسجد .

ولم يكن التدريس في المسجد قاصراً على المواد الدينية ، بل شمل أيضاً الدراسات اللغوية والأدبية والفلك والحساب ، وأحياناً كان يدرس الطب كذلك . وكانت أبواب المساجد والجوامع التي تلقى فيها العلوم المختلفة مفتوحة للجميع . ذلك أن الدخول لتلقى العلم في الجامع أو المسجد كان كالدخول لأداء الصلاة ، أى أنه لم يكن مقيداً بقيود . فلكل فرد الحق في الاستماع لأي درس من الدروس ما دامت لديه الرغبة في العلم والقدرة على الفهم . وكان الطلاب الذين يحضرون حلقات العلم في المساجد على نوعين :

(١) طلاب منتظمون في الدراسة لا ينقطعون عن الدرس إلا بعد إتمام

المنهج والحصول على إجازة من الأستاذ المختص ، وهؤلاء يتفرغون للعمل سنوات عدة فيحضرون إلى المسجد في الصباح الباكر وينكبون طيلة النهار على الدرس .

ب) طلاب مستمعون غير منتظمين ، وهؤلاء يذهبون لاستماع بعض دروس كما نذهب نحن لاستماع بعض المحاضرات العامة دون تقيد بمنهج معين .

وكان الأستاذ يختار له مكاناً معيناً في جانب من صحن الجامع حيث جلس إليه طلابه على بساط أو حصير . على شكل حلقة يتصدرها الأستاذ . تختلف سعة الحلقة باختلاف مهارة العالم وشهرته . وقد يكون بالجامع لواحد عدة حلقات للدرس وعدة أساتذة . ومن الأساتذة من خصص له ابت معين من الأوقاف المخصصة للجامع ، ومنهم من لم يتقبل شيئاً ابتغاء و اب الله بينما عمل على كسب قوته بمزاولة مهنة أخرى إلى جانب تدريس ، إذ اعتبر من أكبر الفضائل لديهم ألا يتلقى الأستاذ أجراً على يامه بالتدريس . أما الطلاب فلم يدفعوا أجراً في الدراسات العامة في لمسجد ، بل كانوا في حالات كثيرة يتلقون الهبات والعطايا من الدولة الأوقاف الخاصة بالمسجد . وكان لكثير من المساجد خزائن للكتب . كانت مكتبات المساجد غنية بما يهدى إليها من كتب مختلفة .

ومن أشهر المساجد أو الجوامع التي قامت فيها حلقات العلم خارج الحرمين الشريفين ثلاثة : **جامع المنصور** ، الذي بنى في عهد الخليفة المنصور ببغداد وكلف بناؤه ثمانية عشر مليوناً من الدينار . وكان هذا الجامع قبلة أنظار الطلاب والأساتذة وجلس فيه الكسائي النحوي . كما جلس فيه أبو العتاهية وأملى من شعره . **و جامع دمشق** الذي بناه الوليد بن عبد الملك وأنفق على بنائه خراج المملكة سبع سنين . وكان هذا الجامع مركزاً هاماً من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي وفيه حلقات متعددة وله أوقاف كثيرة ، وكان للخطيب البغدادي حلقة كبيرة عام ٤٥٦ هـ . **و جامع عمرو** الذي بناه عمرو بن العاص بمصر عام ٢١ هـ . وظل منذ ذلك الحين مركزاً ثقافياً ومحكمة للقضاء .

وينبغي أن نشير هنا إلى ثلاثة جوامع مشهورة أخرى حافظت على رعاية التعليم العالي عبر العصور الإسلامية المختلفة . هذه الجوامع التي هي في واقع الحال جامعات إسلامية تشمل الجامع الأزهر بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس .

فأما الجامع الأزهر فقد بناه جوهر الصقلي في سنة ٣٦٠ هـ لإقامة شعائر المذهب الفاطمي . ولكنه تحول منذ سنة ٣٧٨ هـ على عهد العزيز الفاطمي إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية . واستمر الأزهر منذ ذلك الحين على جذب طلاب العلم إليه من أرجاء البلاد الإسلامية كافة . وقد حبس الخلفاء والأمراء والسلاطين وغيرهم من وجهاء القوم والموسرين الأوقاف الضخمة لتنفق في سبيل العلم بشكل أعطيات ثابتة للأساتذة والطلبة ، من أبناء مصر والبلدان الإسلامية الأخرى . غير أن الأزهر لم يعد بعد سنة ١٩٦١ م جامعة للدراسات الإسلامية فحسب ، بل أنشئت فيه بالإضافة إلى ذلك دراسات في الهندسة والزراعة والطب والإدارة والمعاملات والتربية بما يتلاءم ومتطلبات التنمية الاجتماعية والاقتصادية في البلاد .

وأما جامع الزيتونة الذي بنى بمدينة تونس سنة ١١٦ هـ / ٧٢٤ م فقد استمر حتى سنة ١٩٥٨ الجامعة الوحيدة في البلاد التي أخذت على عاتقها عبر هذه القرون الطويلة رعاية التعليم العالي بالبلاد وبخاصة الدراسات الإسلامية .

وأما جامع القرويين بمدينة فاس بالمغرب فقد بنى سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م في عهد الخلافة الحفصية . ومعلوم أن الحفصيين قد شجعوا العلم وجذبوا إليهم العلماء من جميع بلدان العالم الإسلامي . ويعتبر جامع القرويين آية في فن العمارة الإسلامية فيه منارة شاهقة وأروقة بديعة وثرية من النحاس تسع ألفا وخمسمائة مصباح . وحول حيطان الجامع كراسي منصوبة مختلفة الأشكال يجلس عليها العلماء المدرسون الذين يعلمون الناس أمور دينهم ودنياهم ، ويبدءون دروسهم قبل طلوع الشمس بساء وينتهون في الساعة الواحدة بعد الزوال . وفي الصيف يبدءون في الساء الثامنة مساء وينتهون في الساعة الواحدة والنصف صباحاً ، ويقومون

بتدريس العلوم الدينية والعقلية والاجتماعية ، ويتقاضون رواتب عالية فوق
ما يصرف لهم من الكتب والشمع للقراءة ليلاً .

ب - الكتاتيب : وتعتبر من أقدم معاهد التربية الإسلامية أيضاً .
ويبدو أنها ظهرت في عهد الفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر وعمر رضي الله
عنهما . فقد شعر المسلمون بحاجتهم إلى التوسع في نشر الدين وتحفيظ
أبنائهم القرآن الكريم في أماكن متخصصة بذلك . إذ أن تعلم الأطفال
القرآن قد اعتبره كثير من علماء المسلمين من قواعد التربية الإسلامية ، هذا
إلى جانب أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حضَّ على ضرورة التعلم فكلف
كل أسير من أسرى الحرب بعد موقعة بدر بتعليم اثني عشر طفلاً من أبناء
المسلمين على سبيل الفدية .

ولقد انتشر الكتاب مع انتشار الإسلام في الأمصار وأصبح بناء
الكتاتيب لتعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم والكتابة والدين عملاً من أجل
الأعمال وأكرمها عند الله يتنافس فيها المتنافسون من عباد الله المخلصين .
وكان الكتاب عاماً للجميع يتعلم فيه الغنى إلى جانب الفقير ، نجده في القرى
الصغيرة النائية كما نجده في المدن الكبيرة العامرة لأنه أصبح بسبب صلته
بالدين من ضروريات الحياة الدنيا والآخرة . وعلى هذا الأساس يمكننا أن
نستنتج أن التعليم الأولي كان منتشراً إلى حد كبير وخصوصاً في عصور
الإسلام الزاهية. وقد ظهر في تلك الكتاتيب معلمون موهوبون ، من أشهرهم
الضحاك بن مزاحم العالم اللغوي الشهير بالكوفة (ت ١٠٥ هـ) والذي بلغ
عدد تلاميذه ٣٠٠٠ تلميذ وعبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢ هـ) .

ج (خزائن الكتب) (المكتبات) :

لقد كان من عناية المسلمين بالعلم والمعرفة في عهود مدنيهم الزاهرة
أن شغفوا بالكتب وإنشاء الخزائن لها على نحو لم يكن معروفاً في تاريخ الأمم
من قبل . ولم تكن هواية المسلمين في اقتناء الكتب وقفاً على فئة معينة منهم
كالحكام والعلماء والأغنياء ، بل إن ذلك شمل خاصتهم وعامتهم على
سواء . وتحدث المستشرق الألمانية المعاصرة الدكتورة زيغريد هونكه عن

هذا الأمر في كتابها النفيس (شمس العرب تسطع على الغرب) فتقول ما نصه : (إن متوسط ما كانت تحتويه مكتبة خاصة لعربي في القرن العاشر الميلادي كان أكثر مما تحويه كل مكتبات الغرب مجتمعة) .

وقد عنى الخلفاء المسلمون منذ فجر العهد الأموي بإنشاء الخزائن التي تضم الكتب والسجلات ، كما عنوا بالحصول على كتب العلم القديمة لتكون مرجعا لهم ولأولادهم . وكانوا يزودون المساجد الجامعة في كل إقليم بالخزائن التي تضم المصاحف وكتب العلم . وكان هذا أيضاً شأن كثير من العلماء الذين كانوا يقفون كتبهم وأوراقهم ومخطوطاتهم على خزائن المساجد ودور العلم يتقربون بذلك إلى الله ويرجون نشر العلم ومعونة أصحابه .

ولعل أقدم الخزائن العربية التي عرفت بعض أخبارها هي خزانة كتب خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (ت ٨٥ هـ) الذي كان أمر بترجمة كتب القدماء في الطب والنجوم والكيمياء إلى اللغة العربية . وقد ظلت هذه الخزانة محفوظة في البلاط الأموي حتى ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ففتحها للناس للإفادة منها والتعلم من نفائسها . ومن الخلفاء الأمويين الذين عنوا أيضاً بجمع الكتب في الخزائن الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك .

بيد أن النمو الحقيقي للمكتبات أو خزائن الكتب إنما كان في عهد الدولة العباسية . ومما ساعد على ذلك اتساع حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي الأول وتقدم صناعة الورق وظهور كثير من الوراقين الذين يقومون بنسخ الكتب . واتخذ الأدباء والعلماء أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم . فكثرت المكتبات التي تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية وغيرها . وصار لكل مدينة مكتبة عامة أو خزانة للكتب فيها قاعات للمطالعة والنسخ . وأحصى في بغداد وحدها في سنة ٨٩١ م أكثر من مائة خزانة عامة للكتب . أما في قرطبة بالأندلس فقد اجتمعت فيها سبعون داراً للكتب .

ويمكن تقسيم المكتبات التي ظهرت في العالم الإسلامي إلى ثلاثة

أقسام : مكتبات عامة ، ومكتبات بين العامة والخاصة ، ومكتبات خاصة .

فأما المكتبات العامة فقد أنشئت بالمساجد لتكون في متناول الدارسين . وقد كانت هذه المكتبات كثيرة جداً بحيث كان من الصعب أن تجد مسجداً أو مدرسة دون أن تكون مزودة بمجموعة من الكتب يرجع إليها طلاب العلم والباحثون .

ومن أشهر هذه المكتبات بيت الحكمة الذي أسسه أبو جعفر المنصور (وكان من العلماء الأعلام في الفقه والأدب والحكمة) ووسعه هارون الرشيد وبلغ ذروته في عهد المأمون (٨١٣ - ٨٢٢ م) . فقد كان من شدة اهتمام المأمون بالعلم وأهله وبجمع الكتب وترجمتها أنه كان يتحف ملوك عصره بالهدايا النفيسة طالباً منهم أن يعطوه ما في خزائنها من كتب الحكمة والفلسفة . فبعثوا إليه بعدد كبير من آثار أفلاطون وأرسطو وأبقراط وغالينوس وبطليموس وأقليدس وغيرهم فأمر بترجمة تلك الآثار واختار لها البارعين من المترجمين ونشرها بين الناس وحض على قراءتها واستنساخها . وكان لهذه المكتبة التي تقوم بنسخ الكتب وترجمتها إلى العربية ، رئيس للمترجمين ومساعدون ، كما كان فيها مدير وأعوان ومجلدون . ولقد كان بيت الحكمة أول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الإسلامي ، بل إنه كان أول جامعة إسلامية اجتمع فيها العلماء والباحثون ولجأ إليها الطلاب . وظل بيت الحكمة مقراً للنشاط الفكري وخزانة عظيمة للكتب حتى عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م فأصابها ما حل بالبلاد من خراب ودمار على أيدي الغزاة المغول .

ومن المكتبات العامة أيضاً ، مكتبة ابن سوار بالبصرة التي أسسها أبو علي بن سوار الكاتب وهو من رجال عضد الدولة ، وهي مكتبة ذات شأن خاص لأن التدريس فيها كان عنصراً هاماً بجوار الكتب . ومن هذه المكتبات الشهيرة خزانة سابور بجانب الكرخ ببغداد التي أنشأها الوزير البويهى أبو نصر بن أردشير سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٣ م وكانت هذه الخزانة مركزاً ثقافياً ممتازاً يلتقى فيه العلماء والباحثون للقراءة والدرس

وطالما عقدت فيها المناظرات والمناقشات . وكان أبو العلاء المعري يتردد عليها دون انقطاع عندما كان في بغداد . وكان يطلق على خزانة سابور أيضاً **دار العلم** . وفي عام ١٠٥٩م أصابها حريق أودى بما في خزائنها من الكتب والمخطوطات . ثم جدد بناؤها وأبدل اسمها إلى دار الكتب وأوقفت عليها أعداد ضخمة من الكتب والمخطوطات . واستأنفت نشاطها العلمي في مجال المناظرات الفقهية بخاصة .

وثمة مكتبة شهيرة ببغداد هي **مكتبة المدرسة المستنصرية** التي بناها الخليفة المستنصر بالله العباسي والتي أنفق على بنائها مع المدرسة ٧٠٠٠,٠٠٠ دينار ذهباً . ودام العمل في هذه المدرسة التي كانت آية في الفن المعماري بمساحة قدرها ٤٨٢٦ متراً مربعاً نحواً من سبعة أعوام (٦٢٥ - ٦٢١ هـ) . أما مكتبتها فقد ضمت من نفائس كتب الدين ما حمله مائة وستون جملاً وقد بلغت نحو ثمانين ألف مجلد .

أما في مصر فإن أشهر المكتبات العامة كانت **دار الحكمة بالقاهرة** التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٣٩٥ هـ . وكان الحاكم يريد أن يمحو من الأذهان ما علق بها عن مجد بيت الحكمة ببغداد . وقد كان بدار الحكمة بالقاهرة ثمانى عشرة قاعة للمطالعة علقت على جميع أبوابها وممراتها الستور . ثم حملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة . ودخل الناس إليها يقرءون وينسخون . وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء . وأقيم لها خزان وبيّابون . وأجريت الأرزاق لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره . وحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم : إمّا لقراءة الكتب ، أو للنسخ ، أو للتعلم . وكان بها كل ما يحتاج إليه الناس من الحبر والأقلام والمحابر والورق .

وأما **المكتبات التي بين العامة والخاصة** فهي مكتبات أنشأها الخلفاء والملوك تقريباً للعلم وتظاهراً على أنهم من أهله وجعلوا دخولها مباحاً لطبقة خاصة من الناس ، هم الوجهاء . من هذه المكتبات **مكتبة الخليفة الناصر لدين الله ببغداد** (حكم من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٦٢٢ هـ) ، و**مكتبة المستعصم بالله** ، آخر الخلفاء العباسيين الذي قتله المغول عقب

سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ . وقد كتبت على جهات هذه المكتبة أشعار
منها :

أنشأ الخليفة للعلوم خزانة سارت بسيرة فضله أخبارها
أهدى مناقبه لها مستعصم بالله ، من لألائه أنوارها

ومن هذه المكتبات التي بين العامة والخاصة أيضاً مكتبة الخلفاء
الفاطميين أو دار الكتب التي أنشأها الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة
٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م إلى جانب الجامع الأزهر . وتعتبر هذه المكتبة أجمل
وأكمل مكتبة في العالم كله آنذاك دون منازع . وقد وصفت بأنها من عجائب
الدنيا . فقد ضمت خزائنها ١٨٠٠٠ مخطوطة في الفلسفة و ٦٥٠٠ مخطوطة
في الرياضيات ، و ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبري . وقيل إن خزاناتها
الأربعين احتوت على ما يقرب من ٢,٠٠٠,٠٠٠ مجلد . وكان يجري بأمر
الخليفة ألف دينار في كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين
(النساخون) والمجلدين .

أما في بلاد الأندلس فتعتبر مكتبة الحكم الثاني (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ)
من النوع الثاني من المكتبات الإسلامية في العصر الوسيط ، أي المكتبات
بين العامة والخاصة . فقد كان هذا الخليفة الأموي غزير العلم واسع
الاطلاع ذا ولع شديد بالكتب . وكانت هناك طائفة من الباحثين والسماصرة
والناسخين تعمل لحساب هذا الخليفة لشراء الكتب في جميع أنحاء العالم
الإسلامي وبخاصة عند أول ظهورها . فمن ذلك أنه لما علم بظهور كتاب
الأغاني طلب من مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني أن يبيعه إياه . وبعث له
بألف دينار من الذهب ، فبعث به إليه قبل أن يخرج في العراق . وقد ضمت
مكتبة الحكم الثاني بقصره بقرطبة بين خزائنها ٤٠٠,٠٠٠ مجلد . وكان
فهرس مكتبته يتألف من أربع وأربعين كراسة ، كل منها عشرون ورقة ولم
يكن بها سوى أسماء الكتب .

ويلاحظ أنه غالباً ما حوّلت المكتبات بين العامة والخاصة إلى مكتبات
عامة ، كما حصل في مكتبة الخليفة العباسي الناصر لدين الله حيث نقل جزء
كبير من كتبها إلى المدرسة النظامية ببغداد . وكما حصل أيضاً في نقل

مجموعات كبيرة من كتب مكتبة الفاطميين إلى دار الحكمة بالقاهرة .

وأما النوع الثالث من هذه المكتبات الإسلامية فهو المكتبات الخاصة التي أنشأها العلماء والأدباء والأغنياء ، لاستعمالهم الخاص ، وقد كانت كثيرة جداً ومنتشرة . ومن الصعب أن تجد عالماً أو أديباً دون أن تكون له مكتبة يرجع إليها في دراسته واطلاعه . ومن أشهر هذه المكتبات مكتبة الفتح بن خاقان وزير المتوكل العباسي . وقد قتل معه في سامراء سنة ٢٤٧ هـ ، ومكتبة حنين بن اسحاق (ت ٢٦٤ هـ) أبرز الأطباء والمترجمين في عهد المأمون وأعلم أهل زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية ، ومكتبة موفق الدين بن المطران الدمشقي (ت ٥٨٧ هـ) الذي كانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها وترك عند موته في مكتبته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخه . كذلك مكتبة جمال الدين القفطي (ت ٦٤٦ هـ) بحلب ، وكان يجيد علوم اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ ، ومكتبة الأمير أبو الوفاء المبرين فاتك بمصر (توفي في نهاية القرن الخامس الهجري) ، ومكتبة الوزير المهلبى الذى ترك عند وفاته (٩٦٣ م) مجموعة من ١١٧,٠٠٠ مجلد ، واستطاع زميله الشاب ابن عباد أن يجمع في مكتبته ٢٠٦,٠٠٠ كتاب ، وجمع أحد قضاته أكثر من مليون مجلد .

وكان لمعظم المكتبات وبخاصة العامة منها وراقون يقومون بنسخ الكتب . بل قلما خلت مكتبة ذات شأن من ناسخ أو نساخ يعملون بها . فلقد روى أنه كان بمكتبة بنى عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخاً ، وكان هؤلاء النساخ يتبادلون العمل ليلاً ونهاراً بحيث لا ينقطع النسخ ، ولم يكن يقل الذين يؤدون عملهم فعلاً عن ثلاثين ناسخاً في أية ساعة من ساعات النهار والليل . وكان في خدمة موفق الدين بن المطران ثلاثة نساخ يكتبون له أبداً . وجمع الحكم الثانى بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد . وكان لأحد قضاة قرطبة ستة من الوراقين ينسخون له أبداً . وكانت كل مكتبة مشهورة تضم بالاضافة إلى النساخ ، خازناً

المكتبة ومترجمين ومجلدين ومناولين . وكان عدد هؤلاء الموظفين يختلف
از باختلاف منزلة المكتبة وشهرتها العلمية . وقد عرفت المكتبات الإسلامية
نظام الإعارة . بل إن طالب العلم كان يجد في داخل خزائن الكتب كل ما
يحتاج إليه من أدوات الكتابة ، من ورق وحبر وأقلام بالمجان . بل كان في
بعض المكتبات مساكن لطلاب العلم وفيها طعام لهم ونفقة . وكان في بعض
المكتبات ، كمكتبة الخلفاء الفاطميين بمصر ، معلمون يتولون التدريس
فيها .

وهكذا نجد أن خزائن الكتب أو المكتبات الإسلامية في العصور
الوسطى كانت بمثابة معاهد لنشر العلم والثقافة في المجتمع .

د (الخوانك والزوايا والربط

وهذه أمكنة كان طلاب العلم ينقطعون فيها للدرس والعبادة ، وقد
أعدت في الغالب للمتصوفين .

والخانكاه ، أو الخانقاه وتجمع على خوانق وخوانك ، هي كلمة
فارسية الأصل معناها البيت . والخوانك أكثر اتساعاً وأعظم شأناً من
الزوايا والربط وفي الخانقاه غرف عديدة لسكنى الفقراء والصوفية ويشير
المقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر
الخطط والآثار) إلى إحدى هذه الخوانك التي كان يسكنها الصوفية وقد
رتبت فيها دروس عدة ، منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة ،
ودروس للحديث النبوي ، ودروس لقراءة القرآن الكريم بالروايات السبع .
وجعل لكل درس مدرس وخصص له جماعة من الطلبة وشرط عليهم حضور
الدرس والقيام بأمور التصوف . ورتب لكل طالب في اليوم الطعام واللحم
والخبز ، وفي الشهر الحلوى والزيت والصابون . وفي بعض الخوانك كان
يعمل على توفير حاجات الطلاب داخل الخانقاه من المأكل والملبس والأشربة
والأدوية . بل كان يوجد فيها من يقوم بحلاقة رءوس الطلاب وتديل
أجسامهم حتى يمكنهم التفرغ للدرس والعبادة داخل الخانقاه والانقطاع
عن العالم الخارجي .

أما الزاوية فهي أصغر من الخانقاه وكانت تبني للفقراء من الصوفيّة للدرس والتعبّد . وربما بنيت الزاوية لشيخ مشهور يقوم بنشر العلوم وينقطع للعبادة . بل لربما أطلقت على ناحية من نواحي المساجد الكبرى تقام بها بعض حلقات العلم .

وأما الربط ، وواحدھا الرِّباط ، فكانت في الأصل تطلق على الثكنات العسكرية التي تبني على الحدود الإسلامية وقرب الثغور التي يربط فيها المجاهدون ويلازمونها مترصدین للعدو ومستعدين للغزو . ثم صار الرباط ، بمرور الزمن ، يطلق على المكان الذي يربط فيه الصوفية للعبادة ومجاهدة النفس وطلب العلم . فقد كان العلماء يتخذون من الربط أماكن للمطالعة والكتابة والاستنساخ والتأليف يساعدهم على ذلك وجود مكتبات زاخرة بالكتب ومكوّثهم بها أوقاتاً طويلة . وكانت الربط عامرة بالفقهاء والصلحاء الذين بلغ من اشتغالهم بالعلم في بعض الربط أكثر من الاشتغال في سائر معاهد التعليم . أمّا الشيوخ الذين كانوا يتولون مشيخة الربط فكانوا من أكابر العلماء وفضليات النساء . إذ كان للنساء العابدات الزاهدات أحيانا ربط خاصة ، منها ربط الشيخة زينب البغدادية الذي بنى سنة ٦٨٤ هـ فسكنته ومعها عدد من النساء ممن إنقطعن للدرس والعبادة .

هـ (البيمارستانات

المارستان (بفتح الراء) كلمة معرّبة من الفارسية معناها دار المرضي أو المستشفى . وأول من بنى البيمارستانات في الإسلام الوليد بن عبد الملك لمعالجة المجذومين وكان ذلك سنة ٨٨ هـ . وكانت البيمارستانات تشبه المستشفيات التعليمية في عصرنا الحاضر . فبالإضافة إلى قيامها بمعالجة المرضي جسمياً وعقلياً كانت تعنى أيضاً بتدريس الطب نظرياً وتطبيقياً . لذلك كان أطباء البيمارستانات يقومون بتأليف الكتب الطبية فمن هؤلاء الأطباء أبو بكر الرازي الذي ألف (٢٣٧) كتاباً في الطب من أشهرها (الحاوي) ، وأبو علي بن سينا صاحب كتاب (القانون) في الطب ، وعلى ابن عيسى أشهر كحالی الإسلام الذي وصف في كتابه (تذكرة الكحّالين) مائة وثلاثين مرضاً من أمراض العيون ، وعلى بن العباس الذي صنف لعضد

الدولة كتابه المشهور (الملكى) وهو كتاب جليل يشتمل على أجزاء الصناعة الطبية ، وابن جزلة مؤلف كتاب (تقويم الأبدان فى تدبير الإنسان) الذى وصف فيه الأمراض وأعراضها وإنذاراتها وعلاجها . وانتشرت المارستانات على نطاق واسع حتى لم يكن يخلو منها بلد إسلامى . ومن أشهر المارستانات : المارستان العضدى ببغداد ، والمارستان النورى بدمشق ، والمارستان المنصورى بالقاهرة الذى بناه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٢ هـ على غرار المارستان الذى شاده المستنصر بالله العباسى فى مدرسته المستنصرية العظمى ليكون معهداً لتدريس الطب والصيدلة . فقد جعل الملك المنصور قلاوون فى مارستانه مكاناً تفرق فيه الأدوية والأشربة ، ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء الدروس فى الطب . كما نظمت دروس فى التفسير والحديث والفقہ . وكان لهذه المواد مدرسون ثابتون يتسلمون أعطيات جارية . هذا بالإضافة إلى خمسين مقرأً كانوا يتناوبون ، فى القبة ، قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً .

و - المدارس :

كان أول ظهور المدارس فى الإسلام فى العصر العباسى الثانى فى القرن الرابع الهجرى ، إذ يذكر المقرئى فى خطبه أن أول مدرسة بنيت فى ديار المسلمين كانت المدرسة البيهقية بنيسابور من أرض فارس وكان ذلك فى النصف الأول من القرن المذكور . وقد وجدت مدارس عديدة فى بلاد خراسان وما وراء النهر خلال ذلك القرن . وكانت تلك المدارس تقوم بتدريس مذهب واحد من المذاهب الفقهية الأربعة .

غير أن بداية ازدهار المدارس وانتشارها على نطاق واسع فى أرجاء العالم الإسلامى يرتبط بقدم السلاجقة إلى العراق ودخولهم بغداد سنة ٤٤٧ هـ وإخراج البويهيين الفرس من البلاد .

فقد أنشأ الوزير السلجوقى والعالم الفاضل نظام الملك المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٥٧ هـ . لتدريس الفقہ وفق المذاهب الأربعة لأهل

السنة وهذا يعنى بداية تدخل الدولة فى شئون التعليم وتوجيه الناس عقيدياً لما فيه صلاح دينهم ودنياهم . بل إن ظهور المدرسة يمثل أهم محاولة جدية فى الإسلام لتنظيم الدراسة واستمرارها بتوفير وسائل التفرغ لها . إذ جعلت مرتبات ثابتة للمدرسين وزود الطلاب فى حالات كثيرة بالمسكن والمأكل مما ساعد على إيجاد نظام ثابت وتقاليد مرعية للدرس والإدارة وعمل على الاستقرار والنمو فى تلك المعاهد .

وعلى غرار نظامية بغداد التى طبقت شهرتها الآفاق وقصدها طلاب العلم من شتى الأمصار واحتوت خزانتها ألوف الكتب النفيسة ، قامت مدارس نظامية فى بلدان المشرق الإسلامى فى كل من بلخ ونيسابور ومرو وهراة وأصبهان والبصرة وأمل (بطرستان) والموصل . ومن مشاهير العلماء الذين تولوا التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد الشيخ أبو إسحاق الشيرازى (ت ٤٧٦ هـ) ، والامام أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) ، صاحب كتاب إحياء علوم الدين والمؤلفات العديدة الأخرى ، والمؤرخ بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢ هـ) . وقد أشار الرحالة الأندلسى ابن جبير فى أول يوم وصوله إلى بغداد (٥٨١ هـ / ١١٨٥ م) إلى المدرسة النظامية فذكر أنها أعظم مدرسة بين ثلاثين مدرسة تقع فى شرق بغداد . وروى ابن جبير أيضاً أنه فى ذلك اليوم قدم أصحاب الأوقاف من بلادهم يحملون إيرادات الأوقاف الموقوفة على المدرسة ليدفعوا أجور المدرسين وينفقوا على وسائل المحافظة على المباني ، إلى جانب منح الإعانات إلى الطلبة الفقراء . وزار هذه المدرسة الجامعة أيضاً الرحالة ابن بطوطة سنة ٧٢٧ هـ فوجدها فى حالة طيبة . واستمرت هذه المدرسة ، التى أطلق عليها أيضاً أم مدارس بغداد ، قائمة حتى أوائل القرن التاسع الهجرى ثم اختفت أهميتها وانقطع ذكرها بعد ذلك بسبب الفتن الداخلية والحروب بين الأتراك الذين دخلوا بغداد والفرس .

أما فى مصر فلم يبن بها مدارس إلا بعد زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية التى انتشرت المدارس فى عهدها انتشاراً كبيراً واستمر هذا الانتشار فى عهد المماليك . كما كثرت المدارس فى ذلك العهد فى سوريا .

ولقد تبارى الخلفاء والأمراء وسراة القوم من الرجال والنساء في بناء المدارس في سائر أنحاء البلاد الإسلامية وتخصيص الأوقاف لها ، إلا بلاد الأندلس التي لم تؤسس بها مدارس بل كانت حلقات العلم في المساجد العديدة والكتاتيب المنتشرة في كل مكان تقريباً تتولى نشر العلم وتثقيف الناس حتى إن نسبة الذين كانوا لا يحسنون القراءة والكتابة في البلاد كان محدوداً للغاية وبخاصة بين الرعايا المسلمين .

ويبلغ عدد مدارس القاهرة وحدها ، كما ذكر المقرئزي ، حوالي ثلاثاً وستين مدرسة . وكان أشهر تلك المدارس دون منازع المدرسة الناصرية ، التي بناها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصوري وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ ، وكانت من أجل مباني القاهرة وبابها من أعجب ما صنعت يد إنسان . وكانت بها أووين للمذاهب الفقهية الأربعة وخزانة كتب عامرة .

أما في بلاد الشام فقد اشتهرت بصفة خاصة المدارس النورية التي أنشأها نور الدين زنكي وكان أكثرها ذيوماً المدرسة النورية الكبرى بدمشق التي زارها ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) بعد افتتاحها لعدة سنوات ووصفها وصفاً يدل على مكانتها السامية .

وعلى الرغم من أن المدارس قد عنيت بصفة خاصة بدراسة الفقه ، إلا أن العلوم الطبيعية والطبية قد وجدت طريقها إلى مناهج كثير من المدارس وبخاصة حين كان يلحق بالمدرسة مارستان لممارسة الطب نظرياً وعملياً . وعلى هذا الأساس يمكن تشبيه تلك المدارس الإسلامية بجامعة العصر الحاضر . بل إن كثيراً من التقاليد الجامعية المعاصرة سواء في سلك التدريس (الإمام أو الشيخ أو الأستاذ المحنك Distinguished Professor / Emeritus Professor - المدرس - المعيد) أو في تنظيم المناهج الدراسية بما يتفق وقابليات الطلاب ، أو في أساليب التدريس ، أو في نظام السكنى الداخلية قد استمد أصوله من تراث مدارسنا وأصالة حضارتنا الإسلامية .

والحق فإن أغلب المدارس كانت من آيات الفن الإسلامى أنفق في

بنائها الأموال الطائلة وحبست عليها الأوقاف العظيمة وجعلت الرواتب السخية لفقهاءها وطلابها والموظفين بها . بل إن عدد كبيراً من الطلاب كان يسكن في هذه المدارس التي يمكن تشبيهها بالكليات الداخلية في جامعتي أكسفورد وكمبردج .

وتعتبر المستنصرية التي أنشأها المستنصر ببغداد (٦٢١ هـ) - وقد بنيت بعد النظامية بنحو قرنين - من أجمل مدارس العالم الإسلامي إطلاقاً . وإن ما بذل في بنائها من جهد ومال ليلقى ضوءاً على مبلغ تقديس ذلك العصر للعلم وأصحابه . فقد بلغت تلك المدرسة درجة من الجمال والعظمة في البناء لم تبلغها منشآت الإسلام الأخرى . كانت المدرسة تحتوى على أربعة أقسام مستقلة ، قسم ، أو إيوان ، لكل مذهب من المذاهب الأربعة يرأس كلاً منها عالم يتولى تعليم خمسة وسبعين طالباً . ويتلقى العلماء الأربعة راتباً شهرياً . كما يمنح كل طالب من الطلبة الثلثمئة ديناراً من ذهب . ويقدم المطبخ الكبير الملحق بالمدرسة إلى أسرة المدرسة ما يلزمهم من خبز ولحم . وكان بالمدرسة مكتبة تحوى كتباً نادرة في مختلف العلوم ، ووضعت نظم تمكن جميع الطلبة من الاطلاع عليها بسهولة ونسخ ما يريدون من المخطوطات . فكانوا يمنحون ما يلزمهم من أقلام وأوراق . وبداخل المدرسة حمام ومستشفى جعل له طبيب خاص يعود المرضى من الطلاب كل يوم . أما العلوم التي كانت تدرس بالمدرسة فتشمل المواد الدينية (التفسير ، والحديث ، والفقه ، والفرائض ، وقراءة القرآن) ، والرياضية (الحساب والجبر والهندسة والمساحة) ، والأدبية (اللغة والنحو ، والصرف ، والعروض ، والأخبار والأدب) ، والعقلية (المنطق ، وعلم الكلام ، والأصول) ، والطبيعية (الطب ، والصيدلة ، وعلم الحيوان) . وكان يشرف على المدرسة مدير يتولى إدارة شئونها ويعاونه المسجل أو الكاتب وأمين المكتبة . ومن أشهر مدرسيها ابن فضلان وابن العاقولي وابن الساعاتي وابن الفصيح وغيرهم ممن حملوا لواء العلم وكانوا مشاعل تضيء وقبساً ينير .

٢ - طرائق التربية والتعليم عند المسلمين

كان للمسلمين نوعان أساسيان من أساليب التربية وطرق التعليم :

النوع الأول خاص بتعليم الصبيان في الكتاتيب والنوع الآخر خاص بتعليم الكبار في المساجد أو المدارس وسنعالج الأساليب والطرق الخاصة بكل فريق على حدة .

أولاً : أساليب تربية الصغار وتأديبهم :

(ا) سن التعليم : (حدد الشرع الشريف السنة السابعة من العمر بداية لتعلم الطفل المسلم الصلاة والفضائل الخلقية . لذلك فقد جرت عادة المسلمين في تعليم أبنائهم أن يبعثوا بهم إلى الكتاتيب في سن السابعة . وكان مكوث الصبيان في الكتاتيب يستمر عادة إلى سن الاحتلام أو ما بعد العاشرة من العمر .

(ب) الفصل بين الذكور والإناث في التعليم : اقتضت الكتاتيب على الذكور دون الإناث . والعلة في منع البنات عن الذهاب إلى الكتاتيب ترجع إلى الغيرة على الأخلاق وحفظ الدين . وقد جرت العادة على تعليم البنات داخل الدور . والنساء الكاتبات والشاعرات اللاتي نجد ذكرهن في كتب الأدب أكبر دليل على انتشار التعليم بين النساء .

(ج) اليوم المدرسي والأسبوع الدراسي : كان الأسبوع الدراسي يبدأ في صباح السبت وينتهي في عصر الخميس . وكان يوم الجمعة يوم عطلة بطوله ، وكذلك أيام كل من عيد الفطر وعيد الأضحى ويؤذن في بطالة الصبيان من أجل ختم القرآن يوماً أو بعض يوم إجلالاً لهذا الحادث المبارك في تاريخ الصبي حيث يصبح بعده من حملة كتاب الله . أما اليوم المدرسي فكان يجري على النحو الآتي :

- يدرس الصبيان القرآن من أول النهار في وقت مبكر حتى الضحى .
- يتعلمون الكتابة من الضحى إلى الظهر .
- ينصرف الصبيان إلى بيوتهم لتناول الغداء ويعودون بعد صلاة الظهر .
- تدرّس بقية العلوم كالنحو والعربية والشعر وأيام العرب والحساب من بعد الظهر إلى آخر النهار .

(د) المنهج الدراسي : المواد الدراسية التي يتعلمها الصبيان أساساً في الكتابات تشمل القرآن الكريم والصلاة والدعاء والقراءة والكتابة . وأحياناً كان يضاف الحساب والنحو والشعر وأيام العرب وأخبارها . إن معرفة القرآن ضرورية لأداء الصلاة المفروضة . ولا سبيل إلى معرفة العبادات والمعاملات والحدود الشرعية الصحيحة إلا بمعرفة الأصل الأول من أصول الدين ، وهو القرآن . وللقرآن فضائل كثيرة . وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين على تَعَلُّمِ القرآن وتعليمه فقال عليه الصلاة والسلام (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) . أما حفظ القرآن فهو فرض كفاية . وأما تعليم الصلاة فهو فرض عين على جميع المسلمين لأن الصلاة عماد الدين . كما أن العلم بالنحو والعربية من المستلزمات لفهم القرآن والنطق به صحيحاً . أما تعلم الحساب فيخدم غرضاً دينياً أيضاً لأنه عند فقهاء المسلمين ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرها . أما تعليم الشعر فقد كان لتقويم اللسان وتهذيب الأخلاق وبخاصة إذا ما قيل الشعر في فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وما حث منه على برّ الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف : وكذلك الحال في تعليم الصبي أيام العرب وأخبارها فالغرض من تعليم التاريخ هو أن يكون محركاً لهمم الأطفال نحو أعمال البطولة وباعتنا لهم على أعمال الخير .

(هـ) طريقة التعليم : كانت طريقة المسلمين في تعليم الصبيان تعتمد إجمالاً على التلقين والحفظ ولا سيما في تعليم القرآن الكريم . وكان الحفظ من أهم شروط العلم عند المسلمين . وقد كانوا يفخرون بالعلم الذي حوته الصدور لا بالعلم الذي حوته السطور وبما حواه الصدر لا بما حواه القمطر : فمن ذلك قولهم :

ليس بالعلم ما يعى القمطر (١) ما العلم إلا ما حواه الصدر

وقولهم أيضاً:

استودع العلم قرطاساً فضيئته وبئس مستودع العلم القراطيس

(١) القمطر (بكسر القاف) هو ما يحفظ أو يسان فيه الكتب .

وكان التلقين يقوم على تكرار الصبى لما يذكره المعلم من فقرات إلى أن يتم له حفظها . وكان يعاون المعلم في هذه العملية بعض كبار التلاميذ (العرفاء) فيعهد إليهم بالإشراف على المبتدئين .

وكان الأطفال يتعلمون كتابة الآيات القرآنية على الألواح ليس بقصد حفظها فحسب وإنما أيضاً لغرض تعليم الطفل الكتابة والقراءة . ويبدأ في تعلم الكتابة برسم الحروف الهجائية مع حفظها حرفاً حرفاً بترتيبها المعروف .

وقد نبه أئمة الفكر التربوي في الإسلام ، أمثال الغزالي وابن خلدون وابن سينا ، إلى ضرورة مراعاة مدارك الأطفال في التعليم نظراً لقصور عقولهم وعدم اكتمال نضجها . كذلك دعوة المربين المسلمين إلى العناية بالأمثلة الحسية والتدرج في التعليم من المعلوم إلى المجهول ومن البسيط إلى الصعب ومن المحسوس إلى المعقول . كما شملت عناية العلماء المسلمين بطرق التدريس دراسة الفروق الفردية في المواهب والقدرات والميول أو الدوافع الفطرية (الغرائز) .

و- **العقاب والثواب** : أفاض المربون المسلمون في شرح طرق معاملة الصبيان وتأديبهم ، واهتموا اهتماماً بالغاً بالتنوع في طرق التهذيب ومقتضياتها . وقد نصحوا بالترهيب والترغيب ، والثناء مرة والتوبيخ مرة أخرى ، والضرب بعد الإرهاب الشديد .

فلا يؤخذ الولد أولاً بالعنف وإنما بالتلطف ، ثم تمزج الرغبة والرغبة . وتارة يستخدم العبوس أو ما يستدعيه التأنيب . وتارة أخرى يكون المديح والتشجيع أجدى من التأنيب .

ولكن إذا أصبح من الضروري الالتجاء إلى الضرب فينبغى ألا يتردد المربي على أن تكون الضربات الأولى موجعة حتى تحدث في نفس الطفل الأثر اللازم وتجعله ينظر إلى عقابه بعين الجد .

ولكن الالتجاء إلى الضرب لا يكون إلا بعد التهديد والوعيد وتوسط

الشفعاء لإحداث الأثر المطلوب في نفس الطفل ، وهذا ما تقره التربية الحديثة اليوم . وقد أبيح الضرب للصبيان الذين تجاوزوا العاشرة من أعمارهم تمشياً مع أوامر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في أن يؤمر الطفل بالصلاة وهو ابن سبع ويضرب عليها وهو ابن عشر . وحددوا ثلاث ضربات كحد أعلى ويجوز أن تزداد لأكثر من ذلك ولكن بعد استئذان ولي أمر الصبي . ويجب اجتناب الضرب على الرأس والوجه وقالوا إن مكانه في الرجلين ، وإن آلة الضرب هي الدَّرَّة (بكسر الدال) أو الفلقة . ولهذا صارت (عصا المعلم) شيئاً لا يخلو منه كتاب قط .

وكان المعلمون يلجئون إلى عقوبة الضرب والحبس حتى مع الأمراء . فقد ورد في وصية الرشيد إلى الأحمر مؤدب الأمين قوله : (وقومَه ما استطعت بالرفق والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدّة والغلظة) . وتروى الأخبار أن كلاً من الأمين والمأمون قد نالهما ضرب المؤدب .

ولكن لأهمية معاملة الأطفال بالرفق عند المسلمين ، فقد أخذت الدولة على عاتقها حماية الأطفال من أساليب القسوة والعنف التي يلجأ إليها غلاظ القلوب من المعلمين . فكلفت رئيس الشرطة بملاحقة طرق معاملة الأطفال في الكتاتيب حتى لا تقع عليهم أية قسوة من جانب المعلمين .

ومن ناحية أخرى ، فإن الأولاد النابهين كانوا يقابلون بما يستحقونه من الإطراء والتشجيع . فكان من مظاهر التكريم أن يُحمل الصبي على حصان أو بعير وقد ارتدى أزهى ملابسه ، ويحيط به إخوانه وأقرانه ، ويسير ذلك الموكب في الشوارع المعروفة بالمدينة ، ويطل الناس من النوافذ والشرفات لتحية الموكب وتكريم الصبي النابه ، كمناسبة ختمه للقران الكريم ، وكثيراً ما يلقون على الصبي وموكبه البندق والجوز وأمثالهما من الأشياء .

ثانياً : طرائق العلماء في التعليم العالي :

(١) بدء التعليم العالي ومدته :

كانت مرحلة التعليم العالي ، سواء في المساجد أو في المدارس ، تبد

بعد سن الثانية عشرة وتتفاوت مدة استمرارها بين الخمس سنوات أو الست عشرة سنة .

(ب) نظام الحلقات :

كان التدريس يقوم على نظام الحلقات حيث يجلس الأستاذ على كرسى في الوسط ويحيط به الطلبة يستمعون إلى شرحه أو يسجلون ما يملى عليهم . ولم يكن هناك قيود في حضور الطلاب للدروس . وكثيراً ما كانت الحلقة الواحدة تضم طلاباً من بلدان إسلامية شتى .

(ج) خطة الدرس :

كانت الدراسة تبدأ غالباً بعد أداء الصلاة التي يؤديها الطلاب مع أستاذهم . وكان الأستاذ يبتدئ درسه بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه الكريم بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئاً من القرآن ثم يدعو للبلد وللسامعين . وكلما ورد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام صلى عليه ورضى عن الصحابة حينما يرد ذكرهم .

وكان تدريس الحديث يعتبر نوعاً من العبادة يحتاج إلى آداب خاصة فيستحب للمحدث قبل أن يجلس للحديث أن يتطهر ويتطيب ويسرح لحيته، وأن يجلس متمكناً بوقار. فإن رفع أحد الحاضرين صوته زجره ، وعليه أن يقبل على الحاضرين كلهم . فإذا انتهى من درسه استمع إلى المناقشة . وأعطى طلابه الفرصة للأسئلة والاعتراض غير برم بها أو ضجر من كثرتها أو الإلحاح فيها.

(د) طريقة التدريس :

وقد جروا فيها على ثلاثة أساليب هي : المحاضرة ، التملية ، والمناظرة . فبحسب الأسلوب الأول كان الأستاذ يعد محاضراته كتابة ويلقيها على الطلاب الذين يثبتونها . وعند إلقاء الدرس ينبغي أن يتكلم المدرس بهدوء ووداعة ولا يعطى للطلاب فرصة للمقاطعة بالأسئلة في أثناء الدرس وإنما ينبههم بلطف أن ينتظروا نهاية الدرس عندما يمكنهم أن

يسألوا ما يريدون .

وكان الطلبة يستعيضون أحيانا عن السؤال الشفهي بأسئلة مكتوبة ، يدل على ذلك ما ذكره ابن جبير في وصف مجلس الشيرازي بالمدرسة النظامية في بغداد إذ دفعت إليه عدة رقاع فجمعها في يده وجعل يجاوب عن كل واحدة منها إلى أن فرغ .

وكان المدرس يملئ الدرس على الطلاب أحيانا . وإذا كان عدد الحاضرين كبيرا استعان المدرس بمعيد أو أكثر ليكرر ما يقول حتى لا يضيع على الطلاب شيء مما قال الأستاذ ، فابن الأعرابي اللغوي المشهور بالكوفة في القرن الثاني الهجري كان يحضر مجلسه خلق كثير من المستفيدين ويملي عليهم . قال عنه أبو العباس ثعلب : شاهدت مجلس ابن الأعرابي وكان يحضره زهاء مائة انسان ولقد أملى على الناس ما يحمل على أجمال ولم يكن بيده كتاب .

أما طريقة المناظرة فقد أولها المسلمون عناية كبرى في أساليب تعليمهم وفي مواضع عدة من مؤلفاتهم لما لها من أهمية في شحذ الذهن وتقوية الحجة وانطلاق البيان والتفوق على الأقران وتأسيس الثقة بالنفس . فيذكر عن الغزالي ، مثلا ، أنه ناظر مشاهير العلماء وقادة الفكر في معسكر الوزير نظام الملك وانتصر عليهم جميعاً . وتظهر أهمية التفكير والمناظرة في قول الشاعر :

العلم بالفهم وبالمذاكرة والدرس والفكرة والمناظرة

بينما يرى الزرنوجي أن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من قضاء شهر بأكمله في التكرار والحفظ . بل إن ابن خلدون قد عزا ظاهرة الركود الفكري الذي شاع في بلاد المغرب في القرن الثامن الهجري إلى طرق التدريس الرديئة التي أهملت فيها المناقشة والمناظرة ، فيقول : وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية ، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها . فنجد طلاب العلم منهم بعد زهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون . وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون

على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم .

(هـ) الأسلوب الفردي في التعليم :

كان أسلوب التعليم العالي عند المسلمين فردياً إلى حد كبير بمعنى أن الطالب يختار ما يلائم استعداده وميوله من المواد التي يتلقاها عن أستاذه يختاره بنفسه ، وهو وإن كان يستمع لأستاذه في محاضرات عامة إلا أنه يسير بسرعه الخاصة في استيعاب المادة ودراستها ومناقشتها وحفظها في مراجع معينة دون أن يتقيد بنظام للنقل من مستوى دراسي معين لآخر أو بأداء امتحانات فالطالب لم يكن ، إذن ، مطالباً بتأدية امتحانات في نهاية المنهج الدراسي إلا فيما ندر . وعوضاً عن الامتحان المعروف كان الأساتذة يمنحون طلابهم شهادة أو إجازة دون تأدية امتحان معين ينص فيها على أن الطالب أتم دراسة منهج معين تحت إشراف الأستاذ .

وكانت الإجازة تمكن الطالب من استخدام كتب أستاذه التي دارسها معه وكذلك المحاضرات التي أخذها . فالغرض من الإجازة كان مزدوجاً : الاعتراف بحقوق المؤلف وإقرار بكفاية الطالب . وقد كان من الممكن أن يجمع الطالب عدداً كبيراً من الإجازات من الأساتذة الذين يحضر دروسهم في مختلف البلدان مما يشهد بالضرورة على جدية الطالب وانكبابه على العلم . ولهذا كانت الرحلة في طلب العلم في التعليم العالي لا غنى عنها لمن أراد من الطلاب أن يزداد ثقافة واطلاعاً ومعرفة بالعلوم التي يتخصص فيها . وهذا مثال لإحدى تلك الإجازات العلمية :

بسم الله الرحمن الرحيم

إجازة عثمان بن جنى سنة ٣٨٤ هـ لتلميذه

قد أجزت للشيخ أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن نصر أدام الله عزه أن يروى عنى مصنفاتي وكتبي مما صححه وضبطه عليه أبو أحمد عبد السلام بن الحسين البصرى أيد الله عزه ، عنده منها كتابي الموسوم بالخصائص وحجمه ألف ورقة (ويوالى ذكر كتبه) ...

فليرو أدامه الله ذلك عنى أجمع إذا صح عنده وأنس بتثقيفه وتسديده

« يوزع مجاناً ولا يباع »

وما صح عنده أيده الله من جميع رواياتي مما سمعته من شيوخي رحمهم الله
وقرأته عليهم بالعراق والموصل والشام وغير هذه البلاد التي أتيتها وأقمت
بها مباركاً له فيه مشفوعاً بإذن الله .

ومن خصائص الأسلوب الفردي في التعليم العالي أن يعين الأستاذ
الطالب على اختيار المواد الدراسية التي تتفق ومواهبه وقابلياته . فالأستاذ
كان موجهاً ومرشداً للطلاب . وفي هذا قال رئيس القضاة ابن جماعة
(ت ٧٣٣ هـ) في مؤلفه (تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم) :
وإذا علم (الأستاذ) أن تلميذا لا يفلح في فن أشار عليه بتركه والانتقال إلى
غيره مما يرجى فيه فلاحه) . روى أن يونس بن حبيب كان يختلف إلى
الخليل بن أحمد الفراهيدي ، (ت ١٧٥ هـ) واضع علم العروض
وصاحب كتاب (العين) الذي يعتبر أول معجم وضع في اللغة العربية ،
يتعلم منه العروض .

فصعب عليه تعلمه ، فقال له الخليل يوما : من أي بحر قول الشاعر ؟

إذا لم تستطع شيئاً فدعه
وجاوزه إلى ما تستطيع

ففظن يونس لما عناه الخليل ، فترك العروض ، وأخذ يتعلم النحو وقواعد
اللغة حتى أصبح في ذلك إماماً وعالمًا شهيراً . وكذلك بدأ محمد بن
إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ) يتعلم الفقه على محمد بن الحسن ،
فقال له محمد بن الحسن : (اذهب فتعلم علم الحديث) لما رأى أن ذلك
العلم أليق بطبعه ، فطلب علم الحديث فصار فيه مقداً .

٣- صفات العلماء المسلمين وأخلاقهم :

كان العلماء المسلمون موضع التقدير والتعظيم والإجلال في
مجتمعهم . والشواهد على ذلك كثيرة إليك بعضها منها :

(١) نصح أحد الخلفاء برسالة هامة جاء فيها : واعلم أن مواقع
العلماء من ملكك مواقع السراج المتألقة والمصابيح المتعلقة ، وعلى قدر
تعامدك تبذل من الضياء وتحلو بصورها الأشياء .

(٢) يروى ابن خلكان في الجزء الأول من كتابه (وفيات الأعيان

ص ١٨١) أنه لما مات الحسن البصرى (١١٠ هـ) تبع أهل البصرة كلهم جنازته ، فلم يبق بالمسجد من يصلى العصر ، ولم تترك صلاة منذ كان الإسلام إلا يومها .

(٣) حضر بعض أولاد الخليفة المهدي عند شريك القاضي (١٧٧ هـ) وهويلقى الدروس على طلابه ، فاستند ابن المهدي إلى الحائط وسأل عن حديث ، فلم يلتفت ثم عاد وسأل فعاد شريك إلى إهماله . فقال ابن الخليفة : تستخف بأولاد الخلفاء؟

قال شريك: لا ، ولكن العلم أزين عند أهله من أن يضيّعوه .

(٤) ويحكى أن معاوية العالم الأعمى كان يتغدى مرة مع الرشيد فلما انتهى الغداء وأراد العالم أن يغسل يديه قدم له شخص ما الطشت والإبريق وصب عليه . ولما انتهى العالم الأعمى من غسل يديه شكر ذلك الذى أولاه هذه العناية وصب عليه الماء . ولكنه اكتشف أن الذى فعل ذلك هو الرشيد نفسه على كثرة خدمه . فقال العالم : يا أمير المؤمنين ، إنى أعتقد أنك فعلت هذا تكريماً للعلم . فأجاب الرشيد : هو كذلك .

(٥) ويروى أنه لما مات إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى أستاذ المدرسة النظامية بنيسابور (٤٧٨ هـ) أغلقت الأسواق يوم موته وكسر منبره بالجامع وكان تلاميذه زهاء أربعمئة فكسروا محابرهم وأقلامهم تأثراً وأسى واستمروا على ألهم وحزنهم مدة عام .

ولما كان للمدرس فى الاسلام مكانة عالية ، فقد اشترط المسلمون فى أساتذة المساجد والمدارس شروطاً عديدة وتحدثوا عن أخلاقهم وصفاتهم وواجباتهم . ويمكن إجمال هذه الشروط على النحو الآتى :

أولاً : الكفاية العلمية : ألا ينتصب أحد للتدريس إلا بعد أن يستكمل عدته ويشهد له بذلك أفاضل أساتذته وكبار علماء عصره أو بلدته على الأقل .

ثانياً : التفرغ للتعليم : أن يتفرغ المدرس للتدريس فلا يشرك بعمله

الشريف هذا عملاً آخر ، إلا إذا كان ممن ينزه نفسه عن أخذ أموال الأوقاف فيحتاج حينئذ إلى القيام ببعض المهن الشريفة ليقوم بأود نفسه وإصلاح أهله .

ثالثاً : المعرفة بطلابه : أن يستعلم عن أسماء طلبته وحاضري درسه وأنسابهم ومواطنهم وأحوالهم لما في ذلك من تقوية الصلات بينه وبينهم والتعرف إلى ماضيهم .

رابعاً : الرفق بالمتعلمين ومراعاة قابلياتهم : والشفقة فيما يتصل بطريقة التدريس في رأى علماء المسلمين تستدعى عدم إرهاق المتعلم بما هو فوق إدراكه وفهمه . فلا يمتنع عن تعليم أحد منهم علماً أو بحثاً إذا أنس منه الفهم . وأن يتدرج معه في تفهيمه مبتدئاً بضرب الأمثلة والشواهد ومنتهياً بذكر الأدلة والعلل والمآخذ .

خامساً : التثبيت من مدى فهم التلاميذ : على المدرس أن يطرح أسئلة كثيرة على طلابه ليتبين له مقدار ما استوعبوه من دروسه وما فهموه من مقرراته . فإن لم يجدهم قد استفادوا أعاد عليهم الكثرة . وإن وجدهم قد فهموا منه أثنى على البارِع منهم وشجّع المتوسط . وأن يختبر مقدار فهمهم وعلمهم فيوصى كل واحد منهم بقراءة الكتب التي تلائم مستواه وعلمه . فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كُلُّ مَيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ) .

سادساً : التحلى بالأخلاق الفاضلة : أن يكون المدرس مهذباً متديناً متحلياً بالآداب الإسلامية ، كاظماً لغيظه حليماً وقوراً متتدأ رقيقاً بطلابه . فقد قالوا : إن (من تمام آلة العالم أن يكون مهيباً وقوراً بطيئاً الالتفات قليل الإشارة لا يصخب ولا يلعب ولا يجفو ولا يلغو) . ومن الخلق أيضاً أن يراعى مصلحة طلابه في تعيين مواعيد الدروس وساعاتها . وألا يرفع صوته ، وألا يدعى علم ما يجهل . فاذا سأله تلاميذه عن شيء يجهل قال : (لا أعلم) .

تلك هي أهم الصفات العلمية والشخصية التي رأى المسلمون أن يتحلى بها القائمون بأمر التدريس مما تجد تفاصيله في كتاب (المعيد

للعلموى ، و) تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم) ، و) إحياء علوم الدين) للغزالى ، و) مفتاح السعادة) لطاش كبرى زادة و) جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر ، و) المدخل) للعبدى ، و) صبح الأعشى) للقلقشندي ، وغير ذلك .

٤- بعض قادة الفكر التربوى الإسلامى :

لما كان من العسير أن نتناول فى هذا المجال العدد الوفير من أئمة التربية الإسلامىة ، لذلك فسنتقتصر الحديث على ثلاثة منهم يعتبرون من أكبر أقطاب الفكر التربوى فى الإسلام وهم : العلامة ابن خلدون والامام الغزالى والشيخ الرئيس ابن سينا .

(١) ابن خلدون : (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م)

ولد العلامة عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى التونسى فى أسرة من أهل العلم والفضل والمكانة السياسىة الرفيعة كانت قد نزحت من الأندلس إلى تونس فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى على أثر اشتداد حملات الأسبان على الامارات العربىة .

نشأ ابن خلدون فى جو علمى دينى ، فقد تلقى العلم فى البداية على والده . ثم على كبار علماء تونس . ونبغ فى اللغة والأدب وذاعت شهرته فى الفقه المالكى . وقد شغل وظائف ممتازة فى البلاط التونسى وفى مراکش وغرناطة ومصر . ومارس التدريس فى الأزهر ثم فى المدرستين الظاهرىة والسلطانية بالقاهرة أيضاً . وقد أمضى فى مصر ثلاثة وعشرين عاماً ولى القضاء خلالها ست مرات .

امتاز ابن خلدون بنظرته للتارىخ على أنه علم يستحق الدرس وليس رواية تدوّن فحسب كما كان سائداً من قبل . وقد أراد أن يكتب التارىخ على ضوء منهج جديد من الشرح والتعليل فانتهى به التأمل والدرس إلى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعىة . وكتب مقدمة مؤلفه التارىخى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصره من ذوى

السلطان الأكبر) ، والتي يشار إليها عادة باسم مقدمة ابن خلدون ، لتكون شرحاً وتمهيداً يقرأ على ضوءها التاريخ وتفهم وقائعه . فجاءت هذه المقدمة (ولم يكتب ابن خلدون غيرها) وحدة مستقلة من الابتكار الفائق تسجل مذهباً جديداً في فهم الظواهر الاجتماعية وتعليلها وفي فهم التاريخ ونقده وتحليله . ومقدمة ابن خلدون كتاب فخم بحث فيه مختلف المعارف والعلوم المعروفة في زمانه وأوضح ضعفها وسوء تطبيقها لدى أهلها . وقد قال عنه المؤرخ البريطاني المعروف أرنولد توينبى Arnold Toynbee (١٨٨٩ - ١٩٧٤) : (إن ابن خلدون في مقدمته لتاريخه عن العالم قد أدرك ووضع « فلسفة التاريخ » - وذلك من دون شك أعظم عمل من نوعه قام به أى عقل فى أى زمان أو مكان) .

ولإبن خلدون آراء فى التربية تمتاز بعمق النظرة وتكشف عن سعة أفقه فى فهم أساليب التعليم وطرقه ومناهجه . وقد تضمنت آراؤه الناضجة كثيراً من القواعد التى تدعو إليها التربية الحديثة مثل استخدام الوسائل الحسية لإيضاح الدرس ومراعاة استعداد التلاميذ وقدرتهم على الفهم بالتكرار والتدرج . وإليك خلاصة لآرائه التربوية :

آراؤه التربوية :

(١) إن نشوء التعليم فى المجتمع هو نتيجة حتمية لرغبة العقل فى المعرفة . فالعلم والتعليم طبيعى فى البشر .

(٢) التعليم صناعة ضمن الصنائع التى تنشأ فى المجتمعات وهى صناعة تبدأ بسيطة ، ثم تترقى وتتسع نتيجة تعقد الحياة ورفق المجتمع .

(٣) مراعاة استعداد المتعلم وقدرته على التحصيل والتدرج فى تعليمه من المحسوس إلى المعقول ، أو من البسيط الواضح إلى المعقد الغامض لئلا يتسرب إليه الكلل ويأس من التحصيل .

(٤) يتعلم الانسان أية صناعة بعد الفهم والتكرار . وهكذا تتكور لديه ملكة فيها ، أى يكتسب مهارة فى معرفتها وأدائها .

(٥) إن هدف الإنسان من السعى لتحصيل العلم هو الاحاطة بنواحي المعرفة المختلفة التي تهَيء للمراء وسيلة تساعد على الحياة السعيدة في المجتمع المتحضر ، أى إن تعلم العلم وسيلة لكسب العيش .

(٦) يطلب المتعلم العلوم مرتبة حسب أهميتها. فيبدأ بالعلوم الشرعية: التفسير والحديث والفقہ ، ثم العلوم الفلسفية كالطبيعيات والرياضيات ، ثم العلوم الآلية المساعدة لعلوم الدين كاللغة والنحو وغيرها. وأخيراً العلوم الآلية المساعدة للعلوم الفلسفية كالمنطق .

(٧) تعلم الفنون أو العلوم واحداً واحداً . فهو ينصح بألا يخلط على المتعلم علمان معاً .

(٨) المقاربة بين الدروس خشية النسيان ، أى ينبغي مراعاة تعليم العلم فى فترات زمنية متقاربة حتى يظل ما يعلم مترابطاً .

(٩) أوصى بعدم الشدة على المتعلمين ، لأن العقاب الصارم يلجئ الطفل إلى الكذب والغش طلباً للخلاص من العقاب . كما يصيبه بالغم وانقباض النفس .

(١٠) أوصى بضرورة الرحلة فى طلب العلم وعدم الاكتفاء بما يتلقاه الطالب على معلمه ويرى ضرورة تجديد المعلم لمهنته باستمراره فى الطلب والتحصيل وهو ما نسميه هذه الأيام بالتدريب فى أثناء الخدمة .

(ب) الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٩ - ١١١١ م)

ولد الإمام محمد بن أحمد الغزالي المعروف بأبى حامد فى قرية غزالية قرب مدينة طوس بخراسان . وكان والده تقياً ذا ولع بمجالسة الفقهاء وخدمتهم .

انصرف الغزالي فى نشأته إلى صديق لأبيه من أهل التصوف ثم تلقى بعض أصول الفقه . ثم نزع إلى جرجان فنيسابور طلباً للعلم والبحث حيث درس فيها علم الكلام والجدل والمنطق والفلسفة وأصول الفقه ولزم حياة

المتصوفة ، وصار فقيها من أكبر فقهاء الشافعية .

ثم رحل إلى بغداد حيث اتصل بنظام الملك الوزير السلجوقي فولاه التدريس بالمدرسة النظامية (١٠٩١ - ١٠٩٥ م) . واتسعت شهرته ، وما لبث أن أمعن في الزهد والتصوف . ثم قصد البيت الحرام ، ولم يعد إلى بغداد بل قصد القدس الشريف . ثم رحل إلى دمشق واستقر بالجامع الأموي حيث انقطع في الزاوية المعروفة باسمه هناك إلى الصلاة والرياضة الروحية . وثابر على تأليف كتابه (إحياء علوم الدين) وهو أبرز كتبه وأحواها لآرائه في التربية الدينية والتهذيب . ثم ساه بعد ذلك في الأمصار طلباً للنسك والوحدة زهاء عشر سنين من دمشق إلى القدس فالحجاز فبغداد حيث عقد فيها المجالس . ثم عاد إلى خراسان ، فدرس بالمدرسة النظامية بنيسابور . ثم رحل إلى طوس وأسس مدرسة للفقهاء والتصوف تولى رياستها وإدارتها ، وبقي هناك حتى وفاته ، رحمه الله تعالى .

كان الغزالي عالماً موسوعياً يحيط إحاطة الخبير المتبحر بعلم شتى دفعه لطلبها حرصه على المعرفة وبحثه عن اليقين . وقد شاعت في أيامه أفكاً فلسفية إحادية تهدف إلى التطويح بالعقائد الدينية والتشكيك بسدادها فتصدى للرد عليها وإظهار زيفها وبيان أوجه التناقض فيها . فدرس أو المذاهب الفلسفية جميعها واستوعبها حتى إنه ألف كتاباً في تاريخ الفلسف سماه (المقاصد الفلسفية) ، ثم ألف كتابه المشهور (تهافت الفلاسفة) ، أي تناقضهم وسقوط أدلتهم . وكان الغزالي يدعو إلى أن يكون رجل الدين ذا علم سديد واطلاع واسع في حقول المعرفة . ومن مؤلفاته الأخرى :

(المنقذ من الضلال) ، و (ميزان العمل) ، و (المصنوعون به على غير أهله) ، و (جواهر القرآن ودرره) ، و (منهاج العابدين إلى الجنة) و (فضائح الباطنية) ، و (مشكاة الأنوار في لطائف الأخبار) ، و (فاتح العلوم) ، و (معارج القدس) و (المستصفي في أصول الفقه) ، و (أبا الولد) ، وكثير غيرها .

آراؤه التربوية :

للغزالي آراء تربوية قيمة ضمنها كتبه (إحياء علوم الدين) و (فاتحة العلوم) و (أيها الولد) . ويمكن تلخيص أهم آرائه في تربية الناشئين كالتالي :

- (١) يعلم قراءة القرآن الكريم وأمور الشرع وسير الأنبياء والصالحين عليهم السلام.
- (٢) يُعوِّد على طاعة والديه وإكرامهما وطاعة واحترام معلميه ومن هم أكبر سناً .
- (٣) يوجِّه طالب العلم جُلَّ عنايته وانتباهه إلى درسه ، فيبدأ بالأصول والأسس ويتبع مبدأ التدرج والانتقال من الأهم إلى المهم والتخصص في مادة والإلمام العام بالمواد الأخرى .
- (٤) أن يُحفظ الطفل من قرناء السوء ، لأن الطباع والعادات تنتقل بالحاكاة .
- (٥) إذا قام الطفل بفعل حميد فالواجب أن يثنى عليه ويمدح علانية . أما إذا صدر منه فعل قبيح فيلام عليه بستر حتى لا يحط من قدره بين أقرانه ، لأن اعتياد الطفل على اللوم الكثير يقلل من اهتمامه واكترائه به . ويُعوِّد على التواضع وترك الخيلاء .
- (٦) يُعوِّد على ألاَّ يحلف صادقاً أو كاذباً لأن الاعتياد على كثرة اليمين يهون من شأنه .
- (٧) يُعوِّد على التجلُّد والصبر فلا يبكي إذا ضربه المعلم ولا ياجأ إلى المراوغة والصراخ .
- (٨) يُعوِّد الطفل على الخشونة في المأكل والمفرش ويحبب إليه القصد في المطعم .
- (٩) يُمنع من الشتم والسب وهذر القول .

١٠ (يُحذّرُ الطفل ويخوّف من ارتكاب المعاصي كالسرقة والخيانة
والفحش والكسب الحرام .
١١ (يسمح للولد باللعب والتريّض بعد انصرافه من الكتاب وتحبب
إليه الحركة الرياضية .

١٢ (وجوب العناية بتربية الطفل منذ اليوم الأول من حياته وذلك لأن
نفسه صحيفة بيضاء فكل ما يلقش عليه يترك أثره . فالواجب أن تكون
مرضعته امرأة صالحة ذات دين .

وكما قدم الغزالي جملة من الآراء والنصائح إلى الطلبة استوحاها من
القرآن الكريم والسنة الشريفة إضافة إلى تجاربه الشخصية ، فقد خص
المعلمين ، الذين اعتبرهم ينتمون إلى أشرف المهن وكان يستشهد على ذلك
بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم للمعلمين وقوله (إنما بعثت معلما)
بجملة من النصائح أهمها ما يأتي :

نصائح الغزالي للمعلمين :

- ١- الشفقة على المتعلمين ومعاملتهم معاملة الأبناء .
- ٢- ألا يطلب المعلم على التعليم أجرا . أو يقصد به شكراً ، بل تقرباً
إلى الله تعالى واقتداء برسوله الكريم عليه الصلاة والسلام .
- ٣- مراعاة مستوى فهم الطالب وإدراكه والتدرج معه من السهل إلى
الصعب بالنصح والارشاد . وألا يؤخذ الطلاب جميعاً بطريقة واحدة ولا
يعاملون المعاملة نفسها بل يجب أن يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم
وطبائعهم وأسنانهم وبيئاتهم .
- ٤- زجر المتعلم عن سوء الأخلاق بالتعريض لا التصريح ، وبطريق
الرحمة لا التوبيخ .
- ٥- أن يكون المعلم قدوة صالحة للمتعلم قولاً وفعلاً .
- ٦- ألا يقلل من قيمة علوم أخرى يعلمها غيره ، لأن لكل علم أهميته

٧- ألا يثبط همة الطالب المبتدئ بأن يذكر له أن وراء دراسته دراسات أدق وأوسع فقد يقلل من فرحته ورغبته بدرسه .

(ج) ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٩ هـ / ٩٨٠ - ١٠٣٧ م)

ولد الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي ابن سينا في أخصنة قرب بخارى وتوفي في همذان . حفظ القرآن في سن مبكرة ، وسمع المناقشات المذهبية . ودرس الفلسفة والهندسة والحساب والفقهاء والمنطق والطب . قرأ كتب الفلاسفة الإغريق وأجاد فهمها . وبدأ يؤلف وهو في الحادية والعشرين . وقد تقلد مناصب كبرى منها الوزارة في همذان . له كتب كثيرة بلغت مع المخطوطات أكثر من مئتي كتاب ، منها (الشفاء) ، و (القانون) وهو كتاب في الطب ، و (النجاة) وهو في الفلسفة والإشارات والتنبيهات . وظلت مؤلفاته الطبية عماد الدراسة في مكتبات الطب في أوروبا قرونا عديدة .

آراءه التربوية :

كتب ابن سينا رسالة في (السياسة) جعلها في مقدمة وخمسة أقسام . تحدث في المقدمة عن التفاوت بين الناس في الصفات والرتب . أما في سائر أقسام الكتاب فقد تحدث عن سياسة الرجل نفسه ، وسياسة الرجل دخله ، وسياسة الرجل خرجه ، وسياسة الرجل أهله ، وسياسة الرجل ولده ، وسياسة الرجل خدمه .

وفي قسم سياسة الرجل ولده تعبير عن آرائه التربوية التي تدل على نفاذ فكر وصدق نظر في الأحوال التعليمية ، كما تدل على حرية شديدة في التفكير .

ويمكن أن نلخص آراءه التربوية على النحو الآتي : قسم ابن سينا فترة الطفولة إلى مرحلتين :

أ - مرحلة الطفولة الأولى : حيث يعتنى بالطفل كله جسماً وعقلاً

وخلقاً .

ب - مرحلة الطفولة الثانية : وهذه المرحلة تختص بالدرس والتلقين حيث يعمل فيها على غرس العادات الفاضلة فيه بالترغيب والترهيب ، وبالمدح والذم ، والضرب بعد الإرهاب الشديد .

وبعد أن يشتد عود الصبى ويستوى لسانه يجب أن يتعلم القرآن الكريم وأن تصور له حروف الهجاء وأن يلقن . ويرى ابن سينا أن يروى الصبى الرجز ثم القصيد وذلك بأن تختار له الأشعار السهلة ليسهل على الطفل حفظها وينبغي أن تكون ذات مدلول خلقى ، كأن تكون مدحاً للعلم وذمّاً للغباوة والجهل ، وكأن تحضّر على تكريم الأبوين وتمجيد الصفات والأعمال الحميدة .

وبعد أن يفرغ الصبى من تعلم القرآن الكريم وحفظ أصول اللغة تختار له صناعة ليجد طريقه إليها على شرط أن تكون مناسبة لقابلياته وهذا رأى يتفق تماماً مع الاتجاهات التربوية الحديثة من حيث مسامرة ميول الصبى واستعداداته وقابلياته في المهنة التي ينبغي أن تختار للمتعلم ليكسب بها عيشه .

ويرى ابن سينا أن يكون التعليم جميعاً في المكتب لا على مؤدب خاص لأن وجود الصبى مع غيره من الصبيان (أدعى إلى التعلم والتخرج فإن يباهى الصبيان مرّة ويغبطهم مرّة ، ويأنف عن القصور عن شأوهم مرّة . ذلك إنهم يترافقون ويتعاوضون الزيارة ويتكلمون ويتعاوضون الحقوق . وكذا ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة . وفي ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لهمهم وتمارين لعاداتهم) . وينصح ابن سينا أن يكون الصبية الزملاء من ذوى الأخلاق الحسنة فإن الصبى يأخذ عن الصبى

وقيمة المعلم عند ابن سينا في خلقه وسيرته . لذلك فقد طالب أن يكون المعلم (عاقلاً ، ذا دين ، بصيراً برياضة الأخلاق ، حازقاً بتخريب الصبيان ، وقوراً رزيناً بعيداً عن الخفة والسخف ، قليل التبع ، والاسترسال بحضرة الصبى) .

٥- خصائص التربية الإسلامية :

يمكن إيجاز خصائص التربية الإسلامية فيما يأتي :

(١) **التعليم للجميع** ، أو العمل بمبدأ المساواة في الفرص التعليمية .

فقد أتاح نظام التربية الإسلامية فرص التعليم لجميع المسلمين دون اعتبار لحالتهم المالية أو مركزهم الاجتماعي . ففي الكتاتيب كنت ترى أبناء المسلمين ، الأغنياء منهم والفقراء وقد جلسوا جميعاً إلى معلم واحد يعلمهم كتاب الله وأصول دينهم . وكنت ترى هذا المنظر ، الذي تتجلى فيه عظمة الإسلام في المساواة الاجتماعية وبالذات في مجال العلم ، يتكرر في حلقات المساجد والمدارس . وقد نجم عن تطبيق المسلمين لمبدأ تكافؤ الفرص التعليمية ، هذا المبدأ الذي لم تعرفه أوروبا إلا منذ عقود قليلة ، ظهور حشد من العلماء الأفاضل من بين أسر فقيرة معدمة أمثال الإمام الشافعي والإمام البخاري والإمام الغزالي والجاحظ والخليل بن أحمد والضحاك بن مزاحم وأبي تمام وكثير غيرهم .

(٢) تعدد المعاهد التعليمية وكثرتها :

فقد أدت الحركة العلمية المزدهرة في العالم الإسلامي إلى ظهور فيض من المعاهد التربوية من أنواع شتى . فالكتاتيب تجاوز انتشارها إلى القرى النائية . وكانت هذه تمثل المرحلة الأولية في التعليم . أما حلقات العلم في المساجد والمدارس فكانت عامرة بالدارسين من كل مكان . وبينما كانت هذه الحلقات تعنى أساساً بالدراسات الدينية كانت المناظرات الفلسفية تجد طريقها إلى دور الحكمة ودور العلم . وبالمثل أيضاً ، فبينما كان من أعمال المارستانات إجراء البحوث الطبية والصيدلانية فإن المراقدين الفلكية كانت تهتم عادة بالدراسات الفلكية والطبيعية . وانتظمت البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أدناها بسلسلة فخمة من المعاهد التعليمية التي أمدت المجتمع الإسلامي الكبير بمختلف الكفايات العلمية .

(٣) السمو الأخلاقي :

أدرك المسلمون قيمة التنشئة الأخلاقية الرصينة في وحدة الأمة وتماسكها . واعتبروا الدين هو المنبع الثر الذي تستمد منه كل مكارم الأخلاق . وتبوأ العلماء مكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي لأنهم ورثوا الأنبياء في العلم وفي سمو الخلق . وقد أدت هذه النزعة الأخلاقية في التربية الإسلامية إلى حماسة شديدة في تحصيل العلم والتفرغ له والرحلة من أجل مهما نأت المسافات وقست الأحوال . وتلك النزعة المثالية الرائعة هي سر عظمة الأمة الإسلامية وتماسكها وقوتها ووحدتها الروحية .

(٤) أصالة الأساليب التعليمية :

أسهم المسلمون كثيراً في تطوير طرائق التعليم وأساليبه . فمن ذلك مثلاً :

(أ) مراعاة مبدأ الفروق الفردية في التعليم على نحو لم يتحقق إلا الآن حتى في أرقى الجامعات المعاصرة . فقد ترك للطالب المسلم اختيار المعلم الذي يريده وإتمام المنهج الدراسي في الوقت الذي يريده وبما يتفق واحتياجاته وقدراته . فبعضهم قد يتم التعليم العالي في المدارس في أربع سنين ، مثلاً ، بينما قد يمتد ذلك بالبعض الآخر إلى خمس عشرة سنة . كما أن المنهج الذي يتبعه الطالب كان يشارك مع أستاذه في رسمه وتصميمه

(ب) اتباع مبدأ التدرج في التعليم من السهل إلى الصعب ، ومن المحسوس إلى المعقول ، ومن الكل إلى الجزء ، والانتقال من الكل إلى الجزء ، والأسلوب الذي دعا إليه ابن خلدون وهو يتفق تماماً مع نظرية علماء النفس الألمان (الكشتالت) الذين يقررون بأننا ندرك الكليات قبل الجزئيات (١)

(ج) تطبيق مبدأ الأسلوب الفردي في التعليم ، وهو ما يصطاح عليه في التربية المعاصرة باسم تفريد التعليم .
بمعنى أن كل طالب يتعلم بالطريقة التي تناسب قدراته واستعداداته

(١) من أقطاب علم نفس الهيئة ، أو الكشتالت ، العلماء الألمان فرتهايمر وكوهلر وكوفكا .

(د) **تقدير قيمة اللعب في التربية .** والمقصود باللعب هو الحركة الرياضية والنشاط الترويحي . فقد حذر الربون المسلمون من إرهاق الجسم في سبيل العلم ومن مواصلة الدرس والجهد دون أن يتخلل ذلك راحة ورياضة وذكروا دوماً الحديث الشريف : (رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً وَسَاعَةً) .
ومما يقوله الأصفهاني أن على الطالب أن يواصل الدرس ما نشط عقله وفطن ، فإذا أحس في عقله فتوراً فليتوقف عن العمل وليلجأ إلى اللعب ، فإن العقل المكدود ليس لرويته لقاح ولا لرأيه نجاح . لذلك لجأت المعاهد الإسلامية إلى الإجازات توكيداً لراحة التلاميذ وتجديداً لإقبالهم على العلم . فكان التلاميذ يمنحون إجازة يوم الجمعة ونصف يوم الخميس من كل أسبوع . كما كانوا يمنحون إجازات في عيدي الفطر والأضحى . وقد نصح عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يعلم الأطفال السباحة والرماية وركوب الخيل . وكان جرى من أنواع الرياضة التي مارسها التلاميذ المسلمون .

(هـ) **شيوخ طريقة المناظرة :** لقد نظم المسلمون هذه الطريقة بحيث أصبحت الأسلوب الشائع في المناقشات التي كانت تجرى في معاهد التعليم العالي في المساجد والمدارس ودور العلم ودور الحكمة . وطريقة المناظرة أو طريقة المناقشات الحرة تعتبر من مقومات طرائق التدريس الحديثة .

(و) **إدراك أثر الوراثة والبيئة في التربية .** فقد فطن الربون المسلمون إلى أهمية هذين العاملين ، الوراثة والبيئة ، أو الطبع والتطبع كما أشاروا إليهما في تنشئة الفرد . وهم بذلك سبقوا علماء التربية الحديثة في تقرير أثر الوراثة والبيئة في تكوين العادات واتجاهات السلوك . وقد لاحظنا قبل قليل كيف أن ابن سينا قد فطن إلى أهمية الوسط الإجتماعي **الصالح في** تربية الأطفال . لأن الأطفال يتعلمون على نحو أفضل حين يكونون مع بعض . وهذا ما تؤكد التربية الحديثة اليوم . لذلك نجد أن ابن سينا ، مثلاً ، يدعو إلى اختيار الصبية من ذوى الأخلاق الطيبة لأن الصبى عن الصبى ألقن وهو عنه أخذ وبه أنس .

(ز) **معرفة أهمية العادة في التربية الأخلاقية :** نجح المسلمون

أيضاً في معرفة أقوى العوامل المؤثرة في تكوين الأخلاق فاستعانوا بغرس العادات الطيبة منذ الصغر ، لأنهم اعتقدوا أن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر . وهذا ما تقرره الدراسات المعاصرة في علم النفس من أن مرحلة الطفولة المبكرة مهمة جداً في تكوين الفرد . لذلك فقد دعا المربون المسلمون إلى تكوين عادات محمودة في الأطفال واجتثاث العادة الفاسدة منهم . وهكذا كان الطفل يُعوّد على الاستيقاظ المبكر والمشي والحركة والرياضة . كما يُعوّد ألا يكشف أطرافه ، ولا يرخى يديه ، ولا يسرع في المشي ، ولا يربى شعره ، ولا يزيّن بملابس النساء ، ولا يبصق في مجلس ، ولا يتمخط أو يتساءب بحضرة غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ولا يحلف البتة لا صادقاً ولا كاذباً ، وكما كان يُعوّد على طاعة أبويه ومعلميه وحسن التخاطب في الكلام وإفشاء السلام والتحابب والتعاطف والتعاون على البر والتقوى .

(ح) معرفة أهمية المران والتكرار في التعلم : فطن المسلمون إلى معرفة أثر المران وتكرار الدرس في ترسيخه في الذهن . فإن ابن خلدون يقول ، على سبيل التمثيل ، (إن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره ، وإذا تنوسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه) . وهذا مطابق تماماً للنظرية التربوية المعاصرة .

(٥) العناية بعلوم الدين واللغة العربية :

لما كان الغرض الأسمى للتربية الإسلامية هو تنشئة الفرد المسلم وفهمه لأحكام الشريعة الإسلامية . لذلك فإن المحور الذي كان يدور عليه التعليم ، الكتابات هو حفظ القرآن الكريم وما يتصل به من معرفة للنحو واللغة والأدب ، وما يتصل بالتحاليم الدينية من عبادات كالصلاة وسائر الفروض الأخرى . كما كانت علوم الدين من تفسير وفقه وحديث ، وعلوم اللغة العربية وآدابها من نحو وصرف وعروض وبلاغة هي أساس الدراسات في المساجد والمدارس . بل إن المدارس لم تؤسس ، كما ذكرنا ، إلا لتدريب علوم الدين ، وبالذات الفقه . وهذا يعني أن الطلاب المسلمين في الماضي كانوا على معرفة بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولغة القوم وأحكام دينهم أكثر بكثير مما هو عليه الحال في الحاضر . بل إن اللغة

العربية كانت لغة الكتابة والتخاطب بين علماء المسلمين الذين هم من أرومة عربية وغير عربية على حد سواء . فالإمام الغزالي وأستاذه الجويني البيروني وابن سينا والبلخي والإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخوارزمي والإمام البخاري - وهم جميعاً من أصول غير عربية - لم يكونوا متفقهين في أصول الإسلام وحفاظاً لكتاب الله فحسب ، بل كانوا أيضاً بارعين في تعلم اللغة العربية ، لغة أهل الجنة ، والإجادة فيها تحدثاً بكتابة ، ولا تزال آثارهم العلمية النفيسة شواهد حية على ذلك . بل إن لاداناً إسلامية غير عربية مثل فارس أو شكت ، لانتشار اللغة العربية بين أهلها على نطاق واسع ، أن تصبح عربية لولا اكتساح المغول للبلاد القضاء على الخلافة العربية - الإسلامية ببغداد .

(٦) التوكيد على مبادئ الحرية والمساواة والتطور :

أما الحرية في التربية الإسلامية فكانت تتجلى بشكل خاص في مرحلة لتعليم العالي في المدارس والمساجد على حد سواء . ففي المسجد ، مثلاً ، فإن الطالب يتمتع بحرية مطلقة . فليس هناك موعد لحضور الطلاب أو تصرافهم . وليس الطالب مقيداً بالاستماع إلى أستاذ معين ، أو دراسة علم معين . وليس الشيخ مقيداً بمنهج ثابت . فكان طلاب العلم يحضرون إلى الشيخ الذي يروقهم في حلقاته . فإذا أحب طالب درس شيخ لزمه ، وأخذ منه ، حتى يتخرج على يديه ويجيزه للتدريس فيما بعد . كما لم يكن المدرس مقيداً بنظام معين لتوزيع المحاضرات . فبعض الأساتذة كانوا يدرسون كل يوم ، والبعض الآخر مرة في الأسبوع ، في يوم الاثنين بصفة خاصة .

وأما المساواة ، أو كما يصطلح عليه في عصرنا الحاضر بالديمقراطية في التعليم ، فقد لاحظناها في التزام المسلمين المربين بمبدأ كافؤ الفرص التعليمية أو التعليم للجميع . ولتعزيز هذا المبدأ وتأصيله فقد ابتكر المسلمون نظاماً يشجع على التعليم ويرفع أعباءه عن عاتق الطلاب ، هو وقف الضياع والعقار وصرف ريعها على المدارس وعلى الكتاتيب .

وأما التطور في التربية الإسلامية فيكشف في تعدد صورها بتعدد

الثقافات التي اتصل بها الإسلام خلال تاريخه الطويل . فأخذ عن الفرس
كما أخذ عن الروم ، وتطور بما أخذ عنهما . ذلك أن الإسلام ، وهو النظام
الصالح لكل زمان ومكان ، لا يحول دون امتصاص المسلمين للخبرات
النافعة من مجتمعات غير إسلامية إن كانت هذه الخبرات غير منافية لجوهر
الدين وفيها قوة للإسلام والمسلمين . وكان من آثار هذا الامتصاص الثقافي
النافع من الحضارات الأخرى أن قذفت لنا الحضارة الإسلامية خلال
القرون الأربعة الأولى من ظهور الإسلام فيضاً عجبياً من المؤلفات الثمينة ،
ويبلغ نتاج بعض كبار المؤلفين حدّاً يكاد لا يقع في الوهم . واستطاعت هذه
الحضارة الرائعة في بحر قرون قليلة أن تقدم من المكتشفات العلمية ومن
الأنظار الفكرية ومن المبدعات الأدبية ، ما غدّى الإنسانية طوال قرون وما
يزال مصدراً غنياً لها .

الفصل الثالث

العلوم الشرعية

قسّم المسلمون العلوم إلى قسمين رئيسين هما : العلوم الشرعية ،
النقلية ، والعلوم العقلية ، أو الحكمية .

فأمّا العلوم الشرعية فهي العلوم التي تتصل بمباحثها بالدين
إسلامي والتي بها يتميز المسلمون ثقافياً عمّا سواهم من الأمم
أخرى . فالعلوم الشرعية ، إذن ، هي علوم مختصة بالأمة الإسلامية ،
، هي علوم إسلامية صرفة . وتصنف هذه العلوم إلى ثلاثة أنواع رئيسية
:

(أ) العلوم القرآنية : ومنها علوم القرآن ، وعلم القراءات ، وعلم
تفسير .

(ب) علوم السنّة : ومنها علم الحديث ، مصطلح الحديث ، وعلم
رجال ، وعلم الجرح والتعديل .

(ج) العلوم الفقهية : ومنها أصول الفقه ، والفقه .

وقد يضاف إلى العلوم الشرعية ، أو ، النقلية علوم اللسان العربي
الأساسية ، وهي علم النحو ، وعلم اللغة ، والبيان ، والأدب وذلك لما لهذه
علوم اللسانية من الأهمية في معرفة الإسلام . بل إن شيخ الإسلام ابن
يمية رحمه الله تعالى كان يرى أن اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي لغة
قرآن وشعار أهله بجانب للدين .

وأما العلوم العقلية فهي العلوم التي أخذها المسلمون عن غيرهم من الأمم الأخرى ، وكانوا يطلقون عليها أحياناً علوم العجم ، أو ، العلوم القديمة وعلوم الأوائل . وتشمل هذه العلوم : الفلسفة ، والهندسة ، والطب ، والكيمياء ، والموسيقى ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وعلم النجوم (وهو يبحث في تأثير النجوم في أحوال الكائنات ومصائرهما) ، والسحر . والشرع الإسلامي يحرم التنجيم والسحر لمضارهما وما يتولان إليه من الكفر بالله .

وسنقصر حديثنا في هذا الفصل على عدد من العلوم الشرعية . أما العلوم العقلية فميدانها هو الفصل المقبل إن شاء الله .

أولاً - العلوم القرآنية :

وأصناف هذه العلوم المتصلة بكتاب الله كثيرة ومتنوعة . ولذا فسنكتفي بالإشارة إلى ثلاثة منها ، هي : علوم القرآن ، وعلم القراءات وعلم التفسير .

١ - علوم القرآن :

تعريفه :

هو العلم الذي يتألف من مباحث متعلقة بالقرآن الكريم من حيث نزوله ، وترتيبه ، وجمعه ، وكتابه ، وقراءته ، وتفسيره ، وإعجاز وناسخه ، ومنسوخه ، ودفع الشبه عنه ، ونحو ذلك .

وإنما سمي هذا العلم علوم القرآن (بالجمع دون الأفراد) فإنه يؤلف خلاصة علوم متنوعة تتصل اتصالاً وثيقاً بالعلوم الدينية والعربية حتى إنك لتجد كل مبحث منها خليقاً أن يسلك في عداد مسائل علم من العلوم .

نشأة مصطلح (علوم القرآن) وتطوره :

بدأت الدراسات القرآنية بالظهور منذ القرن الثاني الهجرى الذى نشطت فيه الحركة العلمية بين المسلمين تأليفاً وتدويناً واتسع مجالها حتى شملت كل أنواع المعارف والعلوم .

فمن أوائل من كتبوا فى تفسير القرآن مقاتل بن سليمان (المتوفى سنة ١٥٠ هـ) ، وشعبة بن الحجاج (المتوفى سنة ١٦٠ هـ) ، ووكيع بن جراح (المتوفى سنة ١٩٧ هـ) . وكانت تفاسيرهم مقصورة على التفسير المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وأصحابهم . وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث .

ثم نهج نهجهم بعد ذلك جماعة من العلماء وضعوا تفسيراً متكاملًا قرآن وفق ترتيب آياته ، واشتهر منهم ابن جرير الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) .

أما علوم القرآن الأخرى ، ففى مقدمة المؤلفين فيها قتادة بن دعامة سدوسى (المتوفى سنة ١١٨ هـ) ، وأبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) ، وأبو داود السجستانى صاحب السنن (المتوفى سنة ٢٧٠ هـ) . وقد أُلّف جميع هؤلاء فى الناسخ والمنسوخ .

ومن أوائل من أُلّف فى أسباب النزول على بن المدبني ، شيخ الإمام لبخارى ، المتوفى سنة ٢٣٤ هـ . وألف ابن قتيبة الدينورى (المتوفى سنة ٢٧٣ هـ) كتاب تأويل مشكل القرآن . ووضع محمد بن الخلف بن المرزبان (المتوفى سنة ٣٠٩ هـ) كتابه (الحاوى فى علوم القرآن) ، كما وضع حمد بن على الأدفوى (المتوفى سنة ٣٣٨ هـ) كتاب الاستغناء فى علوم القرآن ، والرمانى (المتوفى سنة ٣٨٦ هـ) كتاب النكت فى إعجاز القرآن . وألف فى اعجاز القرآن أيضاً الخطابى (المتوفى سنة ٣٨٨ هـ) كتاب بيان إعجاز القرآن وعبد القاهر الجرجانى (المتوفى سنة ٤٧١ هـ) الرسالة الشافية فى الإعجاز . ومن أشهر المؤلفات فى غريب القرآن كتاب : تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى (المتوفى سنة ٤٠٦ هـ) .

ويلاحظ أن طريقة أولئك المؤلفين تميزت بالاستيعاب والاستقصاء حيث يعمد أصحابها إلى الاحاطة بجزئيات القرآن من الناحية التي كتبوا فيها بقدر ما تسمح به طاقاتهم البشرية . فمن يكتب في غريب القرآن ، مثلا ، يذكر كل مفرد من مفردات القرآن التي فيها غرابة وإبهام . ومن يكتب في مجاز القرآن يقتفى أثر كل لفظ فيه مجازاً أيًا كان نوعه في القرآن . ومن يكتب في أمثال القرآن يتحدث عن كل مثل ضربه الله تعالى في القرآن . وهكذا سائر أنواع علوم القرآن . ولا ريب أن تلك الجهود الجبارة لايتهايأ لإنسان أن يحيط بها ولو أفنى عمره واستنفد وسعه . لهذا تطلع العلماء إلى علم جديد يكون كالفهرس لكل تلك العلوم والدليل عليها والمتحدث عنها . فكان هذا العلم هو ما اصطلح عليه باسم علوم القرآن . ويعتبر كتاب علي ابن سعيد الحوفي (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) الموسوم البرهان في علوم القرآن الأول من نوعه في هذا المضمار ، أي في مصطلح (علوم القرآن) فقد جمع الحوفي شتات علوم القرآن ونسقها ورتبها في مؤلف واحد يقع في ثلاثين مجلداً مخطوطاً (نصفه محفوظ بدار الكتب المصرية ونصفه مفقود عرض فيه للتفسير ، والإعراب ، والوقف ، والابتداء ، والقراءات والأحكام ، وغيرها .

وعلى هذا فإن نشوء (علوم القرآن) كعلم ، أو ، فن جديد إنما كان في القرن الخامس الهجري ، وإن كانت جذوره التاريخية تمتد إلى القرن الثاني الهجري وبداية التدوين العلمي .

ثم جاء القرن السادس فألف فيه ابن الجوزي سنة ٥٩٧ هـ كتابين : أحدهما اسمه فنون الأفتنان في عجائب علوم القرآن والثاني اسمه المجتبي في علوم تتعلق بالقرآن .

وفي القرن السابع ألف علم الدين السخاوي (المتوفى سنة ٦٤١ هـ) كتاباً سماه (جمال القراء) ، وألف أبو شامة (المتوفى سنة ٦٦٥ هـ) كتاباً أطلق عليه (المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز)

ثم أهل القرن الثامن فكتب فيه بدر الدين الزركشي (المتوفى سنة

٧٩ هـ) كتاباً وافياً سماه (البرهان في علوم القرآن) . وفي هذا القرن أيضاً ألف ابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١ هـ) كتابه (التبيان في تفسير القرآن) .

وفي القرن التاسع ألف جلال الدين البلقيني (المتوفى سنة ٨٢٠ هـ) كتابه (مواقع العلوم من مواقع النجوم) ورتبه على خمسين باباً وقد اطلع عليه الإمام السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) وانتفع به . في سنة ٨٧٢ هـ ألف السيوطي كتاباً سماه (التجيير في علوم التفسير) ضمنه ما ذكره البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها ، وأضاف فيه فوائد سمحت قريحته بنقلها . وقد أوفى هذا الكتاب الاثنین بعد المائة من أنواع . غير أن نفس الإمام الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم بل طمح في التبحر والتوسع والترتيب فوضع كتابه الثاني كتاب الاتقان في علوم القرآن ، وهو عمدة الباحثين في هذا العلم . وقد ذكر فيه ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الاجمال والادماج ، ثم قال بعد أن سرد لها نوعاً عاماً (ولو نوعت باعتبار ما أدمجته فيها لزادت على الثلاثمائة) .

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في عصر النهضة الحديثة من العلوم الأخرى . فقد اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامي اتجاهها ديداً في معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر ، مثل كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ، والتصوير الفني لقرآن ومشاهد القيامة في القرآن ، وكلاهما للشهيد سيد قطب ، وترجمة القرآن للشيخ المراغي والنبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ، ومنهج فرقان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني .

— علم القراءات :

تعريفه :

هو مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره في النطق بقرآن الكريم ، مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، سواء أكانت هذه مخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها ، وهي ثابتة بأسانيدھا إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نشأته : يرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة رضوان الله عليهم . فمنهم من أخذ القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحرف واحد ، ومنهم من أخذه عنه بحرفين ، ومنهم من زاد .

فمنشأ القراءات ، إذن ، اختلاف في اللهجات وكيفية النطق بها وطرق الأداء من تضخيم ، وترقيق ، وإمالة ، وإدغام ، ومد ، وقصر ، وتشديد ، وتخفيف ، إلى آخره ، وجميعها ثابتة بأسانيدھا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمشتهرون من الصحابة بإقراء القرآن عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى (بضم الألف وفتح الباء وتشديد الياء) بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق ، عقب تدوير القرآن رسميا ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ثم تفرق الصحابة في البلاد وهم يقرءون القرآن في حدود السبب الأحرف التي نزل عليها القرآن وكلها من عند الله تعالى لا من عند أحد من الناس . وأخذ عن هؤلاء الصحابة خلق كثير من التابعين في كل قطر من الأقطار .

فكان منهم بالمدينة : ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن يسار ، وأخوه عطاء ، ومسلم بن جندب ، وابن شهاب الزهري ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعد القارىء .

وكان منهم بمكة : عطاء بن أبى رباح ، وطاوس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن أبى مليكة (بضم الميم وفتح اللام) ..

وكان منهم بالكوفة : علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيد

عمرو بن شرحبيل ، والحصارث بن قيس ، والسلمى ، والنخعى ،
الشعبى .

وكان منهم بالبصرة : أبو العالية ، وأبو رجاء ، ويحيى بن يعمر ،
ابن سيرين ، وقتادة .

وكان منهم بالشام : المغيرة المخزومي صاحب مصحف عثمان ،
خليد (بضم الخاء وفتح اللام) بن سعيد صاحب أبي الدرداء .

وفي عهد التابعين وعلى رأس المائة الأولى للهجرة تجرد قوم واعتنوا
بضبط القراءة عناية تامة وجعلوها علماً ، كما فعلوا بعلوم الشريعة
لأخرى ، وصاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل اليهم . واشتهر منهم ومن
طبقة التي تلتهم الأئمة السبعة الذين تنسب اليهم القراءات إلى اليوم ،
هم : نافع بن عبد الرحمن ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعاصم بن أبي
نجد ، وحمزة ، وعلى الكسائي ، وابن عامر ، وابن كثير .

واشتهرت قراءات الأئمة السبعة على رأس المائتين في البلدان
إسلامية . غير أنها مكثت على هذه الحال من دون أن تأخذ مكانها من
تدوين حتى خاتمة القرن الثالث ، إذ نهض ببغداد الإمام أبو بكر بن
جاهد (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) فجمع هذه القراءات ودونها . والسبب في
انتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة مع أن هناك في أئمة القراء من هو أجلّ
نهم قدراً وأعظم شأنًا يعود إلى أنه أخذ على نفسه ألا يروى إلا عمّن اشتهر
الضبط والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة واتفاق الآراء على الأخذ عنه
التلقى منه . فلم يتم له ما أراد إلا عن هؤلاء السبعة وحدهم . وإذن فليس
قتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة بحاصر للقراء فيهم ، ولا بملزم أحداً
ن يقف عند حدود قراءاتهم . بل كل قراءة توافرت فيها الأركان الثلاثة
لضابط المشهور وجب قبولها (١) .

٣ - علم التفسير :

والتفسير من أجل علوم الشريعة وأرفعها قدراً ، وهو أشرف العلوم

(١) هذه الأركان هي :

- ١ - موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه .
- ٢ - موافقة القراءة لأحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً .
- ٣ - أن تكون القراءة صحيحة الإسناد .

موضوعاً وغرضاً وحاجة إليه ، لأن موضوعه كلام الله تعالى الذى هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة ، ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية . وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال دينى أو دنيوى لا بدّ وأن يكون موافقاً للشرع ، وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله .

تعريفه :

هو علم يبحث فيه عن أحوال كتاب الله من جهة نزوله ، وسنده ، وأدائه ، وألفاظه ، ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالاحكام .

نشأته :

روت عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يفهم شيئاً من القرآن إلاّ آيات تعد علمهن إياه جبريل . فكان النبي صلى الله عليه وسلم يفهم القرآن جملة وتفصيلاً . وكان الصحابة رضى الله عنهم يفهمون القرآن كذلك لأنه نزل بلغتهم .

فلما كان عصر الفتوح واتسعت رقعة الدولة ودخل جمع غفير من العجم فى الاسلام دعت الحاجة إلى فهم آيات القرآن الكريم . فنهض بهذه المهمة بعض كبار الصحابة من أمثال على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وأنس بن مالك وغيرهم . وصاروا يفسرون القرآن اعتماداً على ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بحسب ما وصل إليه فهمهم ويعتبر هؤلاء الصحابة مؤسسى مدرسة التفسير فى الإسلام . وحاذروهم فى ذلك التابعون مثل سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى رباح (وهؤلاء بمكة) ، وزيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظى (وهؤلاء بالمدينة) ، وعلقمة بن قيس ، ومسروق ، وعمر بن الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة بن دعامة السدوسى (وهؤلاء بالعراق) .

وقد ظل التفسير في عصر الصحابة والتابعين محتفظاً بطابع التلقى والرواية . ولكن في عصر التابعين تضخم التفسير بالإسرائيليات والنصرانيات لكثرة من دخل منهم في الإسلام وميل النفوس لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية ونصرانية . ففي تفسير ابن جرير نجد كثيراً من الإسرائيليات من وضع وهب بن منبه (وكان من يهود اليمن وأسلم) ، بينما نجد كثيراً مما يرويه الطبري من النصرانيات من وضع ابن جريح وكان نصراني الأصل .

وقد بدأ تدوين التفسير في القرن الثاني الهجري ، ومن الذين اشتهروا بذلك في هذا العصر يزيد بن هارون السلمي (المتوفى سنة ١١٧ هـ) يشعبة بن الحجاج (المتوفى سنة ١٦٠ هـ) ووکیع بن الجراح (المتوفى سنة ١٩٧ هـ) . ولم يصل إلينا من تفاسير هؤلاء ، وإنما روى ما نقله سنداً اليهم في كتب التفسير المأثورة .

ثم جاء بعدهم من أفرد التفسير بالتأليف وجعله علماً قائماً منفصلاً عن الحديث . ففسر القرآن حسب ترتيب المصحف . وذلك كابن ماجه (المتوفى سنة ٢٧٣ هـ) ، وابن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) . وأبو بكر بن مردويه (المتوفى سنة ٤١٠ هـ) . وتفاسير هؤلاء مروية بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى الصحابة والتابعين وأتباع التابعين فيما يروى من آراء ، واستنباط بعض الأحكام ، والإعراب عند الحاجة ، كما فعل ابن جرير الطبري .

ثم اتسعت العلوم ، وتم تدوينها ، وتشعبت فروعها ، وكثر الاختلاف ، وأثيرت مسائل الكلام ، وظهر التعصب المذهبي ، واختلطت علوم الفلسفة العقلية بالعلوم النقلية . وحرصت الفرق الإسلامية على دعم مذاهبها فأصاب التفسير من هذا الجو غباره ، وأصبح المفسرون يعتمدون في تفسيرهم على الفهم الشخصي ويتجهون اتجاهات متعددة . وتحكمت فيهم المصطلحات العلمية ، والعقائد المذهبية ، والثقافة الفلسفية . واهتم كل واحد من المفسرين بحشوه بما برز فيه من العلوم الأخرى . فصاحب

العلوم العقلية يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، كفخر الدين الرازى ، وصاحب الفقه يعنى بالفروع الفقهية ، كالجصاص والقرطبى . وصاحب التاريخ يعنى بالقصاص والأخبار . كالثعلبى والخازن . وصاحب البدعة يؤول كلام الله على مذهبه الفاسد ، كالرمانى والجبائى ، والقاضى عبد الجبار والزمخشرى من المعتزلة ، وصاحب التصوف يستخرج المعانى الإشارية ، كابن عربى ، وهكذا .

وهكذا أصبحت كتب التفسير تحمل فى طياتها الغث والسمين ، والنافع والضار ، والصالح والفاسد ، وحمل كل مفسر آيات القرآن ما لا تتحمله انتصاراً لمذهبه ورداً على خصومه . وبذلك طغى التفسير بالرأى علم التفسير بالأثر . وتدرج التفسير فى العصور المتأخرة على هذا النمط .

أشهر كتب التفسير :

يمكن أن نصنف كتب التفسير إلى ثلاثة أنواع رئيسة هى :

التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى ، والتفسير الحديث .

فأما التفسير بالمأثور فهو تفسير القرآن بالقرآن ، أو بالسنة ، لأن جاءت مبيّنة له ، أو بما روى عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله ، بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة . وهذا النوع من التفسير هو الذى يجب اتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة

ومن أشهر كتب التفسير بالمأثور الآتى :

١ - (تفسير جامع البيان فى تفسير القرآن) للطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) ويعتبر المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير بالمأثور ، ويقع فى ثلاثين مجلداً . ويمتاز بمادته التاريخية .

٢ - (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) يقع فى أربعة أجزاء ويمتاز بأنه ينبه فى كثير من الأحيان إلى ما فى التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات .

وأما التفسير بالرأى فهو ما يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأى المجرد . والرأى المجرد الذى لا شاهد له مدعاة للشطط فى كتاب الله . وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذا الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين ، لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم ، وقد صنّفوا تفاسير على أصول مذهبهم . وتفسير القرآن بمجرد الرأى والاجتهاد من غير أصل لا يجوز تعاطيه لقوله تعالى : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) (١) ولقول رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : (مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) وفى لفظ : (مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ) . ومن أشهر كتب التفسير بالرأى ما يأتى :

١- (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازى (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) ويقع فى ثمانية مجلدات . وتجد فى هذا التفسير أثر الفلسفة واضحة . ويهتم الرازى ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره ويكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والفلسفية . وهذا الكتاب يعتبر موسوعة علمية فى علم الكلام وفى علوم الكون والطبيعة ، وبهذا فقد أهميته كتفسير للقرآن الكريم .

٢- (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) لجار الله الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) وهو تفسير لغوى لفظى . فقد كان الزمخشري عالماً عبقرياً فذاً فى النحو واللغة والأدب والتفسير . وأراؤه فى العربية يستشهد علماء اللغة بها لأصالتها ودقتها . وقد جاء كتاب (الكشاف) للزمخشري مدعماً لوجهة نظر المعتزلة التى اعتقدها .

٣- (البحر المحيط) لأبى حيان الأندلسى الغرناطى ويقع فى ثمانية مجلدات كبار . وهذا الكتاب أقرب إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير إذ توسع أبو حيان فى مسائل النحو والخلاف بين النحويين .

٤- تفسير الجلالين وهما جلال الدين المحلى (توفى سنة ٨٦٤ هـ) وتلميذه جلال الدين السيوطى (توفى سنة ٩١١ هـ) وهو تفسير مبسط .

(١) من الآية (٣٦) من سورة الاسراء.

وأما التفسير الحديث فهو الذى بدأ فى الظهور منذ عصر النهضة الحديثة . علماً بأن بعض التفاسير الحديثة بها خلط وإساءة بالغة للقرآن مثل كتاب (الجواهر فى تفسير القرآن) للشيخ طنطاوى جوهرى . فالمفسر يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون الفيلسوف الأغرقي وعن إخوان الصفا فى رسائلهم ويستخدم الرياضيات ويفسر الآيات تفسيراً يقوم على نظريات علمية حديثة . هذا بينما هناك بعض كتب حديثة للتفسير تعتبر بحق مفخرة للثقافة الإسلامية المعاصرة لاهتمامها بالمأثور عن سالف الأمة ، ولحاولتها شرح المعانى العظيمة لكتاب الله بلغة العصر دون المساس بجوهره . من هذه التفاسير النفيسة فى العصر الحديث (تفسير المنار) للسيد محمد رشيد رضا و (ظلال القرآن) للشهيد سيد قطب و (التفسير البيانى للقرآن الكريم) للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) .

ثانياً - علوم السنّة :

تعريفها :

يراد بالسنّة أو الحديث ، وهما كلمتان مترادفتان ، كل ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير .

فأما القول فهو أحاديثه صلى الله عليه وسلم التى قالها فى مختلف الأغراض والمناسبات كقوله : (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى) ، وقوله : (مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ) ، وقوله (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ) .

وأما الفعل فهو أفعاله صلى الله عليه وسلم التى نقلها إلينا الصحابة رضوان الله عليهم ، مثل وضوئه ، وأدائه الصلوات الخمس بهيئاتها وأركانها ، وأدائه مناسك الحج ، وقضائه باليمين والشاهد ، وما إلى ذلك

وأما التقرير فهو كل ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال بسكوت منه وعدم إنكار أو بموافقته وإظهار استحسانه وتأييده ، فيعتبر ما صدر عن الصحابة بهذا الإقرار والموافقة صادر عنه صلى الله عليه

وسلم . فمن ذلك إقراره عليه الصلاة والسلام لاجتهاد الصحابة حين قال لهم : (لا يُصَلِّينَ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ) . ففهم فريق منهم هذا لنهى على حقيقته فأخروها إلى ما بعد المغرب وقال (لا نصلى حتى نأتيها) ، وفهمه الفريق الآخر على أن المقصود حث الصحابة على الإسراع فصلاها في وقتها . وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما فعل الفريقان فأقرهما ولم ينكر على أحدهما . ومن ذلك أيضاً إقراره عليه الصلاة والسلام لطريقة معاذ بن جبل رضى الله عنه حينما بعثه إلى اليمن إذ قال له : (كيف تقضى إذا برض لك قضاء ؟) . قال : أقضى بكتاب الله .

قال : (فإن لم تجد في كتاب الله ؟) قال : فبسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : (فإن لم تجد في كتاب الله ولا في سنّة رسول الله ؟) .

قال : أجتهد رأيي ولا ألو ، (أى ولا أقصر) . فضرب النبي عليه صلاة والسلام صدره وقال : (الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ما يرضى الله) .

وكان الصحابة يعاشرهم النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون قوله يشاهدون عمله ، ويحدثون بما رأوا وما سمعوا . وجاء التابعون بعد عاشرهم الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ، فكان من الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحديث » .

أهمية الحديث ومكانته :

وللحديث النبوى قيمة كبرى فى الدين تلى رتبة القرآن . فكثير من آيات القرآن مجملة أو مطلقة أو عامة . فجاء قول رسول الله أو عمله فبينها أو يدها أو خصصها . فالقرآن ، مثلاً لم يبيّن تفاصيل الصلاة ، إنما أمر بها جملة . وفعل النبي صلى الله عليه وسلم أوضح أوقاتها وكيفياتها . كذلك كانت تعرض للنبي صلى الله عليه وسلم حوادث يقضى فيها ، وأسئلة يجيب عنها ، ومبادلة أخذ وعطاء وتصرف فى الشؤون السلمية والحربية . كل هذه كانت تنزل بحقها أحياناً آيات قرآنية ، وأحياناً لا تنزل . وهذا النوع الثانى الأول مرجع للمشرعين فاقتضى ذلك جميعه العناية بالحديث ، لأن السنّة

تفسر القرآن وتدل عليه وتعبر عنه .

تدوين الحديث :

بدأت كتابة الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن قبل بعض الصحابة . غير أن ذلك التدوين كان يجري على نطاق ضيق للغاية . فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : (لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه ، وحديثوا عني ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) . ثم أذن عليه الصلاة والسلام إذنا عاماً حين نزل أكثر الوحي وحفظه الكثيرون وأمن اختلاطه بسواه فقال عليه السلام : (قيّدوا العلم بالكتاب) . وحفظ عنه صلوات الله عليه المنع من كتابة أحاديثه بوجاهة عام ، لأن كلامه كان موجهاً إلى عامة أصحابه ، وفيهم الثقة والأوثق والصالح والأصلح ، والضابط والأشد ضبطاً ، والحافظ والأمتن حفظاً وأذن في الوقت نفسه لبعض أفرادهم إذناً خاصاً ، لتظاهر الكتابة الحفظ إن كانوا ضابطين أو تساعدهم على زيادة الضبط إن خيف نسيانهم ولم يوثق بحفظهم . فكان إذنه لهؤلاء وأولئك أشبه بالاستثناء الذي خص به نفرًا من أصحابه لأسباب وجيهة قدر عليه الصلاة والسلام أهميتها تبعاً للظروف والأشخاص وقد ترك عدد من الصحابة صحفاً ضاع معظمها ، ومنها أشهرها صحيفة أبي هريرة رضي الله عنه التي وصلت إلينا كاملة شاملاً كما رواها ودونها عنه تلميذه التابعي همام بن منبه (المتوفى سنة ١٠١ هـ) والتي جاءت برمتها في مسند الإمام أحمد وتعداد هذه الصحيفة ١٢٨ حديثاً (١) .

ولقد ظهرت محاولة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتدوين السنة وأشار عليه عدد من الصحابة بذلك . فلبث شهراً يستخير الله في ذلك ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : (إني كنت قد ذكرت لكم من كتب السنن ما قد علمتم . ثم تذكرت ، فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم ، كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإني والله

(١) تعرف صحيفة أبي هريرة باسم (الصحيفة الصحيحة) . وقد عثر عليها في مخطوطتين متمثلتين في دمشق ، ومن صحف الحديث المدونة في عهد النبوة : صحيفة سعد بن عباد الأصبغ وصحيفة جابر بن عبد الله وصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص المعروفة باسم (الصحيفة الصادقة) والتي اشتملت على ألف حديث كما يقول ابن الأثير .

ليس كتاب الله بشيء أبداً) . وهكذا ترك عمر كتابة السنن .

غير أن كتابة السنن دخلت طور التنفيذ الفعلي بعد عهد الخلفاء الراشدين وبالذات في جيل التابعين . وكان ذلك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . فقد خشى هذا الخليفة الراشد اندراس السنة ، وخاصة بعد أن تسرب الوضع إليها بتأثير عوامل مختلفة لعل من أخطرها الخلافات السياسية بين الجماعات الإسلامية كذلك التي كانت بين العلويين الأمويين ، فأمر هذا الخليفة الأموي بجمعها على أيدي كبار علماء التابعين ، وأمر المسئولين في مختلف أقاليم الدولة الإسلامية بالاعتناء بالحديث الشريف وتشجيع العلماء على عقد حلقات دراسته في المساجد . كان أول من استجاب لدعوة عمر بن عبد العزيز في تدوين الحديث عالم لحجاز والشام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المدني (المتوفى سنة ١٢٠هـ) الذي دوّن له كتاباً في ذلك . فغداً عمر يبعث ، إلى كل ارض من يار الإسلام بدفتر من دفاتر الحديث للزهري . وقد حقّ للزهري أن يفخر عمله قائلاً : (لم يدوّن هذا العلم أحد قبل تدويني) ! وإذن فالمحاولة رسمية لتدوين الحديث إنما كانت في عهد عمر بن عبد العزيز .

فلما جاء العصر العباسي وانتصف القرن الثاني ، بدأ التأليف في الحديث ، كما بدأ في العلوم الأخرى . ووجدت هذه النزعة إلى تدوين الحديث في أمصار مختلفة وفي عصور متقاربة . ففي مكة جمع الحديث ابن جريج - (١٥٠هـ) ، وفي المدينة اثنان : محمد بن إسحاق - (١٥١هـ) ، مالك بن أنس - (١٧٩هـ) ، وبالبصرة ثلاثة : الربيع بن صبيح - (١٦٠هـ) وسعيد بن أبي عروبة - (١٥٦هـ) وحماد بن سلمة - (١٧٦هـ) ، وبالكوفة سفيان الثوري - (١٦١هـ) ، وبالشام الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، وباليمن معمر بن راشد - (١٥٢هـ) ، وبخراسان عبد الله بن المبارك - (١٨١هـ) ، وبمصر الليث بن سعد - (١٧٥هـ) . ولم يصل إلينا من هذه المجموعات إلا موطأ مالك . وكان لغرض الأول من جمع الأحاديث في عصر التابعين هذا ، خدمة التشريع تسهيل استنباط الأحكام من الأحاديث . فالموطأ مرتب ترتيباً فقهيّاً . وإذن

فميزة التدوين ، في هذا العصر ، أن الحديث كان ممزوجاً غالباً بفتاوى الصحابة والتابعين .

وفي عصر أتباع التابعين ممن كانوا على رأس المائتين عنى العلماء بتأليف المسانيد خالية من فتاوى الصحابة والتابعين ، مقصورة على السنة النبوية وحدها . وأول من ألف تلك المسانيد أبو داود الطيالسي (٢٠٤ هـ - ٢٤١ هـ) . ويعتبر مسند أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ - ٢٤١ هـ) أوفى تلك المسانيد . وأوسعها ، إلا أن الإمام معدود من أتباع أتباع التابعين ، لأن وفاته بعد العشرين والمائتين للهجرة النبوية .

ويبلغ تدوين الحديث عصره الذهبي في جيل أتباع أتباع التابعين أو في القرن الثالث . ففي هذا العصر ظهرت الكتب الست الصحيحة أو كتب الصحاح كما تعرف عادة ، وهي : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم وسنن أبي داود ، والمجتبى للنسائي ، وجامع الترمذي ، وسنن ابن ماجه وكان أول من صنف في الحديث الصحيح الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ - ٢٥٦ هـ) ، ثم الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (٢٠٤ - ٢٦١ هـ) ، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) ، وأبو عيسى محمد بن عيسى بن سور الترمذي (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ) ، وأحمد بن شعيب الخراساني النسائي (٢١٥ - ٢٠٣ هـ) ، ثم ابن ماجه ، وهو عبد الله بن محمد بن يزيد بن عبد الله بن ماجه القزويني (٢٠٧ - ٢٧٣ هـ) . وقد خدمت هذه الكتب بالشرح والتهديب والاختصار والاستخراج عليها من قبل العلماء الذين جاءوا بعدهم . فقد جمع الحميدي (٤٤٨ هـ) الصحيحين (البخاري ومسلم) على ترتيب المسانيد ، وابن الأثير الكتب الستة بترتيب الأبواب والهيثمي ما زاد عن الكتب الستة من المصنفات المشهورة في مجمل الزوائد ، وأخيراً السيوطي (٩١١ هـ) الكتب الستة والمسانيد العشرة وغيرها في جمع الجوامع المعروف باسم الجامع الكبير .

وهكذا مرّ الحديث النبوي الشريف بمراحل طويلة حتى وصل إلينا محرراً مضبوطاً . وقد أدت الرحلات التي قام بها رواة الحديث في أرجاء

العالم الإسلامي بحثاً عن الأحاديث الصحيحة إلى طبع الحديث بطابع مشترك تتماثل فيه النصوص والتشريعات . ولا ريب أن كثيراً من المبالغات تحف أخبار الرحالين في طلب الحديث ، وإن كان لا بد أن يكون لها في أصلها سند صحيح . فهذا أحمد بن الفرات (- ٢٥٨ هـ) يخبر بنفسه بأنه كتب عن ألف وسبع ومائة شيخ (على حين لم نعرف من أسماء شيوخ الإمام البخاري الذين تلقى عنهم وأخذ من أفواههم ، عتد جمع صحيحه ، لا ألفاً وزيادة . وقالوا في أبي عبد الله بن منده (- ٣٩٥ هـ) إنه ختام راحلين لأنه لما رجع من الرحلة الطويلة كانت كتبه عدة أحمال حتى قيل إنها أنت أربعين حملاً . ولم يقف أثر هذه الرحلات عند حد التشابه بين نصوص حديث أو التوحيد بينها ، بل تعداه إلى وحدة التشريع ووحدة الاعتقاد . من هذا الحديث استنبط العلماء كثيراً من المسائل الفقهية التي صدروا بها عن سماحة الإسلام في معالجة الضمير البشري وتعويله على القلوب لسرائر لا على الصور والأشكال . وهكذا كان لرحلات العلماء في طلب حديث أثر بعيد في المحافظة على السنّة وجمعها وانتشارها ، إضافة إلى سماع دائرة الفقه الإسلامي وتشعب فروعه وإرساء أصوله . ولئن نشأ فقه في ظل الحديث ثم أضحي جزءاً لا يتجزأ من كله الكبير ، فقد وجد تفسير أيضاً طريقه في رحاب الحديث حين عوّل المفسرون على السنّة النبويّة ، تأويل كتاب الله . وظل التفسير بعد ذلك ، كالفقه ، جزءاً من الحديث حتى استقلّ علماً قائماً بذاته له مناهجه وأصوله ، ولكنه على استقلاله ، ما فكّ شديد الارتباط بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما التفسير بالمأثور . وهكذا نشأت عن الحديث علوم كثيرة ، وكذلك نشأت عن لتفسير نفسه علوم كثيرة أيضاً .

علوم الحديث :

كان من أثر الجهود العظيمة التي بذلها المسلمون في عهود مختلفة في سبيل جمع الحديث وتدوينه قيام علوم كثيرة حول الحديث النبوي لم يحظ بمثلها علم من العلوم أو قانون من القوانين . فنشأ علم مصطلح الحديث ، وعلم الجرح والتعديل ، وعلم الرجال أو تاريخ الرواة ، وعلم أصول

الحديث ، وعلم غريب الحديث ، وعلم ناسخ الحديث ومنسوخه ، وعلم علل
الحديث ، وعلم مختلف الحديث ومشكله ، وعلم ورود الحديث ، وغيرها من
العلوم التي خدمت السنّة النبويّة وتكفلت ببيانها ، فمازت الصحيح من
الضعيف ، والسليم من العليل ، والمقبول من المردود ، والمرفوع من
الموقوف ، والدخيل من الأصيل .

ولم يكن جمع الحديث ونقله جمعاً اتفاقياً عادياً ، بل جمع ونقل
بالكتابة والرواية على مختلف صورها ، على أسلم القواعد العلمية . فما كان
يقبل الحديث إلا إذا توفرت في حامله شروط دقيقة نصّ عليها العلماء وبسطوا
القول فيها في كتب أصول الحديث . وقد نشأت جميع هذه العلوم في أوقات
متقاربة كل علم منها يساعد الآخر . ونقدم فيما يلي نبذة موجزة عن ثلاثة من
أهم هذه العلوم ، وهي : علم مصطلح الحديث ، وعلم رجال الحديث
وعلم الجرح والتعديل .

١ - علم مصطلح الحديث :

وهو العلم الذي يعنى بدراسة أقسام الحديث أو مصطلحاته من
ناحيتين اثنتين هما : من حيث عدد نقلته ، ومن حيث القبول والرد .

أ - أقسام الحديث من حيث عدد نقلته :

ينقسم الحديث باعتبار نقلته ثلاثة أقسام هي : الحديث المتواتر
والحديث المشهور ، والحديث الأحادي .

١ . الحديث المتواتر : وهو ما رواه جمع لا يتوهم تواطؤهم على
الكذب من أول السند (بمعنى سلسلة أسماء الرواة) إلى منتهاه كحديث
(مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) وحديث (إِنَّمَا الْأَعْمَاءُ
بِالنِّيَّاتِ) . وهذا النوع من الحديث قطعي الثبوت ، يجب العمل به ، ويكف
جاحده ، والتواتر أعلى مراتب النقل .

٢ . الحديث المشهور : وهو ما رواه من الصحابة عدد لا يبلغ

تواتر ثم تواتر بعد الصحابة ومن بعدهم . وأقل ما تثبت به الشهرة ثلاثة رواة . والمشهور دون المتواتر ، وهو يوجب علم طمأنينة (عند الحنفية) أى لنا قريباً من اليقين فيجب العمل به ، لكنه لا يكفر جاحده كحديث (إن الله يقبض العلم انتزاعاً ..) وحديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم) . عند علماء السنة يجب العمل به وعدم مخالفته .

٣ . الحديث الأحادي أو خبر الأحاد : وهو ما رواه الواحد أو الاثنان فأكثر مما لم تتوفر فيه شروط المتواتر أو المشهور . فلا يفيد الأحادي أنه خبر الواحد دائماً . وحكمه وجوب العمل به ، متى توفرت فيه شروط لقبول ، وعلى هذا جمهور علماء المسلمين .

ب - أقسام الحديث من حيث القبول والرد :

ينقسم الحديث من حيث قبوله أو رفضه إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي :
لحديث الصحيح ، والحديث الحسن ، والحديث الضعيف .
١ . الحديث الصحيح :

هو ما احتوى على اتصال السند (١) والعدالة (٢) والضبط التام (٣) وخلا من الشذوذ والعلل الفادحة . ومراتب الحديث الصحيح تتباعد في لفضل وتتفاوت في الدرجة كما يبدو وتفاوته في الإسناد والمتن أيضاً . ويعرف لتفاوت في الإسناد بقول أئمة المحدثين بأن إسناده من أصح الأسانيد . أما المتن فيعرف التفاوت فيه باتفاق الشيخين البخاري ومسلم عليه ، واتفاقهما على حديث يجعله أعلى رتبة ويليه في الرتبة ما انفرد به البخاري وحده ثم ما انفرد به مسلم ثم ما كان على شرط البخاري ثم ما كان على شرط مسلم ثم ما كان على شرط أحد رجال الصحاح الستة .

٢ . الحديث الحسن :

هو ما اتصل سنده بنقل عدل ضابط قلّ ضبطه بالنسبة إلى راوي الحديث الصحيح وسلم من الشذوذ والعلل الفادحة . والحسن كالصحيح في تفاوت المراتب إسناداً بقول أئمة الحديث وهو « أحسن الأسانيد » ، وما

(١) يروى باتصال السند أن يكون كل راو قد سمع الحديث ممن فوقه بحيث لا يروى فيه أحد عمّن لم يسمع منه مباشرة .

(٢) تعنى العدالة مجموعة الصفات التي تشترك في تكوين الثقة بصدق الراوي كحسن العقيدة ، والقيام بأوامر الله ، واجتناب ما نهى عنه ، وترك كل ما يخل بالمرءة ، والاتصاف بالورع والتقوى ومحاسن الأخلاق .

(٣) يقصد بالضبط كمال الملكات العقلية كالنباهة ، وعدم الغفلة ، واليقظة ، وحسن الفهم ، والحفظ ، والمعرفة .

نزلت رتبته عن ذلك فهو أدناها . كما يعرف أعلاها في الرتبة متنا باختلاف الأئمة المحدثين في صحته وحسنه ، وأدناها هو ما اختلف الأئمة في صحته وضعفه .

٣ . الحديث الضعيف :

هو ما انحط عن رتبة الصحيح والحسن وفقد وصفاً أو أكثر من أوصاف القول . وقد أوصل علماء الحديث أنواعه إلى (٢٨٠) ثمانين وثلاث مئتين نوعاً ، منها المقطوع والنازل والغريب وغير ذلك . وتتفاوت درجاته في الضعف بحسب بعده عن شروط الصحة وأوصاف القبول . وشر الأحاديث عند العلماء الحديث الموضوع ، ثم المتروك ، ثم المعلل ، ثم المدرج ، والمقلوب ، والمضطرب . وقد أجاز العلماء العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال كالترغيب والترهيب بشرط أن لا يشتد ضعفه ، ولكنه لا يحتج به في الأحكام الشرعية . وهذا مثال للحديث الضعيف : (مَنْ حَفِظَ عَلَيَّ أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا مِنْ أَمْرِ دِينِنَا بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَةِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ) .

٢ - علم رجال الحديث :

هو العلم الذي يُعَرَّفُ برواة الحديث من الناحية التي تتعلق بروايتها للحديث . فهو يتناول بالبيان أحوال الرواة ، فيذكر تاريخ ولادة الراوي ووفاته ، وشيوخه وتاريخ سماعه منهم ، ومن روى عنه ، وبلاده ومواطنهم ، ورحلات الراوي ، وتاريخ قدومه إلى البلدان المختلفة ، وسماعه بعض الشيوخ قبل لقياهم أم بعده ، وغير ذلك مما له صلة بأمور الحديث . فهذا العلم ، إذن ، ذو طبيعة تاريخية . من هنا كانت تسميته أيضاً (علم تاريخ الرواة) . كما أطلق عليه كذلك (علم التاريخ) ، و (تاريخ الرواة) ، و (وفيات الرواة) ، و (التواريخ والوفيات) .

وقد نشأ هذا العلم مع نشأة الرواية في الإسلام ، واهتم العلماء به ليتمكنوا من معرفة رجال الأسانيد وليثبتوا من صحة ما يدعيه الرواة من سماع . وكان التاريخ خير سلاح يتسلح به العلماء تجاه الكذابين . قال

الرسفیان الثوری : (لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ) .

وكان من آثار هذا النشاط العلمي ظهور المصنفات العديدة في تراجم الرجال وأخبارهم . فمنهم من صنّف على الطبقات ، فتناول أحوال الرواة طبقة طبقة ، والطبقة تمثل جماعة من الرواة عاشوا في عصر واحد تقريبا . أقدم كتب الطبقات : الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (٢٣٠ هـ) ، ومنهم من صنّف على السنين ، فيذكر سنة وفاة الراوى ، ويترجم له ، ويذكر أخباره ، وواضح هذا في تاريخ الإسلام للذهبي . ومن العلماء من صنّف تاريخ الرواة على حروف المعجم ، وهذا لنوع أسهل تناولا للباحثين ، ومن أقدم ما وصلنا من هذا النوع التاريخ الكبير للبخارى . ومن أجمع كتب تراجم رواة الحديث كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى (٨٥٢ هـ) ويقع في اثني عشر مجلداً . هذا سوى ما صنّفوا على البلدان ، فمن ذلك ، مثلا : تاريخ نيسابور للإمام الحاكم النيسابورى (٤٠٥ هـ) ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى وهو من أجلّ الكتب وأغزرها فائدة (٤٦٣ هـ) ، وتاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر الدمشقى (٥٧١ هـ) .

كما وضعت مصنفات في أسماء الرواة وكناهم وألقابهم وأنسابهم ، وفي المؤتلف والمختلف من الأسماء والألقاب ، والكنى والأنساب ، وفي الأخوة والأخوات ، وفي المعمرين من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وفي المشتبه من أسماء الرواة ، وغير ذلك من المصنفات التى تدل على اهتمام المحدثين العظيم بهذا العلم كما تدل على رسوخ قدمهم في هذا الشأن .

ولم يقتصر اهتمام العلماء على تاريخ أحوال الرجال من رواة الحديث ، بل أرّخوا للرواة من النساء أيضاً . فلم يفت المؤرخ الثقة محمد ابن سعد أن يخصص المجلد الأخير من طبقاته الكبرى للنساء وتبعه المصنفون على ذلك . وهذا من أوضح الأدلة على إسهام المسلمين رجالهم ونسائهم في بناء تراث الإنسانية يوم لم تكن في العالم مدنية مزدهرة إلا في بلاد الإسلام .

٣ - علم الجرح والتعديل :

هو علم يبحث عن الرواة من حيث ما ورد في شأنهم بقصد تمييز الحديث الصحيح من السقيم والمقبول من المردود .

وقد نشأ هذا العلم ذو الطبيعة الانتقادية مع نشأة الرواية في الإسلام ، إذ كان لا بد لمعرفة الأخبار الصحيحة من معرفة رواتها معرفة تمكن أهل العلم من الحكم بصدقهم أو كذبهم حتى يتمكنوا من تمييز المقبول من المردود . لذلك سألوا عن الرواة ، وتتبعوهم في مختلف أحوالهم العلمية ، وعرفوا جميع أحوالهم ، وبحثوا أشدّ البحث حتى عرفوا الأحفظ فالأحفظ ، والأضبط فالأضبط ، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة . وقد وصلنا كثير من أقوال الصحابة رضی الله عنهم في هذا المجال . وتكلم بعد الصحابة في الرجال التابعون وأتباعهم وأهل العلم من بعدهم . وكانوا يبينون أحوال الرواة وينقدونهم ويعدلونهم حسبة الله ، لا تأخذهم خشية أحد ولا تتملكهم عاطفة . فليس أحد من نقاد الحديث ورجالہ يحابي في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّاً كانت قرابته له . وقد قصد الجميع خدمة الشريعة ، وحفظ مصادرها ، فصدقوا القول وأخلصوا النية .

وقد أكد العلماء ضرورة بيان أحوال الرواة ، وأنه ليس في هذا غيبة بل في ذلك حفظ السنّة ، وصيانتها عن الدخيل ، وبيان الصحيح من الضعيف ، والمقبول من المردود .

وقد وضع علماء الجرح والتعديل في بحث أحوال الرواة ونقدها منهجاً علمياً موضوعياً يستند إلى القواعد الآتية :

١ . الأمانة والنزاهة في الحكم : فكانوا يذكرّون للراوى ما له وم عليه ، من هذا قول محمد بن سيرين (- ١١٠ هـ) : (ظلمت أخاك إذ ذكرت مساوئه ولم تذكر محاسنه) .

٢ . الدقة في البحث والحكم : فكثيراً ما كان علماء الجرح والتعديل يميزون بين من كان ضعف روايته ناشئاً عن وهن في دينه ومن كان ضعف ناشئاً عن الحفظ والإتقان

٣ . التزام الأدب في الجرح : فلم يخرج علماء الجرح والتعديل عن أدب البحث العلمي الصحيح في نقدهم واجتهادهم . وأقصى ما يروى عنهم نولهم فلان وضاع أو كذاب فيمن يضع الحديث أو يكذب فيه ، وهو وصف لا يعدو الحقيقة . بل بعضهم يجتنب ذكر مثل هذه الأوصاف ويكتفى عنها بما يدل عليها كقولهم (لم يكن مستقيم اللسان) ونحو هذا .

٤ . الاجمال في التعديل والتفصيل في التجريح : فلم يحاول أئمة الجرح والتعديل أن يذكروا أسباب تعديلهم الرواة . فلا يقولون فلان ثقة أو يدل لأنه يصلي ويصوم يجتهد ولا يؤذى الناس ، مثلاً ، بل يقولون ثبت ثقة وصدوق من غير أن يبينوا أسباب ذلك . ذلك لأن أسباب العدالة كثيرة يثقل على المرء ذكرها جميعها ، بخلاف الجرح فغالباً ما يبينون سبب جرح الرواة من غفلة أو كثرة وهن أو عدم ضبط أو كذب وفسق وغير ذلك . لأنه يكفي ذكر سبب واحد قادح في عدالة الراوى أو حفظه ليجرّحه .

وقد تكلم في علم الجرح والتعديل كثيرون منذ عهد الصحابة إلى لتأخرين من المشتغلين بعلوم الحديث .

فمن الصحابة : ابن عباس (- ٩٦ هـ) وأنس بن مالك (- ٩٣ هـ) (-) رضى الله عنهم أجمعين .

ومن التابعين : الشعبي (- ١٠٤ هـ) وابن سيرين (- ١١٠ هـ) .
وفي آخر عصر التابعين : الأعمش (- ١٤٨ هـ) ومالك (- ١٧٩ هـ) .

ويلي هؤلاء طبقة منها : ابن المبارك (- ١٨١ هـ) وابن عيينة (- ١٩١ هـ) . ويبلغ هذا العلم الذروة عند يحيى بن معين (- ٢٣٢ هـ)
ابن حنبل (- ٢٤١ هـ) .

ومن الكتب الجامعة في الجرح والتعديل طبقات ابن سعد للزهري البصرى (- ٢٢٠ هـ) ويقع في ١٥ مجلداً . وللبخارى (- ٢٥٦ هـ) تواريخ ثلاثة فيها تعديل وتجريح هي : التاريخ الكبير ، والتاريخ الأوسط ، والتاريخ الصغير ، هذا بالإضافة إلى مصنفاة الكثيرة الأخرى وأعلاها منزلة (الجامع الصحيح) الذى هو أصح الكتب بعد القرآن المجيد .

ثالثا - العلوم الفقهيّة :

يتناول الفقه الإسلامى الحياة الانسانية ، الدينية والسياسية والقانونية والاجتماعية بمعناها الواسع ، حياة المسلم كافة وحياة غير المسلم من أهل العهد والذمة فى حدود خاصة ، بحيث لا تتعارض حياتهم فى مظاهرها الخارجية مع الإسلام بشكل ما .

وهكذا فقد ألبس الدين كل شىء من أمور المسلمين ثوب التشريع . وأخذ المسلمون منذ عصر الرسالة فى تنمية هذا التشريع حتى وصل إلى بنا هائل منظم لكل أنواع المعاملات والعلاقات الإنسانية للمسلمين تنظيم دقيقاً . وأصبحت القوانين كلها تبعاً لهذا المبدأ الذى لا يفرق بين أمور الدين والدنيا فقهاً دينياً إلهياً . ومن هنا يختلف الفقه الإسلامى عن سائر التشريعات الوضعية التى لا تستند أحكامها إلى فكرة الحلال والحرام .

معنى الفقه وأصول الفقه :

يراد بالفقه مجموعة الأحكام المشروعة فى الإسلام التى تعلق مشروعيتها بطريق النص الصريح فى القرآن ، أو بيان الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته ، أو بطريقة إجماع المسلمين ، أو باستنباط الفقهاء المجتهدين سابقاً ولاحقاً من دلائل نصوص القرآن والسنة وقواعد الشريعة ومقاصدها .

أما أصول الفقه فهو القواعد التى يتوصل بها لاستنباط الأحكام الشرعية من الأدلة .

والأحكام الشرعيّة أو الفقهية سبعة أقسام هى : العبادات (صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد) ، والمعاملات (كالبيع والشراء والاجارة والقروض والرّبا) ، والأسرة ، أو الأحوال الشخصية (كالنكاح والطلاق والنفقة والميراث والنسب) . والعقوبات (لمعاقبة المجرمين وحفظ الأمان الداخلى) ، والأحكام السلطانية أو السياسة الشرعية (الأحكام المتعلقة بسلطان الحاكم على الرعية وبال حقوق والواجبات المتقابلة بينهما) ، والسّلام (بكسر السين وفتح الياء) ، أو نظام السلم والحرب ، والاصطلاحات

القانونى المعاصر لتلك الحقوق الدولية ، والآداب (الأحكام المتعلقة بالأخلاق والحشمة والمحسن والمساوى) .

مصادر الفقه :

عدّ العلماء مصادر الفقه ، أى منابعه التى يستقى منها ، أربعة هى :

١ . الكتاب : وهو كتاب الله تعالى وقرآنه الذى نزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهو الأصل الأول فى التشريع الإسلامى . فقد بُيِّنَتْ فيه أسس الشريعة وأوضحت معالمها فى العقائد تفصيلاً وفى العبادات والحقوق إجمالاً . على أن القرآن قد تناول تفصيل جزئيات الأحكام فى بعض الموضوعات ، كما فى المواريث ، وكيفية اللعان (المباهلة) بين الزوجين ، وحدود بعض العقوبات ، والنساء المحارم فى النكاح .

٢ . السنّة : فهى ، كما تقدم ذكره ، كل ما جاء منقولاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير . والسنّة تلى كتاب الله بوصفها مصدراً تشريعياً مبيّناً وتابِعاً للكتاب ، ومن هنا كان تشدد العلماء فى قبول الأحاديث وتجريحهم لرواة الحديث لتمييز الصحيح من السقيم لما لذلك من أهمية بالغة فى إصدار الأحكام الشرعية ، حيث إن السنّة هى المصدر الثانى للتشريع .

٣ . الإجماع : هو اتفاق المجتهدين فى أى عصر على حكم شرعى . والإجماع حجة قوية فى إثبات الأحكام الفقهية ومصدر يلى السنّة الشريفة فى الرتبة . وقد كان الإجماع فى زمن الخليفتين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما سهلاً ميسوراً ، لأن عمر فى خلافته منع الصحابة رضوان الله عليهم أن يخرجوا من المدينة لتمكنه مشاورتهم فيما يحدث من أمور العلم أو السياسة . ولكنهم تفرقوا بعد ذلك فى أواخر خلافة عثمان فى الأمصار ونشأ على أيديهم علماء وفقهاء فى الحجاز والعراق والشام واليمن ومصر وغيرها فلم يمكن بعد ذلك تحقق إجماع من المجتهدين لانقطاع إمكان الشورى العلمية العامة ، ولأن اتفاق علماء بلد واحد على حكم لا يعتبر

إجماعاً . فالإجماع ، إذن ، قد اقتصر ، من الناحية التاريخية ، على فترة الخلافة الراشدة .

٤ . القياس : هو إلحاق أمر بآخر في الحكم الشرعي لاتحاد بينهما في العلة. والقياس يأتي في المرتبة الرابعة بعد الكتاب والسنة والإجماع من حيث حجيته . ولكنه أعظم أثراً من الإجماع في كثرة ما يرجع إليه من أحكام الفقه ، لأن مسائل الإجماع محصورة ولم يتأت فيها زيادة ، لانصراف علماء المسلمين في مختلف الأقطار عن مبدأ الشورى العلمية العامة ، ولتعذر تحققه بمعناه الكامل فيما بعد العصر الأول كما أوضحناه . أما القياس فلا يشترط فيه اتفاق كلمة العلماء . بل كل مجتهد يقيس بنظره الخاص في كلِّ حادثة لا نصَّ عليها في الكتاب أو السنة ، ولا إجماع عليها . وواضح فإن النصوص في الكتاب والسنة محدودة متناهية ، والحوادث الواقعة والمتوقعة غير متناهية . فلا سبيل إلى إعطاء الحوادث والمعاملات الجديدة منازلها وأحكامها في فقه الشريعة إلا طريق الاجتهاد بالرأى الذي رأسه القياس . فالقياس أغزر المصادر الفقهية في إثبات الأحكام الفرعية للحوادث .

وقد بعث الخليفة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما - بخطاب يرشده إلى أصول القضاء وطريقته المثلى . وقد ذكرنا طرفاً من هذا الخطاب في موضوع القضاء في باب النظم الإسلامية من هذا الكتاب ، ونرى أن نثبته هنا بنصه لأنه يعد في نظر العلماء دستوراً عظيماً في سياسة القضاء وفقهه : وهذا هو الخطاب :

«بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس .

سلام عليك : أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة .

- فافهم إذا أدلى إليك (أى إقامة الدليل) ، وأنفذ إذا تبين لك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له (أى أتبع القضاء بالتنفيذ حتى يصل صاحب الحق إلى حقه) .

- أس (أى أمر بالمساواة) بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى

لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

– البيّنة على من ادعى ، واليمين على من أنكر .

– والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً .

ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه رشذك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل .

– الفهم الفهم فيما تلجلج (أى تردد أو أشكل) في صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سنّة النبي صلى الله عليه وسلم . ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق .

– واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة ، أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فإن ذلك أنفى للشك ، أجلى للعمى ، وأبلغ في العذر .

– المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلواً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنياً في ولاء أو نسب . فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ (أى دفع ومنع) بالبينات والأيمان .

– وإياك والغلق (بفتحتين ، أى ضيق الصدر من غضب ونحوه) الضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق يعظم الله الأجر ويحسن به الذخر .

فمن صحّت نيّته ، وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ، من تخلق للناس بما يعلم الله ليس من نفسه شأنه الله . فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام .

ويلاحظ أن تلك المصادر الأربعة الأساس للفقهاء الإسلامى لم تنشأ كلها معاً في تاريخ واحد .

فقد كان في عصر الرسالة مرجع الأحكام كلها إلى الكتاب والسنة التي تتجلى في بيان الرسول صلى الله عليه وسلم وأقضيته ، وكل اختلاف فمرده إليه عليه الصلاة والسلام . لذلك لم يكن ثمة مجال لتصور إجماع .

أما القياس ، فقد كان يلجأ إليه بعض الصحابة فيما يحدث لهم وهم بعيدون عن النبي صلى الله عليه وسلم في أسفارهم أو قبائلهم أو أعمالهم ، ويسمونه فهماً ، أو رأياً ، أو اجتهاداً ، ولكنهم لا يلبثون أن يعرضوا أفهامهم واجتهادهم على النبي صلى الله عليه وسلم أول ما يعودون إليه ، فيقرهم أو يخطئهم ويصحح لهم .

أما بعد عصر الرسالة فقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجمعان الصحابة في الحوادث ويشاورانهم . فإن لم يعرف أحد منهم فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم نصاً أو قضاءً واتفقوا فيها على حكم أنه هو مقتضى قواعد الشريعة . عمل الخليفتان بما اتفقوا عليه . وان لم يتفق الصحابة على حكم الحادثة ، اجتهد الخليفتان بأرائهما في الحكم الأصلح والأقرب شبه بأقضية الرسول صلى الله عليه وسلم ، عملاً بدلالة القياس أو المصالح

ثم بعد ذلك حدث في العصور التالية حاجة إلى تعرف ما اتفق عليه فقهاء الصحابة ليتخذ أساساً في فقه الشريعة . ثم ألحق به في الاعتبار ما يتفق عليه الفقهاء التابعون من الثقات المجتهدين ، لأنهم الراسخون في علم الشريعة ومرجع فهمها إليهم . فأصبح الإجماع بعد عصر الرسالة مصادر من مصادر الأحكام . فان لم يحصل هذا الإجماع ، أو لم يثبت نقل وروايته في موضوع ما ، لم يكن بد لكل فقيه أن يلجأ إلى الطريق التي كان يلجأ إليها الصحابة أنفسهم رضوان الله عليهم ، عندما يعوزهم النص وذلك طريق الاجتهاد والرأى الذي سمي فيما بعد قياساً أو استحساناً .

نشأة المذاهب الفقهية الأربعة :

كان لاتساع رقعة الدولة الإسلامية اتساعاً عظيماً وسريعاً ، وامتزاج الحضارات العريضة التي كانت سائدة في بلاد العراق والشام ومصر وفارس بحضارة الإسلام الطالعة أن عرضت للناس وقائع جديدة تستدعى وضوح

بعض التشريعات في المعاملات والحلال والحرام . فنظام الإرواء ، أو الرّى (بكسر الراء) (١) في العراق والشام يخالف رى مصر ، وهذه كلها تخالف رى الجزيرة . وأحوال الزواج والمعاملات والجنايات في البلدان المفتوحة غيرها في مهد الإسلام . ففي كل هذه الأمور وفي كثير غيرها كان لا بد للفقهاء من الاجتهاد . واستتبع ذلك ظهور مدارس أو مذاهب فقهية .

ومن العوامل التي ساعدت على تكوين المذاهب الفقهية تدوين القرآن (كاملاً في عهد عثمان) والسنة (بداية عهد عمر بن عبد العزيز) ، وجمع فقه الصحابة وفتاوى التابعين ، وتصنيف طائفة غير قليلة من العلوم تقوى ملكة الاجتهاد والقياس والاستنباط ، كعلوم اللغة العربية وتفسير القرآن وأدب المناظرة والكلام . أضف إلى ذلك كله تشجيع الخلفاء للحركة الفقهية ، ومؤازرتهم للعلماء ، وعنايتهم بمجالس البحث والنظر ، ورغبة الكثيرين منهم في الجدل العلمى الدقيق .

والمذاهب التي نشأت ، نتيجة لتلك العوامل ، منها الفردية التي انقرضت ولم يكتب لها البقاء ، ومنها الجمعية (٢) التي كونت مدارس ووضعت مناهج للبحث التشريعى العميق .

وقد تمثلت المذاهب الفردية في فتاوى بعض التابعين وأتباعهم ممن لم يتح لهم نشر آرائهم مختلطة بآراء أصحابهم وأتباعهم : كسفيان بن سعيد الثورى ، والليث بن سعد ، والأوزاعى . على حين تمثلت المذاهب الجمعية فيمن نقلت آراؤهم وآراء أصحابهم في مجموعة واحدة ومناهج متشابهة ، منها المذاهب الأربعة (وهى : المذهب الحنفى ، والمالكي ، والشافعى ، والحنبلى) ، وكثير غيرها . وفيما يلي نورد خلاصة عن كل واحد من هذه المذاهب الأربعة :

١ - المذهب الحنفى :

ينسب هذا المذهب إلى إمامه أبى حنيفة النعمان بن ثابت ، وهو

(١) اما الرّى (بفتح الراء) فهى مدينة بإيران ، جنوبى بحر قزوين ولعلها في نفس موقع طهران العاصمة أو هى أساسها .
(٢) نسبة إلى جماعة وليس الجماعية كما هو الشائع خطأ .

فارسي الأصل ويسمى الإمام الأعظم . ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ في عهد عبد الملك بن مروان وتوفي بالسجن في بغداد سنة ١٥٠ هـ في عهد أبي جعفر المنصور ، وكان إمام العراقيين . وقد انتقلت زعامة أهل الرأي إليه ، (١) واستقرت عليه . فقد وطد طريقة الاستحسان ، واشتهر بقوة الحجة وسرعة الجواب المفحم وعبقرية الفهم والاستنباط .

لقد كان أبو حنيفة رحمه الله واسع الاجتهاد . فقد خرج على الناس بمذهب جديد فيه حرية للعقل بكثرة استعمال الرأي والقياس ، وبما استتبع ذلك من كثرة الفروع ورجوعها إلى أصول ، وبمقدرة فائقة في الاستنباط ، وبشجاعة في مواجهة المسائل حتى الفرضية منها والإفتاء فيها ، ويتعرف وجوه الحيل في المسائل ، وبتقريب الفقه إلى الأذهان .

كان أبو حنيفة يأخذ بالرأي عند فقدان النص ، إذ النصوص متناهية بينما الوقائع غير متناهية . غير أنه لم يكن يقدم القياس والنظر على الحديث الصحيح . لكن أصحاب الحديث أفرطوا في انتقاده وتجاوزوا الحد في ذلك . والحق أن أبا حنيفة رد كثيرا من أخبار الآحاد لا سيما إذا عرفنا أن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشا في عهده فشوا مخيفاً فاذا هو يضع شروطاً شديدة للغاية في قبول خبر الآحاد . بل إنه لم يقبل الحديث إلا إذا رواه جماعة عن جماعة أو إذا اتفق فقهاء الأمصار على العمل به .

وقد عرض بعض حكام بني أمية القضاء على أبي حنيفة ، فأبى ، فضرب عدة أسواط ثم حبسوه ، ولكن السوط والحبس لم يحمله على القضاء . ودعاه أبو جعفر المنصور إلى القضاء أيضاً . فأبى ، فحبسه . ثم دعاه فقال له : أترغب عما نحن فيه ؟ فقال أبو حنيفة : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء . فقال له : كذبت . ثم عرض عليه القضاء ثانية فقال أبو حنيفة : قد حكم عليّ أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء لأنه نسبني

(١) من الاعلام المؤسسين لمدرسة أهل الرأي في العراق ، الإمام علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود وعلقمة النخعي ، ومسروق بن الأجدع الهمداني ، والأسود بن يزيد النخعي ، وإبراهيم النخعي ، وحماد بن أبي سليمان أستاذ أبي حنيفة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

إلى الكذب . فان كنت كذاباً فلا أصلح للقضاء ، وإن كنت صادقاً فقد
أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح ، فرده في الحبس الذى كان فيه من قبل
وبقى هناك إلى أن مات .

وأشهر تلاميذ أبى حنيفة اثنان : الأول ، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم
الذى تولى سلطة القضاء فى الدولة العباسية فى عهد الرشيد ، وألف كتاب
الخراج . والثانى محمد بن الحسن الشيبانى ، وهو من عباقرة الفقهاء
الأزكياء ، ومن أئمة اللغة أيضاً . وأبو يوسف ومحمد يلقبان (الصاحبين)
واليهما فى الدرجة الأولى يعود الفضل فى تدوين فقه أبى حنيفة ونشر
مذاهبه (١) .

٢ - المذهب المالكي :

وينسب إلى إمامه مالك بن أنس الأصبحى وكان عالم المدينة وإمام
الحجازيين . ولد رحمه الله بالمدينة سنة ٩٢ هـ وعاش طيلة حياته فيها
ومات سنة ١٧٩ هـ .

ويعتبر مذهبه وسطاً معتدلاً بين أهل الرأى والحديث ، لكثرة استناده
إلى الحديث إذ كانت روايته قد انتشرت ولا سيما فى مدينة الرسول صلى الله
عليه وسلم على أن مالكا يعد إلى جانب ذلك من أهل الرأى ، ومذهبه وأصوله
إلى الرأى أقرب نسباً .

وقد استفاد من مركزه فى المدينة الاتصال الدائم بعلماء الآفاق كلها فى
موسم الحج ، واجتمع فيه إلى أبى حنيفة وناظره وقال عنه (إنه لفقير) .
أدرك الإمام مالك أربعين عاماً فى العهد الأموى من غير أن يُذاع له
حديث ، وظل منقطعاً عن الخلفاء العباسيين لفترة طويلة ولقى منهم ضروب
التعذيب ، فقد ضربه حاكم المدينة بالسياط حتى انخلعت كتفه ، فكان
يستعين على حمل يده اليمنى باليسرى لأنه أفتى بفسادبيعة الخلفاء بالقهر
والإكراه .

(١) يظهر أن أبا حنيفة لم يؤلف فى الفقه . فلم يصلنا من آثاره المدونة فى الفقه شيء ، وكل ما رواه ابن النديم
عن كتبه : كتاب الفقه الأكبر ، ورسالته إلى البستى ، وكتاب العالم والمتعلم ، وكتاب الرد على القدرية .

وكان مالك أول من كتب في العلوم الدينية في العصر العباسي . وكتابه القيم الموطأ ، الذي استغرق في تأليفه أربعين سنة عرضه خلالها على سبعين فقيها من فقهاء المدينة وجمعه من مئة ألف حديث ، يعدّ أول كتاب ظهر في الفقه الإسلامي . وقد روى « الموطأ » عنه أكثر من ألف رجل ، ولذلك اختلفت نسخه فكانت ثلاثين لم يشتهر منها إلا عشرون . ومن كتبه أيضاً : المدونة ، وهي مجموعة رسائل جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابوري وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . وكان مالك يعتمد على الحديث كثيراً لأن بيئته الحجازية كانت تزخر بالعلماء والمحدثين الذين تلقوا الحديث عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وورثوا من السنة ما لم يتح لغيرهم من أهل الأمصار . لقد كان مالك إماماً جليل القدر ، وحسبك قول الشافعي : (مالك حجة الله على خلقه بعد التابعين) !

وقد انتشر مذهب مالك في شمال إفريقيا والأندلس . أما الذين أعانوه على نشر مذهبه في هذه البلاد فأشهرهم عبد الله بن وهب ، وأشهب القيسي ، وعبد الله بن الحكم ، وكلهم مصريون ، وأسد بن الفرات الذي نشأ في تونس ودون فتواه في « المدونة » ، ويحيى بن يحيى الليثي الأندلسي المصمودي الذي نشر هذا المذهب في الأندلس . وممن اشتهر بالفقه من تلاميذ مالك في العراق محمد بن الحسن .

٣ - المذهب الشافعي :

ينسب إلى إمامه محمد بن إدريس الشافعي القرشي . وقد ولد رحمه الله بغزة سنة ١٥٠ هـ ، وربى يتيماً ، ورحل إلى العراق والحجاز ، فأخذ عن أصحاب أبي حنيفة وعن مالك ، ثم استقر في مصر سنة ١٩٩ هـ ، حيث أسس مذهبه الجديد وتوفي بالفسطاط سنة ٢٠٤ هـ .

وللشافعي مذهبان : قديم وجديد . فما وضعه بالعراق من الأحكام هو مذهبه القديم ، وما استقر عليه في مصر هو مذهبه الجديد . وبين المرحلتين تفاوت غير قليل في طريقة الاستنباط والاستنتاج ، ولم يكن بد من هذا بعد أن مارس الشافعي البحث والنظر في مصر ، ورأى في رحلته إليها ما أنضج فكره وأوسع أفقه ، وأنمى معرفته بشئون الفقه والتشريع .

ومع توسط الشافعي بين المغالين في الرأي والمنصرفين عنه ، كان يميل ميلاً صريحاً إلى تأييد أهل الحديث . وقد أنكر على شيخه مالك طريقة الاستحسان . وقد ظهر هذا الميل فيما ألفه من كتب قيّمة : كالأم ، والرسالة ، واختلاف الحديث والمبسوط

ويتلخص مذهب الإمام الشافعي في إثارة الرجوع إلى النصوص من آيات وأحاديث . فيعمل بظاهر القرآن ما لم يقدّم دليل على إخراجها عن ظاهره ، ثم بالسنة ولو كانت خبراً واحداً غير مشهور . فإن لم يكن في المسألة قرآن ولا سنة فلا بأس بالإجماع . ولكن الإجماع ليس مقيداً بعمل أهل المدينة . ويؤخذ في هذا المذهب أيضاً بالقياس من غير توسع ، ولا بدّ أن يكون لهذا القياس أصل من الكتاب أو السنة . أمّا الاستحسان ، (أو مجرد الرأي من غير أن يكون مستنداً إلى أصل شرعي ، أو هو قطع المسألة عن نظائرها) والمصلحة المرسله فباطلان لانقطاع العلاقة بينهما وبين الأصول الدينية . وقد شبه الشافعي المستحسن في أثناء كلامه بالتاجر يقدر للشيء ثمناً من غير أن يدخل السوق ويعرف أسعار اليوم . فتقديره لا يبنى على أساس ، كذلك الفقيه يستحسن من غير أن يرجع في استحسانه إلى أصول الشريعة ، ولذلك هاجم مالكاً في قوله بالمصالح المرسله (وهي كل مصلحة لم يرد في الشرع نص على اعتبارها بعينها أو بنوعها ، أو هي استحسان بالضرورة لاتفاقها والمقاصد العامة للشريعة دون أن يكون هناك نص شرعي عليها أو على ما يماثلها بحيث يمكن أن تقاس عليه) .

وهذه القواعد الدقيقة الواضحة التي تضبط مذهب الشافعي جعلته في أعين الباحثين أول مذهب فقهي منظم يجمع بين سداد الرأي وصحة الأصول . ويعتبر الشافعي بحق أول من أرسى قواعد علم أصول الفقه إذ ألف فيه كتابه الرسالة ، تماماً : كما أرسى الخليل بن أحمد أصول علم العروض ومن قبلهما أرسطوطاليس الإغريقي الذي وضع قواعد علم المنطق . وقد قال عنه تلميذه أحمد بن حنبل : (لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث) .

وأشهر أتباع الشافعي الذين نشروا مذهبه يوسف بن يحيى البويطي المصري ، وإسماعيل بن يحيى المزني ، والربيع بن سليمان المرادي .

٤ - المذهب الحنبلي :

وينسب إلى إمامه أحمد بن حنبل الشيباني تلميذ الإمام الشافعي .
وقد ولد رحمه الله ببغداد سنة ١٦٤ هـ وبها توفي سنة ٢٤١ هـ .

كان ابن حنبل فقيها ورعاً مخلصاً يقوم بالعمل الصالح ويستتره على
الناس ، زاهداً لا يتحدث في أمور الدنيا ، رقيق الحال ولكنه عفيف النفس
كريم اليد . قال الشافعي : (ما خلفت ببغداد أفقه ولا أورع ولا أعلم من
أحمد) !

تنقل أحمد بن حنبل في البلاد وأكثر الرحلة في طلب الحديث حتى انفرده
بمعرفة آثار الصحابة والتابعين ، مع الضبط والتحقيق والتمحيص .

كان الإمام أحمد يكره الفتوى في المسألة التي لم يرد فيها أثر ، فلم
يكتب في الفقه ما كتبه في الحديث . حتى إن أشهر كتبه وأعظمها المسند لم
يرتبه على الأبواب الفقهية ، بل بحسب السند . ففيه ثمانية عشر مسنداً ،
أولها مسند العشرة المبشرين بالجنة . وقد اشتمل كتابه هذا على أربعين ألف
حديث مسند ، المكرر منها نحو عشرة آلاف ، ولابنه عبد الله فيها نحو عشرة
آلاف .

والإمام أحمد بن حنبل عرف بالحديث أكثر مما عرف بالفقه . ولم
يذكر له أشد أتباعه إعجاباً به كتاباً في الفقه ، وإنما عزوا إليه رسائل في
بعض المسائل والفروع .

والأصول التي يعتمد عليها في فقهه هي : الكتاب ، والسنة ،
وفتوى الصحابة ، والاستصلاح (أو الاستحسان ، وهو بناء الأحكام
الفقهية على مقتضى المصالح المرسله) ، والقياس ، وهو أضعف الأدلة
عنده .

ولشدة عناية الإمام أحمد بالحديث صار مذهبه أكثر اصطفاً به .
وقيل إنه كان يحفظ ألف ألف حديث . وقد وهب نفسه من أجل عقيدته
وتمسكه بكتاب الله والسنة الشريفة . وناهض مذهب الاعتزال الذي ساد في

أيامه رغم أن المأمون قد اعتنق هذا المذهب وأمر بمعاقبة كل شاهد أو قاض
يخرج على الاعتزال بوصفه مذهب الدولة الرسمي . ولما رفض ابن حنبل هذا
المذهب الذي أفرط في تطبيق النزعة العقلية على المسائل الدينية وتصدى
لأتباعه قبض عليه وحبس وهو يصر على الامتناع . وظلَّ يُضرب حتى فقد
وعيه . لقد امتحن الإمام أحمد في زمن المأمون والمعتصم والواثق بالضرب
والحبس . ولكنه ما وهن وما ضعفت عزيمته . وصار بذلك زعيم أهل السنّة
والجماعة ، وزاد مهابة في قلوب الناس حتى إنه عندما توفى خرجت بغداد
عن بكرة أبيها تودعه الوداع الأخير .

الفصل الرابع

العلوم الكونية

لم يقف الإبداع الحضارى للمسلمين فى العصور الوسطى عند حدّ العلوم الشرعية. التى تمثل نقلة بعيدة المدى فى مجالات التنظيم الاجتماعى والضمير الإنسانى، بل تعداه إلى سائر المعارف والعلوم الكونية التى كانت معروفة فى ذلك الزمان .

وسنحاول فى هذا الفصل أن نتلمس جوانب تلك النهضة العلمية الكبرى التى قاد لواءها وحمل مشعلها جمع غفير من علماء المسلمين الأفاضل فى شتى ميادين العلوم الطبيعية والرياضية والحياتية .

عناية المسلمين بالعلوم الكونية ونبوغهم المبكر فيها:

بدأ اهتمام المسلمين فى دراسة العلوم الطبيعية والرياضية والحياتية منذ وقت مبكر فى تاريخ حضارتهم . وتولى الخلفاء رعاية العلم وأهله . واتجهوا إلى العلوم القديمة فعملوا على إحيائها وترجمتها إلى العربية . واتسمت حركة الترجمة بحماس منقطع النظير . وعن طريق الترجمة نفذ المسلمون بسرعة مذهلة إلى ثقافات الأمم الأخرى وامتصوا ما فيها من الآداب والفنون والعلم، وإن لم يمتصوا خير ما فيها دائماً . ولم يستمر عصر الامتصاص الثقافى هذا ، أو التأثر بالثقافات الأجنبية ، طويلاً . إذ لم يلبث أن تحول بعد فترة من الزمن إلى إفراز حضارى أصيل وغزير والمسلمون لا زالوا فى أوائل نهضتهم . ولم يحدث أن عرف التاريخ نظيراً لهذا فى غير أمة الإسلام . ويبدو أن علوم الكيمياء والفلك والطب قد جذبت إليها انتباه

المسلمين ابتداء . غير أن الاهتمام لم يلبث أن انتشر إلى بقية العلوم الكونية الأخرى .

وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من ترجم له من العلوم القديمة ، وأول من اشتغل من المسلمين بالكيمياء والطب والفلك ، فأتقنها وألف فيها رسائل . وقد ترجمت إحدى رسائله في الكيمياء إلى اللاتينية بعنوان (De Compositione Alchemia) وكانت تدرّس في أوروبا في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي . وقد استفاد من رسائله العلمية عدد من المشتغلين بالعلوم من بينهم أبو بكر الرازي (- ٣١١ هـ / ٩٢٥ م) أحد أعظم أطباء الإنسانية إطلاقاً .

غير أن هذه الحركة العلمية التي بدأها هذا الأمير الأموي ، وكان قد نزع نفسه من الخلافة واتجه للعلم وخدمته ، كانت قصيرة الأجل . إذ انقطعت أخبار الترجمة بعد وفاته وكأنما كان لها أن تنتظر زهاء ستين عاماً ، حتى عهد أبي جعفر المنصور لتستأنف مسيرتها بقوة وعزم شديدين وهي تمضي قدماً نحو الترقى والابتكار .

لم يكن أبو جعفر المنصور أول من عنى من خلفاء بني العباس بالعلم والترجمة ، بل كان من عداد العلماء والأعلام في الفقه والأدب والحكمة . ولمعرفته الواسعة بتأثير النجوم في مجرى حياة الأفراد ، فقد كان اهتمامه عظيماً بالتنجيم أو الفلك . فكان له منجمون يلازمونه ويأخذون له الطالع ولا يقدم على عمل إلاّ بمشورتهم وقد أمر أن تترجم له كتب النجوم . فترجم أبو يحيى البطريق كتاب (الأربع مقالات في صناعة أحكام النجوم) لبطليموس الذي كان وضعه ليكون ملحقاً لكتابه المعروف المجسطي في علم الفلك . ثم ترجمت كتب أخرى في هذا العلم بعد ذلك .

وهكذا بدأ المترجمون من سريان وفرنس وهنود وغيرهم يتقاطرون على مدينة المنصور وكل منهم يطمع في أن ينقل إلى العربية كتاباً في علم من العلوم ينال به رضا الخليفة .

وتطلب معرفة ارتفاعات الكواكب استخدام آلات في ذلك وأبسطها

« يوزع مجازاً ولا يباع »

الاسطرلاب . وكان إبراهيم الفزاريّ أول من ألف كتاباً عن العمل بالاسطرلاب في الإسلام ، وأول من عمل بعلم الفلك المحض . وقد عمل حفيد الصحابي الجليل سمرة بن جندب هذا زيجاً ، وهو جدول لمعرفة حركات الكواكب والحسابات الفلكية ، وقد اشتهر بين علماء عصره باسم كتاب **السند هند الكبير** ، وكان قد استخلصه من كتاب في الفلك للعالم الرياضي الهندي برهملبت .

وهكذا كان العلماء المسلمون منذ فجر حضارتهم لا يكتفون بمجرد الترجمة والنقل بل يعملون على تهذيب ما يقع تحت أيديهم من كتب الأمم الأخرى وعلومها ثم تطويع ذلك لأوضاعهم الحضارية والاستفادة منه عملياً .

كما يعود اهتمام المسلمين بعلم الفلك في تاريخ مبكر من حضارتهم إلى صلة الحسابات الفلكية ببعض أحكام الشريعة لتحديد أوقات الصلاة ، وتحديد اتجاه القبلة في سائر أرجاء البلاد الإسلامية ، وغير ذلك .

ثم إن اهتمام المسلمين بالفلك دفعهم إلى دراسة الهندسة والرياضيات عموماً . فترجمت كتب إقليدس في الهندسة وغيره من قدامى علماء الرياضيات الإغريق إلى العربية .

ونقل جورجيس طبيب المنصور الخاص ورئيس مدرسة جنديشابور الطبية في فارس من قبل عدد من الكتب الطبية من الإغريقية إلى العربية . وهكذا بدأ المنصور حركة ثقافية قدر لها أن تنمو وتزدهر وتتسع بعد ذلك بدرجة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً من قبل .

وفي عهد الرشيد - وكان من أشهر رعاة العلم في الإسلام - ترجمت كتب كثيرة في الطب والفلك من اليونانية (الإغريقية) والهندية والفارسية إلى العربية . ومن أعظم ما ترجم في هذا العصر الذهبي للحضارة الإسلامية كتاب **المجسطى** لبطليموس . وقد دارت حول هذا الكتاب بحوث عدد من العلماء المسلمين في الفلك . فتناولوه بالشرح والنقد والتنقيح . إذ استطاعوا

بشكل عام أن يصححوا كثيراً من أرساد الإغريق .

ثم يأتي عصر المأمون ويفتح عصر جديد في الحضارة الإسلامية . فقد أخذ العلماء المسلمون ينتقلون من دور الترجمة ودراسة علوم القدماء إلى دور التجديد والابتكار والإبداع . وكان انتقال المسلمين إلى هذا الدور بهذه السرعة أمراً أدهش العلماء والباحثين . حتى لقد قال الأستاذ الفرنسي لكثير في كتابه عن تاريخ الطب عند العرب: (إن فترة نشوء الحضارة العربية قد تميزت بالأصالة العميقة التي صحبت بدايتها . فالشعوب المختلفة التي تناوبت على مسرح العلم كانت تتبع على وجه التقريب قانوناً واحداً في تنشئة العلوم وتطويرها . ولكن اختلف ذلك عند العرب ، إذ كانت طريقة اكتسابهم للعلوم واستيعابهم لها مثلاً فريداً في التاريخ) .

أراد المأمون أن يتحقق من قياس جرم الأرض ، ولم يعتمد في ذلك على القياسين اللذين أجراهما كل من ايراتوستيتس وبطليموس في مصر . فأمر المأمون سند بن علي وخالد بن عبد الملك أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح الأرض . وأمر عيسى بن علي الاسطرلابي وعلي بن البحترى بمثل ذلك . فسار كل فريق في ناحية ، وقاس كل منهما درجة . ثم ورد الكتابان إلى المأمون من الناحيتين في وقت واحد بقياسين متفقين . وقد علق على هذه التجربة العلمية الدقيقة المؤرخ الإيطالي كرلونينو في كتابه عن تاريخ علم الفلك عند العرب في القرون الوسطى قائلاً : (إن هذا القياس العربي جدير بالذكر لأنه قريب من الحقيقة ، ولأنه من أجل آثار العرب في ميدان الفلكيات ، ومما يدل على شدة عنايتهم بترقية العلم المحض ، وعلى مهارتهم العجيبة في الأرصاد) . والحق فإن القياس المأموني كان أصح من القياسين اليونانيين السابقين وأكثر منهما ذيوماً وانتشاراً حتى مقاس بيسيل في القرن التاسع عشر . بل إن فرق الخطأ بين مقياس المسلمين في العصور الوسطى للأرض والمقاييس الحديثة لها تقل عن كيلو متر واحد ! هنا ، إذن ، تقدم علمي واضح ، وترقُّ أكيد عما كان عند اليونان أو عند غيرهم ، وحضارة الإسلام ما زالت في مهدها !

ومثال آخر عن الترقى العلمي للمسلمين وحضارتهم ما زالت في مهدها

نسوقه من العلوم الرياضية ومن عصر المأمون بالذات .

فقد ألف محمد بن موسى الخوارزمي كتاب الجبر والمقابلة نزولاً على طلب الخليفة المأمون والذي لا شك في أنه كان على دراية بالمسائل الرياضية العويصة . والخوارزمي أول من استعمل كلمة جبر التي دخلت بنطقها العربي إلى اللغات الأوربية فنطقوها (Algebra) . وينحصر فضل الخوارزمي في أنه استطاع أن يوفق بين حساب الهندسة الإغريق فنشأ علم الجبر الذي بناه على الفكرة الهندسية والفكرة العددية للكميات .

وهكذا لم يكد يمضي قرنان على انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية حتى كان المسلمون قد بلغوا مبلغ الأصالة والإبداع والابتكار في ميادين علمية مختلفة ، وأصبحوا بحق حماة العلم في العالم ومريديه .

منهج المسلمين في البحث العلمي :

لقد كان لأسلوب الجرح والتعديل الذي اتبعه علماء الحديث في تنقية الحديث وتمييز صحيحه من موضوعه أثر كبير في توجيه أساليب العلماء عموماً .

ومن ينظر فيما كتبه العلماء المسلمون في شتى الميادين لا بد أن يجلّ دعوتهم إلى جعل البرهان دليلاً وشاهداً . فالدعوة إلى الإنصاف وإلى الحق والصدق والمعرفة كانت تدخل في مقدمات كتب المسلمين .

فقد قال الحسن بن الهيثم عالم البصريات المعروف في مقدمة كتابه المناظر بأن غرضه في جميع ما يستقره ويتصفح (استعمال العدل لا اتباع الهوى) ، وأنه يتحرى في جميع ما يميزه وينتقده (طلب الحق لا الميل مع الآراء) حتى يظفر بالحقيقة ويصل إلى اليقين .

أما البيروني الذي يعتبر من أكبر الباحثين الذين تركوا مآثر خالدة في العلوم والتاريخ فقد كان باحثاً مخلصاً للحقيقة والحق نزيهاً . وقد بين أن التعصب عند الكتاب هو الذي يحول دون تقريرهم للحق . ويتبين من

المؤلفات العديدة التي خلفها البيروني في مختلف ميادين العلوم ومن كتابه النفيس القيم الآثار الباقية عن القرون الخالية أنه كان باحثاً دقيق الملاحظة ، وناقداً صائب النقد ، يعتمد على المشاهدة ولا يأخذ إلا ما يوافق العقل ، يكتب بأسلوب مقنع وبراهين مادية .

غير أن دعوة العلماء المسلمين إلى الاخلاص للحق والحقيقة قد نأت ببعضهم عن جادة الصواب حين غالوا في استعمال العقل وعدّوه المقياس الوحيد الذي به وحده يقاس صدق الحقائق . ومعلوم فإن طاقة العقل - رغم سموها وانطلاقها - محدودة بما يعقل وبالزمان والمكان ، بالبداية والنهاية ومحكومة بالفناء .

لذلك كان إغراق بعض المفكرين المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا والكندي في الفلسفة وإطلاق العنان لسلطان العقل إطلاقاً مطلقاً قد أنتج بحوثاً سقيمة حين تحدثوا عن الخالق جل شأنه وعن خالق العالم وعن النبوة وجعلوا سلطان العقل يسمو ويهيمن على سلطان الروح . وهم في جميع ما ذهبوا إليه كانوا يطبقون مفاهيم ومصطلحات إغريقية الأصل وثنية المنشأ فاسدة المحتوى على عقيدة الإسلام الخالصة . وهكذا أيضاً كان انحراف إخوان الصفا (في القرن الرابع الهجري) ومن قبلهم المعتزلة (في القرن الثاني الهجري) وقد لاحظت بأن المعتزلة كانوا السبب في محنة ناصر السنة الإمام أحمد بن حنبل واضطهاده حين رفض أن يجاريهم في أقوالهم ووقف نفسه لمناواتهم .

إن ادعاء الفلاسفة المسلمين بأنهم استخدموا الفلسفة وسيلة للدفاع عن الدين لم تعجب كثيراً من علماء المسلمين وعلى رأسهم الإمام الغزالي فتناول آراءهم بالنقد اللاذع في كتابه تهافت الفلاسفة ومعناه تناقض الفلاسفة وسقوط أدلتهم .

ومهما يكن من أمر ، فإن مما يميز أساليب العلماء المسلمين في البحث وبخاصة في ميادين العلوم الطبيعية والرياضية والحياتية هو اعتمادهم الأسلوب التجريبي الذي يقوم على المشاهدة والملاحظة وفحص الفروض

عملياً للثبوت من مدى صحتها . وقد أخذ العلماء المسلمون بهما فتولد عن ذلك الطريقة العملية أو المنهج التجريبي العلمى . وعن هذه الطريقة التى انتقلت إلى أوروبا فى أعقاب الحروب الصليبية قامت كل الكشوف العلمية الحديثة .

فلقد دعا جابر بن حيان شيخ علماء الكيمياء المسلمين إلى الاهتمام بالتجربة وحث على إجرائها مع دقة الملاحظة وترك العجلة وقال : (إن واجب المشتغل فى الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة وإن المعرفة لا تحصل إلا بها) . وطلب من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية ألا يحاولوا عمل شىء مستحيل أو عديم النفع ، وعليهم أن يعرفوا السبب فى إجراء العملية وأن يفهموا التعليمات جيداً (لأن لكل صنعة أساليبها الفنية) ، على حد قوله . وطالبهم بالصبر والمثابرة والتأنى فى استنباط النتائج .

أما العناصر الإسلامية فى طريقة البحث العلمى الحديث فهى الاستقراء والقياس والاعتماد والمشاهدة أو التجربة والتمثيل .

ولقد أدرك الحسن بن الهيثم الطريقة المثلى وقال بالأخذ بالاستقراء والقياس والتمثيل وضرورة الاعتماد على المواقع الموجودة على المنوال المتبع فى البحوث العلمية الحديثة . ففى كتاب المناظر عند البحث ، مثلاً ، عن كيفية الإبصار واختلاف العلماء فيه يقول : (ونبتدى فى البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر فى حالة الإبصار ، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس . ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدرج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق الذى به يثلج الصدر ، ونصل بالتدرج واللفظ إلى الغاية التى عندها يقع اليقين ، وتظهر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد الشبهات ... وما نحن مع ذلك ببراء مما هو فى طبيعة الإنسان من كدر البشرية . ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الإنسانية . ومن الله نستمد العون فى جميع الأمور) .

ومن أقواله هذه تتجلى لنا الخطة التي كان يسير عليها في بحوثه . وأن غرضه في جميع ما يستقره ويتصفح (استعمال العدل لا اتباع الهوى) . وبعد ذلك نراه رسم الروح العلمية الصحيحة ، وبين أن الأسلوب العلمي هو في الواقع مدرسة للخلق الرفيع : فقواعده التجرد عن الهوى والإنصاف بين الآراء . فيكون قد سبق علماء هذا العصر في كونه لمس المعاني وراء البحث العلمي الحديث . وكان يرى الطريق المؤدى إلى الحق والحقيقة (ما يثلج الصدر) ، على حد تعبيره ، وهذا ما يراه باحثو هذا العصر من رواد الحقيقة العاملين على إظهار الحق . فإن وصلوا إلى ذاك فهذا غاية ما يبغيون ويؤملون . وابن الهيثم في طريقته العلمية التي اتبعها في بحوثه وكشوفه الضوئية قد سبق فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦ م) البريطاني في طريقته الاستقرائية . وفوق ذلك سما عليه وكان أوسع منه أفقا وأعمق تفكيراً .

والحق فإن ابن الهيثم وإن كان قد استفاد بمعلومات من تقدموه وبحوث من نقدوه ، إلا أنه أعاد البحث عن كل هذه الأمور من جديد ، ونظر فيها جميعاً نظراً جديداً لم يسبقه إليه أحد من قبله ، واتجه في هذا النظر وجهة جديدة لم يولها أحد من المتقدمين ، وأصلح الأخطاء ، وأتم النقص ، وابتكر المستحدث من المباحث ، وأضاف الجديد من الكشوف ، وسبق في غير قليل من ذلك الأجيال والعصور ، واستوفى البحث إجمالاً وتفصيلاً ، بل هو فوق ذلك كله قد أقام الأسس التي ارتقى عليها صرح علم الضوء من بعده .

مآثر المسلمين في العلوم الكونية :

أولاً - في العلوم الرياضية والفلكية :

نبغ المسلمون في جميع فروع الرياضيات والفلك وكانوا رياضيين وفلكيين من الطراز الأول . أخضعوا علوم الإغريق لتصحيحاتهم ثم أضافوا إليها إضافات كثيرة . وزاوجوا بين علوم الهند والإغريق فأنتجوا مباحث

جديدة . وفتحوا آفاقاً جديدة في الفلك بقياساتهم وأرصادهم ونظرياتهم .

وفيما يلي خلاصة لأبرز مآثر المسلمين في العلوم الرياضية والفلكية :

(١) في الرياضيات :

١ - تهذيب نظام الترقيم المنقول عن الهنود وتكوين سلسلتين منه ، عرفت إحداهما بالأرقام الهندية وهي المستعملة في الأقطار الإسلامية والعربية وفيها استعملت النقطة لتدل على الصفر . وعرفت الأخرى بالأرقام الغبارية وفيها استعملت الدائرة لتدل على الصفر . والأرقام الغبارية هذه انتشرت في الغرب والأندلس ومنها دخلت إلى أوروبا ، ويسمونها الغربيون الأرقام العربية (Arabic numerals) .

٢ - ابتكار طريقة الإحصاء العشري واستعمال الصفر لنفس الغاية التي نستعملها الآن . وحل هذا النظام في العد العشري محل النظام اللاتيني الذي كان يشتمل على عدد من الأرقام بقدر حروف الهجاء . والعالم الرياضي المسلم الذي ابتكر استعمال الكسر العشري هو غياث الدين جشميد الكاشي .

٣ - حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية .

٤ - تأسيس علم الجبر الذي ابتكره الخوارزمي .

٥ - نقل كتاب الأصول في الهندسة لإقليدس إلى العربية وتأليف كتاب آخر على نسقه .

٦ - قياس السطوح الكروية والمستوية وقد برع في هذا أولاد موسى بن شاعر الثلاثة محمد وأحمد والحسن في عصر المأمون .

٧ - استخدام الجيوب بدل الأوتار وحل بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية والتمهيد (وبالذات ثابت بن قرة الحراني الذي يعتبر بحق أعظم المهندسين الرياضيين المسلمين) لعلم التفاضل والتكامل . بل إن ثابتاً هذا كان من بين الذين اشتغلوا بالهندسة التحليلية وأجادوا فيها .

٨ - فصل المثلثات عن الفلك وجعله علماً مستقلاً . ولولا ذلك لما كان
بالمستطاع تحقيق العديد من الاختراعات والاكتشافات .

ب - في الفلك :

- ١ - قياس زاوية الكسوف والخسوف .
- ٢ - تقدير حجم الأرض .
- ٣ - دراسة ظاهرة الاعتدالين والانقلابين .
- ٤ - تطوير أدوات الرصد لدراسة الأجرام السماوية .
- ٥ - تصحيح طول السنة الشمسية . حدها البتاني ب ٣٦٥ يوماً و٥
ساعات و٤٦ دقيقة و٣٢ ثانية .
- (وكان بطليموس وأبرخس قد حسبها ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و٥٥
دقيقة و١٢ ثانية)
- ٦ - اختراع الخطار (البندول) . وهو من اختراع كمال الدين بن
يونس المصرى .
- ٧ - إثبات كروية الأرض . وقد دلل على ذلك أبو الريحان البيرونى (الذى
وصف بأنه ألمع علماء زمانه فى الرياضيات) عن طريق جذب جميع
الأجسام نحو مركز الأرض .
- ٨ - عمل الأزياج (الجداول الفلكية) والإسطرلابات .

ثانياً - فى العلوم الطبيعية :

١) فى الكيمياء :

- ١ - اختراع الانبيق
- ٢ - التفريق بين الأحماض والقلويات واكتشاف العلاقة بينهما
- ٣ - أول من أعطى للكيمياء هذا الاسم
- ٤ - تطبيق الكيمياء فى مجال الطب
- ٥ - صنع الماء الملكى لإذابة الذهب
- ٦ - ابتكار طرق محسنة للتبخير والترشيح والتصعيد والانصهار
والتقطير والتبلور (جابر بن حيان) .

٧ - تركيب نوع من الصبغة اللامعة من المرقشيتا المذهب ليحل محل الصبغة المصنوعة من الذهب الخالص والمرتفعة الثمن (أبو بكر الرازي) .

٨ - تأسيس علم الكيمياء على الأساليب العلمية الحديثة (أبو بكر الرازي) .

ب (في الفيزياء :

١ - دراسة البصريات والصوت والضوء .

٢ - استعمال المرايا المقعرة والمحدبة .

٣ - اكتشاف أن العين ترى الأشياء عن طريق الأشعة الساقطة عليها والمنعكسة إلى العين خلافاً لنظرية الإغريق القائلة إن العين ترسل أشعة إلى الأشياء فتراها بها .

٤ - اكتشاف نظرية الغرفة المظلمة التي يدخل الضوء فيها من ثقب صغير فتنعكس المناظر الداخلة على الحائط المقابل مقلوبة . وقد بنيت على هذه النظرية فكرة آلة التصوير فيما بعد .

ويلاحظ أن جميع هذه المآثر تعود لشيخ علماء البصريات في الإسلام أبو علي الحسن بن الهيثم (٣٢٤ - ٤٣٩ هـ) .

ثالثاً - في الطب والأحياء

١ (في الطب والجراحة:

١ - معرفة أعراض المرض

٢ - التفريق من حيث التحليل التشخيصي بين مرضى الحصبة والجدرى .

٣ - إدخال المركبات الكيماوية في العلاجات الطبية .

٤ - معرفة الدورة المرضية لكل من الحصبة والجدرى .

٥ - بناء المستشفيات والمصحات (دور النقاهاة) وتزويدها بكل وسائل

الراحة وبما يتفق والمبادئ الحديثة في الصحة العامة .

- ٦ - إجراء الفحص اليومي على المرضى بالمستشفيات وتدوين خلاصة الفحص على لوحة سرير المريض .
- ٧ - استخدام التخدير في العمليات الجراحية وطرق التعقيم .
- ٨ - ابتكار نظام الحميات أو الأغذية الخاصة بالمرضى .
- ٩ - وضع قواعد في طب العيون .
- ١٠ - صنع آلات جراحية مختلفة الأنواع كالمقاشط (لتنظيف الأسنان) والكلاليب (لخلع الأسنان) والحقن المعدنية (لاستخراج حصاة المثانة ، والمشارط (لشق الجلد) .
- ١١ - اكتشاف الدورة الدموية (ابن النفيس) .

ويعود الفضل في تقدم علم الطب عند المسلمين إلى عدد من العلماء من أبرزهم أبو بكر الرازي صاحب كتاب الحاوي وابن سينا وكتابه القانون في الطب ، وعلى بن عيسى (في طب العيون) ومؤلفه القيم التذكرة ، وأبو القاسم الزهراوى وكتابه المشهور التصريف لمن عجز عن التأليف .

ب) في الصيدلة :

- ١ - أول من أسس علم الصيدلة على أساليب علمية منظمة .
- ٢ - أول من أدخل استعمال السكر في الصيدلة فحلت الأشربة الحلوة للمرضى محل الأشربة المرة .
- ٣ - استخدام العقاقير والأدوية وتطويرها .

ج) في الحيوان والنبات :

- ١ - تصنيف النباتات وبيان أنواعها واستعمالاتها المختلفة وبخاصة في المجالات الطبية وصناعة العقاقير .
 - ٢ - مراقبة سلوك الحيوانات وأفعالها وأنواع الحيوانات . وقد اشتهر في هذا بصفة خاصة الجاحظ في كتابه الحيوان .
- أما الكتاب الذى يعد من أنفس الكتب النباتية فهو الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار أعظم نباتى ظهر في العصور الوسطى إطلاقاً .

الباب الثالث

معالم الحضارة الإسلامية

الصناعات والعمارة الإسلامية

بعد أن درست في الباب الأول من هذا الكتاب ، مختلف أنظمة الحكم في الإسلام ، ودرست في الباب الثاني العلوم التي توصل إليها المسلمون في مختلف الحقول ، نتناول في فصول هذا الباب المعالم البارزة للحضارة الإسلامية التي يشاهدها المرء أنى سار في كثير من الأقطار الإسلامية والأوربية .

وتشمل هذه المعالم مختلف الصناعات التي توصل إليها المسلمون في شتى عصورهم والتي لم يزل قسم منها محفوظاً في متاحف العالم . كما تشمل المباني التي شيدها المسلمون في كثير من الأقطار الإسلامية وفي أسبانيا الأوربية والتي ما زال الكثير منها ينم عن الذوق الرفيع والروعة المتناهية في التصميم والابتكار الذي توصل إليه مهندسو المسلمون عبر عهود تاريخهم المجيد في مختلف ميادين فن العمارة .

وقبل نهاية هذا الباب نأتى على عبور الحضارة الإسلامية إلى القارة الأوربية من معابرها الثلاثة : أسبانيا ، وصقلية ، والشرق الأدنى . ثم نختم البحث بانعكاس الحضارة الأوربية الحديثة على الأمة الإسلامية وواجب هذه الأمة تجاه ماضيها الحضارى ومستقبلها الذي يعيد إليها الماضى المجيد ويبيئها المكانة اللائقة بين شعوب الأرض وذلك بإيجاد حضارة إسلامية متكاملة مادة وروحاً .

الفصل الأول

الصناعات الإسلامية وانتشارها

تعتبر الصناعة إحدى مظاهر النشاط البشرى العملى ، وإحدى مرتكزات الحضارة المادية القائمة على ما توصل إليه الإنسان من علوم ومهارات . والصناعات كلها تطورت كمًّا وكيفًا بمدى الحاجة إليها سواء من أجل سد حاجة الإنسان منها أو للاتجار بها بحيث تكوّن له دخلاً مالياً يغطى نفقاته الأخرى أو يدخر من ذلك الدخل مكوناً له ثروة تساهم فى بناء وتطوير تلك الصناعات وفى إقامة المرافق العامة والقصور ودور العلم والقوة العسكرية وما إلى ذلك .

بدأت الصناعات عند نشأتها بشكل بسيط جداً استعملت فيها أبسط الخامات المحلية المتوافرة لدى الإنسان . ثم تطورت تلك الصناعات تدريجياً بما يتفق وحاجات الإنسان ومتطلباته وإمكاناته وبيئته . ولما تكونت الشعوب والحكومات أخذت تعمل على ارتقاء صناعاتها بحيث أوجدت لها طابعاً مميزاً خاصاً بها يشكل ركناً هاماً من أركان حضارتها المادية وجزءاً كبيراً من دخلها القومى .

ولما تعاقبت تلك الشعوب وحكوماتها وتقدمت مع الزمن ، استفادت من الخبرات السابقة فى المجالين الصناعى والفنى فى تطوير صناعاتها وفنونها وفى ابتكار أصناف جديدة خاصة بها تتفق مع أهدافها وميولها وقدراتها ومعتقداتها التى كان لها أثر بارز فى تلك الصناعات والفنون بالإضافة إلى إسهامها فى تحقيق ما تصبو إليه من تقدم وازدهار .

فالعرب قبل الإسلام لم يكن لصناعاتهم وفنونهم إلى مدى بعيد طابع قومى مميز خاص بهم ، إلا أن الدول القديمة التى عاشت فى الهلال

الخصيب ووادي النيل أو في جنوب القارة الأوربية ، قد خلفت وراءها حضارات عريقة بدت واضحة في الآثار المادية التي لا يزال البعض منها ماثلاً للعيان حتى الآن رغم تقادم الزمن مثل ذلك العمران والأدوات الخزفية وما لا يزال محفوظاً في بطون الكتب لا سيما الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها .

ولقد ورثت الدولتان البيزنطية والفارسية اللتان شهدتا مولد الدولة الإسلامية ذلك التراث الحضارى القديم . هذا بالإضافة إلى ذلك التراث الذى خلفته الصين للأجيال المتعاقبة والتي وطئت الجيوش الإسلامية أرضها واقتبست من حضارتها .

ولما جاء الإسلام والحضارة العالمية المادية على هذا النحو ، أى بأيدي أهل الصين والفرس والبيزنطيين ، وتمكن حملة مشعل هذا الدين الحنيف من قواد ومجاهدين من نشر راية الإسلام على كثير من ديار تلك الدول بسرعة فائقة وأصبحت الدولة الإسلامية تحتل قلب العالم القديم من مشرقه إلى مغربه ، واعتنق العديد من سكان ذلك العالم الدين الإسلامى الحنيف ، واحتك المسلمون العرب بإخوتهم من مسلمى الجنسيات الأخرى أو بالذميين . بعد كل هذا اقتبس المسلمون من هؤلاء جميعاً ما توصلوا إليه من صناعات أو فنون وطوروها بحيث أصبحت تحمل طابعاً إسلامياً مميزاً .

وفى هذا يقول غوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب : (لقد فاق العرب كل من سبقهم من الأمم وظهرت قوتهم الإبداعية فى مختلف الفنون) . وبقوة الإبداع هذه استطاع المسلمون أن يغزوا العالم الإسلامى والأوربى معاً بإنتاج مبكر وصناعات جديدة وفنون كانت وما زالت موضع إعجاب الأوربيين ومثار إعجابهم .

وكما زود المسلمون العالم بمختلف العلوم والمعارف وقدموا لهم النظ الإدارية والقضائية المتعددة ، فإنهم زودوه أيضاً بالمزيد من الصناعات والفنون التى كانت وما زالت من مفاخر الأمة الإسلامية .

ومن أبرز تلك الصناعات : صناعة الورق والزجاج بأنواعه والسكر والأقمشة والآلات الحربية والبارود والنفط والساعات والخزف والآلات الفلكية والجراحية والأدوية والصناعات المعدنية المتنوعة والحلى وصناعة الجلود والتجليد والعاج وصناعة زيت الزيتون ، وغيرها من الصناعات التي لم تكن مثار الدهشة في دقة الصنعة وجمالها فحسب بل كذلك بالكميات التي كانت تغطي حاجة الأقطار الإسلامية والأوروبية وغيرها من أقطار العالم .

وفيما يلي استعراض لنشأة هذه الصناعات وتطورها وازدهارها ثم انتشارها في العالمين الإسلامي والأوربي :

١ - صناعة الورق :

كان الناس قبل ظهور صناعة الورق يستعملون للكتابة : الجلد أو ورق البردى أو ألواح الطين .

وقد عرف الصينيون صناعة الورق قبل غيرهم من الأمم كما عمل المسلمون على تطويرها ونشرها .

فلقد بدأت صناعة الورق عند الصينيين حوالي عام ١٠٥ م. وكان الورق يصنع آنذاك من شرائق الحرير . وكانت تلك الصناعة تكلف نفقات باهظة . كما أن الكميات المصنوعة منه قليلة جداً . بل إن ما صنعوه من أوراق التوت والحشائش والغاب الهندي كان رديء النوع وسريع التلف .

ومن الصين انتقلت هذه الصناعة إلى سمرقند في بلاد ما وراء النهر . ولما فتح المسلمون هذه البلاد عام (٩٤ هـ / ٧١٢ م) ، تعلموا تلك الصناعة ثم لم يلبثوا أن أدخلوا عليها تحسينات جوهرية . فاستخرجوا الورق من الكتان والنباتات ذات الألياف كالقنب وغيره ، كما استخرجوه من الخرق القطنية التي تحتاج صناعته منها إلى مهارة يدوية وحرفية عالية .

ومن سمرقند التي امتازت بكاغدها (كاغد سمرقند) ، نقل

المسلمون صناعة الورق إلى بغداد . إذ تمكن الفضل بن يحيى البرمكى والى
الخليفة هارون الرشيد على خراسان من تأسيس أول مصنع للورق فى مدينة
بغداد عام (١٧٨ هـ / ٧٩٤ م) .

ومن بغداد نقل المسلمون هذه الصناعة إلى بلاد الشام حيث انتشرت
مصانع الورق فى دمشق وطبريا وطرابلس الشام وغيرها . كما نقلوها إلى
مكة المكرمة .

ومن الشام نقل المسلمون صناعة الورق إلى مصر وشمالى إفريقيا
فأسبانيا حيث قامت مصانع الورق فى مدن بلنسية وشاطبة وطليلة . ومن
أسبانيا انتقلت صناعة الورق إلى فرنسا ثم إلى إنكلترا .

ومن الشمال الإفريقى كذلك نقل المسلمون صناعة الورق إلى صقلية
ثم إلى إيطاليا حيث تأسست مصانعه فى بادوا وفلورنسا وبولونيا وميلانو
والبنديقية . ومن إيطاليا انتقلت صناعة الورق إلى ألمانيا حيث كانت صناعة
فى مينتر ونورمبورغ ، ثم انتقلت إلى هولنده .

هذا ولقد عرف الورق عند الأوربيين باسم **الصحائف الدمشقية** لأن
دمشق كانت سوقاً رائجة لتجارة الورق . وفى أسبانيا أطلقوا عليه **رقائق**
القماش تمييزاً له عن الرقائق الجلدية التى لم يكن الأوربيون قبل ذلك
يعرفون غيرها .

ومما يؤكد أثر المسلمين فى صناعة الورق ونشرها فى أوربا كثر
المصطلحات العربية المتعلقة بالورق وصناعاته التى ما زال بعضها مستعملاً
بلفظه العربى فى اللغات الأوربية مثل كلمة رزمة (Rame) .

ويحسن أن نورد هنا أن أقدم وثيقة مكتوبة بالعربية على الورق هم
كتاب « غريب الحديث » عام ٨٦٦ م محفوظ فى مكتبة ليدن . وقد عثر فى
مكتبة الأسكوريال بأسبانيا على وثيقة يرجع تاريخها إلى عام ١٠٠٩ م تثبت
أن المسلمين هم أول من صنع الورق من القطن .

أما أول وثيقة أوربية مكتوبة على الورق فهو عقد ملك صقلية روجر تـ

في عام ١١٠٢ م . وقد كتبته زوجته باللاتينية والعربية معا في عام ١١٠٩ م .

وقد ترتب على صناعة الورق نتائج عدة من بينها :

(ا) انتشار الكتب على نطاق واسع :

فقد كان تطوير المسلمين لصناعة الورق سبباً في شيوع الكتب وانتشارها . ويذكر المؤرخ اليعقوبي أنه كان في عام (٢٧٨ هـ / ٨٩١ م) أكثر من مئة وراق (بائع كتب) في بغداد . وأن محلاتهم كانت مركزاً للنسخ وللخطاطين والمنتديات الأدبية . وكان كثير من طلاب العلم يكسبون عيشهم عن طريق نسخ المخطوطات وبيعها للوراقين . وكان في أغلب المساجد مكتبات عامة كانت تضم أحياناً كتباً قيمة يباح للجميع الاطلاع عليها .

وحوالي عام (٣٢٩ هـ / ٩٥٠ م) ، أسست مكتبة في الموصل كان الطلبة يزودون فيها بالورق والكتب . وكانت الكتب في مكتبة الرّى العمومية ببلاد خراسان مسجلة في عشرة أجزاء من الفهارس . أما مكتبة البصرة فكانت تمنح معاشات شهرية للعلماء المشتغلين فيها . وقضى ياقوت الحموي الجغرافي المشهور وصاحب معجم البلدان ثلاث سنوات في مكتبتى مرو وخوارزم يجمع فيهما المعلومات لمعجمه . ولما قوض المغول بغداد (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) كان فيها ٣٦ مكتبة عامة . أما المكتبات الخاصة فكان عددها لا يحصى بل ربما ملك الصاحب بن عباد في القرن العاشر الميلادي كمية من الكتب تقدر بما كان في مكتبات أوروبا مجتمعة . وبلغ المسلمون في ذلك الوقت أوج حياتهم الثقافية إذ كانت المساجد المنتشرة بين قرطبة وسمرقند تدوى أركانها بفصاحة العلماء الذين زخرت بهم تلك المساجد على رحبها .

(ب) الحفاظ على تراث الأمم الغابرة :

يشير غوستاف لوبون إلى أن الأوربيين في القرون الوسطى ظلوا زمناً

طويلاً يكتبون على رقوق من جلد الحيوان . وكان ثمنها المرتفع معوقاً لانتشار المؤلفات المكتوبة . وسرعان ما أصبحت هذه الرقوق نادرة الوجود ، مما حدا بالرهبان على حك كتابات الإغريق والرومان ليكتبوا عليها مواضعهم الدينية . ولولا العرب لضاعت معظم المؤلفات الفريدة للعصور القديمة ، تلك المؤلفات التي زعم الرهبان أنهم حفظوها لنا بعناية داخل الأديرة .

٢ - صناعة الزجاج والبلّور :

زاوت جميع الأمم الشرقية القديمة صناعة الزجاج منذ أيام الفينيقيين الذين يُعزى إليهم أمر صناعة الزجاج .

وفي زمن الدولة الرومانية كان صانعو الزجاج يؤتى بهم إلى روما لعمل الأكواب الزجاجية المطلية بالمينا . وكان لمصر وسوريا شهرة قديمة في صناعة الزجاج . واحتفظ هذان القطران بتفوقهما في هذه الصناعة في مختلف العصور الإسلامية التي تقدمت خلالها صناعة الزجاج تقدماً عظيماً . ففي العصر العباسي وإبان القرنين الثامن والتاسع الميلاديين كان القطع الزجاجية ، إما خالية من الزخارف أو مزخرفة بزخارف على شكل الخيوط البارزة أو الأقراص والكتابات والوريدات والطيور والحيوانات كما صنعت أقراص زجاجية للوزن أو الكيل إذ كان يطبع بتلك الأقراص على الأواني لبيان أحجامها أو أوزانها وعلى تلك الأقراص أسماء الخلفاء أو الولاة .

هذا وكان الصناع يشكلون الأواني الزجاجية بنفخ الزجاج المائع في قالبين الواحد بعد الآخر .

وفي العهد المملوكي زمن السلطان الظاهر بيبرس ، كانت دمشق أهم مراكز إنتاج الأواني الزجاجية المملوكية بالإضافة إلى حلب التي ذاعت شهرتها في إنتاج أفخر المنتجات الزجاجية التي كانت تصدر إلى مختلف أجزاء الدولة الإسلامية . هذا ويرجع إلى الصانع السوري الأثر البين إنتاج الأواني الزجاجية المطعمة بالمينا الجميلة وانتشارها في بلدان العالم ومنها أوروبا .

نماذج من صناعة الزجاج المموه بالمينا في العصر المملوكي



مشكاة من الزجاج المموه بالمينا
القرن ٨ هـ / ١٤ م
حاليا بالمتحف الإسلامي بالقاهرة



قنينة زجاجية صنعت برشوة لسلطان بييم
حاليا بمتحف فرير واثرتون



قنينة من الزجاج المموه بالمينا
صناعة حلب - القرن ٧ هـ / ١٣ م
حاليا بمتحف الدوله برلين



مشكاة من الزجاج المطهى بالمينا - القرن ١٤ م

وكانت زخارف الأواني الزجاجية في العصر المملوكى تتكون من عناصر كتابية وتتضمن أحياناً رسوماً جميلة جداً . وتمتاز هذه كلها بذوق رفيع كما تظهر في بعض الأواني الجميلة أشرطة الزخارف الكتابية وعناصر أخرى .

ومن أجمل ما أنتجه العصر المملوكى : القناديل الزجاجية التى أمر الحكام والأمراء بصناعتها لتوضع في المساجد . وكانت هذه القناديل مصنوعة من الزجاج المموه بالميناء المتعدد الألوان ، وبالذهب ، تحتفظ بشكل مميز . وكانت تعرف باسم المشكاوات . وكانت تحمل أسماء أصحابها وشاراتهم الخاصة بهم (الرنك) كما تحمل نقوشاً كتابية بالإضافة إلى الزخارف النباتية التى حلت محل الزخارف المجردة . ومن أجمل هذه الأواني ما هو مثبت في اللوحة السابقة التى تحتوى نماذج من الصناعات الزجاجية في العهد المملوكى .

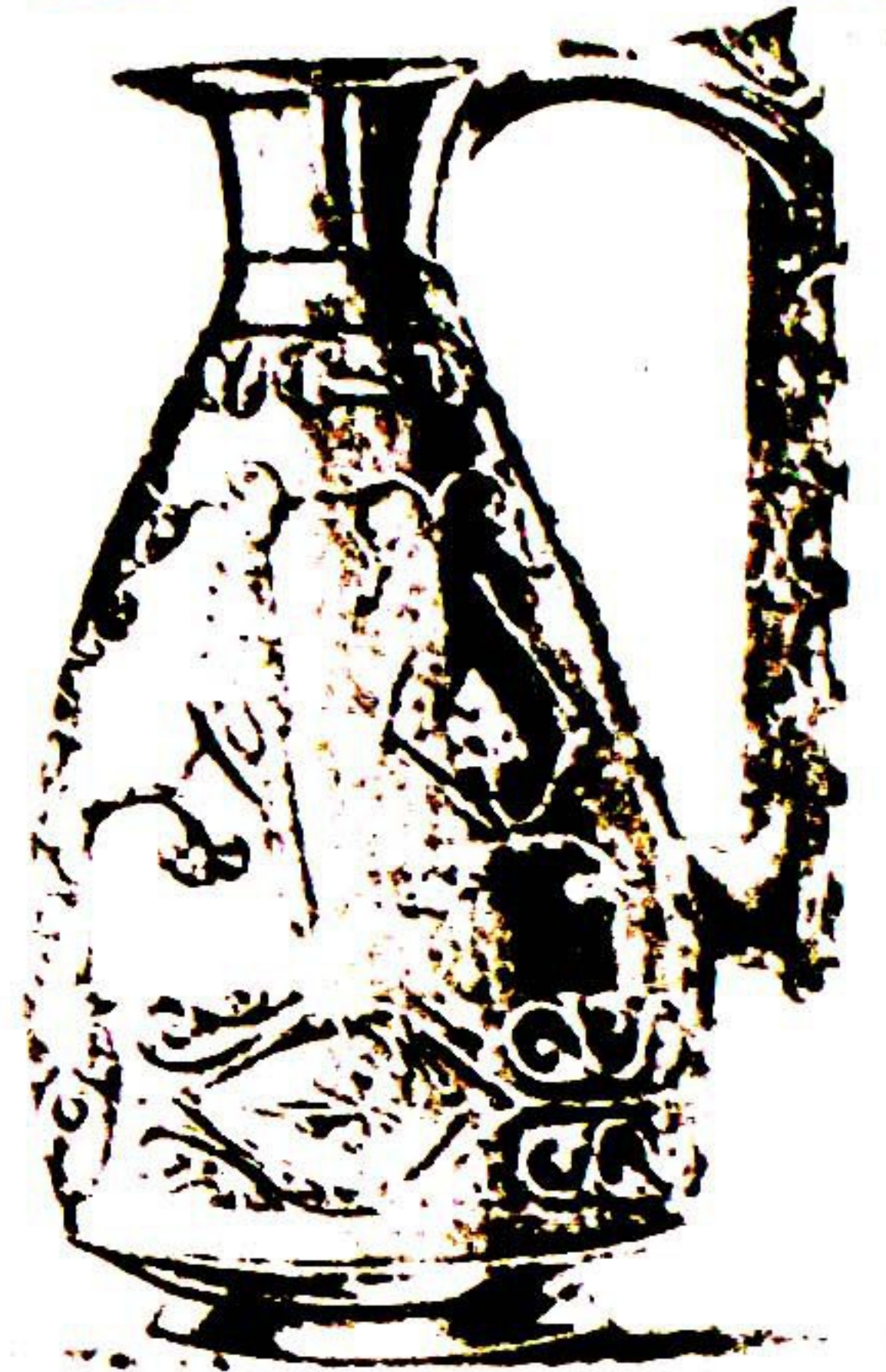
هذا وقد اتخذت صناعة الزجاج في بلاد الشام إبان العصر المملوكى طرازاً خاصاً في الزخرفة ، إذ نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى وكان الزجاج الملون المطلى بالميناء ، يصدر إلى كثير من جهات العالم . ولتقتصر صناعة الزجاج على بلاد الشام بل كانت بغداد كذلك ذات باع طويل في هذا المضمار إذ كان فيها ٤٠٠٠ معمل لصنع الزجاج و ٢٠,٠٠٠ معمل لصناعة الخزف . كما اهتمت بغداد بصياغة الزجاج وترصيعه بالجواهر ورسم الرسوم الجميلة وغير ذلك .

وفي العهد الفاطمى استخدمت في زخرفة الزجاج وتشكيله ، طريقة النفخ والضغط . كما استخدمت الخيوط الرفيعة والقطع المختلف الأشكال . وفي ذلك العصر ازدهرت صناعة الزجاج والبلور الصخرى الذى كان يستخرج من باطن الأرض . وقد بلغت صناعة الزجاج في العهد الفاطمى درجة عظيمة من الرقى والإتقان . إذ صنعت الأواني من الزجاج السميك الثقيل المزخرف بالطيور والأسود والأغصان النباتية كما صنع من البلور الصخرى الذى يعد من أنفس المواد التى تعمل منها الأواني وقطع الشطرنج . ومن أشهر هذه التحف المصنوعة من البلور الصخرى إبريق من هيئة الكمثرى عليه اسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله . (انظر اللوحة الخاصة بصناعة الزجاج في العصر الفاطمى) .

نمادج من صناعة الزجاج البلوري في العصر الفاطمي



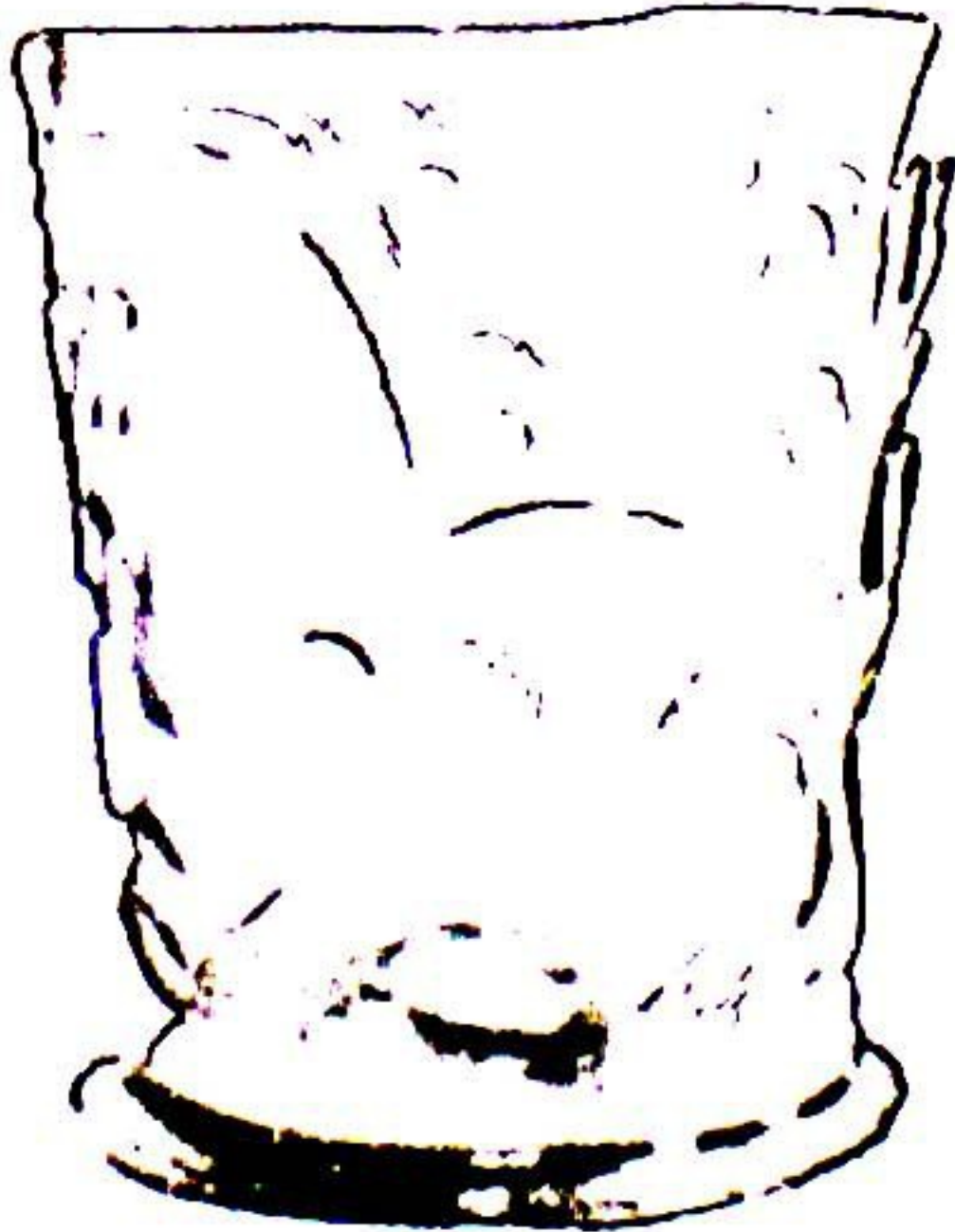
إناؤه البللور الصخرى هـ / ١١م
ماليابم تحف فكتوريا والبرن / لندن



البرنوه مصنوع في القرن العاشر الميلادي



إناؤه الزجاج مزخرف برسوم
البرنوه المعدني والبناء هـ / ١١م
بالتحف البريطاني / لندن



إناؤه الزجاج السبيك - صناعة مصر ٦ هـ / ١٢م
ماليابم تحف امستردام / هولنده



لوحة زجاجية لغرفة بالزجاج - القرن هـ ام

وبالإضافة إلى هذه الأواني فقد زخرفت خزائن الفاطميين بتحف الزجاج والبلور التي بلغت حداً من الإعجاز في مجال الصناعة وإشراق الزخرفة . وكانت مصر في ذلك العهد ، تصدر الزجاج إلى البلاد الشرقية والغربية .

ولم تقتصر هذه الصناعة على المشرق الإسلامي بل انتقلت إلى الشمال الإفريقي والأندلس والبر الأوربي . ومن البلدان الإسلامية انتقلت صناعة الزجاج إلى أوروبا وكان للمسلمين أثر كبير في تفوق مدينة البندقية الإيطالية بهذه الصناعة .

٣ - تكرير السكر :

كان السكر ، الذي يعرف باسمه العربي في عدد من اللغات الأوربية^(١) ، من مآثر المسلمين الحضارية ، ومع أن صناعته ليس اختراعاً عربياً إلا أن المسلمين أسهموا إسهاماً كبيراً في تطويرها ونشرها في بلدان العالم .

لقد عرف السكر في بلاد الهند منذ القديم ، وكان يطلق عليه اسم الملح الهندي . كما عرفه اليونانيون في عصر الإسكندر المقدوني عند غزوه للهند ، وعرفوا القصب الذي ينتجه . واعتبروا السكر نوعاً من العسل . أن اليونانيين لم يدخلوه إلى منطقة حوض البحر المتوسط ولم يهتموا بنقله . وحوالي عام ٥٠٠ م نجح الفرس في زراعة قصب السكر في سهول العراق الجنوبية وأنشئوا معامل لتكريره في جنديسابور في بلاد فارس . كما عرفه الروم الذين هزموا الفرس عام ٦٢٧ م . وكان السكر من بين ما غنمه منهم .

ولما فتح المسلمون العراق وفارس والهند ، عملوا على نشر زراعتها

(١) بالإنكليزية (Sugar) وبالفرنسية (Sucre) وبالألمانية (Zucker) وبالاسبانية (Azúcar) وبالإيطالية (Zucchero) وبالسويدية (Soker)

قصب السكر في جميع أنحاء الدولة الإسلامية التي تصلح ظروفها لإنباته ،
وأسسوا معامل لتكريره في سوريا ومصر وقبرص وجزر بحر قزوين وشمال
إفريقية وصقلية والأندلس . وكان ذلك خلال القرن الثامن الميلادي . وكانت
هذه المعامل تنتج كميات كبيرة من السكر النقي بحيث تغطي ولادة طويلة
استهلاك العالم الإسلامي والقارة الأوربية .

هذا وقد أصبحت مصر أكبر الأقطار الإسلامية في إنتاج السكر . وقد
بدأت زراعته هناك في عام ٧٥٠ م وأصبحت من أنجح الأعمال في جميع مدن
الدلتا .

كما أنتجت مصر نوعاً من السكر يعرف باسم القند وانتقل هذا اللفظ
(Candy) إلى اللغات الأجنبية ليطلق على نوع من الحلوى . كما أنتجت
مصر نوعاً ممتازاً من قوالب السكر المتبلور .

وزاد الاهتمام بزراعة القصب في مصر في عهد الدولة الفاطمية لأنه
عماد صناعة السكر والعسل . وتعددت مطابخ تكريره حتى ذكر أن عددها
في مدينة الفسطاط وحدها بلغ ثمانية وخمسين مطبخاً . هذا بالإضافة إلى
المطابخ الموجودة في المنيا والفيوم وأسيوط وغيرها .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن مادة السكر لم تكن معروفة لدى
الأوروبيين قبل القرن العاشر الميلادي ، إذ تدلّ الوثائق التاريخية على أن أول
شحنة من السكر وصلت إلى ميناء البندقية كانت عام ٩٩٦ م . إلا أن
تجارته توسعت كثيراً خلال الحروب الصليبية فبلغت ألمانيا وإيطاليا
وفرنسا . وأصبح السكر في منتصف القرن الثاني عشر مادة تجارية رئيسية
في تلك الأقطار . وإن أول معمل لتكرير السكر في أوروبا كان عام ١٥٧٣ م .
بمدينة اوغسبرغ الألمانية .

هذا ومع أن المسلمين ألفوا الكتب في طرق زراعة قصب السكر وطرق
استخراجه وتكريره ابتداء من القرن الثامن الميلادي ، إلا أن أول مؤلف
أوروبي وصف طريقة تكريره ، ظهر في القرن السابع عشر الميلادي على الرغم
من أن الأوروبيين قد نقلوا زراعته إلى أمريكا قبل ذلك بأكثر من قرن .

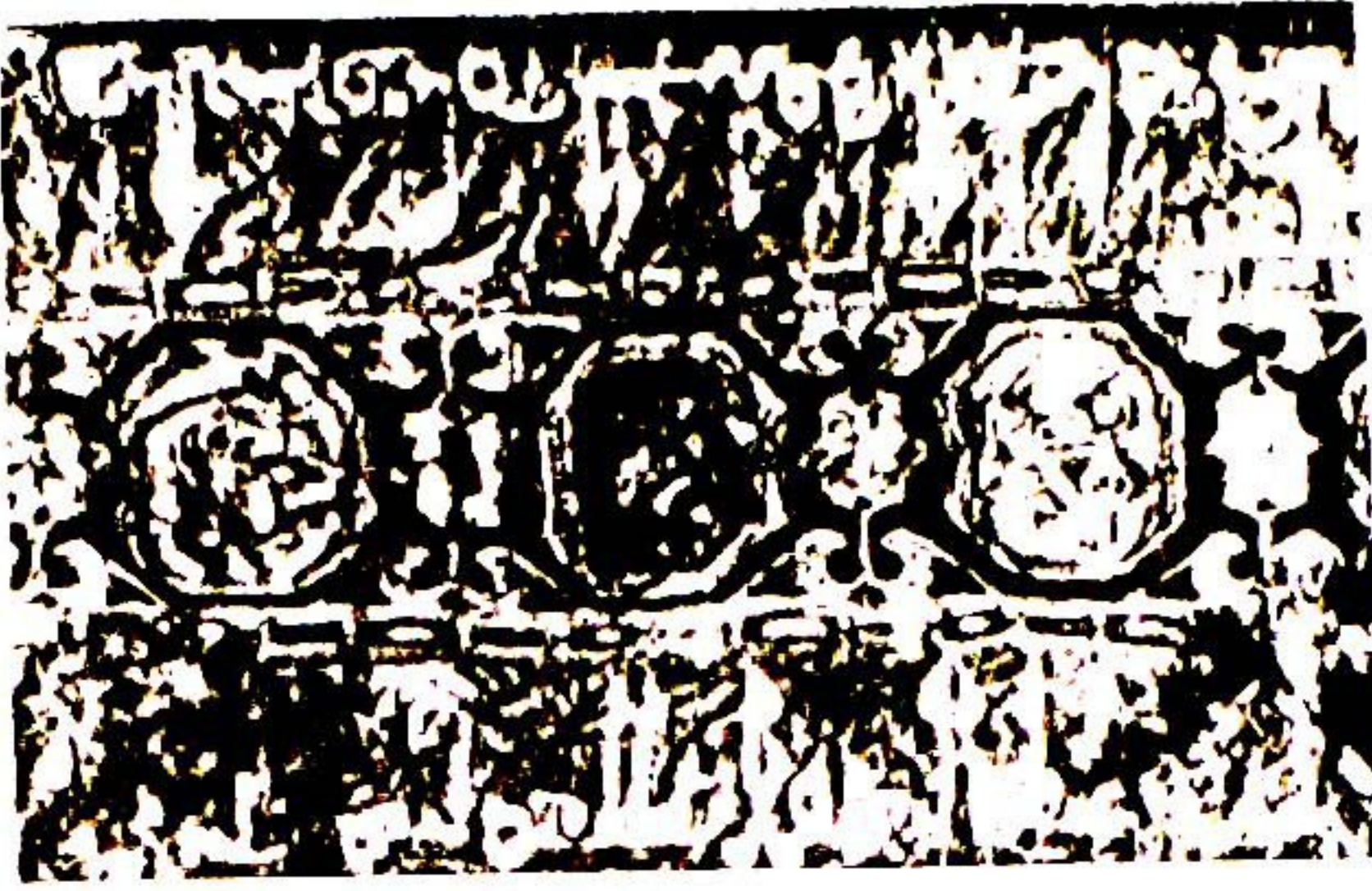
٤ - صناعة الأقمشة :

يعتبر الملابس أحد المطالب الثلاثة الأساسية التي يحتاج إليها جسم الإنسان (الطعام ، اللباس ، المسكن) . وكما كانت صناعة الملابس ذات أهمية ، كانت زينة البيوت بالستائر والسجاد مهمة كذلك . وقد تنوعت الملابس والستائر من قطر لآخر حتى أصبحت من الدلالات المميزة لكل قطر . وفيما يلي استعراض لما قام به المسلمون في عهودهم المختلفة في إغناء أنواع متعددة من هذه الصناعة الهامة .

عنى المسلمون بصناعة الملابس من المنسوجات الفاخرة منذ العهد الأموي بتأثير الرفاهية وزوال عهد الزهد والبساطة في أيام الخلفاء الراشدين . وبزيادة الترف في العهد العباسي ، نشطت دور النسيج في أنحاء الدولة العباسية لإنتاج أفخر المنسوجات للخلفاء . وقد أنشئت لهذه الغاية مصانع النسيج الحكومية في مصر والتي عرفت باسم دور الطراز . وأمدت الحكومة الطولونية الحكام في بغداد وسائر البلاد الإسلامية بالمنسوجات الكتانية والحريرية . وكان اسم الخليفة وألقابه تطرز على شريط النسيج بالإضافة إلى أشرطة تزخرف برسوم نباتية أو آدمية أو حيوانية . ولقد عثر على عدة قطع من صنع مصر مطرز عليها أسماء الخلفاء هارون الرشيد والأمين والمعتضد والمقتدر وبعضها يحمل إلى جانب الخليفة العباسي اسم الحاكم الطولوني . هذا ومع أن مختلف أنواع الأقمشة كانت منتشرة في أرجاء الدولة الإسلامية ، إلا أن بعض الأقطار تميز بنوع أو أكثر منها فبلاد مصر مثلا ، اشتهرت بصناعة المنسوجات الكتانية . وكان المركز الرئيسي لصناعة هذه المنسوجات في العهد العباسي هما الفيوم وبحيرة تنيس . هذا بالإضافة إلى مدن مصرية أخرى اشتهرت بهذه المنسوجات منذ دمياط وشطا وديبق . وإلى المدينة الأخيرة ينسب القماش المعروف بالديبقي ، وهو قماش من الكتان ثقيل الوزن جيد النسيج . وربما بلغ ثمن الثوب المصنوع من هذا القماش ما بين مئة إلى مئتي دينار . وكان الديبقي يستعمل كذلك في رسم الخرائط بالأصباغ المشمعة .

وكانت ثياب الخليفة تصنع في تنيس وتحلى بخيوط الذهب . وتن

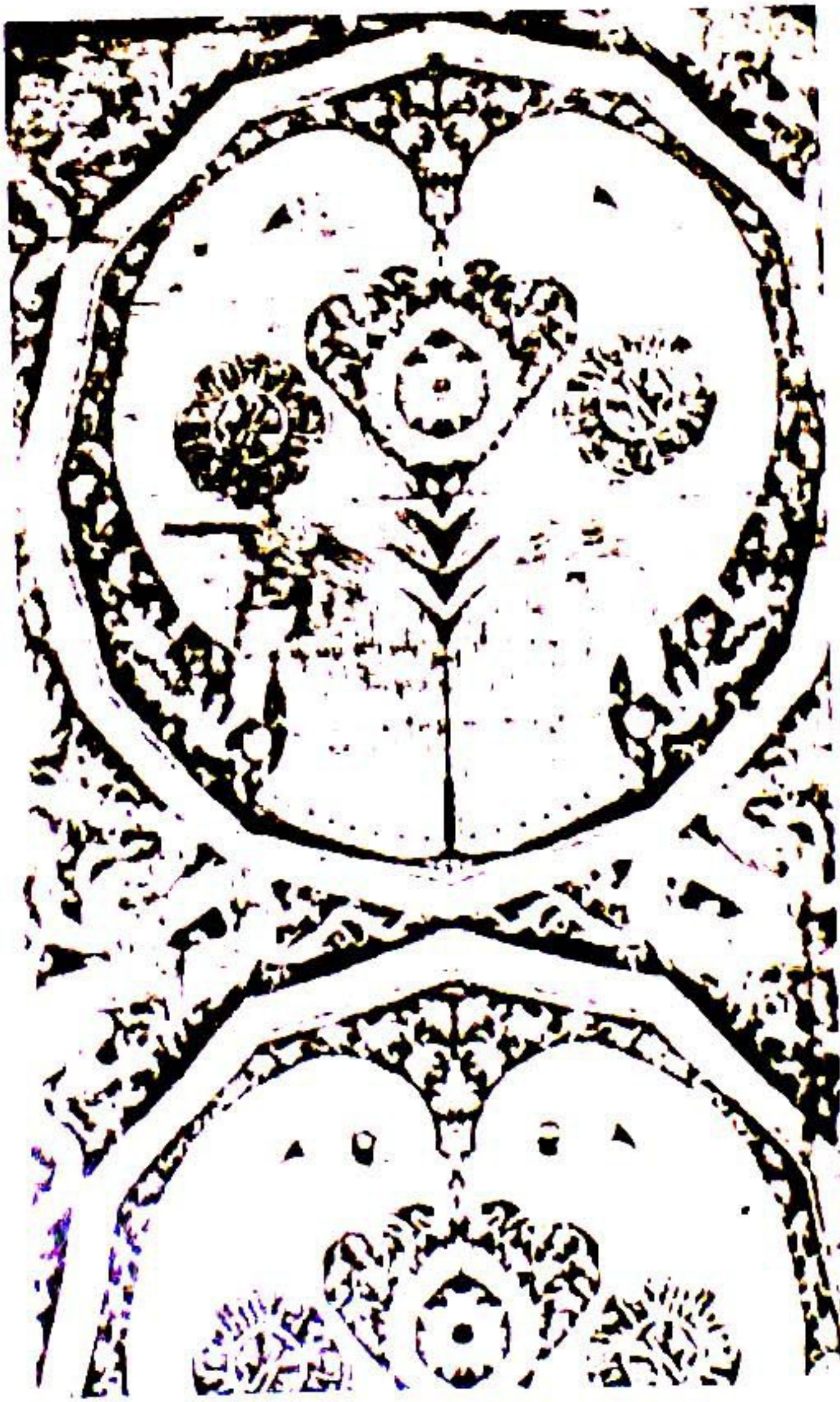
من نماذج صناعة المنسوجات في العهد الإسلامي



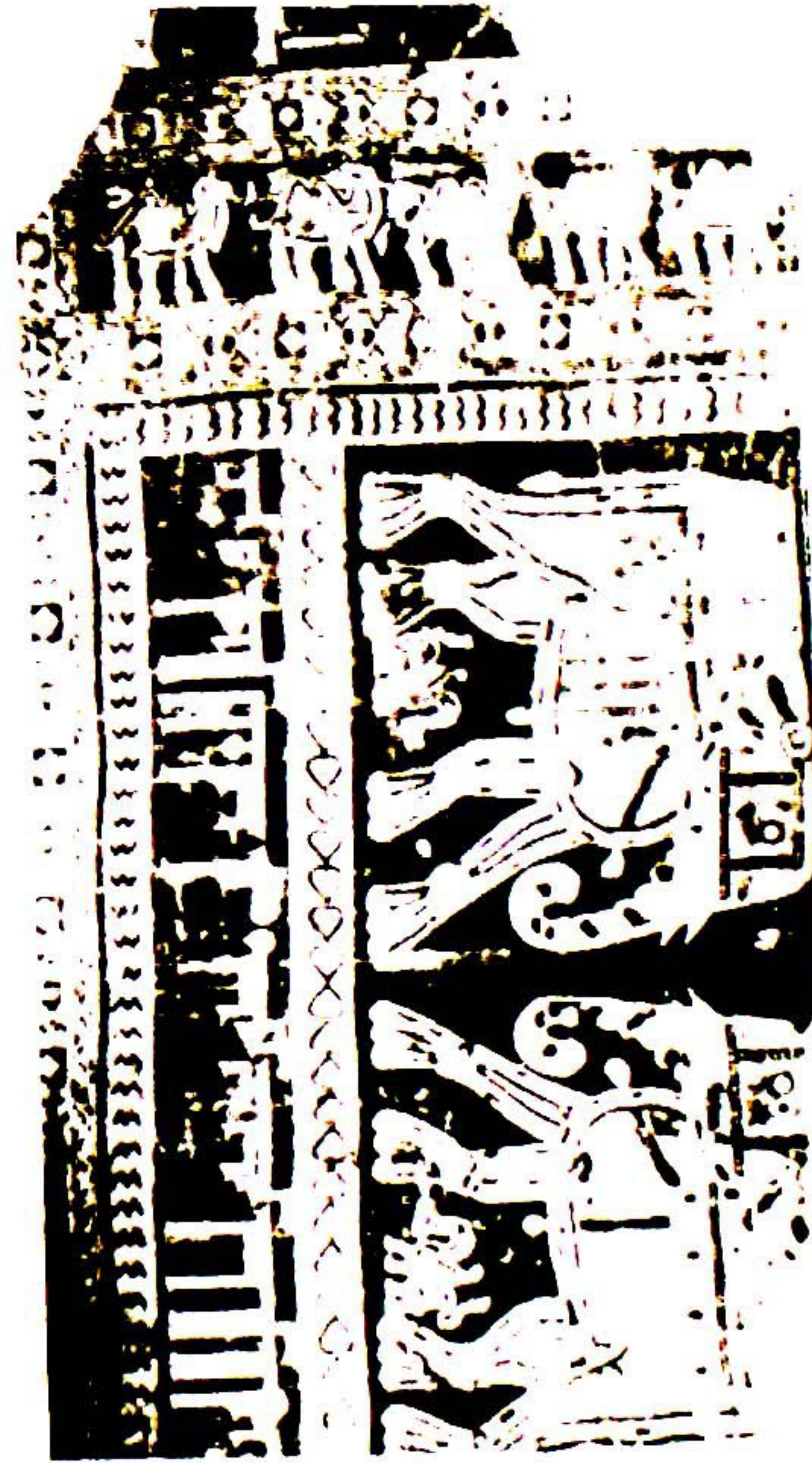
قطعة نسيج من الحرير تخص لهتام إسفاني
العصر الأموي بأشبانيا



قطعة نسيج من الكتان المزخرف بأسرطة صربية
القرن ٦ هـ / ١٣ م العصر الفاطمي



قطعة من الديباج عليها اسم الناصر
بالحقنوط الذهبية القرن ٨ هـ / ١٤ م
العصر المملوك



قطعة نسيج تخص القائد أبو منصور (خراسان)
القرن ٤ هـ / ١٠ م - متحف اللوفر

قيمة الثوب ألف دينار . أما في الفيوم فكانت تصنع الستائر الثمينة . وقد يصل طول الستارة الواحدة إلى أكثر من ثلاثين ذراعاً وقيمة الزوج منها يساوي ثلاثمئة دينار . وكانت تنيس وحدها تصدر للعراق بما قيمته ٢٠ - ٣٠ ألف دينار سنوياً . وكانت تصنع في تنيس أيضاً الثياب الرقيقة التي يشبه نسجها خيوط المنخل وكانت تعرف **بالقصب** . ومن القصب الملون هذا كانت تعمل عمائم للرجال وملابس للنساء . كما كانت تنيس تصنع في القرن الخامس الهجري نوعاً جديداً من القماش يسمى **أبا قلبون** يبدو للرائي بألوان مموجة . وهذا هو القماش المعروف بالموار المموج (Moiré) .

ولم تقتصر صناعة الكتان على مصر وحدها ، بل كان لهذه الصناعات مراكز في فارس أيضاً . وكانت مدينة **كازرون** أكبر مركز لتلك الصناعات حتى إنها كانت تلقب **دمياط الأعاجم** . ولقد بدأت هذه الصناعة في المدن الساحلية من فارس ثم انتقلت إلى الداخل . وكان هناك نوع من القماش الفارسي يسمى **بالتوزي** نسبة إلى بلدة توز رغم أن أكثره يصنع كازرون .

أما الطريقة التي كانت تتبع في صناعة الكتان فهي أن يبيل الكتان برك ثم تفصل أليافه عن بعضها وتغزل . ثم تغسل خيوطه في ماء نهر^(١) خاصة في تبيض خيوط الكتان ثم تلف وتصدر للأسواق بعد ختمها . وكان الثقة متوفرة بين المصدر والمستورد الذي لم يكن يفتح اللفائف بل يكتفي بشهادة سمسار البيع .

أما المنسوجات القطنية فقد كان مشرق الدولة الإسلامية مركزاً لصناعتها ، كما كان مغرب تلك الدولة مركزاً للكتان . فقد حمل القطن من الهند إلى بلاد ما وراء النهر وشمالاً إلى فارس قبل أن ينقل شرقاً أو غرباً . لم يكن القطن معروفاً في بلاد الصين خلال القرن الثالث عشر الميلادي

(١) يعرف هذا النهر بنهر الرهبان ويشرف على استخدام مياهه لهذا الغرض ناظر السلطان به سمسرة لملاحظة هذه العملية إذ لم يسمح للنساج استخدامه إلا تحت إشراف هذا النهر وسمسارته .

لقد بدأت صناعة القطن في كابل التي كانت إبان القرن الرابع لهجرى تصدر الثياب القطنية المشهورة بجودتها وكانت تنقل إلى الصين وخراسان . ومن كابل انتشرت صناعة المنسوجات إلى البلدان المجاورة . نشر الحمدانيون زراعة القطن في أرض الجزيرة ثم انتقلت زراعته إلى الشمال الإفريقي والأندلس .

أما المراكز الرئيسية لصناعة القطن فكانت تقع في شرقي فارس هي : مرو ، ونيسابور ، وكرمان التي اشتهرت بثياب القطن الفاخرة . كان يعمل بها الطيالسنة المقوّرة ويبلغ ثمن الطيلسان ٣٠ ريالاً . وكانت تباع في خراسان والعراق ومصر . وفي مرو كان يصنع القطن اللين لثقيل والغليظ كما كان يصنع في بلاد تركستان . ويندر وجود الكتان هناك كان يعتبر من الهدايا الثمينة .

وقد اشتهرت الموصل بأرقى أنواع المنسوجات القطنية المعروفة بالموصل والموسيليني (Mousseline) كما يسمى بالفرنسية . وكان الأوربيون يشترون هذا القماش من الموصل ، وكان الموسيليني يصنع أيضاً من لصوف أو الحرير .

أما المنسوجات الحريرية فقد ازدهرت في إيران إبان العصر العباسي تقدمت تماماً زمن البويهيين ، وقد اشتهرت إيران بأفخر المنسوجات الحريرية ومن بين المنسوجات الحريرية تلك القطع الموزعة على كثير من متاحف العالم . وقد احتوت تلك القطع على زخارف نباتية وحيوانية إلى جانب الكتابة .

ولقد اشتهرت سمرقند كمركز رئيسي لصناعة الحرير وينسب كثير من الباحثين بعض قطع المنسوجات الحريرية الموجودة اليوم في بعض متاحف إلى سمرقند . كما انتشرت صناعة الحرير في بغداد . وقد وجدت في كنيسة يون بأسبانيا قطعة من الحرير من صناعة بغداد في القرن العاشر الميلادي . امتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية .

هذا وقد ازدهرت صناعة الحرير في الأندلس إبان العصر الأموي .

التاريخ - ٣ ثانوي

« يوزع مجاناً ولا يباع »

— ٢٥٧ —

مِن صِنَاعَةِ الْمَسْجُوجَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ



قطعة نسيج من حرير - صناعة بغداد - متحف ليون / فرنسا



ديباج كهندي من ذهب - لعصر المغولي



نسيج من الحرير الموشى - صنع غزاليه

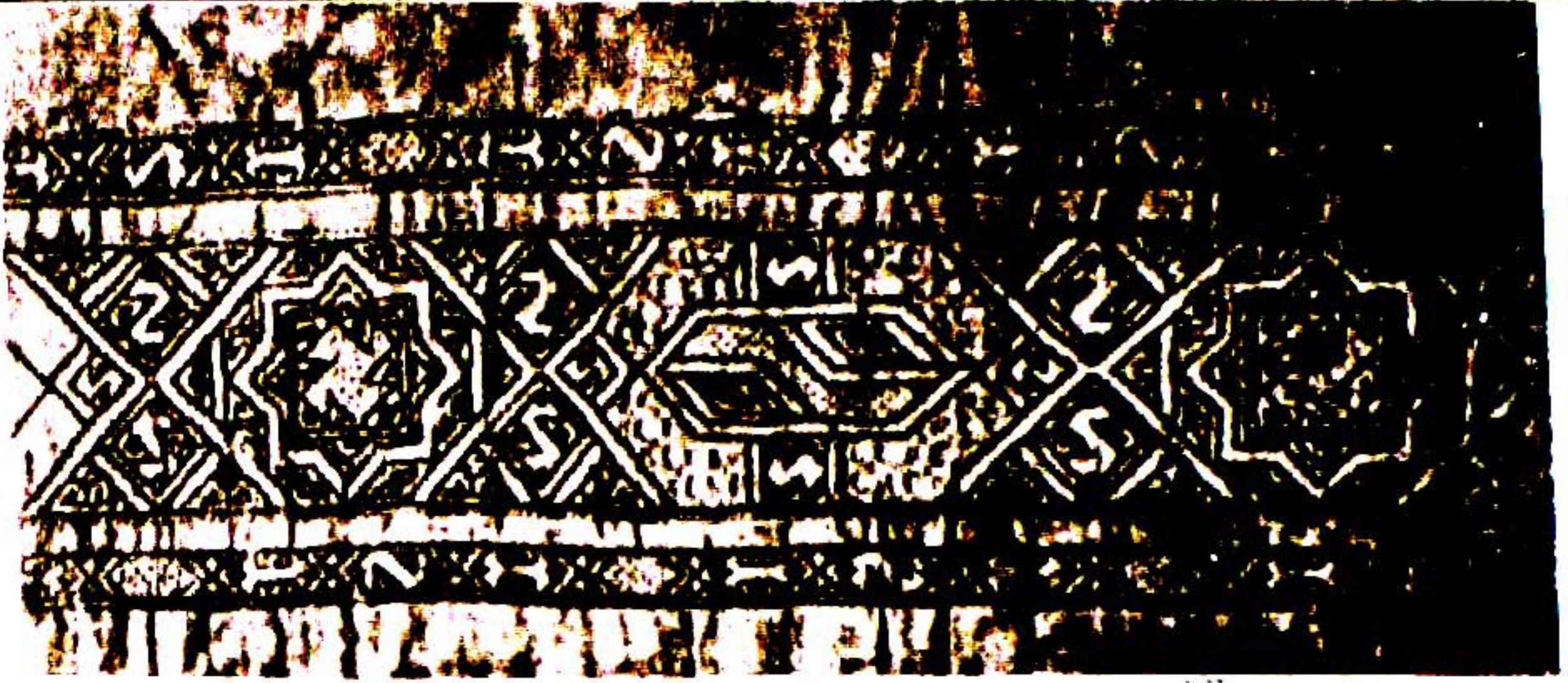
١٤٤٠ / ١٤٤١



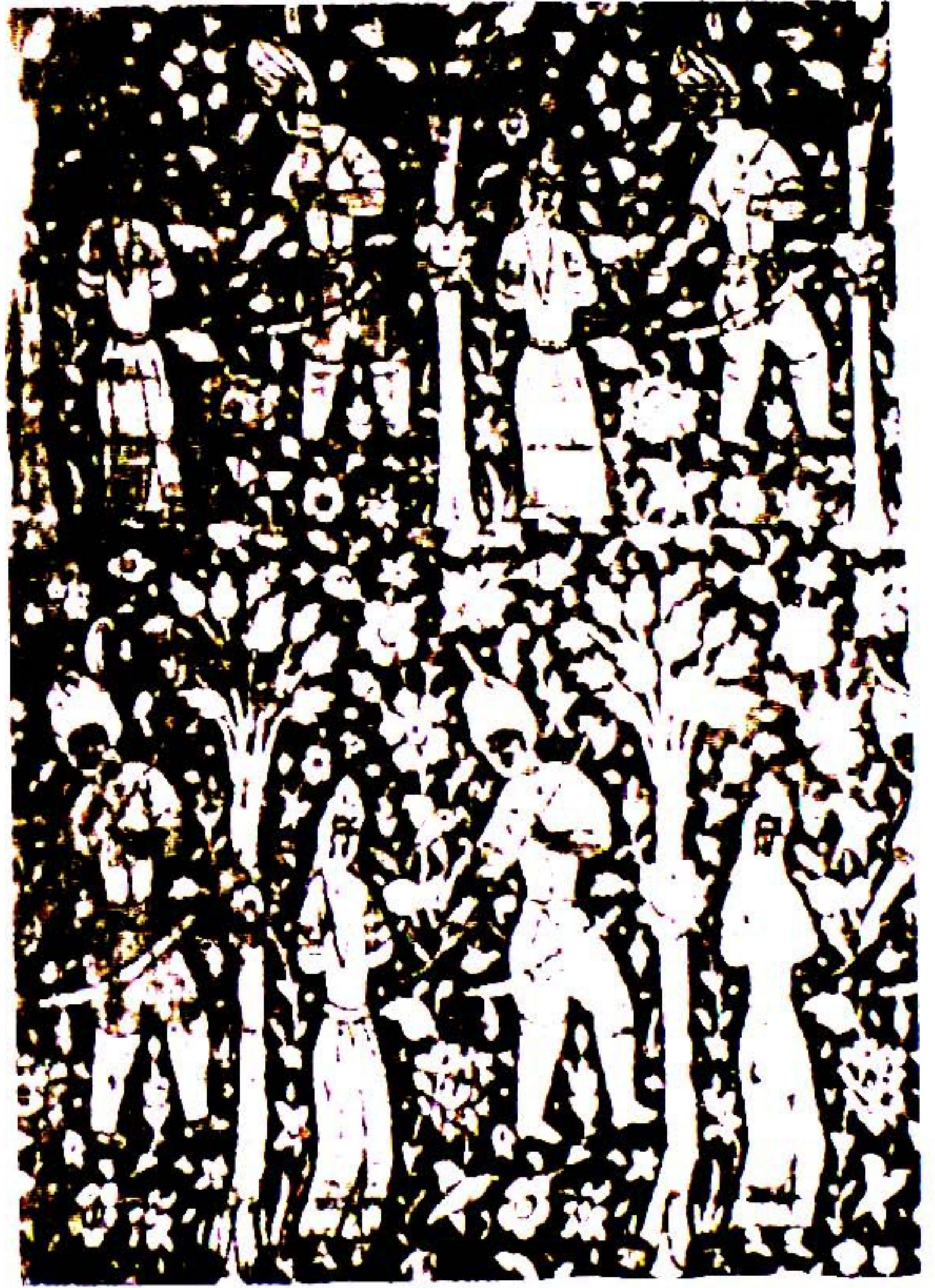
قطعة حرير - صنع الهند

١٤٤٠

مِن صِنَاعَةِ الْمَسْجُوجَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ



قطعة وبر مطرزة / العصر المملوكي (متحف فكتوريا وباربيتون / لندن)



نسيج من الحرير اليدوي المتعدد
اللون القرن ١٠م / ١٦م



قطعة قماش لعروق قماش الحرير (متحف الحرفه بيرلين)

وكانت لهذه الصناعة مراكز كثيرة هناك مثل مرسية وإشبيلية . ولقد وجدت نماذج جميلة لمنسوجات حريرية من فترة خلفاء قرطبة ومن بينها قطعة حرير في أكاديمية التاريخ بمدريد تخص هشام الثاني .

واشتهرت دمشق بالأنواع الفاخرة من المنسوجات الحريرية المعروفة باسم الدماقس (Damast) .

ومن المنسوجات الإسلامية أيضاً المهير (Mohair) المصنوع من شعر الماعز ، والقماش الشفاف (Chiffon) الذي كان يصنع من الحرير أو القطن والأطلس (Atlas) وهو من الحرير ، والتفتة (Tafta) والساتان وهو أفخر أنواع المنسوجات الحريرية وكان من ملبوسات الأغنياء .

وفي اللوحات الخاصة بنماذج المنسوجات ما يوضح مدى براعة المسلم وإتقانهم لهذه الصناعة .

صناعة السجاد والبسط :

ومن الصناعات الأخرى في مجال المنسوجات التي اشتهرت بها البدو الإسلامية صناعة السجاد والبسط . وكانت هناك ثلاثة أنواع من السجاجيد الإسلامية هي :

١ - سجاجيد الجدران .

٢ - السجاجيد التي تفرش بها أراضى الغرف والممرات والأبهاء

٣ - السجاجيد التي تزين بها أراضى الغرف وليس للسير عليها

وهناك أنواع أخرى صغيرة منها سجاجيد الصلاة والأغطية التي تستخدم للوسائد (المخاد) والنمازق والمقاعد وغيرها .

ويرجع الفضل إلى السلاجقة في نشر صناعة السجاد في بلدان العالم الإسلامي إذ كانت صناعته في بادئ الأمر مقصورة على قبائل التركمان الرحل الذين كانوا يستخدمونه في بلادهم للوقاية من البرد بدلاً من الفراش .

لما استخدموه أيضاً لتغطية أرض الخيام .

ولقد عرف المسلمون هذا السجاد بعد اعتناق هذه القبائل للدين الإسلامي . ثم أدخل السلاجقة السجاد إلى بلادهم في تركيا بعد أن أدخلوا عليه تحسينات أزلت الصبغة البيزنطية .

كما أن صناعة السجاد دخلت إلى بلاد القفقاس في عهد الأسرة الالخانية المغولية . وفي عهد الأسرة التيمورية التي تلتها أضيفت إلى صناعة السجاد الزخارف النباتية بدلا من الزخارف الهندسية التي كانت سائدة من قبل .

وينسب إلى العصر الأندلسي نوع من السجاد يتميز بزخارف متكررة في صفوف لأشكال مثمانية بداخلها زخارف هندسية وأشكال جميلة من لفنون .

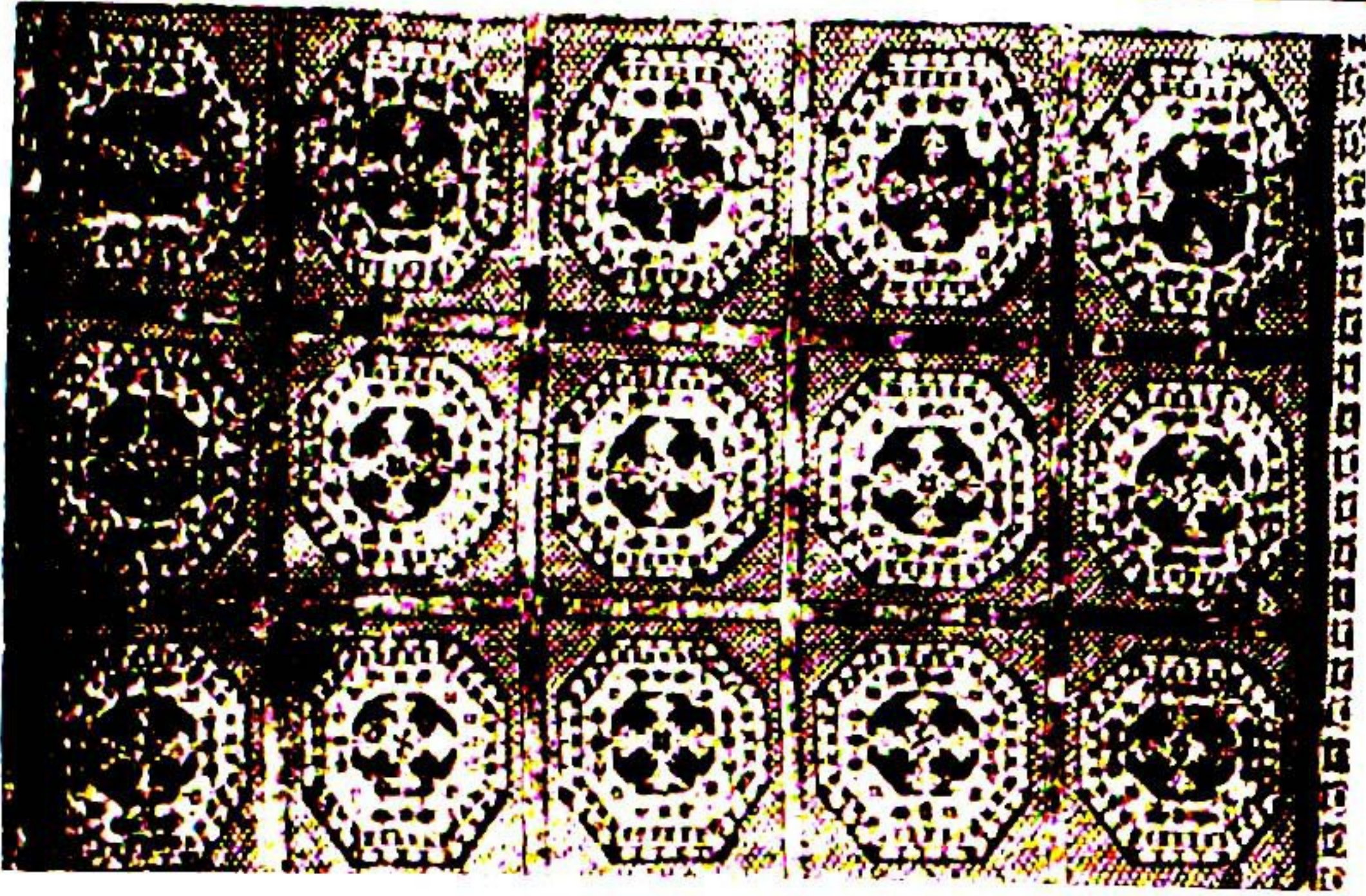
والإطار الخارجي يتكون من أشرطة مزخرفة بكتابات كوفية وأشكال هندسية ورسوم أخرى . وتتميز صناعة السجاد الأندلسي بألوانه الهادئة استخدام اللون الأسود في تحديد بعض التفاصيل .

وفي المغرب عثر على سجاد تظهر زخارفه على أشكال نجمية متكررة . أما في العصر المملوكي فقد تميز السجاد بزخارف هندسية ملونة بالأزرق على أرضية حمراء . بالإضافة إلى التراص بين الزخارف الهندسية والزخارف النباتية .

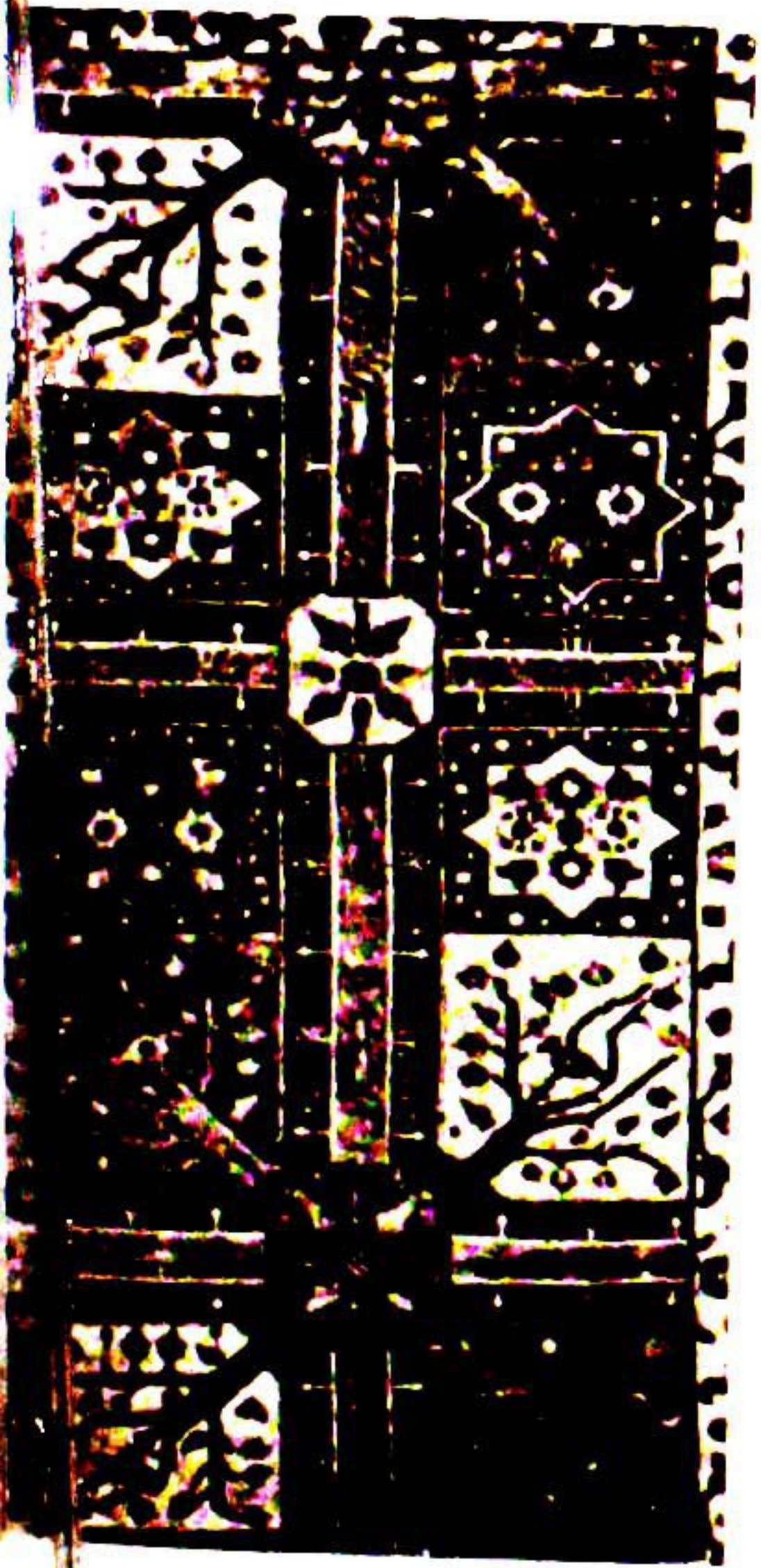
وفي عصر الدولة الصفوية الفارسية بإيران ، بلغت صناعة السجاد عصرها الذهبي حيث زاد إنتاج السجاجيد لكثرة الطلب عليها من أوروبا . وقد استبدلت الوحدات الهندسية التي كانت شائعة في العصرين الإلخاني والتيموري بزخارف ذات عناصر نباتية وغيرها . وكانت تبريز مركزاً رئيساً لصناعة السجاد آنذاك . هذا بالإضافة إلى مراكز أخرى مثل هراة ، وهمدان ، وقاشان .

ويفضل الباحثون في علم صناعة السجاد تقسيم السجاجيد الإيرانية

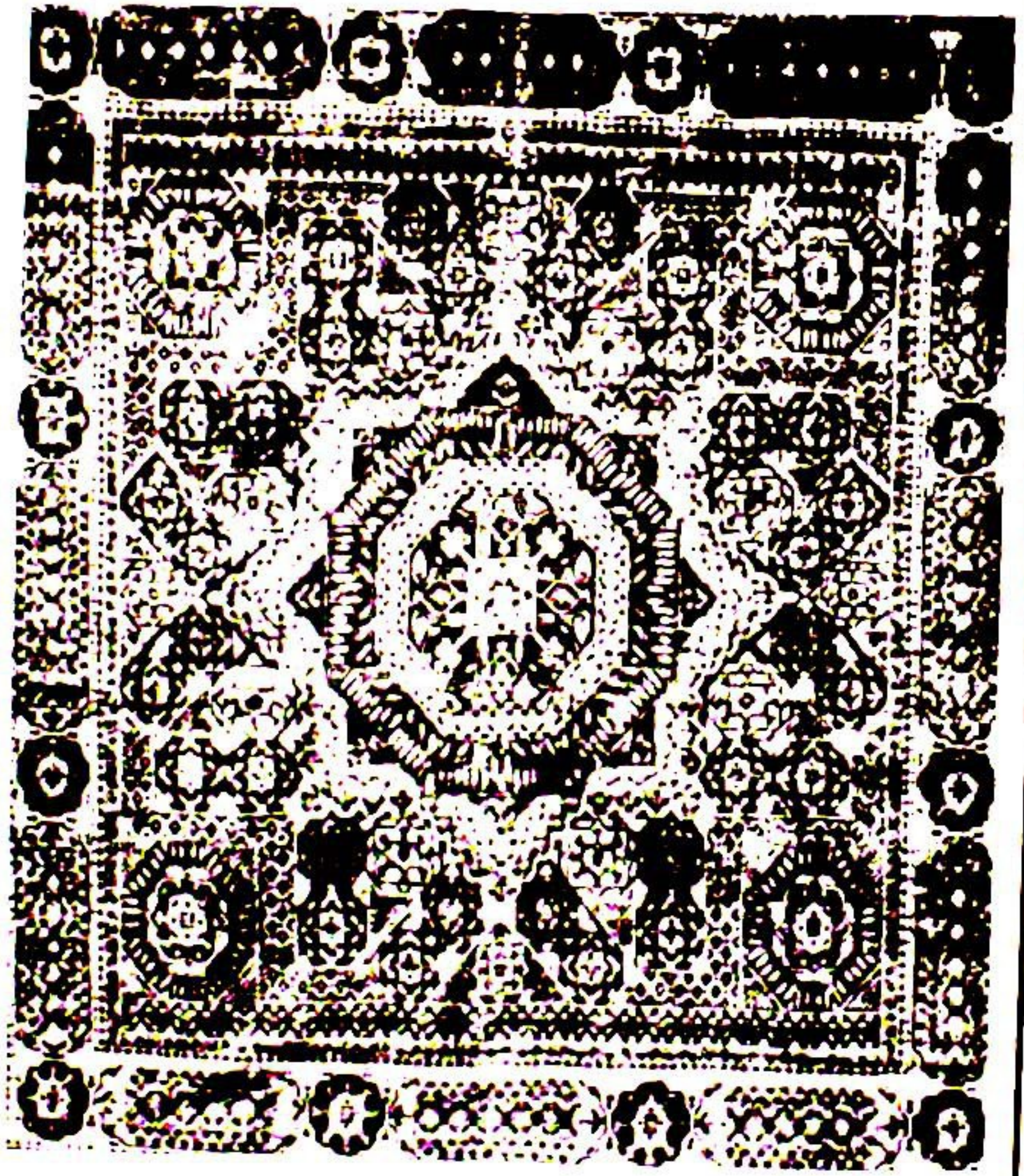
نَمَازَجٌ مِنْ مَصْنُوعَاتِ السَّجَادِ



سجادة من صنع الأندلس القرن ٩ هـ / ٢١٥ م متحف كليفلاند (أمريكا)



سجادة تمثل الحدیثة البیرانية ١٤ هـ / ٢ م متحف لمارفارد .

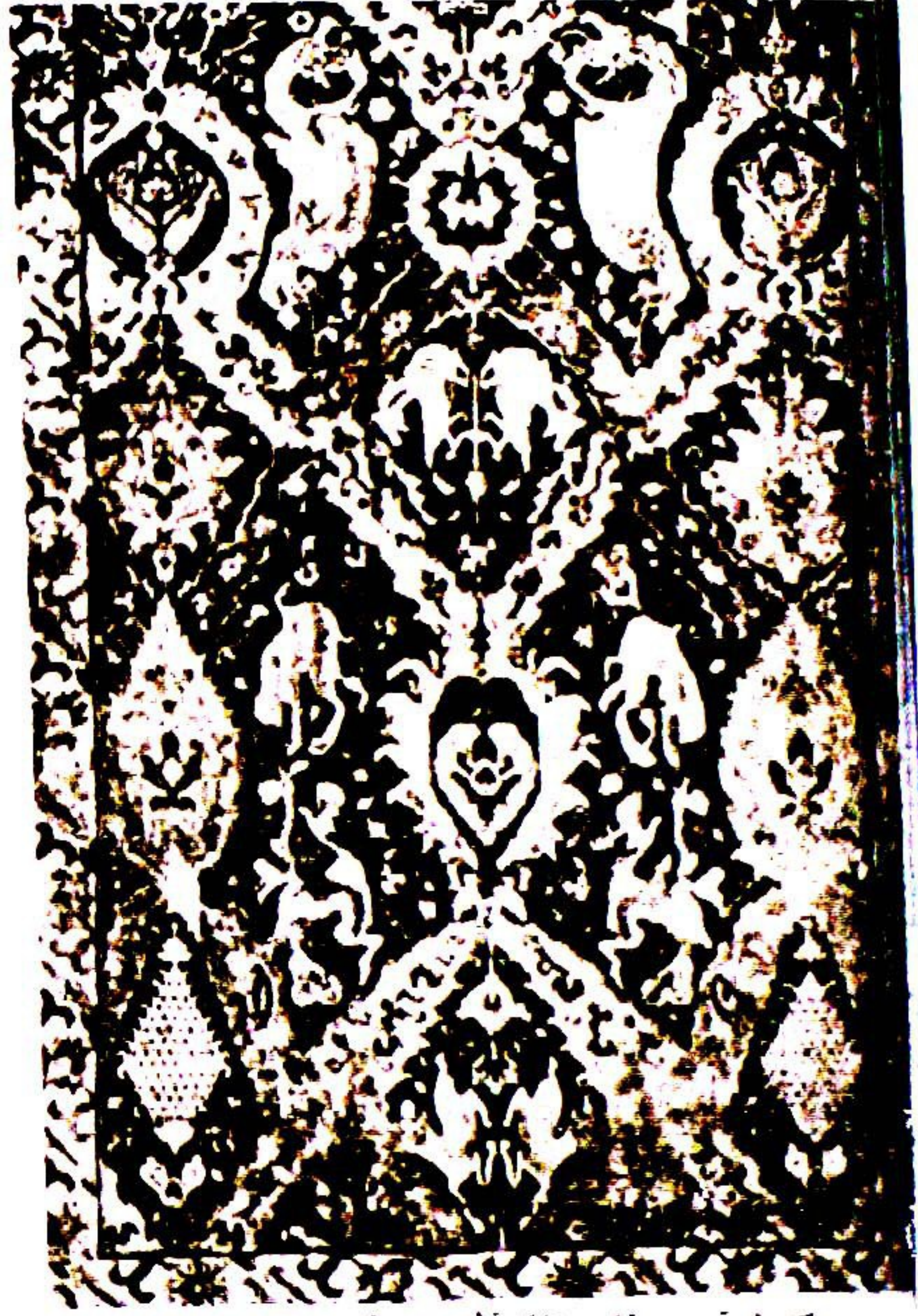


سجادة من صنع مصر ١٠ هـ / ٢١٦ م متحف المتروبولیتان / نیویورک

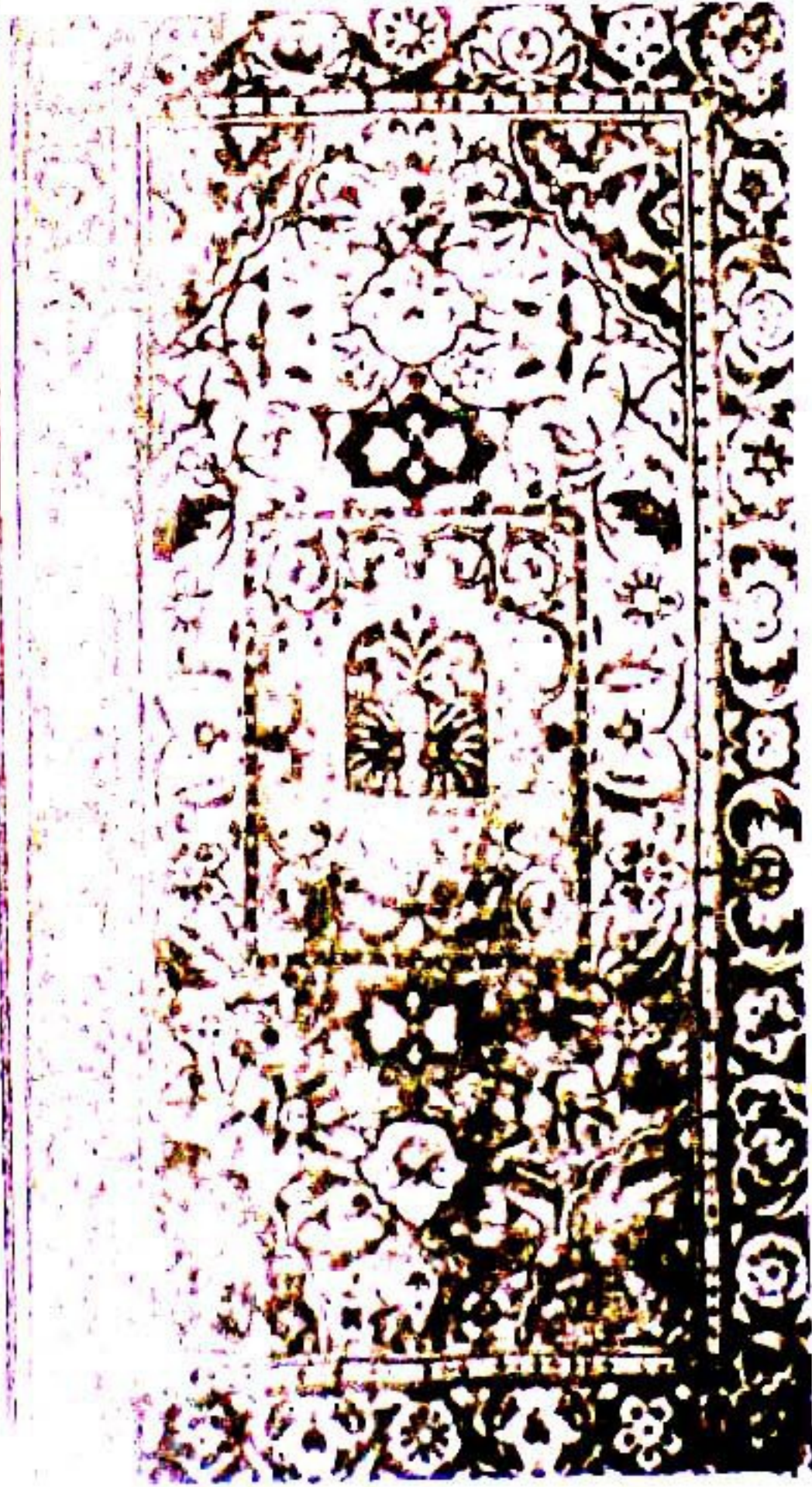
نَمَازَجٌ مِنْ مَصْنُوعَاتِ السَّجَادِ



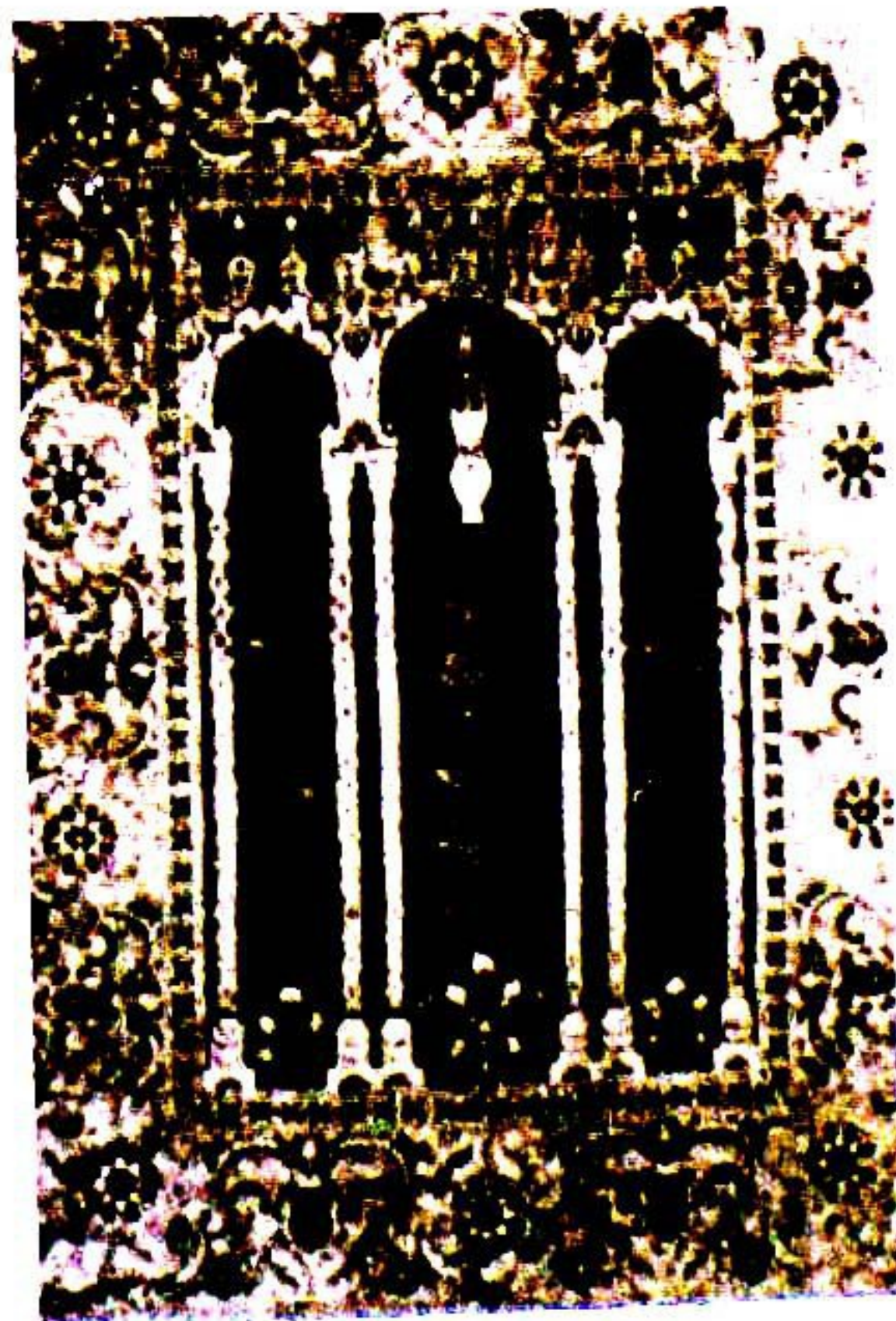
سجادة مزخرفة بأشجار (صناعة تبريز)



سجادة من صناعة القوقاز ١٠ هـ / ١٦ م
(متحف فكتوريا والبرت / لندن)



سجادة مرمرية مطرزة بخيوط الذهب
بعضر الصفوي (إيران)



سجادة صلاص صنع مصر
١٠ هـ / ١٦ م بعضر العثماني
متحف والترز في بلنير



سجادة صناعة اصفهان ١٠ هـ / ١٦ م
متحف فكتوريا والبرت / لندن

إلى مجموعات حسب موضوعاتها الزخرفية لا حسب مراكز إنتاجها .

أما النوع الأكثر انتشاراً في السجاجيد الصفوية فهو الذي تتركز فيه الزخارف حول جامته في الوسط . وكانت تلك الجامعة إما مستديرة أو بيضاوية مسننة أو نجمية الشكل . وهناك مجموعة سجاجيد بها زخارف من الزهور تشبه المزهريات ولا تتوسطها جامات . كما توجد مجموعة ثالثية تتميز برسوم تشبه تقسيم الحدائق الإيرانية . وكما توجد السجاجيد الإيرانية المصنوعة من الصوف ، توجد سجاجيد حريرية لا تزال نماذج موجودة منها في متحف فكتوريا والبرت بلندن . كما يوجد نوع مطرز بخيوط الذهب أو الفضة .

أما في العصر العثماني فقد اشتهرت آسيا الصغرى بالسجاد الذي غلبت عليه ميزات السجاد التركماني الذي جلبته تلك القبائل معها لدى استيطانها في آسيا الصغرى . ويعرف السجاد التركي باسم صانعه . ولقد تطورت زخارف السجاد التركي من وحدات هندسية إلى أنواع أخرى متعددة من حيث الزخرفة . فمنها ما تعتمد زخارفه على جامعة كبيرة بيضاوية في الوسط تتوسط السجادة وتتكرر وأجزاؤها في الزوايا مع تفرعات أخرى ومنها ما تتكون زخارفه من مجموعة من الأشكال النجمية موزعة على صفوف في أرضية السجاد . ومنها ما احتوى على عدة زخارف متكررة لأشكال مراوح نخيلية محورة تبدو وكأنها رسوم طيور وألوانها الأزرق والأحمر فوق أرضية بيضاء . ومنها ما كانت زخارفها الهندسية مكونة من مناطق مختلفة الأحجام والأشكال مترابطة جنباً إلى جنب بحيث تغطي الأرضية وغالباً ما تتوسط السجادة منطقة هندسية كبيرة نجمية الشكل أو ذات أضلاع متعددة والزخارف من تفرعات نباتية ملونة بالأخضر والأزرق والأرضية حمراء . ويحيط بالسجاد إطار به زخارف ثابتة .

وعرفت بلاد الهند في القرن الثالث عشر الميلادي أنواعاً من السجاد تأثرت صناعتها بالأساليب الزخرفية الإيرانية . إذ نقلوا رسوم الأزهار إضافة بعض أساليب هندسية .

(انظر الى اللوحتين اللتين تحتويان على نماذج من السجاد ليتضح

يدى اتقان المسلمين لهذه الصناعة الهامة) .

٥ - صناعة الأصباغ :

عنى المسلمون بهذه الصناعة عنايتهم بالصناعات الأخرى لما للأصبغة من أهمية فى كثير من المجالات . إذ كانوا يستخدمون الأصبغة فى تلوين المنسوجات والسجاد والبسط . بالإضافة إلى الأوانى الخزفية والزجاجية والقاشانى والفسيفساء والزخارف الجصية والكتابة والمصنوعات الجلدية وغيرها من الصناعات والفنون الجميلة .

وقد مكنهم تقدمهم فى العلوم الكيماوية من استخدامها فى صناعة الأصباغ الفلزية الأصل والتي لها ارتباط بتلك العلوم . والأصباغ على أنواع : فالطلاء منها هو عبارة عن مادة مسحوقة تخلط فى الوسط المائع تعطى اللون المطلوب . وأغلب هذه الصبغات مركبات فلزية . وبعض هذه الصبغات توجد بالصخور والتربة .

وهناك صبغات مأخوذة من مواد نباتية مثل النيلة أو مواد حيوانية كالقرمز وهناك صبغات أخرى تؤخذ من قطران الفحم وهى ذات اللون الأسود . أما صباغ اللك فيحضر صناعياً من عدة مواد .

لقد استخدم الصينيون والفرس والهنود الأصباغ منذ أزمنة بعيدة . ولما جاء المسلمون إلى تلك البلاد أخذوا تلك الصناعات وطوروها إلى الأفضل واستعاضوا بها عن الذهب والفضة الذى كانت تطلّى به بعض الأوانى النفيسة . كما استخدموها فى أغراض تلوينية بحيث تؤدى وظيفة جمالية . واستعملوا الألوان الزرقاء والخضراء والذهبية بكثرة . إلى جانب مساحات محدودة من الألوان الحمراء والصفراء والبنية كما تشاهد فى المئمنات والتحف الزجاجية والخزف والقاشانى . فاللون الأخضر يمثل السهل الأخضر والأزرق يمثل لون السماء والماء . أما اللون الذهبى ذو البريق السحرى فقد استعمل بكثرة فى الفن الإسلامى ، لا سيما وأن هذا اللون خرج الإنسان من الواقع الأرضى ويدفعه ويحلق به فى السماء وهى غاية واضحة فى العقيدة الإسلامية .

واستعمل الفنان المسلم كذلك ألوان الخامات الطبيعية استعمالاً
جمالياً وذلك لإبراز لون الخامة نفسها . مثال ذلك الحفاظ على لون الخشب
والأبنوس ، والعظم والعاج والرخام والبرونز والذهب والفضة وغيرها . كما
استخدم المسلمون الألوان في رسومهم وزخارفهم لتقوم بوظيفة النور والظل
بحيث تبرز الرسوم بشكل واضح وقريب للواقع وفي هذا ما يعطيه جمالا
ورونقا .

ولكثر استخدام الأصبغة في الصناعة والفن الإسلامى أوجه
المسلمون معامل تحضيرها في عدد من البلدان الإسلامية .

٦ - صناعة السفن :

لم يُعَنَّ العرب في صدر الإسلام ببناء السفن من أجل استخدامها
الأغراض الحربية وذلك لعدم تعودهم ركوب البحار ولعدم معرفتهم
بأحوالها . وكان أول من ركب البحر ، غازيا في سبيل الله هو العلاء
الحضرمي والى البحرين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
غزا بلاد فارس بحرا دون استئذان . وقد فقد المسلمون في هذه الغزوة مع
سفنهم .

إلا أنه بعد أن فتح المسلمون بلاد الشام ، ألح معاوية على الخليفة
أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحرا . فلم يأذن له لعدم خبرة المسلمين
بالمقاتل في البحر .

ولما ولى الخلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أعاد معاوية الطلب
غزو الروم بحرا . فأذن له شريطة ألا يُكره أحداً على ذلك . فكان الغزو
الإسلامى لجزيرة قبرص وتبع ذلك غزوات متتالية نظمت على شكل شوا
وصوائف . وكانت معركة ذات السوارى البحرية التى انتصر فيها عبد الله
ابن أبى السرح والى مصر في عهد الخليفة عثمان بن عفان .

وقد عنى معاوية بن أبى سفيان كثيراً ببناء السفن لاستخدامها في
صدّ غارات البيزنطيين على البلاد الإسلامية ، وفي تنظيم الصوائف

الشواتى لغزو ديارهم . فأنشأ داراً لصناعتها مستخدماً الأخشاب التى
 كثر فى بلاد الشام . وكانت أول دار أنشئت لهذا الغرض ، فى جزيرة
 روضة بمصر عام ٥٤ هـ . ولشدة عناية معاوية فى بناء السفن ، بلغ عدد
 سفن الأسطول الإسلامى فى عهده ١٧٠٠ سفينة . وعلى الرغم من أن
 صناعة السفن وقيادتها لم تكونا ابتكاراً إسلامياً ، إلا أن المسلمين أتقنوا
 صناعة والقيادة معاً ، حتى أصبحوا بعد فترة وجيزة ، أساتذة العالم
 بها . حتى إن كثيراً من المصطلحات العربية فى القيادة البحرية قد وجدت
 أريقها إلى اللغات الأوربية مثل دار العتاد والحربية (الترسانة
 Aarsenal) والحبل (Cable) وأمير البحر (ADMIRAL) .

ازداد اهتمام المسلمين ببناء السفن فى العهد الأموى فكثرت دور
 صناعتها فى موانئ البحر المتوسط مثل عكا والإسكندرية وغيرهما . كما
 بنوا المنارات ليهدى بها ربان السفن . كما نظموا قيادة السفن
 الأساطيل بأن جعلوا لكل سفينة قائداً ومعه موظف ليتولى أمر الملاحة
 وجعلوا للأسطول ككل قائداً عاماً دعى بأمر البحر . هذا وكان بمصر
 كثير من الموانئ الرئيسية التى اشتهرت ببناء السفن النهرية
 (النيلية) لنقل الحاصلات من مكان لآخر ، والسفن الحربية لنقل
 الجنود والمعدات العسكرية لحرب الروم التى اشتهرت بها بلاد
 الشام كذلك .

وفى العهد العباسى والدول التى قامت خلاله ، زادت العناية بصناعة
 السفن . فقد جعل الطولونيون من جزيرة الروضة أحواضاً للسفن كما
 جعل الإخشيديون من الفسطاط داراً لصناعتها . أما الفاطميون فقد
 هتموا كثيراً ببناء السفن لأهميتها فى القتال ضد المسيحية وذلك من أجل
 بسط السيادة على البحر المتوسط . ولتحقيق هذا الغرض حصنوا كثيراً من
 موانئ ذلك البحر مثل عكا وصور وعسقلان والجزائر ووهران وغيرها
 وزودوها بالأعداد اللازمة من السفن والمعدات . كما بنوا أحواضاً لصناعة
 السفن فى دمياط والإسكندرية لتزويد الموانئ بالسفن التى تحتاج إليها .
 فى زمن الدولة الأيوبية استمر الاهتمام ببناء السفن فى الازدياد وذلك
 لحاربة الصليبيين .

وفي بلاد المغرب ، اهتم المرابطون في عهد يوسف بن تاشفين ببناء السفن وكذلك في عهد ابنه علي الذي كان له أسطول ضخم تمكن بواسطته من التغلب على أساطيل الفرنجة في بلنسية بالأندلس وجزر البليار . وكان لأمير البحر في عهده المسمى ابن ميمون شهرة بحرية رائعة انتشرت في سواحل الأندلس وإيطاليا وفرنسا . وفي عهد الموحيدين استمرت العناية بإعداد الأسطول الذي برزت قوته القتالية في الحرب مع النورماندين حكام صقلية بقيادة عبد الله بن ميمون الذي تمكن من إغراق أعداد كبيرة من سفن الأعداء . ولم يكتف الموحدون هؤلاء بالعناية في بناء السفن الحربية ، بل افتتحوا المدارس لتدريب العاملين في تلك السفن على الأساليب الحربية وعملوا بركة كبيرة بالقرب من مدينة مراكش صنعت فيها سفن وقوارب التدريب . وأما في العهد الأموي بالأندلس فقد اهتم الحكام المسلمون هناك ببناء السفن لا سيما عبد الرحمن الناصر الذي تمكن من بناء أسطول ضخم . وقد قال المستشرق (دويزي Dozy) بهذا الشأن إن عمال السفن ودور صناعتها لم يجدوا وقتاً للراحة . وكانت الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس أهم دور صناعة السفن .

هذا ولم يقتصر اهتمام المسلمين بصناعة السفن للأغراض الحربية بل كان لاهتمامهم بصناعتها في الأغراض التجارية أمر بالغ في انتشار الصناعات الإسلامية في كثير من أقطار العالم . وكانت دور صناعة السفن التجارية بمصر - لا سيما في دمياط إبان العهد الفاطمي - تنتج أعداداً كبيرة من تلك السفن . هذا وقد لعب ميناء عيذاب الواقع على البحر الأحمر دور كبيراً في ازدهار التجارة في ذلك البحر والبحر العربي كذلك . كما أصبحت موانئ البحر المتوسط الإسلامية مراكز تجارية ذات شهرة عالمية وأصبحت الأساطيل التجارية الإسلامية ترتاد الكثير من موانئ ذلك البحر وتنقل إليه الصناعات الإسلامية المتعددة .

وفي العهد العثماني زادت العناية ببناء السفن التي أخذت تصد على نطاق واسع جداً وذلك لاستخدامها في الجهاد بمختلف البحار ضد أعداء الإسلام . (عد بذاكرتك إلى الفتوحات الإسلامية في العهد العثماني ، وه المعارك البحرية التي خاضها العثمانيون - ضد الصليبيين من برتغاليين

أسبان ونمساويين وإيطاليين لاسترداد الكثير من الأراضي المغتصبة في البحر المتوسط ولمساعدة ملوك وأمراء الهند المسلمين ضد أعداء الإسلام - بخافية (ليك) .

كما أن الاساطيل التجارية العثمانية كانت تنقل البضائع والسلع من بلاد الصين والهند وجزر جنوب شرقى آسيا إلى البلاد الإسلامية في شرقى بحر المتوسط عبر المحيط الهندى والبحر العربى والبحر الأحمر ، وكذلك أنت تنقلها من موانئ شرقى البحر المتوسط إلى مختلف موانئ أوربا . ل ذلك أعاد للمسلمين قوتهم الاقتصادية بعد أن عمل الصليبيون على نزعها ن أيديهم .

٧ - صناعة السلاح :

عنى المسلمون بصناعة الأسلحة والتدريب على استعمالها في مختلف عصور الإسلامية . ومن بين تلك الأسلحة السيف والرمح والقوس والترس لدرع . أما آلات الحرب الأخرى والتي استخدمت في الحصار هى : المنجنيق ، الدبابة والكبش .

أما السيف : فكان عند العرب أشرف الأسلحة وكانت السيوف سبب لأماكن صناعتها . فهناك السيوف اليمانية والهندية والسليمانية الخراسانية والدمشقية . وفى العهد الإسلامى الأول اشتهرت بعض سيوف بحاملها . فهناك سيف ذى الفقار لعل بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسيف الصمصامة لعمر بن معدى كرب الزبيدى . كما اشتهرت لأندلس والمغرب بصناعة السيوف . أما أقوى السيوف وأفضلها فهو ما صنع من الفولاذ . هذا ويوجد فى المتحف البريطانى نماذج من السيوف هندی والسيف الدمشقى .

وأما الرمح : وهو أكثر ما يكون استخداماً على الخيل . ولكن لا بد فارس من استعماله بحذر خوفاً من انكساره . ولذا كان للعرب وصايا فى ريقة استعماله عند ملاقاتة الأعداء . ولا يزال اللعب بالرمح يستخدم حتى يوم فى الاستعراضات العسكرية من قبل فرق الخيالة (الفرسان) .

أما أسنّة الرماح ، وهى غالباً ما تكون من الفولاذ ، فلها أشكال متعددة . فمنها المُشَعَّب والعريض والرفيع والمستوى والموج ، وغير ذلك .

وأما القوس وذخيرته النشاب : فقد كان للعرب مهارة فائقة في استعماله لحدة أبصارهم بسبب سكناهم الصحراء الشاسعة الأرجاء ، ولأنهم أحوج إليها من سائر الأسلحة لاستخدامها في صيد الغزلان بالإضافة إلى الحروب . وقد بلغت مهارة العرب في استعمال القسي حتى إن الواحد منهم يستطيع أن يصيب إحدى عيني الغزال الذى يريد اصطياده . ولذلك سموا رماة الحدق . وكان أحدهم يعلق ضباً على شجرة ثم يرميه بالنبال فيصيب أى عضو منه .

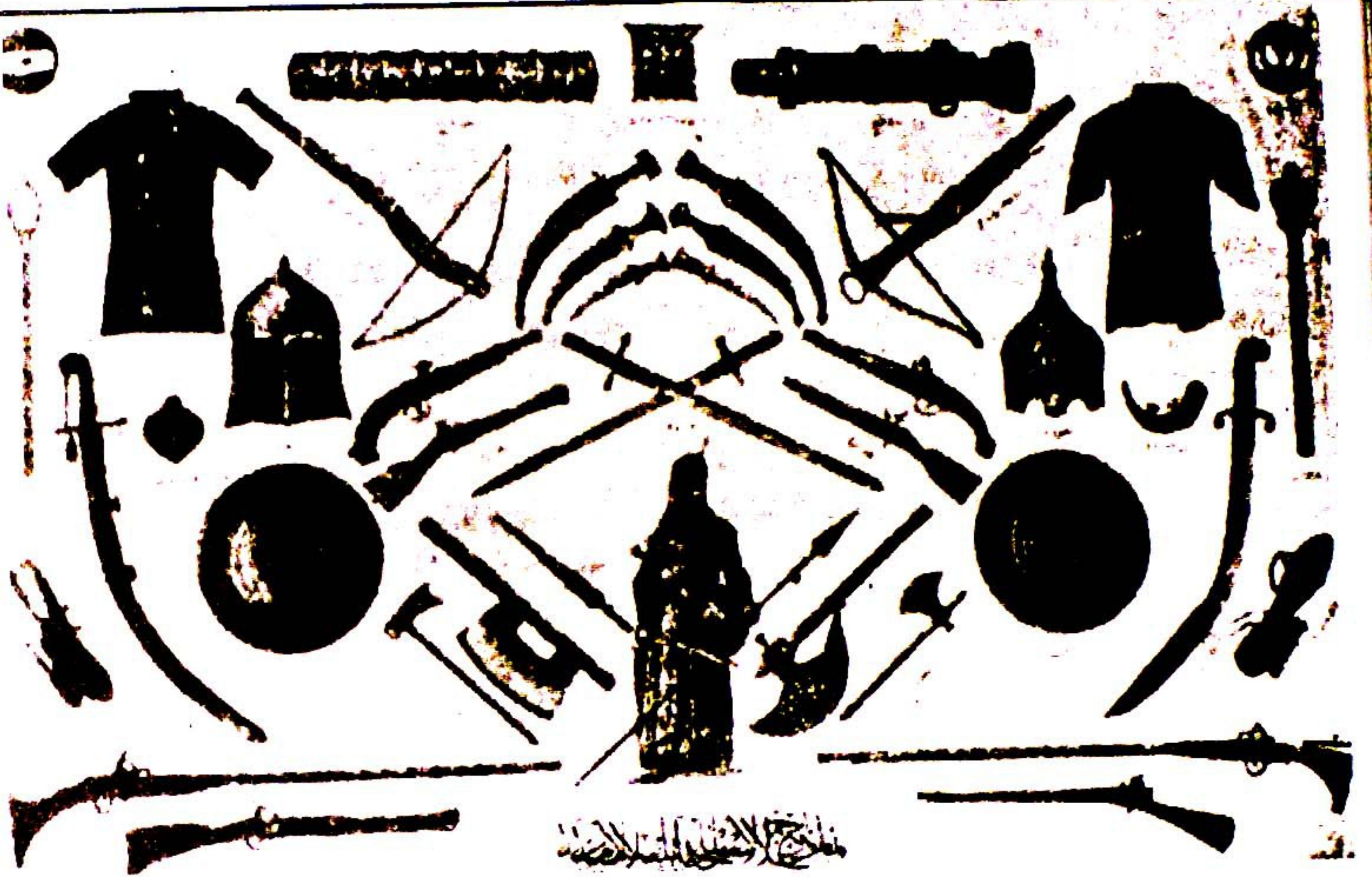
ولما جاء الإسلام ، كانت مهارة العرب المسلمين في الرمي بالقوس والنشاب من الأسباب التى مكنتهم من الإنتصار على الروم الذين لم يكونوا يحسنون الرماية . ولما للرماية من أهمية فقد قال صلى الله عليه وسلم : (**إِرْكَبُوا وَارْمُوا فَإِنَّ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرَكَبُوا**) ، وقال عليه الصلا والسلام وهو قائم على المنبر : (**أَعَدُّوا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ . أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمَى . أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمَى . أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمَى**) . وكان الخلفاء والقواد يحثون رجالهم على إتقان الرماية كما يحرضونهم على العناية بخيولهم .

وقد تفنن المسلمون بالرمي حتى اصطنعوا من الأقواس آلات مركبة **كالمجراة** . وهى عبارة عن أنبوب من حديد أو خشب فيه شق يوضع فيه السهم ويقذف قذفاً شديداً كما تقذف الرصاصية من البندقية اليوم . كما صنعوا ضرباً من المجانيق توضع فى الواحد عدة سهام وترمى عنها بالأقواس .

أما القرس : فهو على أصناف كثيرة كل صنف منها يصلح لشيء فمنها المسطح والمستطيل والمقرب والمقرب المنحنى الأطراف . ولكل طرفه فائدة فالمقرب المنحنى الأطراف يتقى به صاحبه النشاب والحجبة والسيف . والمستطيل يتقى به النشاب ، والمسطح يتقى به الرمح .

ولقد تفنن المسلمون فى صنع الأتراس أو التروس ونقشوا عليها الآيات

نَمَازِجُ اسلِحَةِ إِسْلَامِيَّةٍ



والحكم والأشعار . وتميزت أتراس كل بلد بشكل خاص . ومن هذه الأتراس المميزة : الترس الدمشقي والترس العراقي والغرناطي .

أما المادة المصنوع منها الترس فهي متنوعة فالبعض استعملوا الحديد في صناعتها ومنهم من جعلها من الخشب المكشوف أو المغطى بالجلد أو الجلود المتينة المدهونة بأنواع معينة من الطلاء . إلا أن المهم في الأمر أن تقي المحارب من ضربات العدو .

وأما الدروع : وكان فرسان العرب يستعملونها لوقاية الأجسام من ضربات العدو . وكانت الدروع تصنع من الحديد أو الفولاذ أو الجلد

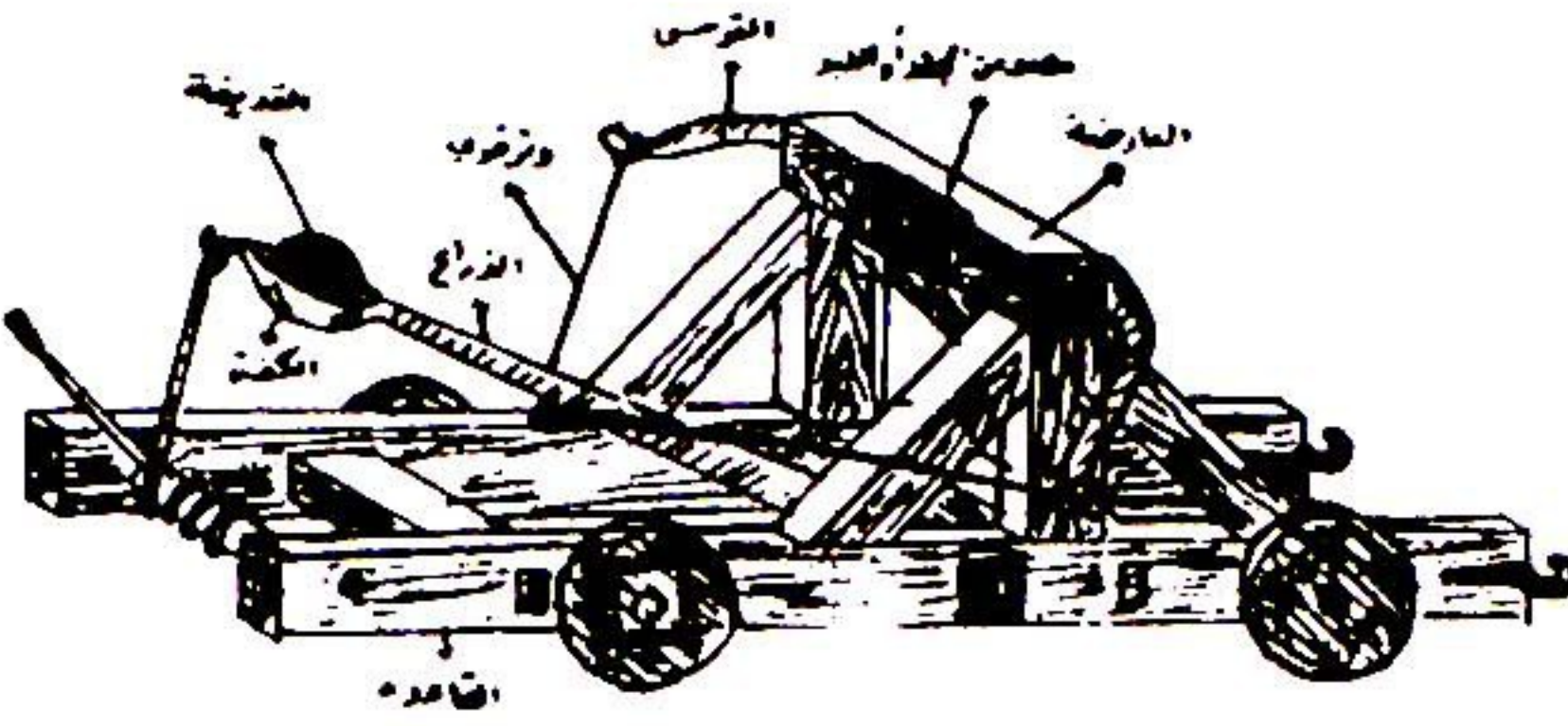
وكانت الدروع مؤلفة من عدة أجزاء فهناك الجزء الذي يقي صد الفارس ويسمى هذا الجزء الجوشن وهناك الجزء الذي يغطي الرأس وهو الخوذة . وهناك الأجزاء التي تغطي الساقين والكتفين .

وقد حرص المسلمون على إتقان صناعة الدروع بحيث تقي مرتدٍ ضربات الأعداء .

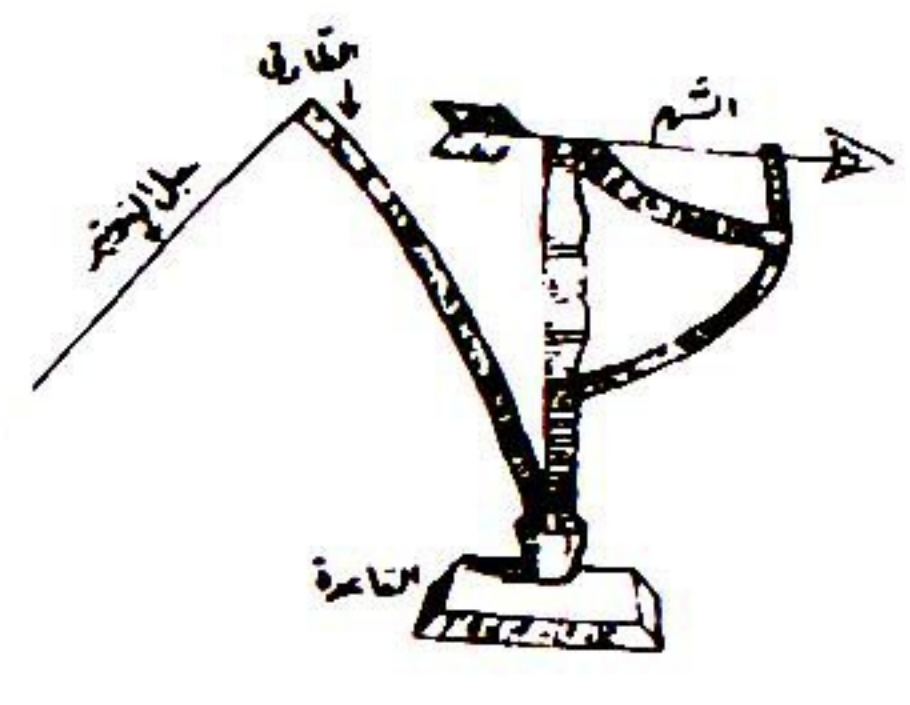
كما عرف المسلمون من الأسلحة أيضاً الخناجر والفتوس والبطات (البَلَطَات) . وأما الآلات التي استخدمها المسلمون في فتح المد والحصار فهي كثيرة ، منها : المنجنيق والدبابة والكبش .

فأما المنجنيق : فهو آلة قاذفة استخدمها المسلمون لأول مرة ، حصار الطائف وقد أرشدهم إليها سلمان الفارسي ويقال إنه هو الذي صنعها . والمنجنيق أصناف كثيرة . فمنها الكبير والصغير ومنها ما يُشَقُّ بلوالب وأقواس أو ما يدار بالمقلاع . وتستخدم إما لرمي السهام والحجارة ، (انظر الشكلين الأولين في اللوحة فالشكل الأول لرمي السهم والثاني لرمي الحجارة) ، أو قدور النفط أو نحو ذلك . فان كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص . وإن كانت من السوائل ونحوه اتخذوا لها كؤاً كالكأس وعلقوها بسلاسل . وكانت المجانيق تتفاوت في قدرتها ومضارها حتى إنهم كثيراً ما كانوا يسمون كلا منها باسم يدل على بعض أوصافه

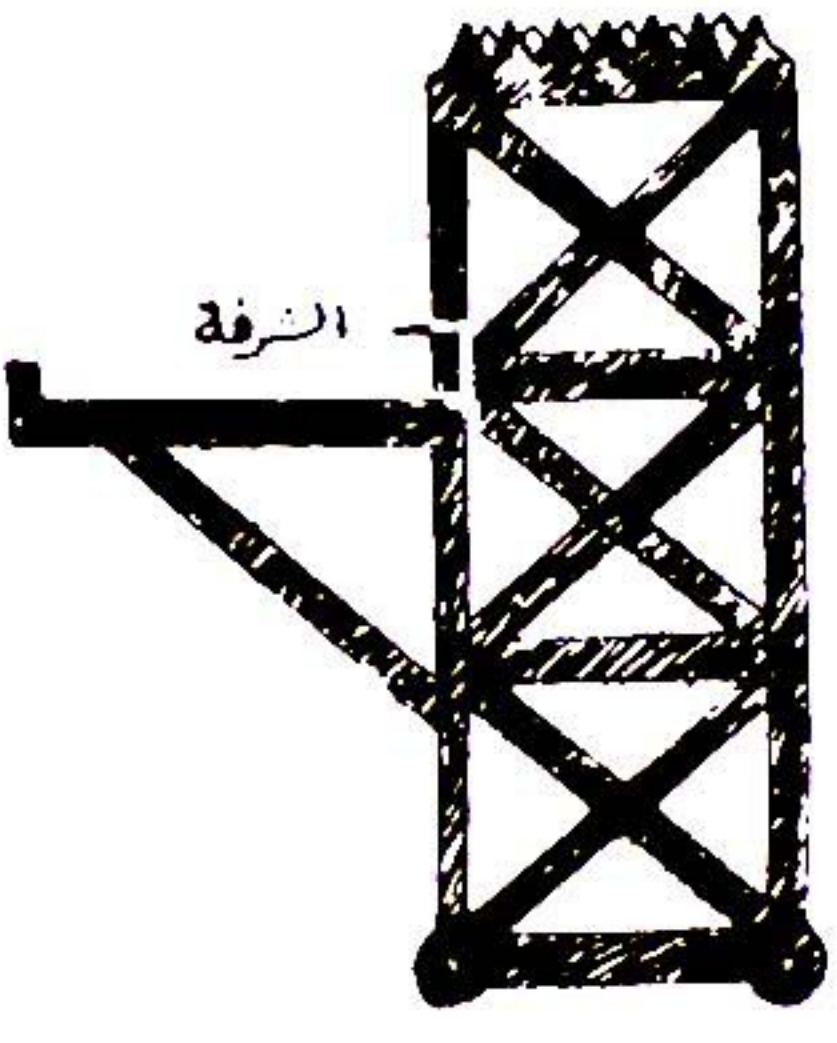
نماذج من آلات الحرب الإسلامية



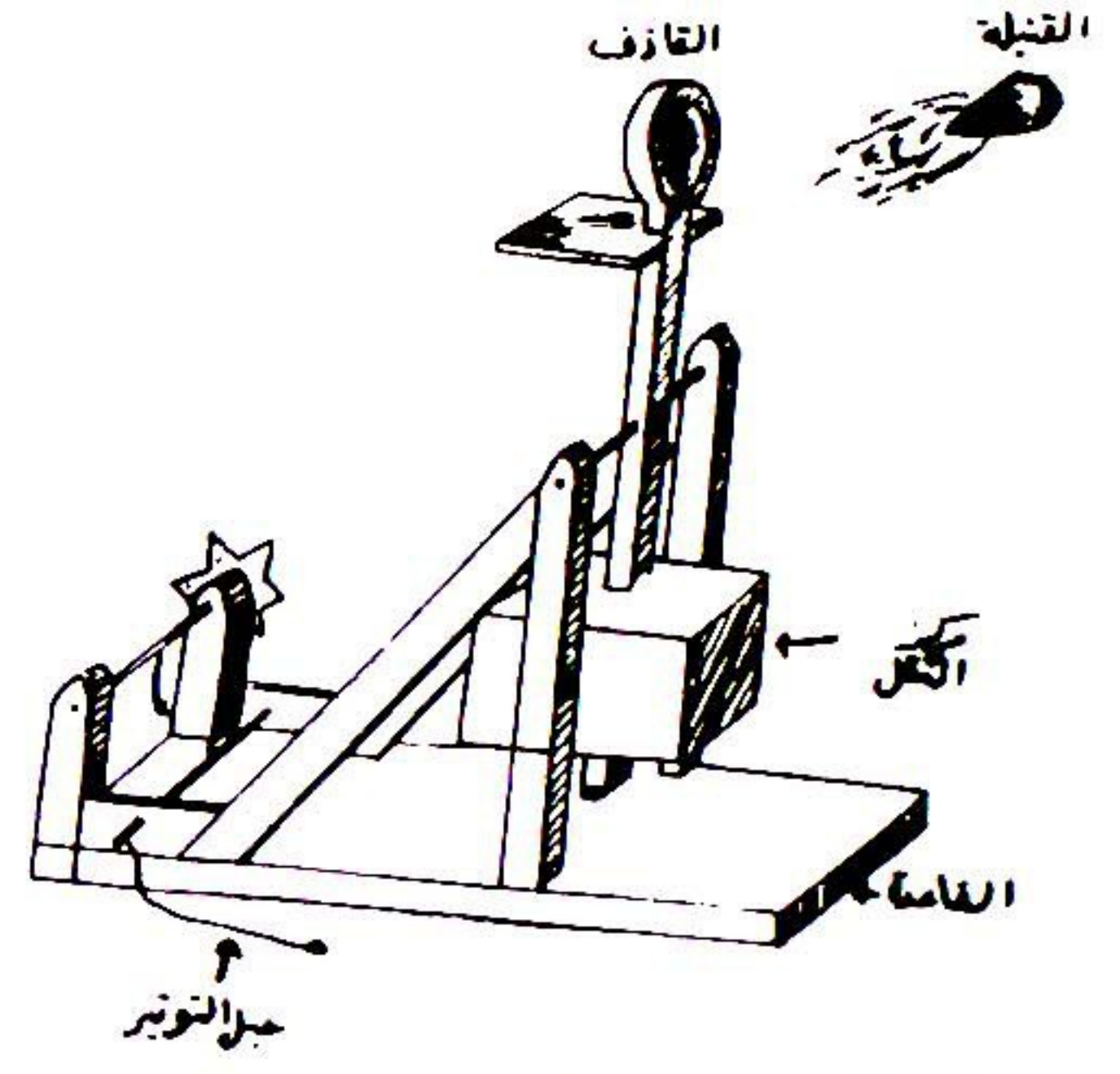
ش ٥ منجنيق متحرك استعمله المسلمون في عصر متأخر



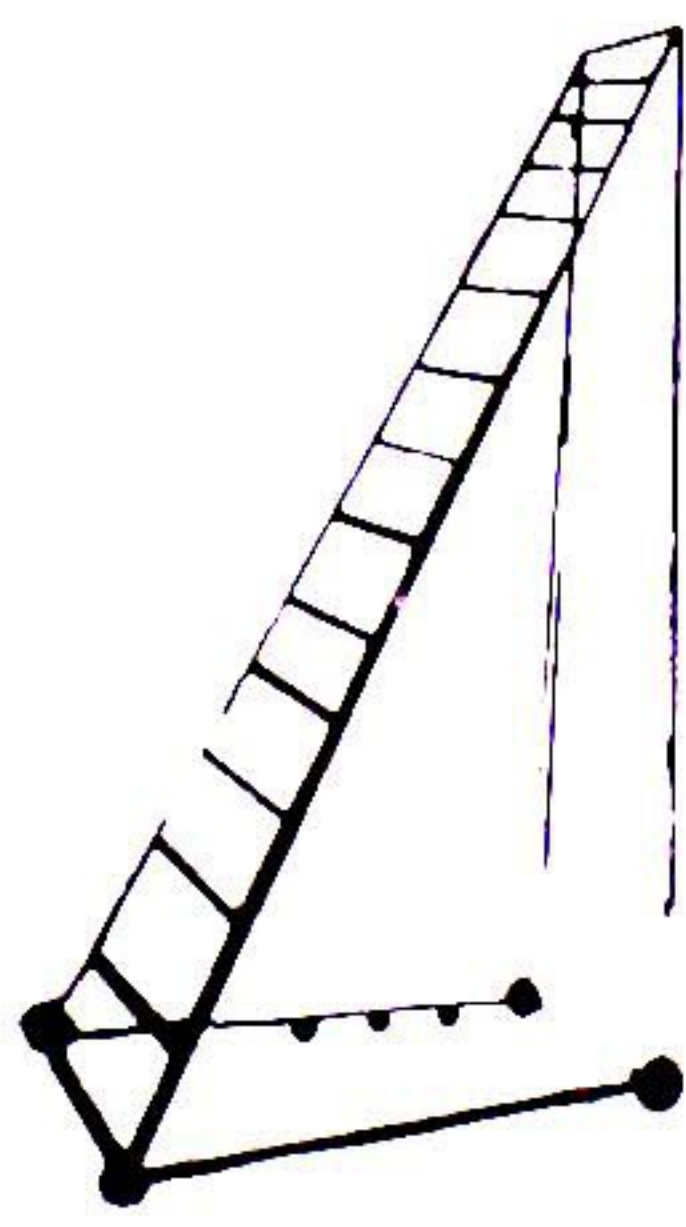
ش ١ منجنيق لرمي الرصاص الى مسافات بعيدة



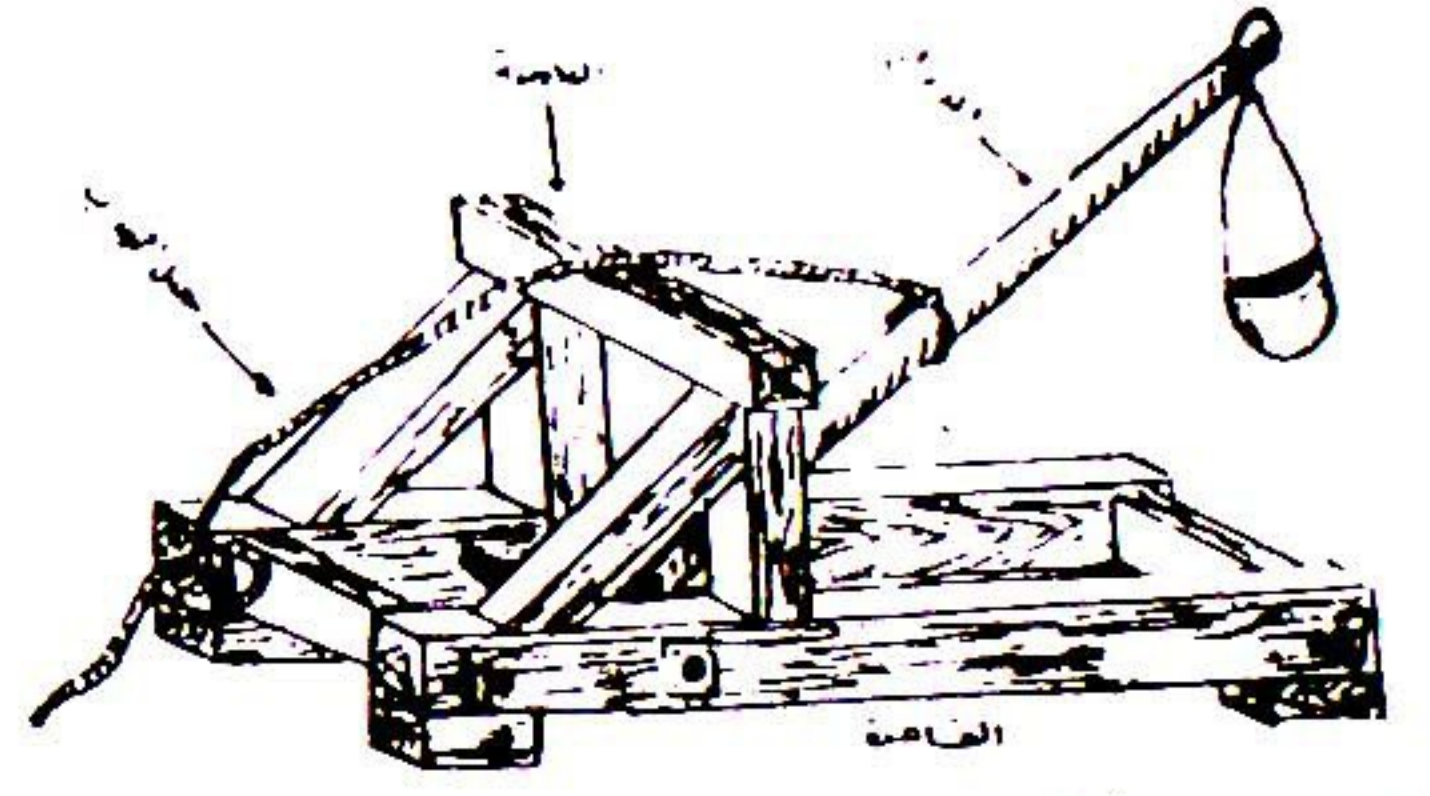
ش ٦ دبابه



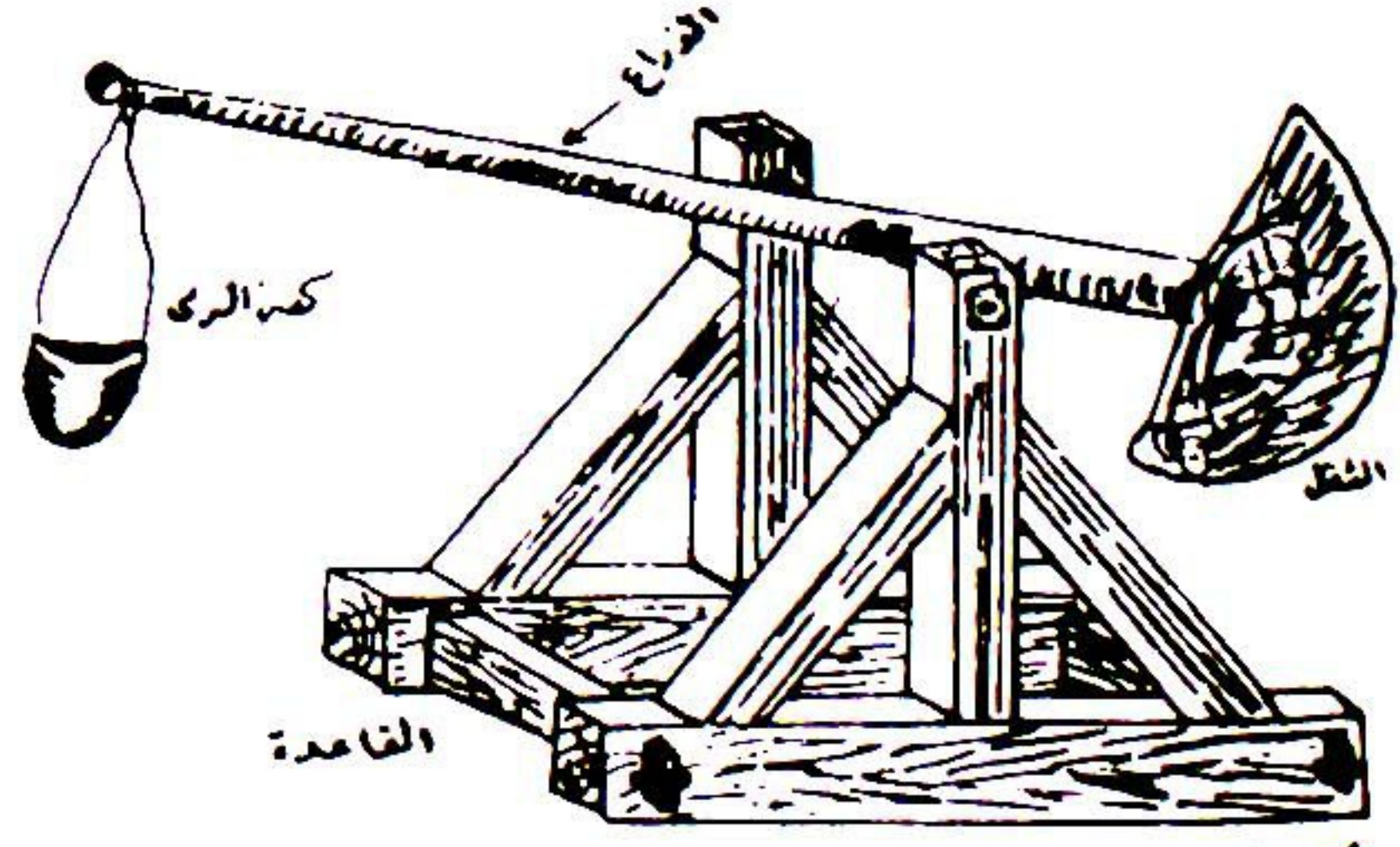
ش ٢ منجنيق لرمي الحجارة



ش ٧ سلم الحصان

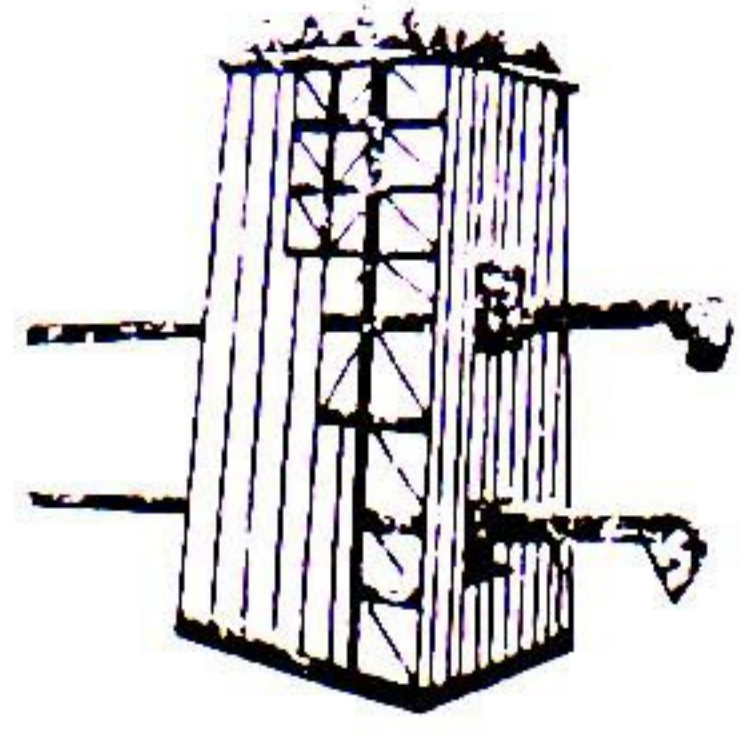


ش ٣ منجنيق ممتاز باستخدام حبل يساعده على شده القذف



ش ٤

منجنيق قاعد خشبيه سميكه في وسطه عمود خشبي متنيه يركب في اعلاه ذراع المنجنيق ليقابل لاهل الحركة. يتلف منه مسدوده خشبي مملوء بالرصاص والحجارة الحديده ويقذف لفضه ليواد يجذب اعلى الذراع نحو الارض بقوة يقوم به اربعة رجال.



ش ٨ رأس بكباشه

وفعاليتها على نحو ما تسمى به المدافع الكبيرة الآن . فقد كان عند الحجاج ابن يوسف الثقفي منجنيق اسمه العروس وقد حارب به محمد بن القاسم بلاد الهند وهدم أصنامهم . وكان المسلمون يستخدمون المنجنيق لهدم حصون الأعداء أو لرميهم بالنبال أو لحرق أماكنهم بالنفط المشتعل . (انظر أشكال المنجنيق الأخرى في اللوحة) .

هذا ويتطلب استعمال المجانيق مهارة فائقة وإلا عاد بالأضرار على الرامي وفرقته . هذا ولا بد من تثبيت المنجنيق قبل استعماله كما تثبت المدافع الآن .

وأما الدبابة : فهي آلة متحركة تصنع من الخشب السميك وتغلف باللباد أو الجلد المنقعة في الخل لعزلها عن النار . وتركب هذه الآلة على عجلة مستديرة لتسهيل حركتها . وكان المسلمون يستخدمونها لتسلق أسوار حصون الأعداء ومحاربتهم في داخل حصونهم . فهي بمثابة حصن متحرك (انظر الشكل في اللوحة) ، كما استخدموها في ثقب الأسوار ولذا جعل لها رأساً محددة .

وأما الكبش : فهو كالدبابة لكن رأسه في مقدمته مثل رأس الكبش (انظر الشكل في اللوحة) . متصل في داخل الدبابة بعمود غليظ معالج بحبال تجر على بكرة معلقة على رأس الدبابة لسهولة حركتها . يتحضر الرجال في داخل الكبش ، ويستخدمونه لهدم الأسوار . إذ يتعاونون من الأمام والخلف لهذا الغرض .

هذا وقد استخدم المسلمون الدبابة والكبش في كثير من حروبهم لتسلق الأسوار وهدمها أو حرقها . وكانوا يزودون الجيش بعدة دبابات تتسع الواحدة منها لعدد من الرجال يحيطون بالسور . هذا وقد استخدم الخليفة المعتصم الدبابة في فتح عمورية إذ عمل منها ما يتسع لعشرة رجال

وأما كيفية استخدامهم للدبابة في تسلق الأسوار فهو كالاتي : كان يركبون الدبابة ويدحرجونها إلى السور فإن وجدوا خندقاً يحول بينهم وبين الوصول إليه ، عملوا عليه جسوراً من الخشب أو ردموه إذا كان عريضاً .

عند الوصول إلى السور يبدءون بنقب أجزاء منه وبالتالي الصعود عليه
بدخول الحصن . أما إذا لم يدركوا السطح صعدوا على السلالم ونزلوا إلى
داخل المدينة .

وكان لدى المسلمين نوع من الدبابات أو الأبراج المسيرة على عجل ،
أعلاها مواقف للرجال فإذا لم تستطع الدبابة خرق السور ، ألقى الرجال
إلى الأعلى السلالم ومشوا عليها إلى داخل السور . (انظر الشكل في
ملوحة)

ومن آلات الحرب الأخرى التي استخدمها المسلمون لا سيما في العهد
لعثماني المدافع : التي هي أنابيب تطلق منها المقذوفات على النحو الذي
طلق به من المنجنيق . علماً بأنه بواسطة المنجنيق تقذف بواسطة حركات
لية كالمقاليع والأوتار ونحوها . وأما في المدافع فتطلق بواسطة البارود .

وقد أتقن العثمانيون استخدام المدافع واستعانوا بها على فتح
اقسطنطينية وفي كثير من الفتوحات الأخرى .

صناعة البارود :

ويتصل بمعدات القتال الإسلامية وآلات الحصار صناعة البارود .
قد نقل المسلمون من بلاد الصين المادة الأساسية التي تدخل في صناعة
لبارود وهي ملح البوتاسيوم . وبفضل التحسينات التي أدخلها المسلمون
على ملح البوتاسيوم وتخليصه من شوائبه ، استطاعوا إنتاج البارود .
وهذا ما أشار إليه أحد البحاثه المسلمين قبل سبعة قرون . فقد أكد حسن
الرماح السورى عام ١٢٨٠ م في كتابه المسمى الفروسية والمناصب
الحربية عند كلامه عن النَّارِيَّات ، أن البارود اختراع إسلامي بفضل ما
ناموا به من تنقية مادته من الشوائب .

فلقد وصف الرماح الذخيرة التي تدك في المدفع وبينَّ نسبة كل منها .
ومن مواد تلك الذخيرة البارود والفحم والكبريت . وذكر الرماح أن هذه
المواد كانت تسحق كلها جيداً ثم تدك داخل المدفع بحيث تملأ ثلثه .

٨ - صناعة النفط :

أطلق المسلمون كلمة النفط ، وهي فارسية الأصل ، على الكبريت المعدني المذاب . وقد تمكن المسلمون من استخراج أنواع متعددة من النفط أو المواد المشتعلة ، وذلك لاستخدامها في الأغراض العسكرية .

وكانت طريقة المسلمين في إنتاج النفط تقوم على أساس مزج مواد متعددة قابلة للاشتعال بنسب معينة وسحقها جيداً ثم إضافة مقادير معينة من الزيوت أو الشحوم إلى المزيج . وبعدئذ يقطر المزيج بوضعه في أوان صنعت خصيصاً لهذا الغرض . ثم توقد النار تحتها . وبعد إضافة الكبريت إلى المادة المقطرة ، تصبح شديدة الاحتراق . أما المواد التي كانت تستخدم في استخراج النفط فهي : الجير الحي والجير المطفأ والزيوت والدهون والشحوم والخل والأصماغ والكبريت والكتان والتبن والنخالة وغير ذلك . أما الأغراض العسكرية التي كان يستخدم فيها النفط فهي :

١ - إطلاق السهام على الأعداء بعد تسخينها تسخيناً شديداً ثم طليها بالنفط وإشعالها .

٢ - صنع كتل مغطاة بالنفط تقذف بالنشاب على العدو بعد أن يحرق طرف تلك الكتلة .

٣ - وضع النفط داخل قشر البيض ثم رمى العدو بها بما يشبه القنابل اليدوية اليوم .

٤ - عمل كرات نفطية ثم إطلاقها على العدو بالمنجنيق .

٥ - إرسال قاذفات نفطية مشتعلة فوق سطح الماء وبتجاه السان المعادية .

٦ - ولقد تفنن المسلمون في ابتكار ما يرهب العدو حتى إنهم توصلوا إلى وضع مواد نفطية ملتهبة على الخيول عند هجومها عبر الأعداء إذ طلائها وطلاء مواقع من جسم فارسها بمواد عازلة .

٩ - صناعة الساعات :

كان لساعات الشمس الدائرية التي اخترعها المسلمون في العصور الوسطى شهرة واسعة . واستطاع المسلمون بواسطة هذه الساعات التي كان يتوسط كلاً منها محور ظاهر ، من تحديد موقع الشمس خلال النهار ، وتحديد الوقت ، ووضع التقاويم الزمنية . وكانت الساعة الشمسية النقالة الأسطوانية الشكل ، أكثر اختراعات المسلمين أصالة وفناً في حقل صناعة الساعات .

وتفنى المسلمون في صناعة الساعات . فصنعوا أنواعاً مختلفة فمنها ما يسير على الماء والزئبق . ومنها ما يسير على الشمع المشتعل . ومنها أيضاً ما يعمل بواسطة الأثقال المختلفة . وبهذا أوجدوا الساعة الدقاقة الرنانة . كما صنعوا الساعات المائية التي كانت تقذف بعد إتمام كل ساعة من الوقت كرة في قدح معدني وتدور حول محور تظهر فيه النجوم ورسوم من عالم الحيوان . كما صنعوا ساعات دقاقة لها فتحات متناسقة في شكل نصف دائري وكلما أعلنت هذه الساعات انتصاف الليل مر فوقها هلال وضاء . وفي عام (١٩٢ هـ / ٨٠٧ م) بعث الخليفة هارون الرشيد إلى انبراطور الفرنجة شارلمان في عاصمته (آخن) بألمانيا بساعة من هذا النوع هدية له . وكانت مصنوعة من النحاس الأصفر بمهارة فنية مذهشة . وكانت هذه الساعة تعمل لمدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم . وبعد أن تتم هذه الساعة دورتها كان يسقط منها اثنتا عشرة كرة صغيرة تحدث عند اصطدامها بقرص معدني مثبت دويماً إيقاعياً جميلاً، بالإضافة إلى عدد مماثل من الأجراس الصغيرة التي كانت كلما أتمت الساعة دورتها قفزت من فتحة فيها اثنتا عشرة بوابة لا تلبث أن تغلق بعد أن تكمل الساعة دقاتها . هذا بالإضافة إلى تشكيلات لطيفة أخرى تدعو إلى الدهشة والاعجاب (انظر الشكل) .

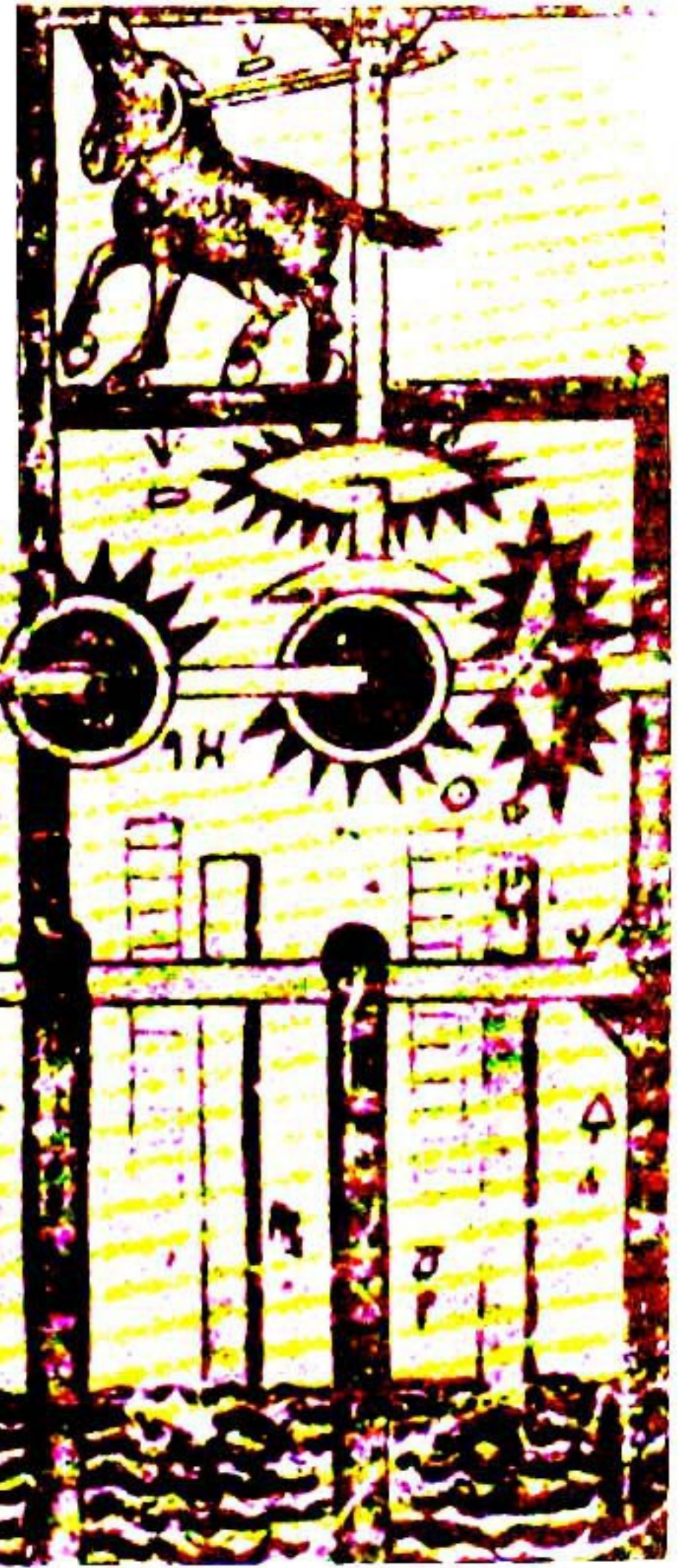
١٠ - صناعة الفخار والخزف والقاشاني والفسيفساء :

يعتبر فن الفخار والخزف من أبرز الحرف الفنية التي مارسها

صناعة الساعات عند المسلمين

ساعة عربية فنية يظهر فيها علم الحيوان
 المتحرك والسحرة لتنفذ به صقور
 تقذف الحلقات في وعاء معدن مودعة
 مسرّاً ايّاعياً جميلاً

عام ١٤٠٠ م

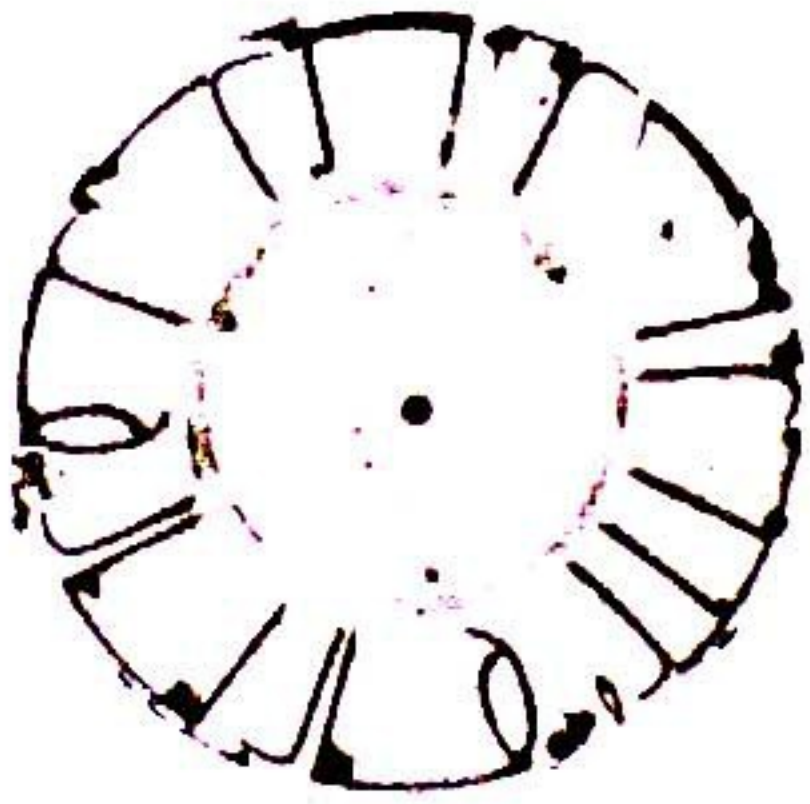


الحبل الميكانيكية ٧١٥ هـ / ١٢٣٤ م
 متحف فرير - واشنطن

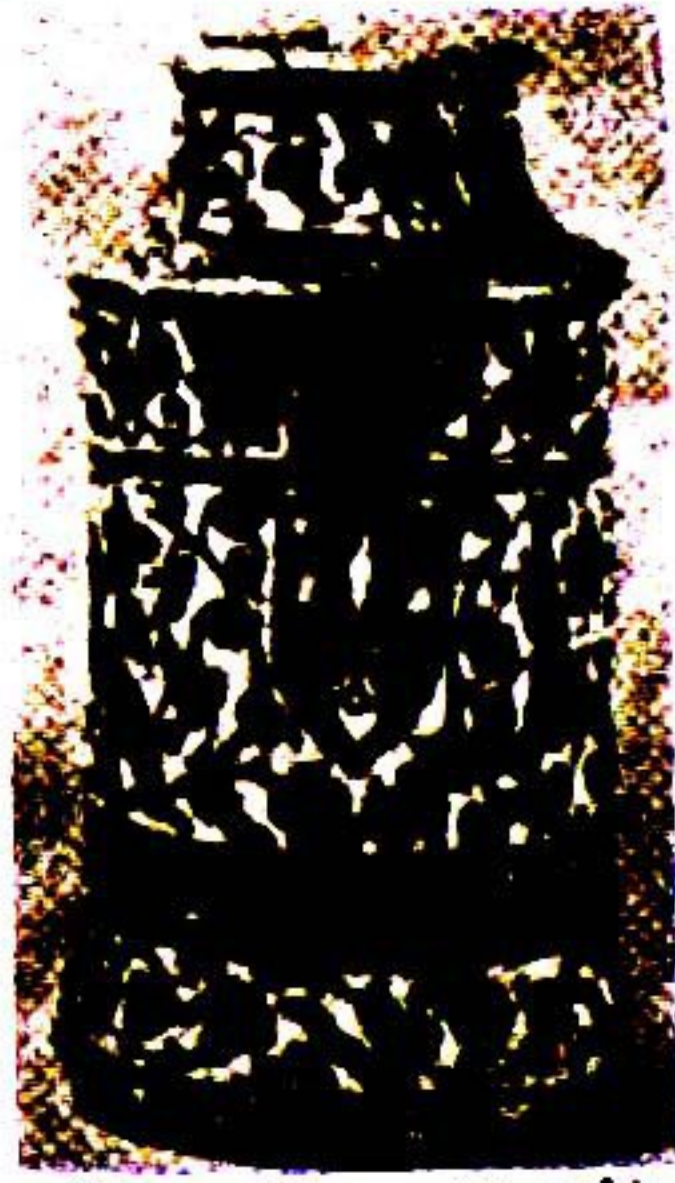
نَمَازَجٌ مِنَ الصَّنَاعَاتِ الخَزْفِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ



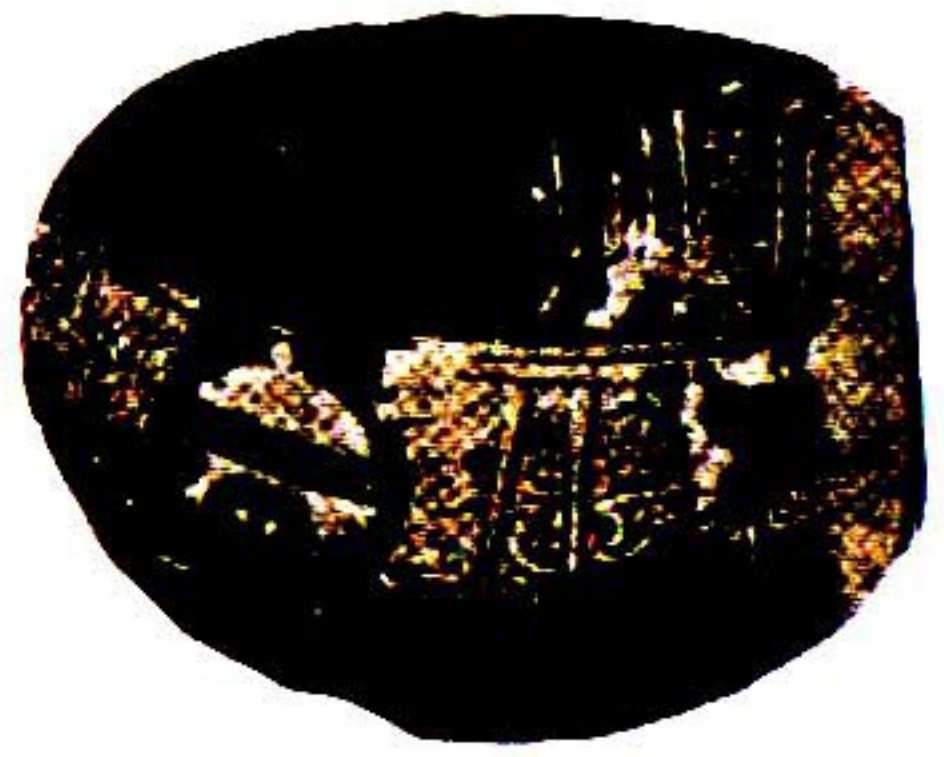
إناوس خزف بزخارف زرقاء على أرضية بيضاء - العصر الصفوي



إناوسه خزف عليه كتابة كوفية



إناوسه لغفار البني المطاي - لقااهرة
١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م العصر المملوك
يحتف بسلاص بالقااهرة



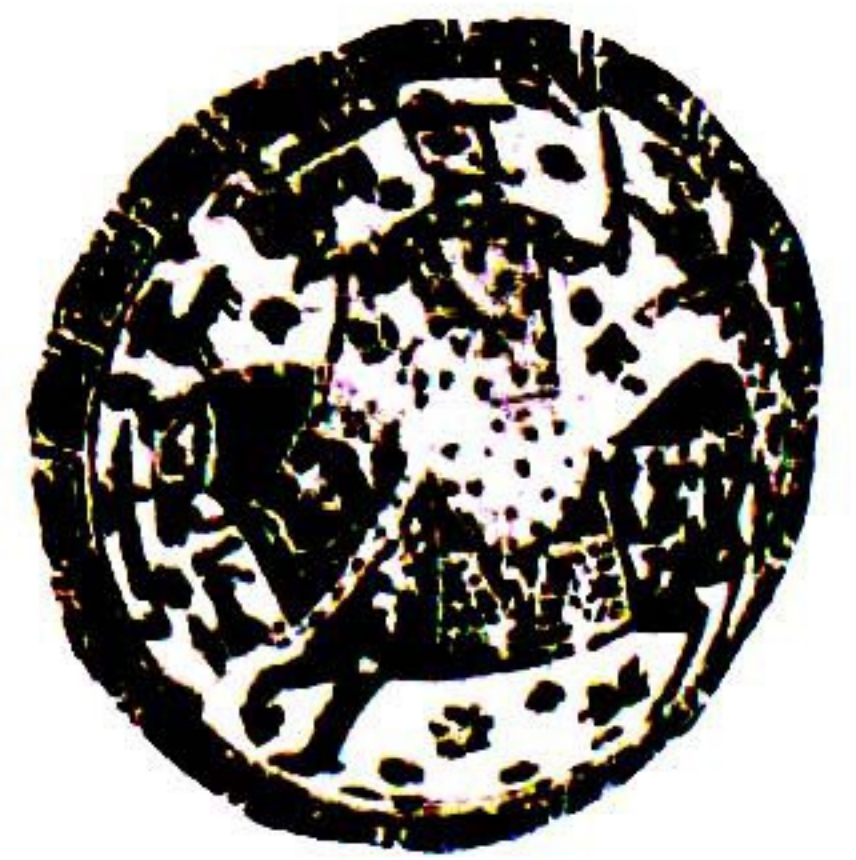
إناوسه الخزف
لعصر المملوك - دمشق ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م
متحف لمتون لفرقة / باريس



إناوسه خزف بزخارف ملونه
العصر العثماني



قنية خزفية / صناعة كرامات
١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م



مطازنه خزف من نيشابور
إيران لقرن ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م

الفنانون المسلمون منذ فجر الحضارة الإسلامية . فقد أنتج المسلمون فنا خزفياً رفيعاً تجلى في صناعة الأواني والتحف الخزفية المتنوعة التي لا تقل فخامة وجمالاً عن أواني الفضة والذهب المزخرفة .

ونتيجة للابتكارات العديدة التي أدخلها المسلمون في صناعة الخزف ، فقد تكونت لديهم مجموعات متنوعة من الخزف أهمها نوعان :
(أ) الخزف ذو الزخارف المحفورة أو البارزة .
(ب) الخزف ذو البريق المعدني الذي يتميز بصناعته وطلائه وزخرفته .

هذا ولا شك في أن الدقة والمهارة الفائقتين في عمل الرسوم والزخارف المختلفة على الأواني المتنوعة بواسطة الفرشاة مباشرة ، تدلان على مدى ثقة الخزاف المسلم وسيطرته على فنه وبراعته في الرسم والحفر ولا سيما نزوعه نحو التجريد والتبسيط .

هذا من ناحية النوع . أما من ناحية كمية الإنتاج فقد غطى ما أنتجه المسلمون من الخزف جوانب متعددة من احتياجات الناس العامة والخاصة . فقد عمل الصانع المسلم أنواعاً شتى من الأواني كالفناجين والأقداح والكنؤوس والصحون والأكواب والقوارير والأباريق والأزيار والمسارج . كما صنع البلاط الخزفي أو القاشاني على أشكال مختلفة لكسوة الجدران والمحاريب . هذا بالإضافة إلى إنتاج قطع الخزف المتعددة الأحجام والألوان لاستخدامها في صناعة الفسيفساء . والأشكال في اللوحات الآتية توضح نماذج متعددة من صناعة الخزف والقاشاني والفسيفساء .

ولقد تفنن الخزافون المسلمون سواء في المشرق الإسلامي أو في بلاد الأندلس في زخرفة مصنوعاتهم بالأشكال الهندسية الجميلة والصور النباتية التجريدية تلك التي تنتهي بمراوح نخيلية أو كتابات زخرفية . وشاع أيضاً - ولا سيما في العراق - طلاء المصنوعات الخزفية ببعض الأملاح الكيماوية التي تكسب الأواني الخزفية بريقاً ضوئياً متعدد الألوان . وقد أدى هذا الاكتشاف ، الذي يعتبر ابتكاراً إسلامياً خالصاً ، إلى استغناء المسلمين عن استعمال أواني الذهب والفضة . التي أنكر الفقهاء المسلمون

المصنوعات الخزفية الإسلامية



فطالمة الخزف به زخارف ممزرة وزخارف
كتابية - لقاهرة ١٤٨٠ هـ / ١٩٦٠ م
متحف المتروبوليتان - نيويورك



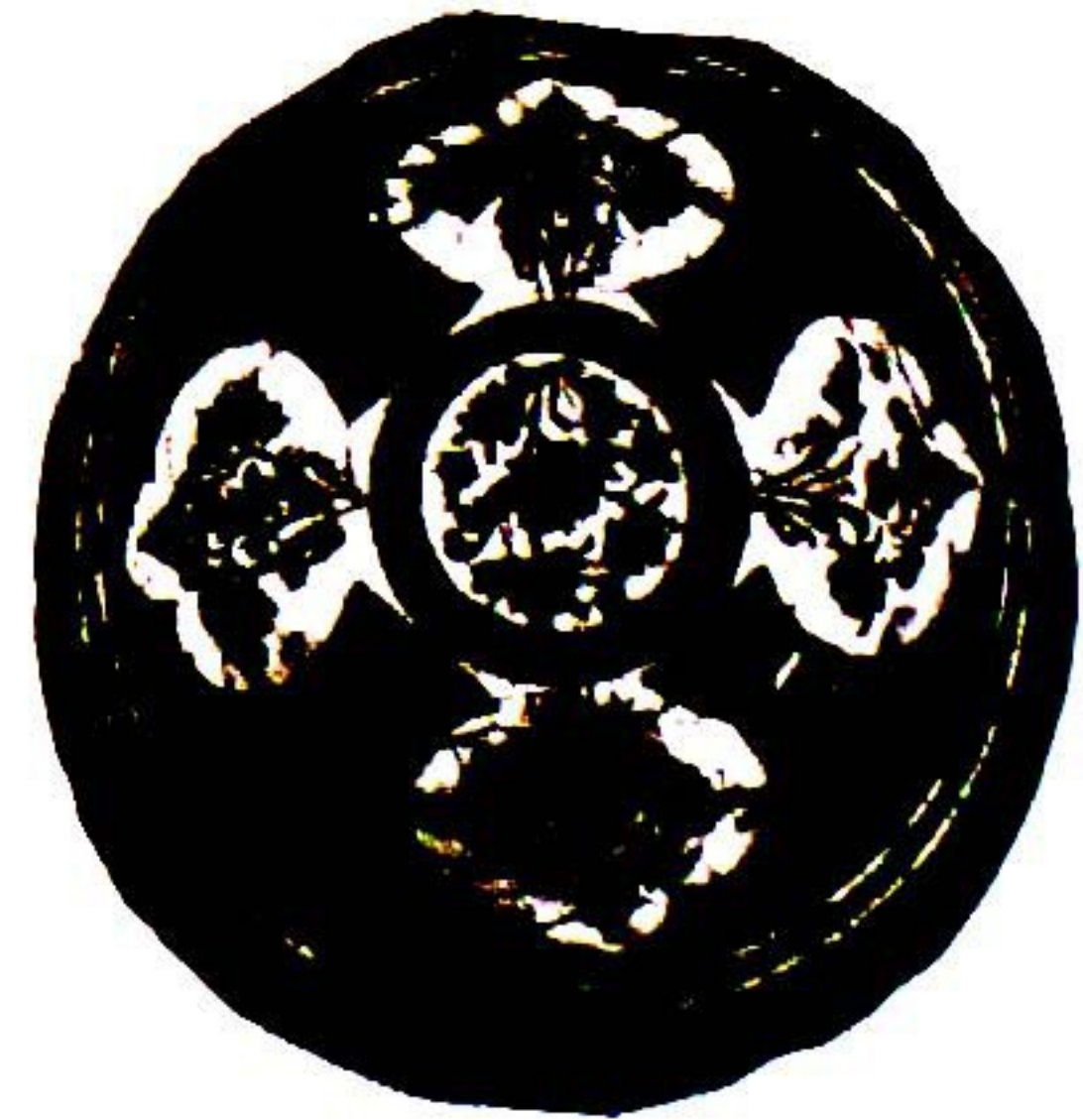
إنا من الخزف مزخرف بطلاء معدني ذو لونيه
المرام ١٤٣٠ هـ / ١٩١٠ م
معهد الفنون بمدينة شيكاغو ..



لمسوخ الخزف من نيسابور به زخارف
كتابية - متحف فريزر - واشنطن



إنا خزفي به زخارف زرقاء
على أرضية بيضاء
بمتحف البريطانى



سلطانية من خزف / ايران
١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م
متحف المتروبوليتان - نيويورك

على الأثرياء استعمالها ، حيث جاء الشرع بتحريمها .

وبلغت صناعة الخزف ذروتها في العصر العباسي الثاني ولا سيما في القرنين السادس والسابع الهجريين . فإلى جانب الأشكال الهندسية الجذابة والكتابات الكوفية على الأواني الخزفية ظهرت رسوم نباتية وغيرها .

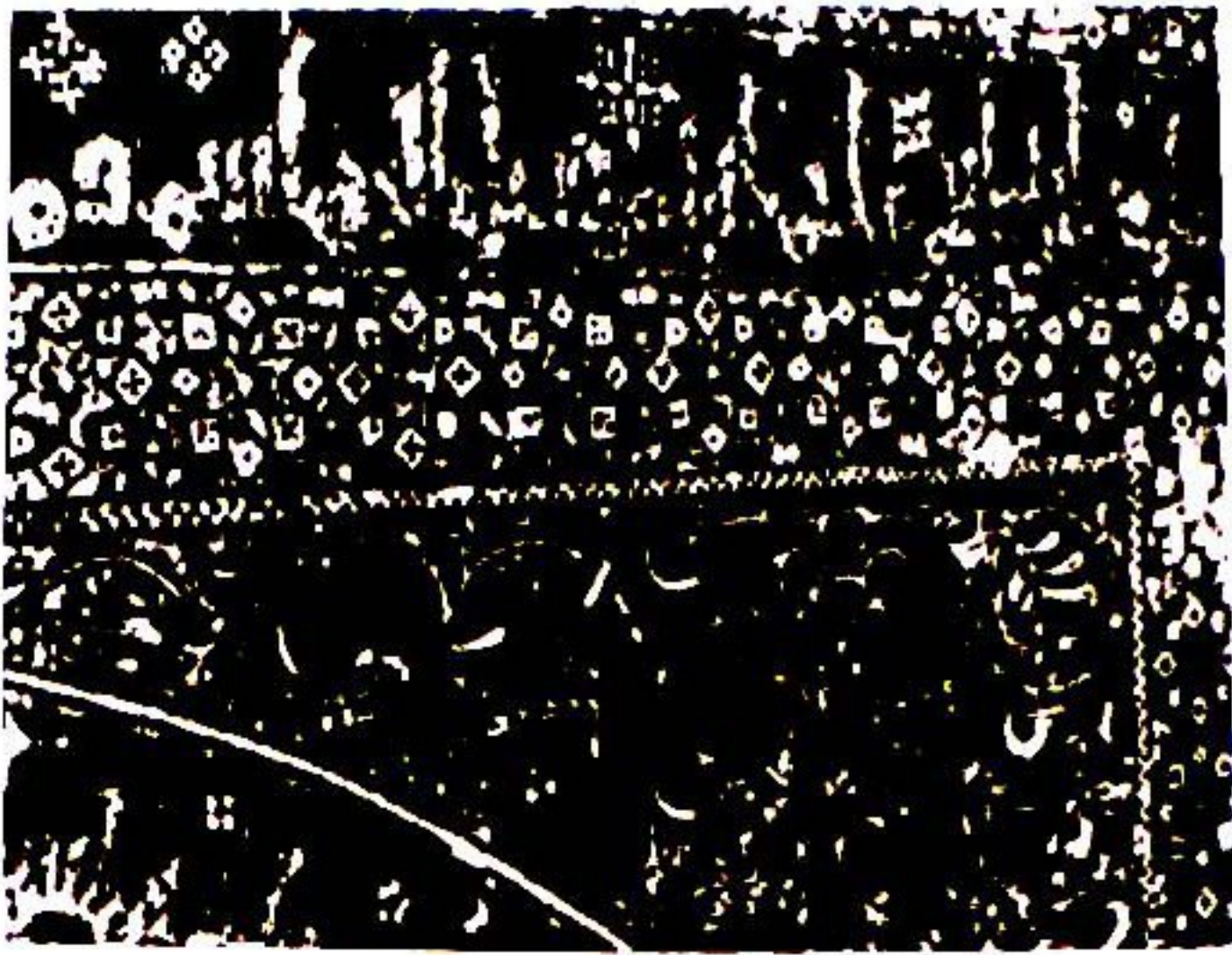
وشملت مراكز صناعة الخزف العالم الإسلامي كله ، من بلاد ما وراء النهر حتى بلاد الأندلس . فقد اشتهرت نيسابور وسمرقند والري وقاشان بإنتاج أنواع كثيرة من الأواني الخزفية التي تعتبر في غاية الإتقان والجمال . وقد تميزت قاشان بصناعة القاشاني ، وهو نوع من البلاطات الخزفية ذات بريق معدني شاع استعماله في كساء الجدران والمحاريب . وكانت تلك البلاطات تزخرف عادة بكتابات بارزة . وكانت بلاد فارس مركزا رئيسا في صناعة أنواع كثيرة من البلاط الخزفي ولا سيما الفسيفساء (الموزاييك) .

وتتلخص صناعة الفسيفساء في تثبيت مجموعة من مكعبات الزجاج الملون والشفاف وقطع الحجر الأبيض والأسود وكذلك القطع الخزفية فوق طبقة من الجص أو الإسمنت التي تغطي السطح . وتكون عملية التثبيت هذه منظمة لقطع الفسيفساء بحيث تكون أشكالا زخرفية جميلة متناسقة في اللون والشكل تمثل في مجموعها مشاهد معينة .

هذا ولقد ازدهرت صناعة الفسيفساء في العهد الأموي بشكل واضح . يدل على ذلك ما وجد من الفسيفساء في مساجدهم ومن بينها مسجد قبة الصخرة بالقدس ، والتي تعد زخارفها أول وأقدم محاولة ظهرت في العصور الإسلامية لهذا النوع من الفن الزخرفي المعماري ، والجامع الأموي بدمشق . وفي قصورهم ومن بينها قصر هشام وقصر قرية المفجاء وهما في الأردن .

ومن الصناعات التي سارت جنبا إلى جنب مع الخزف والفسيفساء الزخارف الجصية التي أسهمت في إغناء فن العمارة الإسلامية بشكل خاص والفنون الأخرى بشكل عام .

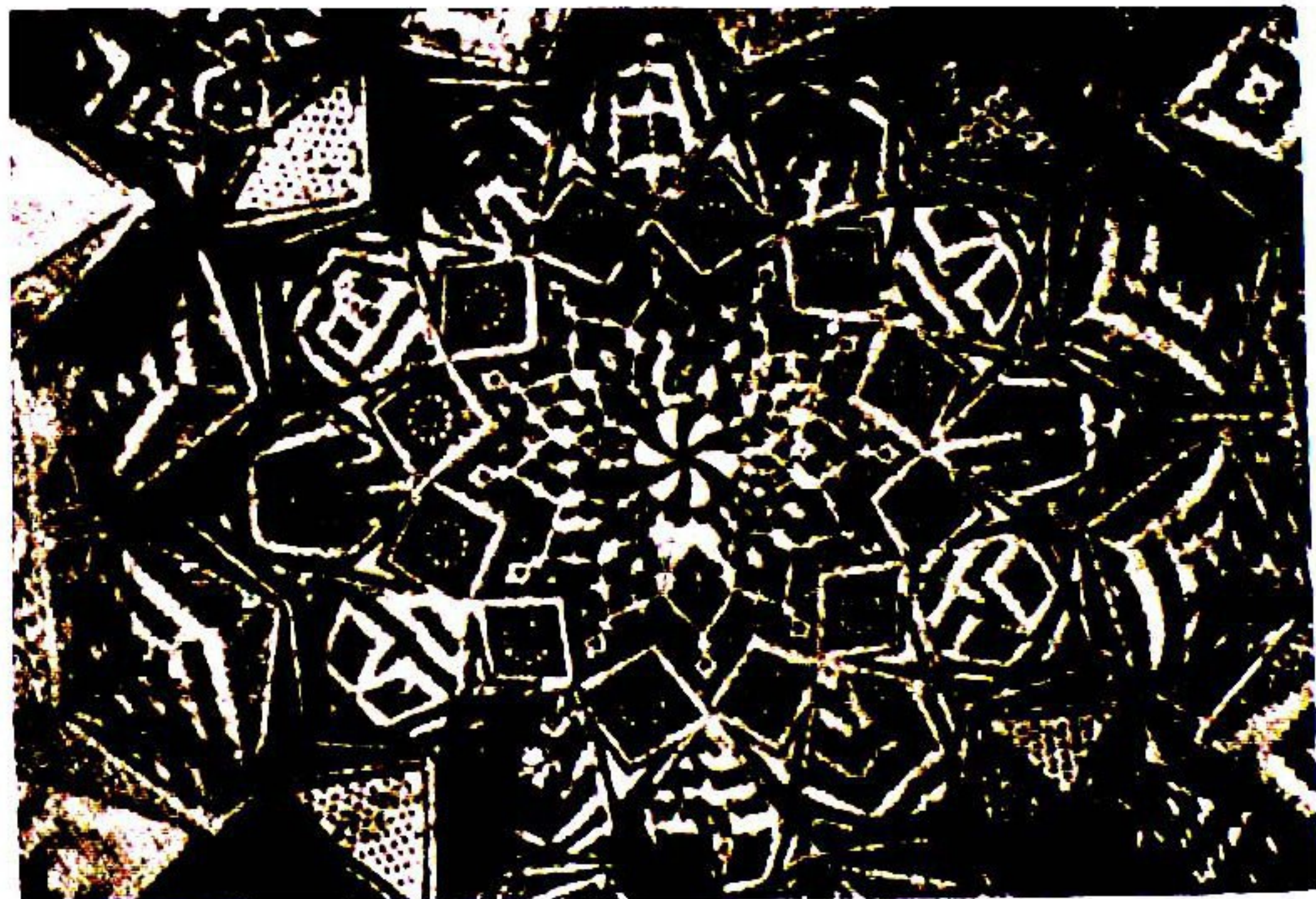
نماذج من الفسيفساء الإسلامية



فسيفساء تغطي محراب مسجد قرطبة / الأندلس
القرن ٤ هـ / ١٠ م



زخارف فسيفساء تغطي عقود
قبة الصخرة بالقدس



فسيفساء تغطي قبة جامع كرمات مه الرامل / ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م



زخارف فسيفساء تغطي جدران الرواق القزوي / الجامع الأموي بدمشق

وفي القرن الحادى عشر الهجرى توصل الخزافون فى بلاد فارس فى عهد الدولة الصفوية إلى إنتاج نوع من الخزف الرقيق (البورسيلين) . وكانت أصفهان من أكبر مراكز إنتاجه .

ومن المدن الإسلامية الأخرى التى اشتهرت بصناعة الأوانى الخزفية الجميلة : الموصل والرقّة ودمشق والقاهرة ومالقة وغرناطة .

١١ - صناعة الآلات الفلكية وبناء المراصد :

كان لعلم الفلك أهمية خاصة عند المسلمين ، لأن فيه معانى دينية عميقة، فقد ذكر البتانى المتوفى (٣١٧ هـ) وهو أحد كبار علماء الفلك المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، أن علم النجوم هو علم التوحيد وعلى كل امرئ أن يعلمه . كما يجب على المؤمن أن يلم بأمر الدين وقوانينه لأن الفلك يوصل إلى برهان وحدانية الله وإلى معرفة عظمتة الهائلة وحكمته السامية وقوته الكبرى وكمال خلقه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن لعلم الفلك أهمية فى تحديد أوقات الصلاة وتحديد القبلة . وهذا ما دعا المسلمين إلى الاهتمام برصد النجوم والكواكب ومعرفة حساباتها . ومن أجل هذا بنى المسلمون المراصد واخترعوا الآلات الفلكية .

ومن أشهر المراصد الإسلامية : مرصد الشماسية الذى بناه المأمون فى بغداد كما أنشأ هذا الخليفة مرصداً آخر فى دمشق . ثم هناك مرصد عضد الدولة فى حديقة قصره ببغداد ، ومرصد ملكشاه السلجوقى فى نيسابور بشرقى إيران ومرصد هولوكو فى مراغة (غربى فارس) ومرصد أمير التتار أولغ بك فى سمرقند .

وكان نصير الدين الطوسى المشرف على مرصد هولوكو قد جعل منه معهد للأبحاث لا مثيل له . وزوده بالآلات الفلكية التى زادت فى شهرة المعهد ورفاه مكانته .

هذا من ناحية المرصد . أما من ناحية الآلات الفلكية ، فقد اهتم المسلمون بها اهتماماً كبيراً . وقد أدخلوا تحسينات جوهرية على ما ورثوه من الأمم الأخرى كالإغريق والهنود . فقد ابتكر علماء الفلك المسلمون آلات مختلفة للمراقبة والقياسات نقلها الأوربيون عنهم واستعملوها زمناً طويلاً .

هذا وإن الزائر لمرصد المراغة ليدعش من كثرة الآلات الفلكية وتنوعها والتي من بينها « المحلقة » ذات الخمس حلقات والدوائر النحاسية : الأولى وهي تمثل خط الطول الذي كان مركزاً في أسفل المحلقة . والثانية خط الاستواء . والثالثة تمثل الخط الإهليلجي ، والرابعة تمثل خط العرض والخامسة تمثل دائرة الانقلاب الصيفي والشتوي . وتوجد في المحلقة أيضاً دائرة السمت التي يمكن للمرء بواسطتها أن يحدد سمت النجوم . هذا ولقد عمل المسلمون على جعل هذه الحلقات أكبر حجماً مما كانت عليه في السابق حتى أوصلوا قطر الواحدة منها إلى ثلاثة أمتار ونصف وصنعوا منها المحلقات الفلكية الكبيرة وجعلوا التقسيمات عليها أكثر تفصيلاً والقياسات أكثر دقة . ومما يستغرب له المرء هو كيف تمكن مهندسو المسلمين من صنع مثل هذه الحلقات الكبيرة الحجم مع دقة في الترقيم . إلا إن كان لدى هؤلاء المهندسين آلات للتطويع وصناعة الحلقات الكبيرة .

إن المسلمين لم يكتفوا بتطوير المحلقات الفلكية فحسب بل إنهم زادوا عليها ثلاث حلقات مكنتهم من القيام بقياسات أفقية . كما أوجدوا آلات أخرى بنوها على أسس جديدة لزيادة دقة القياسات من أجل تحقيق طرق جديدة في المراقبة والبحث . وكانت آلة السمت في مرصد مراغة واحدة من بين الكثير التي اشتهرت بدقة عملها وأمانة نتائجها .

ولقد تعرف الملك ألفونس العاشر ملك قشتاله ، بجهوده الخاصة على ما قدمه المسلمون في مجال علم الفلك والآلات الفلكية . حتى إنه عندما بنى مرصداً له في مملكته استعان بالخبرة الإسلامية . وأمر بترجمة كل ما وصل إليه من مخطوطات عربية في علم الفلك إلى اللغة المحلية في قشتاله وأمر ببناء أكبر محلقة فلكية وجدت في ذلك الزمان وذلك وفق الأصول الإسلامية .

ومن الآلات الفلكية التي عرفها المسلمون . الإسطرلاب^(١) بأنواعه إذ
منها المستدير الذي يعتبر من أفضلها . ومنها المسطح الصغير الحجم وكان
أكثرها انتشاراً واستعمالاً عند المسلمين من الحلقة الفلكية التي لم تكن
تستعمل إلا في المراصد الجوية فقط . هذا بالإضافة إلى أن ذلك النوع من
الإسطرلاب ، كان يستخدم كساعة جيب صغيرة تؤدي للمسلم خدمات جلي
في تحديد مواعيد الصلاة أينما كان . كما أنها تعين موقع مكة المكرمة حيث
الكعبة المشرفة . بالإضافة إلى أنها تؤدي العديد من الخدمات في الحسابات
الفلكية والزمنية .

هذا وكان الإسطرلاب المسطح أفضل آلة قياسية عند المسلمين وأكثر
منفعة واستعمالاً .

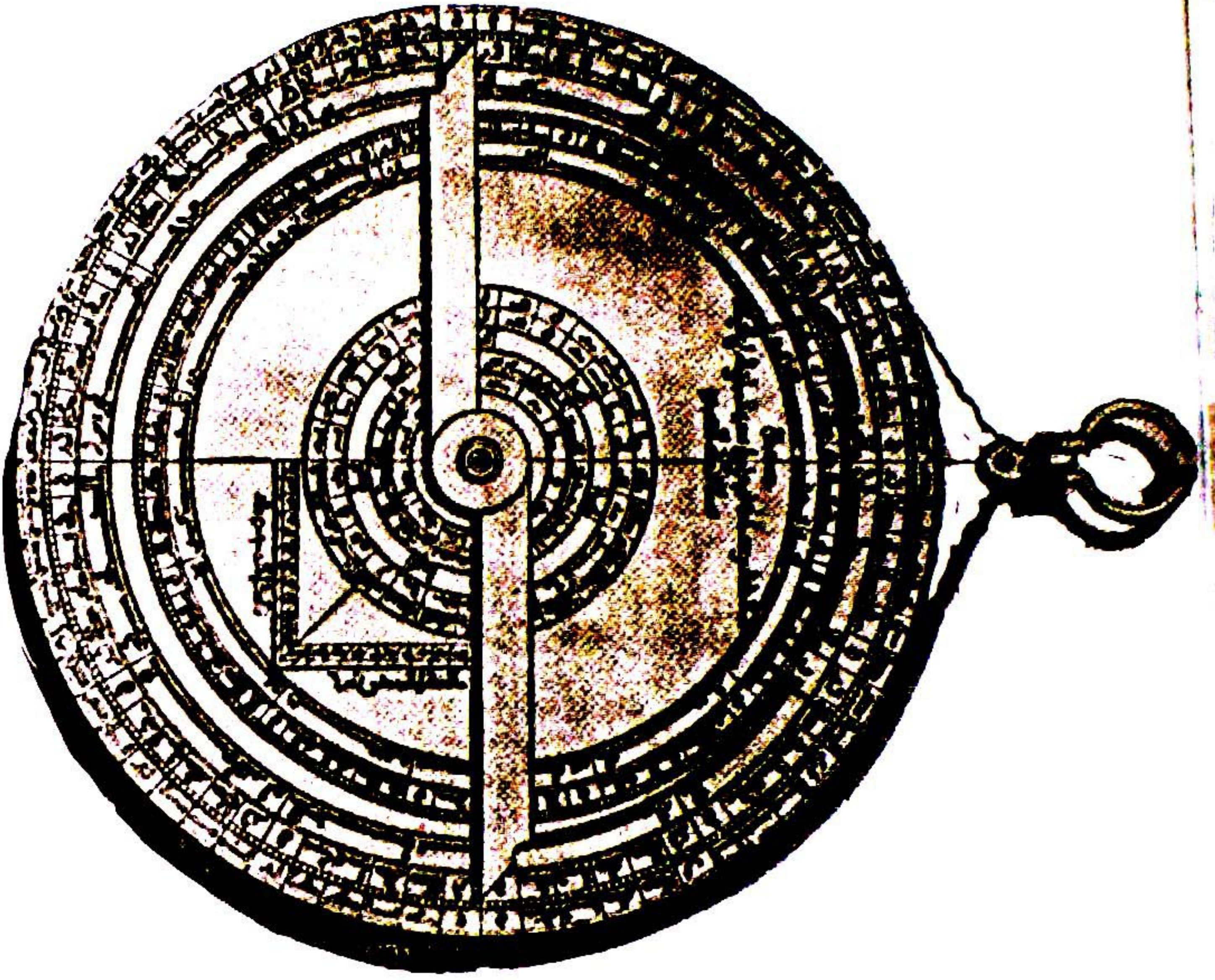
لقد وفق المسلمون في تطوير الإسطرلاب والسير به خطوات واسعة
نحو الأمام وصنعوا منه أشكالاً عديدة ملائمة لكثير من الخدمات
والأهداف . فأوجدوا الإسطرلاب الدائري إلى جانب الإسطرلاب المسطح
والبيضاوي والمستطيل . ولقد قويت هذه الآلات في أوروبا بحماس شديد
وعمد كثير من الأوربيين إلى اقتنائها تخليد الذكرى دراساتهم في الجامعات
العربية .

ومن الآلات التي اخترعها المسلمون « الكفار » التي أصبحت من
الضروريات للقيام بقياسات فلكية دقيقة وتنبؤات صادقة عن حالة الجو .
كما أن الآلات التي عرفها المسلمون ومنها البوصلة استخدمت في الرحلات
البحرية .

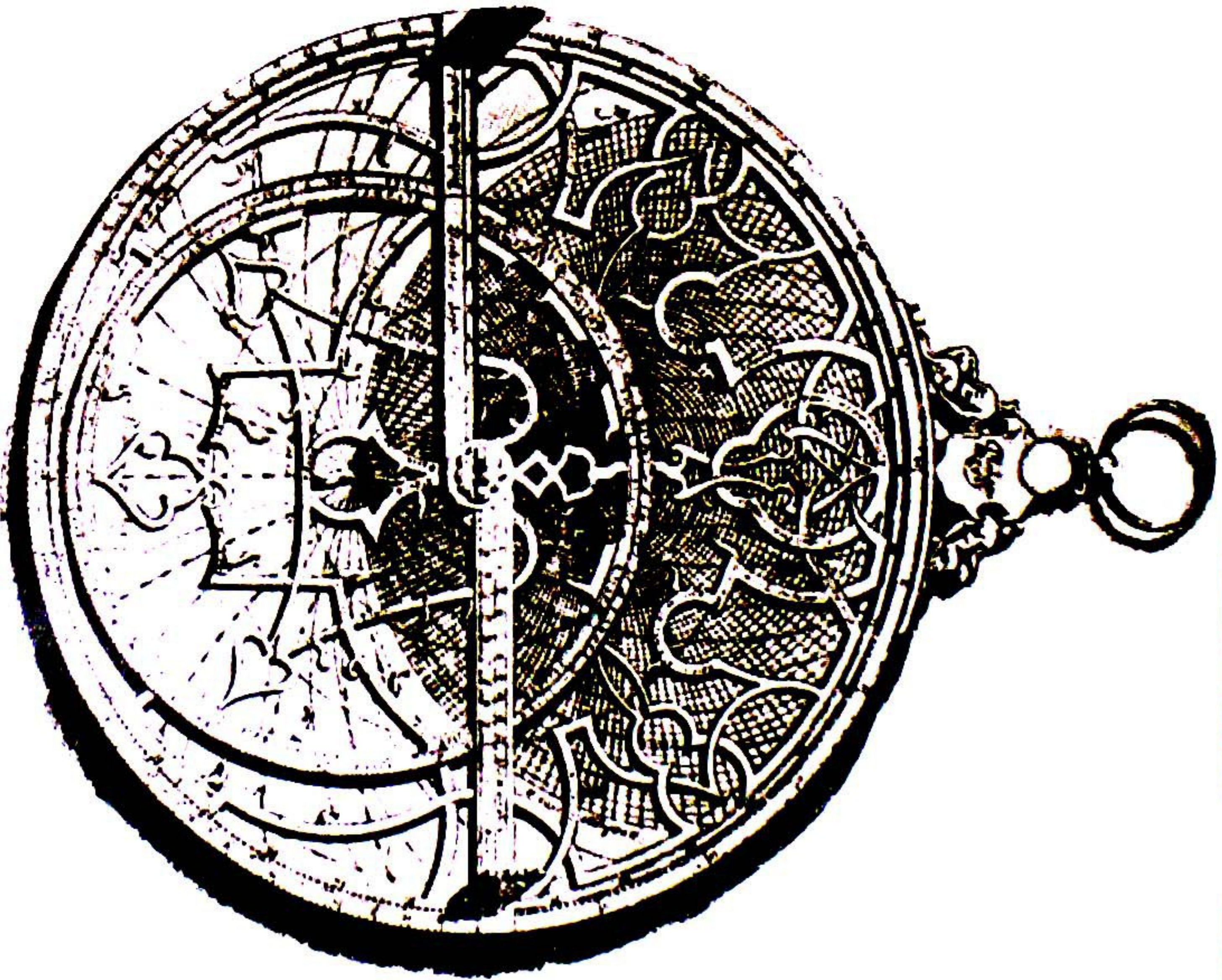
١٢ - الجراحة وصناعة آلاتها :

لقد سبق أن درست عن الطب عند المسلمين وما يتصل به من أدوية
وعلاجات . وفيما يلي استعراض لعلم الجراحة لدى المسلمين وما يتصل به
العلم من أدوات جراحية تتطلبها العمليات الجراحية والتي بدونها يتعد

(١) إن أول من اخترع الإسطرلاب هو « أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري » وهو من فلكيي
المنصور . وهو أول من ألف كتاباً فيه سماه « العمل بالإسطرلاب المسطح » .



أسطرلاب عنق وعزق قسم - ستون العاربان الأسطلاب



أسطرلاب عنق للقطيب الأسطلاب بالبرسبانج - ستون العاربان الأسطلاب

إجراؤها .

أما العمليات الجراحية التي مارسها المسلمون في هذا المجال والأدوات التي تتصل بها فهي :

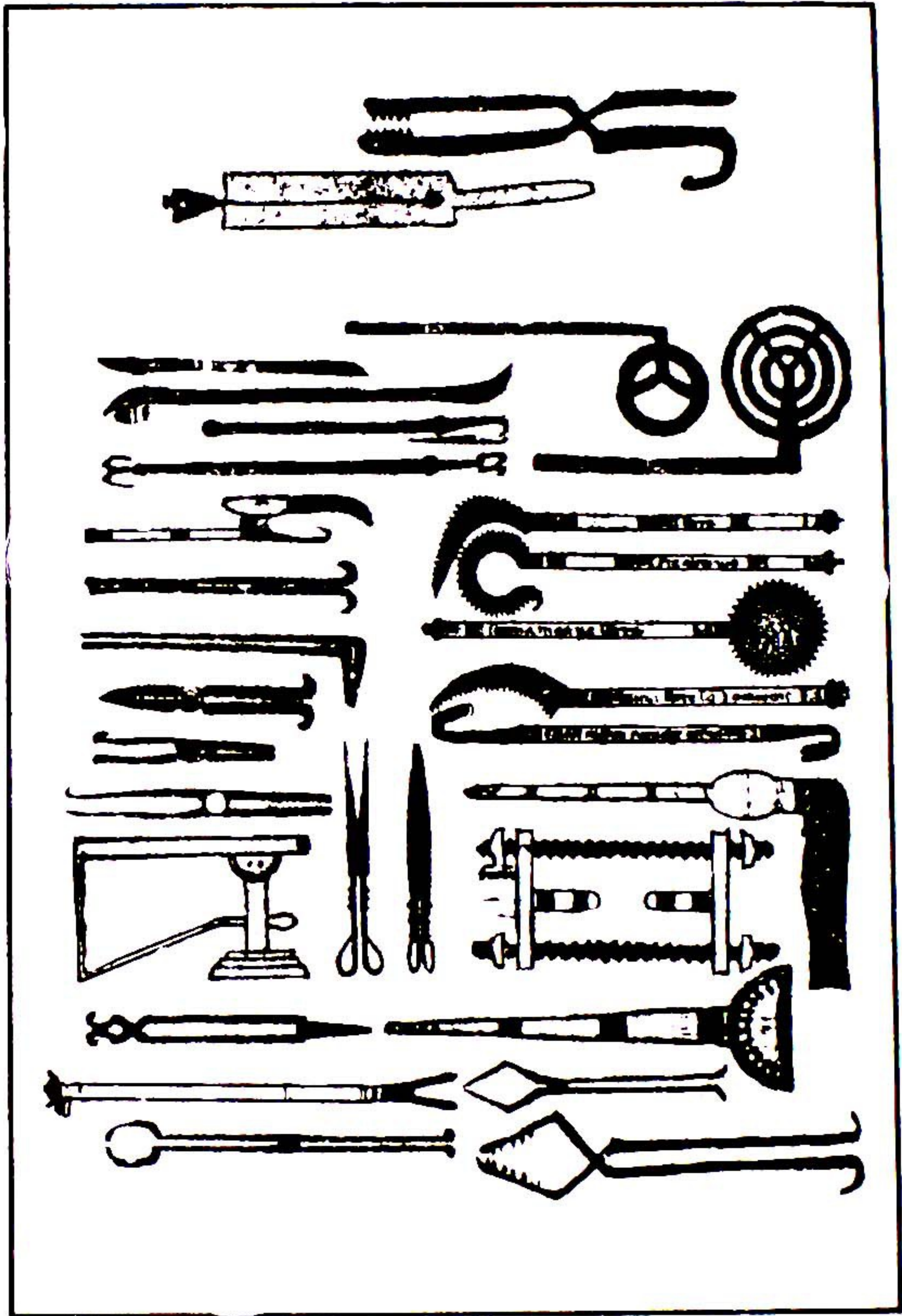
جراحة العين ، وقد نبغ في هذا المضمار عمّار الموصلي الذي عاش في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) . وقد اهتم عمّار اهتماماً بالغاً بالجزء الخاص بجراحة العيون حيث شرح شرحاً وافياً ست عمليات لإظلام عدسة العين . وقد ترجم كتابه بهذا البحث إلى اللاتينية واستمر استعماله في جامعات أوروبا حتى القرن الثامن عشر الميلادي .

ومن الذين اشتهروا بطب العيون وجراحاتها علي بن عيسى الذي ولد في أوائل القرن العاشر الميلادي . وكتابه المسمى « التذكرة » مكون من ثلاثة أجزاء شرح في الأول تشريح العين ووظائفها . واستخدم التخدير في عمليات العيون وقد دوّن كيفية الاستخدام هذه في الجزء الثاني . وقد تطرق إلى التخدير بواسطة الاستنشاق .

هذا وقد ترجم كتابه إلى عدة لغات .

وقد أخرجت الجامعات الإسلامية أطباء جراحين كثيرين . أما الجراحة فقد بلغت القمة عن طريق « أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى » المتوفى (١٠١٣ م) . ويسمى بالزهراوى نسبة إلى مدينة الزهراء مسقط رأسه . ولأبى القاسم عدة كتب أشهرها « كتاب التعريف لمن عجز عن التصريف » . وفي الفصل الأخير منه يتحدث عن الجراحة وآلاتها وقد اشتملت الآلات الجراحية التي ضمنها كتابه وأوضحها بالرسوم على منتهى آلة جراحية هو مبتكرها . وتعتبر هذه بمثابة حجر الأساس للجراحة في أوروبا .

ولقد وصف أبو القاسم في الفصل الأخير من كتابه أنف الذكر حال الجراحة في عصره وشرح الأسباب التي دعت إلى الكتابة في هذا الموضوع وتطرق إلى النصائح والتحذيرات الضرورية التي على الجراح أن يأخذها بعين الاعتبار عندما يقدم على إجراء عملية جراحية ، كما ذكر الآلات التي



أدوات جراحية عربية

عليه استخدامها في العمليات الجراحية .

وبحث في مضار الكى بالنار ومنافعه . ثم بحث عن الجروح والنخز
والفصد والحجامة واستخراج السهام من الجسم .

وذكر أبو القاسم أنواعاً من الإبر وخيوط الجراحة التي تستخدم في
العمليات . كما تحدث عن جراحة الأسنان فشرح وصور مقاشط تنظيف
الأسنان وكالاليب قلعها ، وذكر عملية صنع الجسور (الكبارى) لتثبيت
الأسنان الضعيفة ، واستعمل للكشف عن اللوزتين والحلق ملعقة تخفض
اللسان إلى أسفل . ثم تعرض إلى الحقنة المعدنية التي استعملها لحقن
المثانة بالسوائل الطبية . أما وصفه لاستخراج حصاة المثانة فيعتبر من
الإنجازات الهامة التي قدمها أبو القاسم لجراحة المثانة . كما ذكر في كتابه
جبر وفك المفاصل وعلاج العظام المكسورة بما في ذلك كسر الحوض . وذكر
الجبائر وكيفية استخدامها ، ووصفات لصنع الضمادات واللبخات للعظام
المكسورة .

وكان لكتاب أبي القاسم في الجراحة أثر بارز في رفع هذا العلم
بأوروبا . وقبل أن نختم الكلام عن أبي القاسم نقول : إن قائمة الأدوات
الجراحية التي ذكرها في كتابه ووضحها بالرسوم كانت عوناً كبيراً لجراحي
أوروبا . وإن هذه الأدوات الهامة جداً في تاريخ الجراحة تعتبر من المنائر
الإسلامية في هذا الميدان رغم أنف المغرضين . (انظر شكل الأدوات
الجراحية العربية)

١٣ - صناعة الأدوية :

لقد عرف المسلمون تأثير الأعشاب في شفاء الأمراض . لذلك فقد
استخرجوا من كثير من الأعشاب أدوية استعان بها الأطباء في
البيمارستانات (المستشفيات) . وقد انتشرت هذه الأدوية والعقاقير ،
حتى أصبحت في متناول عامة الناس .

وقد وضعت تصانيف عديدة في الأدوية والنباتات الطبية حتى تألفت
الحضارة الإسلامية وسطعت شمسها . فقد ذكر الشيخ الرئيس ابن سينا

(ت ١٠٣٧ م) (١) الذى ظلت كتبه الطبية عماد الدراسة في كليات الطب الأوربية قروناً عديدة في كتابه القانون (في الطب) ما يزيد عن سبعمائة وستين دواء . وقد دخلت كلها في مؤلفات الأوربيين في علمى النبات والصيدلة . حتى إن الكثير منها لا زال يعرف بأسمائها العربية . (٢) .

وقد أورد ابن البيطار في كتابه (الجامع لمفردات الأدوية) بحثاً عن النباتات الطبية التى ثبت عنده صلاحيتها . كما تحدث عن فوائد الأغذية المختلفة .

وبالإضافة إلى العقاقير النباتية ، قام المسلمون ، على نحو لم يسبقهم إليه أحد من قبل ، على إجراء تجارب كيميائية عديدة من أجل تحويل المعادن وعزل المواد بعضها عن بعض . وكانت تلك التجارب المقدمات الأولى لقيام علمين فيما بعد هما : الكيمياء العضوية والكيمياء غير العضوية .

وهكذا توصل المسلمون إلى الكشف عن تركيبات كيميائية للتوصل إلى الإكسير الذى يعيد إلى الجسم قوته ونشاطه . وقد ابتكر جابر بن حيان الذى عاش في القرن الثامن الميلادى ، طرقاً جديدة في الصهر بواسطة الأحماض التى توصل إليها بنفسه مثل : حامض الطرطير ، وحامض الكبريتيك (زيت الزاج) (٣) ، وحامض النيتريك (ماء الفضة) وغير ذلك . كما تمكن من استحضار عدد كبير من المركبات الكيميائية كماء الذهب ، والصدودا الكاوية ، والأثمد والنشادر والقلويات وغيرها .

ولقد استخدم المسلمون الأوانى الزجاجية لحفظ المواد الكيميائية . وبالإضافة إلى ذلك تمكن علماء المسلمين وعلى رأسهم أبو بكر الرازى المتوفى عام ٩٢٥ م . من استخدام التقطير في استخراج مواد طبية وزيت وغيرها . وقد أدت تجارب الرازى ، الكيميائية في الطب إلى استحضار عقاقير جديدة

(١) (ت) تعنى المتوفى

(٢) فمن ذلك مثلاً باللغة الانجليزية : العنبر (الكرمان) Amber ، والزعفران (Saffran) ، الكافور (Camphor) ، والتمر هندي (Tamarind) وعود الند (الصبر) (Aloe) يستعمل عصيره المركمسهل في الطب . والحشيش (القنب الهندي) (Hashish) ، والمسك (Musk) والصندل (Sandal) وغيرها .

(٣) هذا مع العلم أن أول من وصف عمليات تحضير حامض الكبريتيك هو أبو بكر الرازى

« يوزع مجاناً ولا يباع »

لها قدرات علاجية قوية .

هذا ولا يزال كثير من المواد التي استحضرها المسلمون نعرف بأسمائها العربية في اللغة الإنجليزية (١) .

ولقد فكر الرازي في المرضى الذين يشكون حساسية شديدة ويعجزون عن تناول الأدوية . فكان أن غلف حبات الأدوية بغلاف من السكر ومزج عصير الفاكهة بالسكر أو العسل حتى تذهب مرارتها وتزداد كثافتها .

كما برع العرب بما قدموه من أنواع الضمادات والمساحيق والمرهم والمواد اللاصقة وغيرها . وهذا مكنهم من العناية بمعالجة الجراحات والدمامل وتطبيخها ثم شقها ، ومداواة كثير من الأمراض الجلدية وتجنب تقييحها باستخدام المواد المخمرة المعقمة ولو أنها لا تساوى في مفعولها البنسلين . وقد استعمل العرب القهوة المحروقة والمطحونة لمعالجة التهابات عديدة .

هذا وكان لا بد من وجود معارف خاصة في الكيماويات واستحضار الأدوية لمعالجة المرضى . وهذا مما أدى إلى وجود مهنة الصيدل والصيدالة . وكان العرب هم المؤسسون الحقيقيون لمهنة الصيدلة التي ارتفع أصحابها بمعلوماتهم الوفيرة وبشعورهم بالمسئولية عن تجا العقاقير .

وكان العرب أول من افتتحوا الصيدليات العامة وذلك في خلافة (أبو جعفر المنصور) . كما أنهم ألحقوا بكل بيمارستان (مستوصف) صيدلي خاصة به . كما أوجدوا الصيدليات المتنقلة مع المستشفيات المتنقلة ساحة المعركة .

ومنذ أيام المأمون ، كانت الصيدليات وكل قسم من أقسام الصيد العسكرية تحت إشراف حكومي . كما كان هناك رئيس أطباء ، وكان في ك

(١) بنزين (Bensine) البورق (Borak) الاكسير (Elixir) القلويات (Alkali)
الصودا (Soda) الكيمياء (Alchemy) انلين (Amine) بودرة الطل
(Talkum Powder)



صيدلية عوميسية
(مطولة عربية لاسن صينا)

مدينة عميد للصيادلة يقوم هذا العميد بإجراء اختبار للصيادلة ومن ثم يمنح الناجحين منهم رخص العمل. وكان ابن البيطار عميدا للصيادلة في القاهرة لوقت طويل . كما كان في كل مدينة مفتش خاص يشرف على تحضير الأدوية . ويرافقه شرطى الصحة . وكان الصيادلة بالاضافة الى عملهم ، يعملون في مراكز فحص المواد الغذائية كالأفران وباعة الحليب وحوانيت المواد الغذائية والتدقيق في صحة مقاييسهم وأوزانهم وفحص اللحوم في المسالخ القائمة خارج المدن . كل ذلك تجنباً لانتشار الأوبئة . وكان الصيادلة يصنعون أدويتهم حسب التعليمات الرسمية المدونة في كتب خاصة تدعى « كتب الأقرابازين » .

هذا وأصبحت دائرة الصحة العامة مثلاً يحتذى به في بلاد الغرب . إذ انتقلت عن طريق صقلية والتي أقر ملكها النورماندى روجر الثانى التنظيمات الصحية العربية وأصدر قانوناً عام ١١٤٠م . باختبار الأطباء قبل إعطائهم رخصاً بالعمل . كما أكد الأنبراطور فردريك الثانى على التنظيم العربى لسلك الأطباء والصيادلة وأصبح هؤلاء يقسمون اليمين أمام الأنبراطور ولا يعملون إلا بترخيص منه . إلا أن الكنيسة قاومت هذه الإجراءات لأنها اعتبرتها تعدياً على حقوقها . ومع ذلك فقد أصبحت هذه القوانين هى المعمول بها في البلاد الأوربية فكانت بمثابة رأس الجسر الذى نقل طباء والصيادلة من العصر المتوسط إلى العصر الحديث . وكان هذا الجسر من صنع المسلمين في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . وعن المسلمين أخذ الأوربيون صناعة العقاقير التى غمرت أوربا عن طريق صقلية والبنديقية .

واحتلت الأسماء العربية في الطب والصيدلة مقاماً علمياً كبيراً ولجأ بعض الأطباء في شمالى إيطاليا إلى وضع كتبهم على أساس تلك الأسماء . وعلى أكتاف المسلمين سطع نجم علماء العلوم الطبية في أوربا .

هذا ولقد عاصر التأثير الإسلامى في ميدان علم العقاقير بأوربا، فترة ما قبل النهضة وأثناءها وتعداها حتى وصل إلى القرن الثامن عشر الميلادى .

إذ في عام ١٧٥٨ م . صدرت أجزاء من كتاب « الجامع لمفردات الأدوية » لابن البيطار . ومع انقطاع حبل الاتصال بعد ذلك التاريخ ، إلا أن كل مستشفى بما فيه من ترتيبات ومختبرات ، وكل صيدلية ومستودع أدوية في أيامنا هذه ، إنما هي في حقيقة الأمر رمزا للعبقريّة العربية .
كما أن كل حبة من حبوب الدواء إنما هي كذلك تذكّار يذكرنا باثنين من أعظم أطباء المسلمين ومعلمي بلاد الغرب .

١٤ - الصناعات المعدنية والحلي:

وهذه تشمل صناعة الأباريق والأواني المتنوعة والأطباق والأمشاط والأقفال ومقابض الأبواب والمفاتيح والمحابر والقناديل والحلي كالعقود والخواتم والأقراط ، كما تشمل النقود وغير ذلك . واللوحات الآتية توضح مختلف هذه الصناعات .

وعلى الرغم من أن الفنانين المسلمين قد أنتجوا تحفاً معدنية كثيرة ، إلا أنها لم تكشف عن خصائص الفن الإسلامي الذي لم يكن قد تبلور بعد . ومع أنه لم يُعثرَ على الكثير من الصناعات المعدنية التي يمكن أن تنسب إلى العصر الأموي إلا أن هناك عدداً من الأباريق البرونزية في كثير من متاحف العالم . ومنها الإبريق الذي يظهر في الشكل وهو محفوظ في متحف الآثار الإسلامية بالقاهرة . وهذا الإبريق كروي الشكل ذو رقبة أسطوانية ومقبض طويل . أما ميزابه فهو على شكل ديك يصيح . يضاف إلى ذلك زخارف متنوعة . كما اعتنى الأمويون بصناعة العقود .

وفي العصر العباسي ، بلغت الصناعات المعدنية أوجها من ناحيتي الكم والكيف . إذ دفع الازدهار الاقتصادي إلى تقدم الصناعات المعدنية وغزارتها لتلبية احتياجات المجتمع الإسلامي والبلاد الأجنبية . وفي هذا العصر ظهرت صناعات معدنية جديدة . فمن ذلك مثلاً: أواني الفضة المزخرفة وأباريق الذهب التي تحمل زخارف نباتية وحيوانية إلى جانب شريط الكتابة بالكوفية على فوهة الإبريق (انظر الشكل) . وفي هذا العصر أيضاً ولا سيما في أيام البويهيين ، ظهرت الأوسمة الذهبية وعليها نقوش وزخارف

نمّاذج من الصناعات المعدنية الإسلامية



أبريق من الذهب - العصر البويهي
إيران - القرن ١٠هـ / ١٦م
متحف فرير - واشنطن



دورق طائر الورود القرن ٦هـ
العصر الساماني (إيران).



أبريق من المعدن مكنت بالفضة
القاهرة / العصر المملوكي



أبريق من معدن مكنت بالفضة - برص
(عصر اتابك السلاجقة)



أبريق من نحاس القرن ٢هـ
متحف الآثار بالقاهرة

مِنَ الصَّنُوعَاتِ المَعْدِنِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ



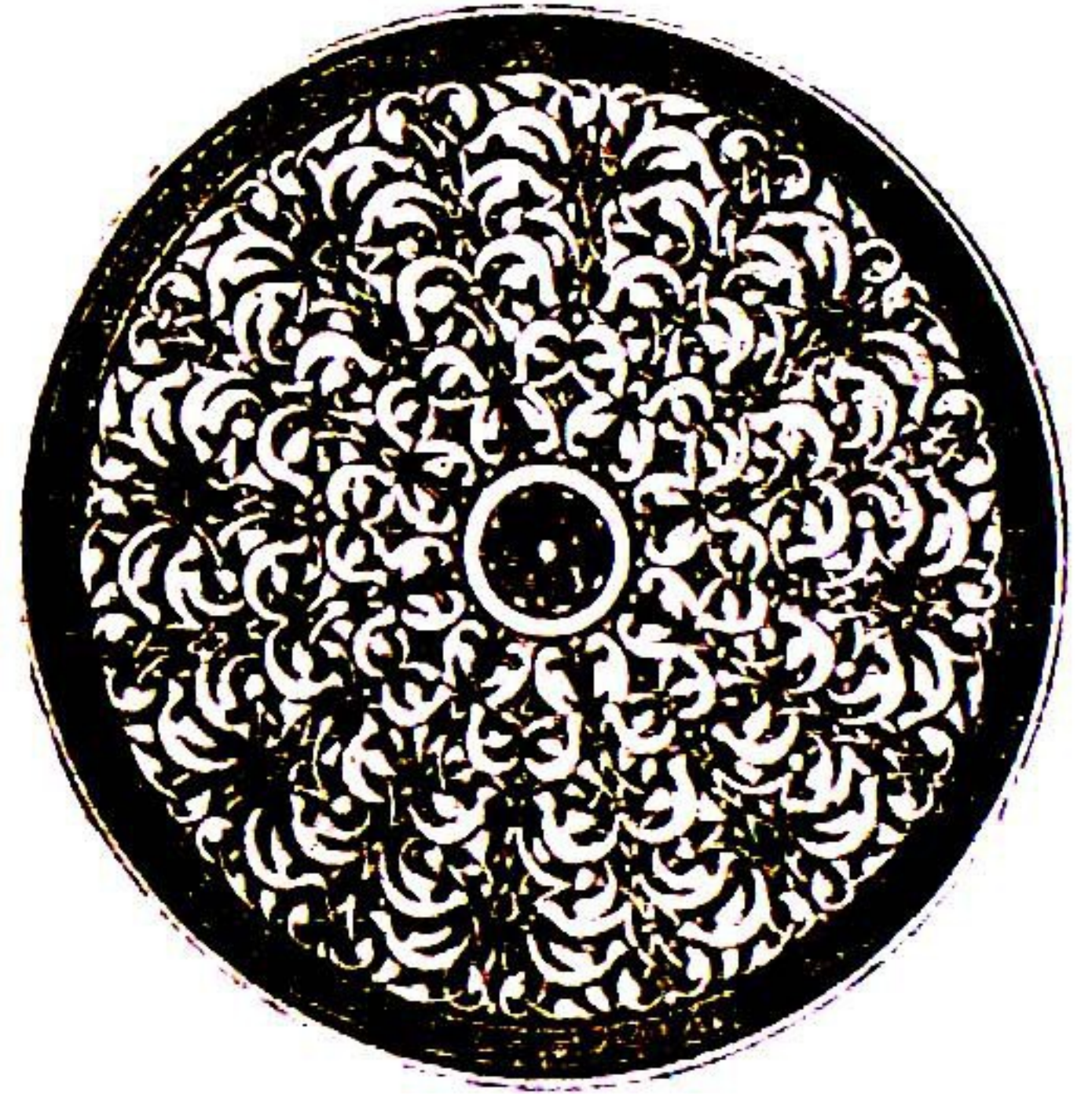
إِنَارٌ معدني مكفَتٌ بِالفضة المَعْدِنَةِ ٨٨ هـ / ١٤٦٣ م
مِنَ مَنَاطِقِ إِيْرَانِ، مَتَحَفُ البَتْرُوْبُولِيَّاتِ



إِنَارٌ مِنَ البَتْرُوْبُولِيَّاتِ (مَتَحَفُ البَتْرُوْبُولِيَّاتِ)



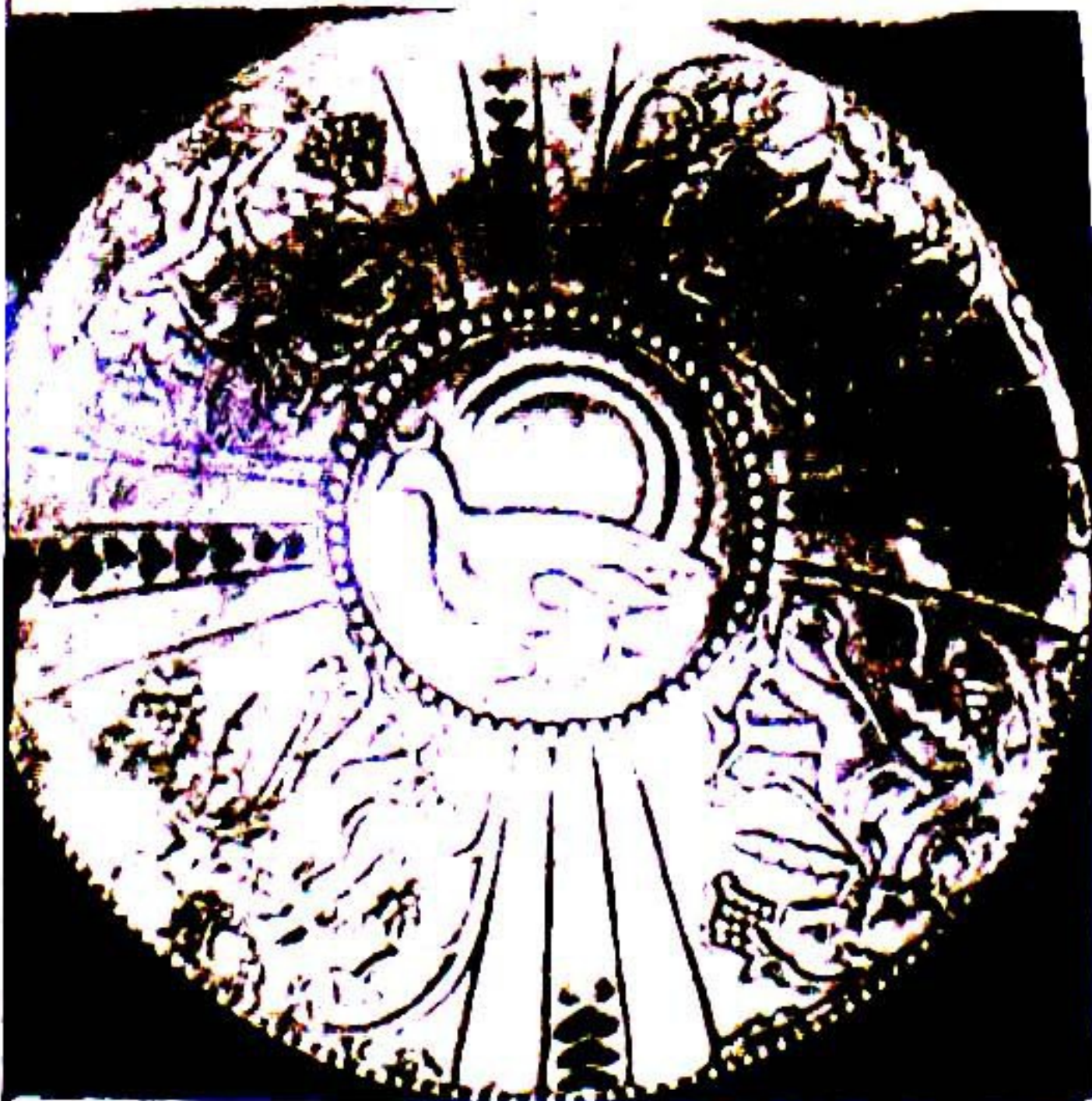
طَشْتٌ مِنَ المَعْدِنِ - العَصْرِ المَمْلُوكِي
مِنَ مَنَاطِقِ مِصْرِيَّةِ - مَتَحَفُ البَتْرُوْبُولِيَّاتِ



طَبَقَةٌ مِنَ البَتْرُوْبُولِيَّاتِ



إِنَارٌ مِنَ البَتْرُوْبُولِيَّاتِ بِمِثْلِ تِمْرٍ لِيْنَاك
مُورَخٌ ٨٠٠ هـ - ١٢٩٧ م



طَبَقَةٌ قِصِي بِرِزْمَارْفِ حَمِيَّةِ
لِعَصْرِ البَتْرُوْبُولِيَّاتِ / إِيْرَانِ - لَهْرَنَ ٤ هـ / ١٧١٣ م



إِنَارٌ صَنُوعٌ مِنَ البَتْرُوْبُولِيَّاتِ

تصوّر رءوس أمرائهم .

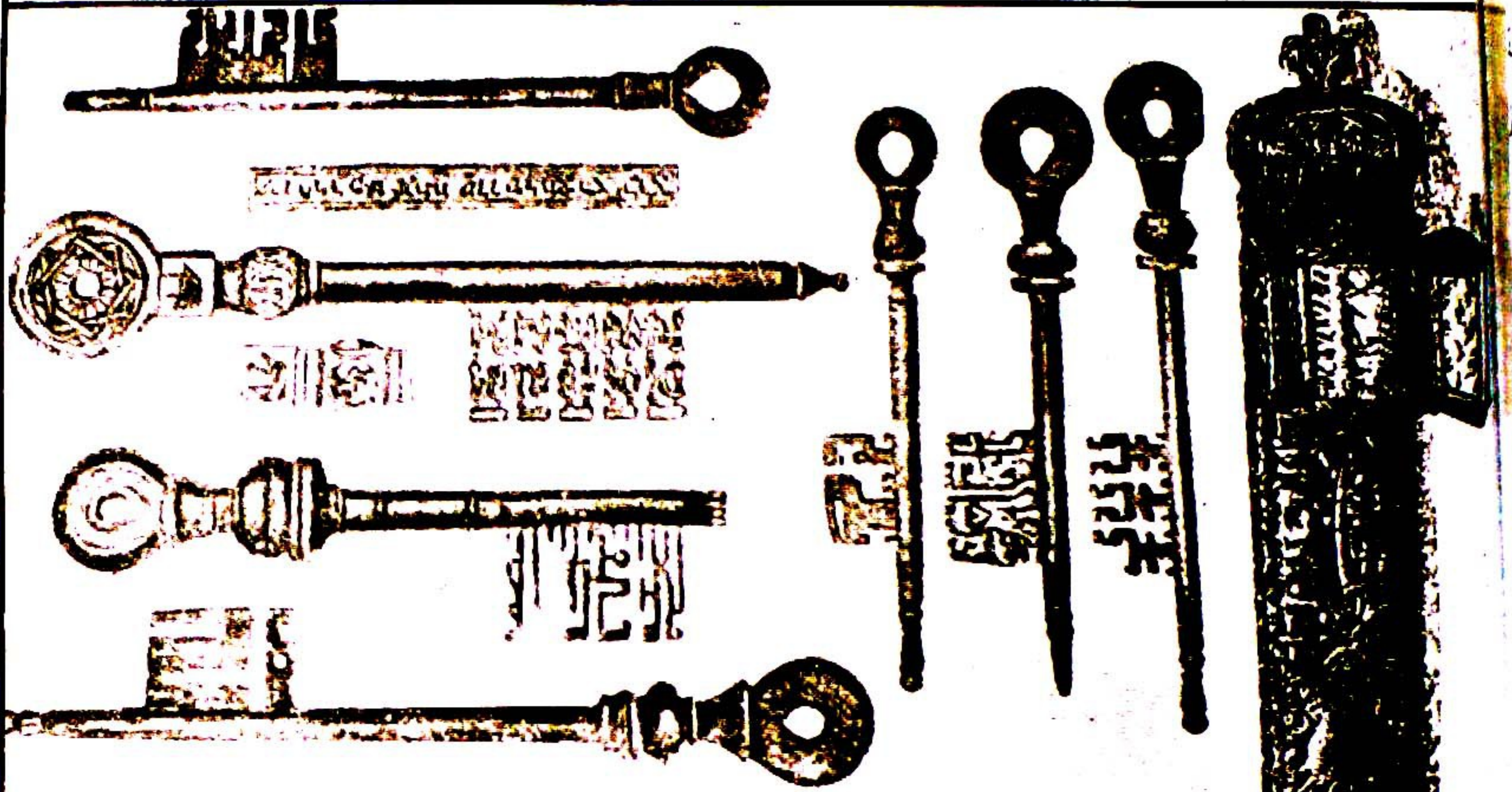
هذا وقد احتوت كنوز الفاطميين على الكثير من الحلى الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة والميناء (انظر الشكل) . ومن تلك الحلى الخواتم والأقراط الذهبية والفضية المتنوعة المصنوعة على شكل أهلة كما زخرفت تلك الحلى بزخارف متنوعة . كما تغنن الفاطميون فى صناعة صنابير المياه التى كانت على شكل أسود من البرونز . ومن أشهر تحف الزينة عندهم حيوان من البرونز له جسد أسد مجنح ورأس عقاب (انظر الشكل) .

وفى منتصف القرن السادس الهجرى ، فى عهد السلاجقة ، ظهر أسلوب جديد فى زخرفة المصنوعات المعدنية هو التكفيت . والتكفيت أو التطبيق هو النقش على التحفة المعدنية ثم ملء تلك النقوش المحفورة بشرائط من الفضة أو النحاس الأحمر أو بكليهما معاً . ولقد ظهرت صناعة التكفيت فى خراسان ثم فى باقى أجزاء فارس . وتبوات الموصل فى عهد آل زنكى مكانة رفيعة فى صناعة التكفيت . وكان لتلك المدينة الأثر الكبير فى رقى هذه الصناعة ونشرها فى العالم الإسلامى .

ومن القطع المعدنية التى تمثل العصر السلجوقى الأول ، طبق من الفضة مزخرف بوحدات منقوشة على السطح ذات عناصر كتابية وحيوانية ونباتية وتدل الكتابة على أن هذا الطبق صنع للسلطان السلجوقى ألب أرسلان (٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م) ومن التحف الجميلة دورق عطر من الفضة مغطى بطبقة من الذهب وبسطحه نقوش بارزة لعناصر زخرفية حيوانية ونباتية وكتابية (انظر الشكل) . ولإخراج تحف معدنية جميلة ، جمع الفنان السلجوقى بين الزخارف المنقوشة على سطحها وبين الزخارف المفرغة (المكفتة) (انظر الشكل) .

وفى زمن آل زنكى بالموصل وحلب ، تزعمت الموصل صناعة المعادن وتكفيتتها برقائق من الأشرطة الفضية والذهبية عوضاً عن النحاس الأصفر الذى كان معروفاً من قبل لدى سلاجقة إيران . وتعد مجموعة الأوانى المكفتة التى تنسب الى الموصل أجمل ما أنتج العالم من هذا النوع .

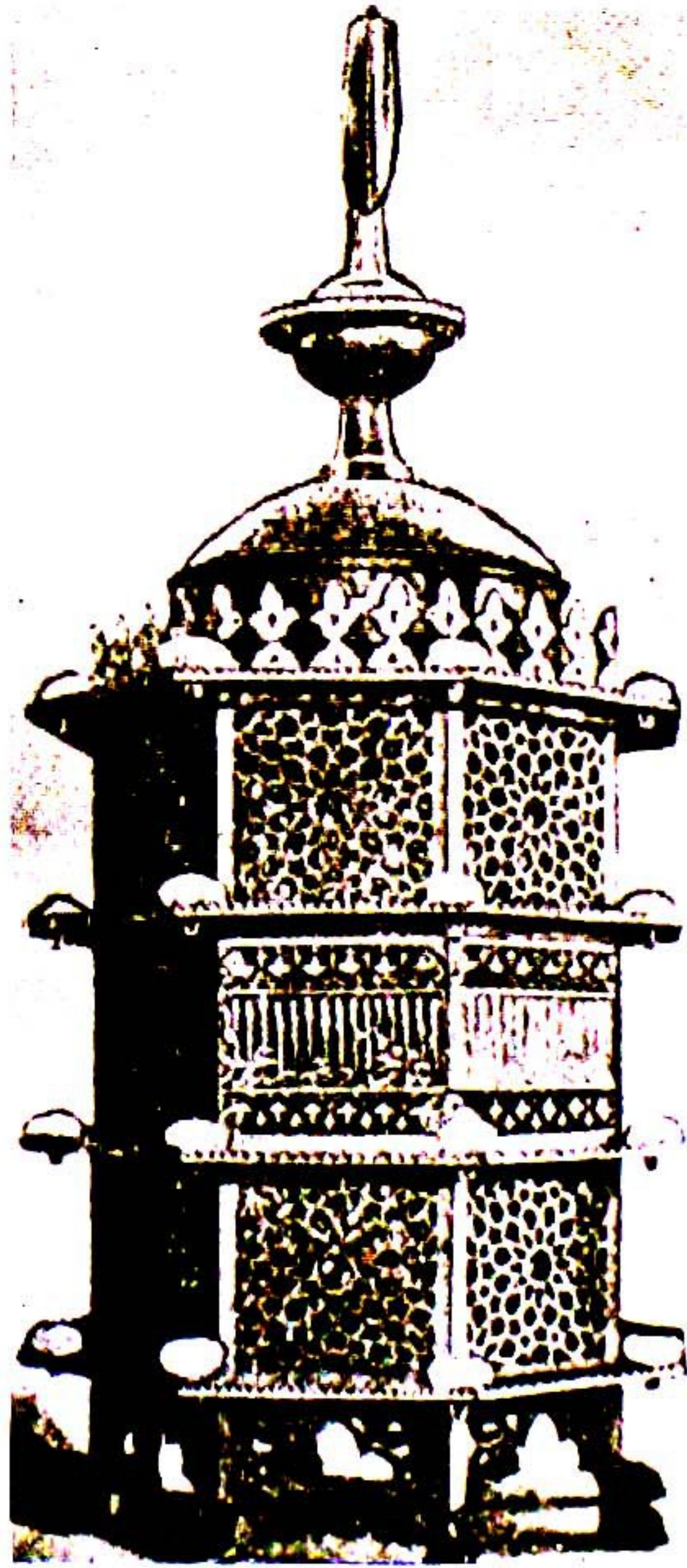
نماذج من الصناعات المعدنية الإسلامية



نماذج من مفاتيح بعض العصور الإسلامية بمتحف العاديات الزيبانف



مصباح في مسجد الحمراء (متحف العاديات)



سرجة من البرونز بالقاهرة

دواة من نحاس
مكف بالفضة



عقاب من برونز
العصر الفاطمي
(سيفر بيزا)

وفي العصر المغولي تميزت الصناعات المعدنية الإسلامية بالدقة ومن بين هذه الصناعات في ذلك العصر صناعة الحديد للأغراض الحربية كالسيوف والخنابجر والخبوذ المخروطية الشكل.

وفي العهد التيموري المغولي ظهرت عدة أوان تحمل اسم تيمورلنك . وفي العهد المغولي الإسلامي بالهند ، استمر إنتاج التحف المعدنية كما استخدمت الأحجار نصف الكريمة في صناعة بعض الأواني الخاصة بالحكام . هذا وما زالت الهند حتى اليوم ذات شهرة بالتحف والأواني المعدنية .

أما صناعة الحلى فيبدو انها كانت متقدمة على الرغم من ندرة ما عثر عليه من هذه الصناعة. ويتضح ذلك التقدم من خاتم ذهب صنع في هرات عام ٨٢٤ هـ / ١٤٢٠ م منقوش عليه زخارف لتوريقات نباتية وشريط من الزخارف الكتابية. (انظر الشكل في لوحة الحلى) وقد استخدم حجر الجشم الأخضر في ترصيع هذا الخاتم.

وفي العصر المملوكى ، ازدهرت صناعة المعادن بأنواعها واستخدمت شرائط النحاس في تغطية الأبواب الخشبية للمساجد والقصور وذلك بعد



قرطمان الذهب - القرن ١١ هـ / ١١ م
العصر الفاطمي - القاهرة



خاتم من الذهب صنع في هرات
من صنع حجر الجشم الأخضر - إيران



إنارة من حجر الجشم منقوش عليه اسم أولج بك هفيد
تيمورلنك - إيران - العصر التيموري
لمتحف لبريطاني - لندن

نقشها بزخارف هندسية جميلة . ومما ساعد على ازدهار صناعة المعادن في هذا العصر، اهتمام الممالك بصناعة أدوات توضع في المساجد مثل: الشمعدانات والمناضد والصناديق التي تحفظ فيها المصاحف والمحابر والثريات وغيرها .

ولقد استخدم البرونز في صناعة هذه الأدوات المعدنية وكانت تزخرف بطريقتين : النقر والتكفيت اللتين تقدمتا تقدماً واسعاً في هذا العصر . كما ظهرت في هذا العصر الزخارف المتشابكة وتوزيعات نباتية بدلا من الزخارف الآدمية .

(أمعن النظر في اللوحات الخاصة بالصناعات المعدنية والحلي، تر مدى التقدم الذي بلغه المسلمون في مضمار هذا النوع من الصناعات) .

١٥ - صناعة الجلود والتجليد :

اشتهر المسلمون بصناعة الجلود التي كانوا يستخدمونها في أغراض كثيرة مثل : الحقائق والأحذية والكرانات (١) والسيور والدروع والقسى والسروج والأحذية وغير ذلك .

فقد اشتهرت الفسطاط بمصر بعمل الأنطاع (الجلود) ، التي كانت تصدر إلى بلاد الشام . كما اشتهرت بصناعة الحقائق والسيور والقسى . وبرع المصريون بصناعة السروج وحلوها بالذهب والفضة حتى بلغت قيمة السرج الواحد ما بين ألف وسبعة آلاف دينار . .
ولعناية الفاطميين بصناعة السروج خصصوا لها خزائن خاصة عرفت باسم خزائن السروج . كما اشتهرت الأندلس بهذه الصناعة أيضاً، أما بلاد المغرب فقد اشتهرت بالمحافظ والأحزمة الجلدية . وكان بمدينة فاس سوق خاص للمحافظ والحقائب الجلدية التي بلغت حد الإتقان والروعة. كما كان هناك سوق آخر تصنع فيه الدلاء الجلدية . واشتهرت بلاد المغرب بصناعة الأحذية على اختلاف أنواعها حتى إنه قيل إنه كان بمدينة فاس ١٥٠

(١) حزام لوضع النقود

متجرأ لبيع الأحذية و ١٥٠ حانوتا .

كما اشتهر المغاربة بصناعة الدروع والتروس الجلدية وسروج الخيل
وركائبها . واشتهر المغرب الأقصى بصناعة الزوالى والوسائد الجلدية .
ومن الصناعات والفنون الرئيسية التى عنى بها المسلمون فى هذا المجال ،
تجليد المصاحف والكتب والتفنن فى عملية التجليد مما أكسب الفنون
الإسلامية طابعها المميز .

وقد واكبت صناعة التجليد انتعاش صناعة الكتاب التى تناولت الخط
والرسم والتجليد والزخرفة . ونتيجة لنهضة فن الكتاب تطورت صناعة
التجليد عند المسلمين بحيث أصبح لها شكل مميز منذ القرن السابع الهجرى .
ومن أهم الأمور التى ساعدت على هذه النهضة رغبة الحكام المسلمين
فى إنتاج مصاحف جميلة من حيث العناية بالخط والتجليد والزخرفة .

وتنسب بداية زخرفة المصاحف وتحلية صفحاتها باللون الذهبى إلى
العصر العباسى . ولم يقتصر فن التجليد على المصاحف فقط بل شمل أيضاً
صناعة الجلود بوجه عام .

لقد اعتبر عمل المجلد فى فنون الكتاب ، متمماً لعمل الخطاط
والرسام ، إذ وقعت عليه مسئولية حفظ أوراق الكتاب من التلف والعناية
بمظهره الخارجى بحيث يتلاءم مع قيمة الكتاب ومحتوياته . كما وقعت عليه
زخرفة جلد الكتاب ولسانه بل تعدتهما إلى باطن الغلاف وقسماً من أوراقه. إذ
زينت هذه أبداع تزيين .

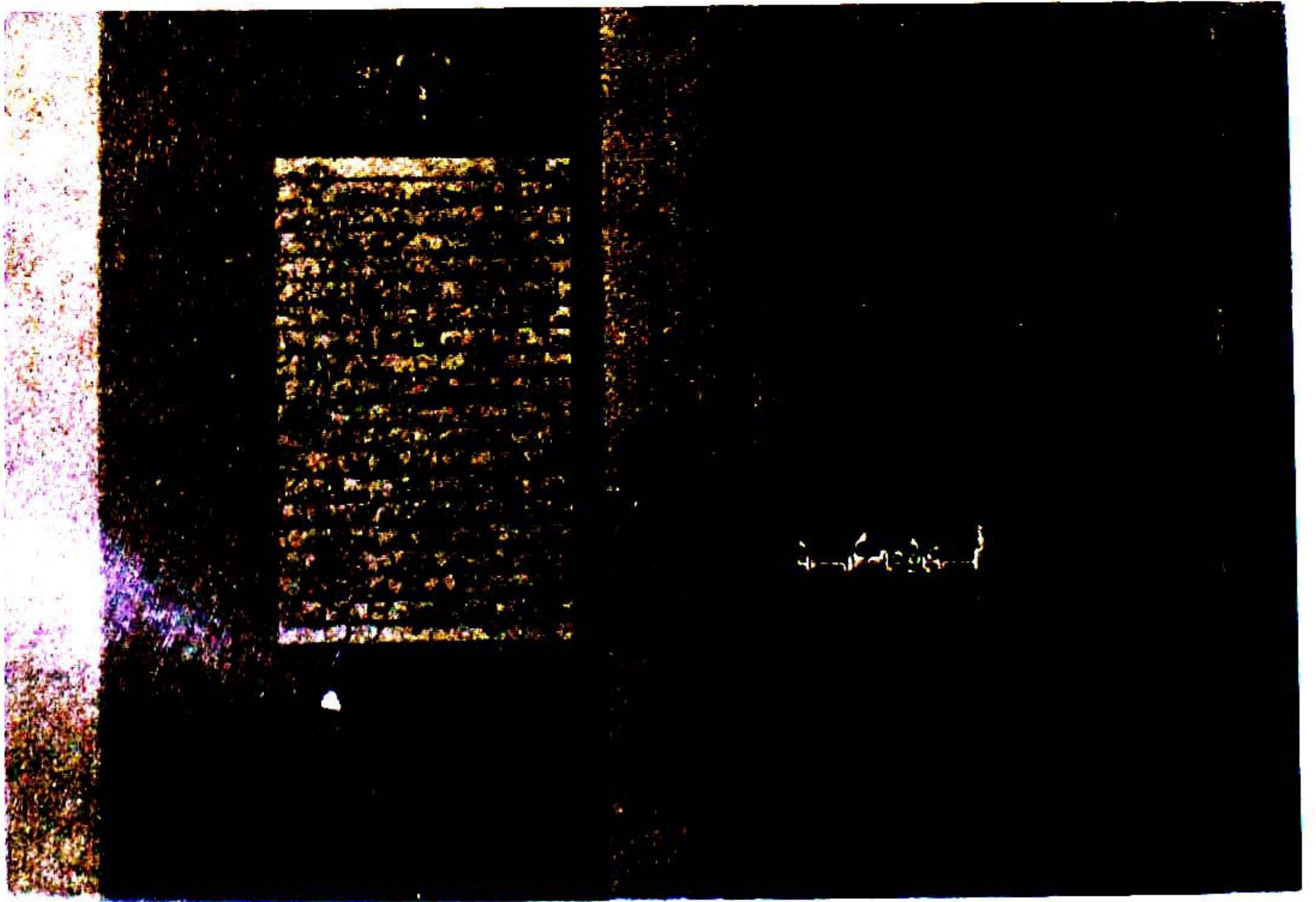
ومع أن الجلد ظل المادة الوحيدة المثالية لتجليد الكتب ، غير أن
المسلمين استخدموا الورق المضغوط المدهون بطبقة من « اللاكيه » فى تجليد
الكتب .

لقد استخدمت طرق متعددة فى زخرفة جلود الكتب فمنها : ضغط
الجلد وختمه إما بالذهب أو بدونه . ومنها الزخرفة بقص الجلد أو الورق
الذهب ولصقه على أرضية ملونة . وهذه تحتاج إلى مزيد من الدقة. وأقدم

صناعة الجلود والتجليد



صناعة الجلود في عهد المماليك - (مخطوطات ابن خلدون في تاريخه)



الصفحة الأولى من مخطوطات المعتمد بن عباد القرن ١١ م

جلود الكتب المعروفة في العصور الإسلامية قد صنعت في مصر في القرن الثامن الهجري . وتمتاز صناعة تجليد الكتب المصرية العربية التي يرجع تاريخها إلى العصر المملوكي بتغطية جلدة الكتاب كلها بزخارف هندسية متشابكة يزيد في رونقها نقط ذهبية مضغوطة . ولم يقتصر هذا الطراز في العصر المملوكي على مصر بل صنعت جلود كتب على غرارها في بلاد المغرب .

هذا وتعتبر جلود الكتب الإيرانية في العصر التيموري ، من أبداع ما أنتج في هذا الفن على الإطلاق ، وتمتاز صناعة جلود الكتب في معهد هراة بالدقة وجمال الرسوم . واستمر إتقان التجليد إبان العصر الصفوي مع زيادة في استخدام الذهب . وفي عصر طهماسب شاعت طريقة تزيين جلود الكتب بالصور والدهان باللاكيه وكان ذلك في القرن السادس عشر الميلادي ، واستمرت هذه الطريقة متبعة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين حيث اشتقت عناصر الزخرفة فيهما من أشكال الأزهار الطبيعية ذات الألوان الهادئة . وفي العهد التركي استمر الطراز نفسه .

هذا ولقد انتقلت صناعة التجليد إلى إيطاليا عن التجارة المغربية عبر صقلية . فقد قلد الإيطاليون لا سيما البنادقة منهم فن التجليد الإسلامي . وكان ذلك إبان القرن السادس عشر الميلادي .

١٦ - صناعة العاج :

مهر المسلمون في مصر والشام والعراق بصناعة الحفر على الخشب والعاج في مختلف عهودهم . وقد احتفظت صناعة الخشب في العصر الأموي بالأساليب الفنية المعروفة من قبل في سوريا . وأبرز أمثلة على تقدم صناعة الخشب في ذلك العصر الألواح الخشبية في المسجد الأقصى والصخرة المشرفة . كما اشتهرت مصر منذ القديم بصناعة الأخشاب وزخرفتها واستمرت هذه الصنعة في العهود الإسلامية ويدل على ذلك ما يوجد في المتحف الإسلامي بالقاهرة من الصناعات الخشبية المنقوشة والتي يظهر فيها تطور الفن العباسي بشكل واضح .

أما صناعة العاج فقد ازدهرت في العصر الأموي الغربي

نمادہ من صناعتہ العاج



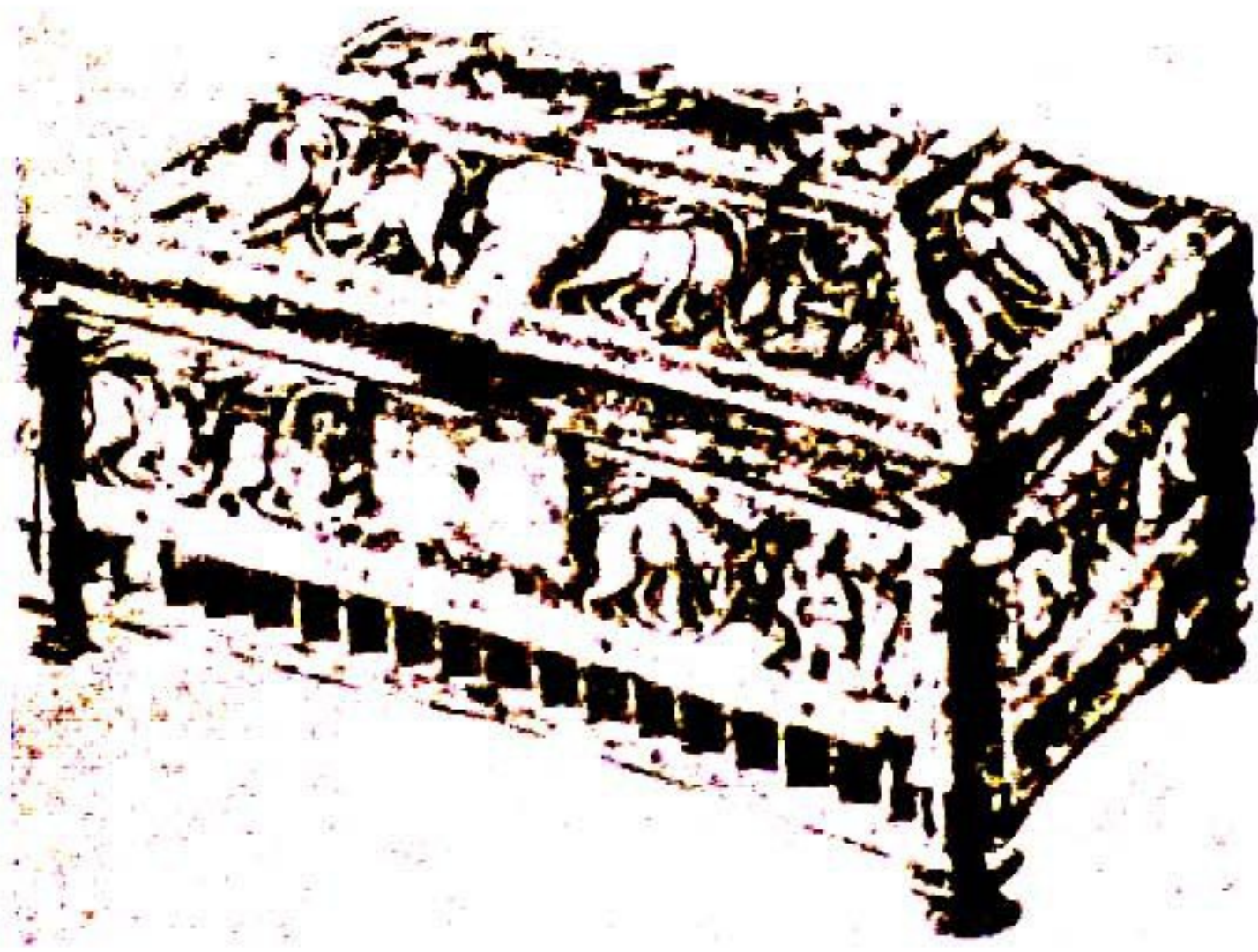
لوحة من العاج



بوق من العاج (في متحف لينن لاسلامى بيرلين)



درقة باب



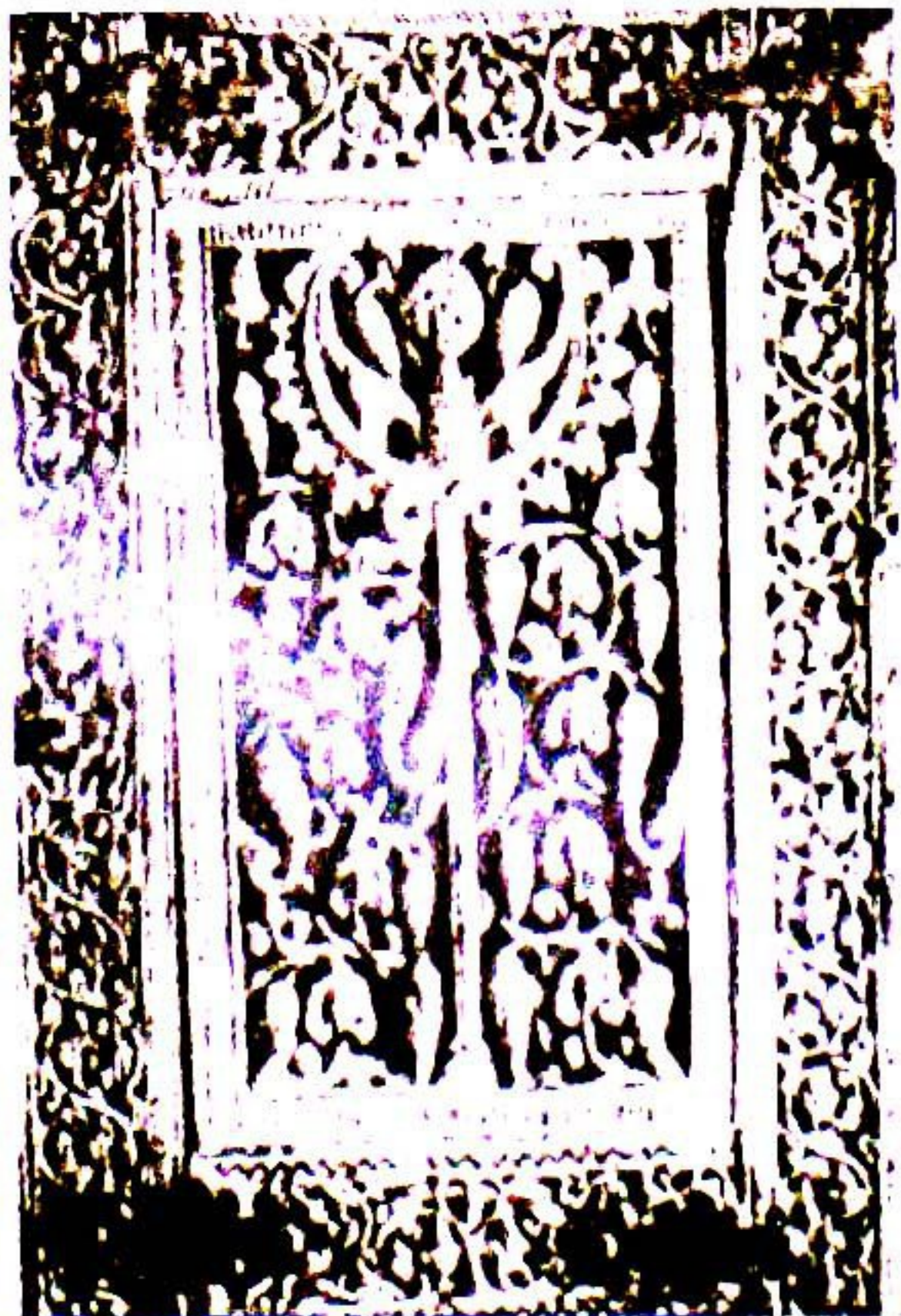
علبة من العاج من خزنة بنفوس بارزه (القرن ٦ هـ / ١٢٤٢م)



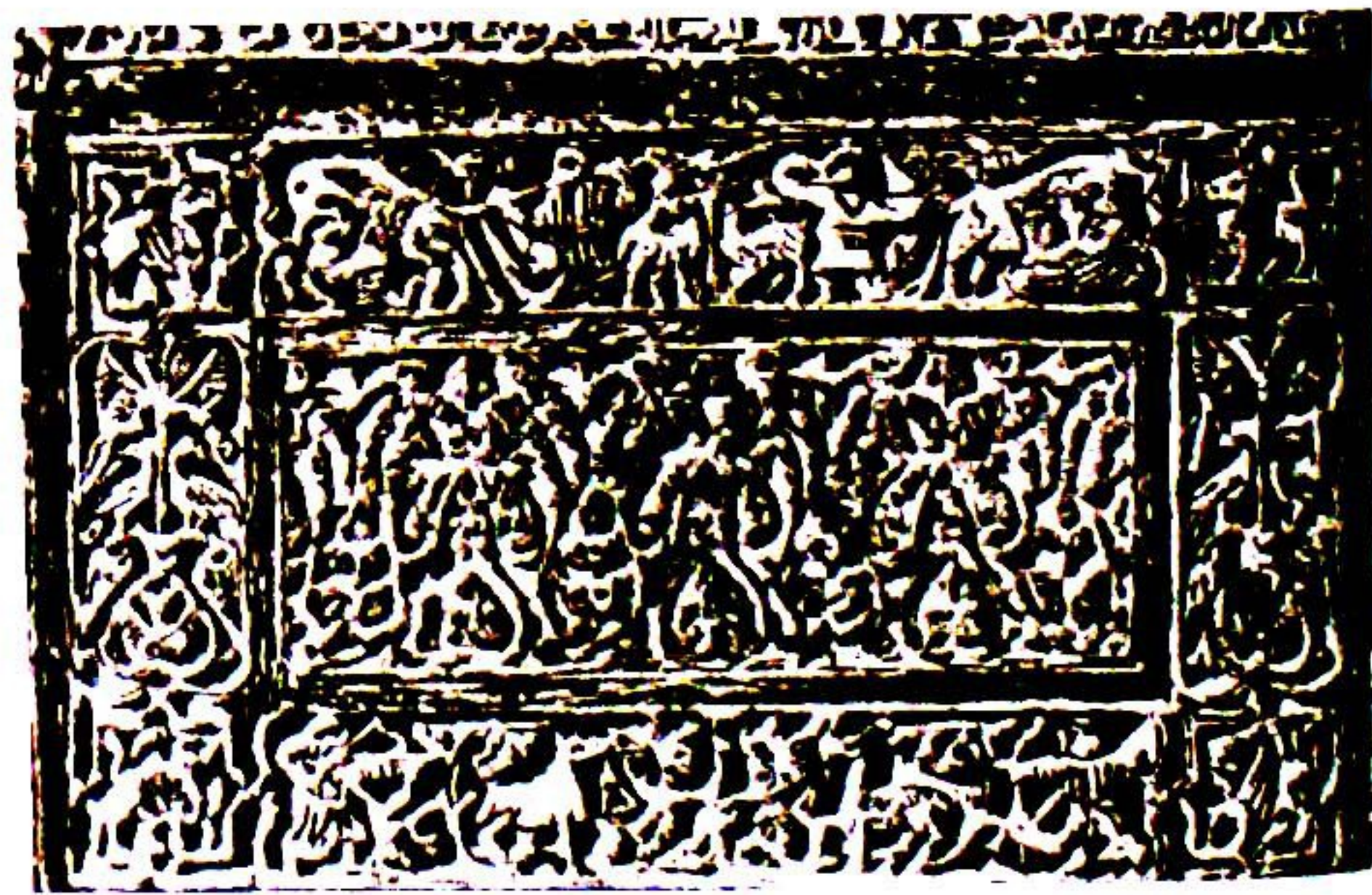
علبة من العاج / العصر الاموى قناتنا
بمتحف اللوفر - باريس



لوحة من خشب المطعم
بالزخارف
(العصر الفاطمى)



لوحة من الخشب المطعم بالعاج



منزوعة من العاج (بولندا)

(الأندلس) . ومن أجمل ما أنتجه فن ذلك العصر علب العاج المزخرفة بنقوش مزدحمة تغطي جسم العلبة وغطاءها . كما يوجد في كثير من العلب تاريخ صناعتها واسم صاحبها . وكانت مدينة ، قرطبة في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي مركز صناعة العاج . كما كانت قونية مركز تلك الصناعة في القرن الذي يليه . وكانت أجمل تحفة عاجية صنعت في قرطبة، علبة خاصة بالأمر « المغيرة » ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر تغطي سطحها الزخارف الرقيقة ذات عناصر آدمية وحيوانية ونباتية مأخوذة من موضوعات الصيد والطرب .

أما العلب المصنوعة في قونية فتبدو عليها زخارف عناصرها نباتية .

هذا وتعتبر التحف العاجية الإسلامية في الأندلس من أعظم ما خلفته الحضارة الإسلامية في الأندلس منذ القرن العاشر الميلادي .

وفي العصر الفاطمي أنتجت مصر حشوات عاجية مزخرفة بعناصر نباتية وحيوانية وأدمية تتشابه زخارفها مع زخارف الألواح الخشبية التي وجدت ببيمارستان قلاوون (السلطان المملوكي) . ولقد عثر على بعض هذه القطع في مدينة الفسطاط وهي محفوظة حالياً بدار الآثار الإسلامية في القاهرة . ومن التحف العاجية التي تسبب إلى هذا العصر الأبواق العاجية والعلب المستطيلة المزينة بوحدات زخرفية متنوعة . ولقد استخدم الفنان في ذلك العصر العاج والعظم في تطعيم الألواح الخشبية .

لقد اتقن الفاطميون صناعة العاج وأنتجوا منها أشياء كثيرة وإن ما هو موزع منها الآن على المتاحف العالمية لا يمثل إلا النزر اليسير مما كانت تحويه فيها العصور الفاطمية من كنوز ونفائس . ولم تقتصر الصناعات العاجية والخشبية على العصور أنفة الذكر بل شاعت في العصور الإسلامية التي تلتها . هذا وقد انتقلت صناعة العاج إلى صقلية ومنها إلى إيطاليا وكانت تلك الصناعة أساس الفن الإسلامي .

١٧ - صناعة زيت الزيتون :

لقد عنى المسلمون عناية خاصة بصناعة زيت الزيتون لما له من فوائد

غذائية وصحية . واستخدم المسلمون الزيت في الإضاءة والنواحي العلاجية . ولا يزال حتى الآن يصفه الأطباء كأحد العقاقير لمن يعانون من الرمل أو الحصوة .

وقد اشتهرت بلاد الشام والشمال الإفريقي والأندلس التي تقع على البحر الأبيض المتوسط بصناعة زيت الزيتون التي تقوم على قطف حباته من الشجر وتجميعها في أماكن خاصة ودرسها بواسطة أحجار ثقيلة ملساء مستديرة الشكل يديرها الإنسان أو الحيوان ، فوق قاعدة من الحجر مثبتة على الأرض . ثم يجمع الزيتون المهروس في قفف مصنوعة من ألياف الشجر كالنخيل أو القنب أو غيرها وتوضع هذه القفف المملوءة بالزيتون المهروس بعضها فوق بعض في أماكن معينة وتعصر بواسطة مكابس عملت خصيصاً لهذا الغرض . ويجمع الزيت في أماكن حجرية محفورة على شكل أحواض . ثم تخزن في جرار من فخار أو في آبار حفرت في الصخر خصيصاً لهذه الغاية . كما كان يستخرج الزيت بوضع الزيتون المهروس في قدور كبيرة تحتوى على ماء ساخن . وعندما يطفو الزيت على سطح الماء الساخن ، يؤخذ ويوضع في أوانٍ خاصة .

وقد اشتهرت حلب بصناعة زيت الزيتون وبآبار الزيت التي كانت تخزن بها كميات كبيرة منه . كما اشتهرت مدينة نابلس بهذه الصناعة وما زالت شهرتها بها باقية حتى يومنا هذا . وكانت تونس ، لا سيما مدينة سفاقس ، إبان القرن الرابع الهجري تنتج كميات كبيرة من الزيت وتصدر ما يزيد عن حاجة البلاد إلى روما . وكان الزيت رخيص الثمن لكثرة إنتاجه .

الفصل الثاني

العمارة الإسلامية

لقد أنشأ المسلمون في المدن التي شيدها ، مساجد ومدارس وقصوراً وغيرها من المباني الفخمة المتعددة وذلك وفق طرز متميزة تسمى عادة «الرياسة الإسلامية» لا تزال تلك المنشآت شاهداً على ما بلغه المسلمون من رقى حضارى في هذا المجال .

وإليك عرضاً لعدد من المنشآت التي أقامها المسلمون عبر مراحل حضارتهم الزاهية ، والخصائص التي تجلت في فن العمارة الإسلامى خلال عهدهم المتعددة والمدن التي شيدها، إبان تلك العهود لتكون عواصم لدولة الإسلام :

أولاً : أنواع المنشآت الإسلامية :

تشمل المباني والمنشآت الإسلامية المساجد والمدارس والمراسد والبيمارستانات (المستشفيات) والقصور والقلاع وغيرها . وفيما يلي استعراض لعدد من تلك المنشآت والتطورات التي طرأت على طراز بنائها :

أ (المساجد : لقد بنى المسلمون مساجدهم في شتى أقطار دولتهم ، واعتنوا ببنائها عناية فائقة حتى كانت درة في جبين العمارة الإسلامية . هذا وكان الغرض من بناء هذه المساجد بالإضافة الى إقامة الصلاة الجماعة ، جعلها مراكز الحياة الاجتماعية والسياسية . كما كان المسلمون يستخدمونها لاجتماع العلماء ومقرراً لعلماء التفسير والحديث ، ومعاهد للتدريس . كما اتخذها القضاة مكاناً لجلساتهم . كل هذه الاستعمالات كانت قبل إيجاد مبان خاصة للإمارة والقضاء والتدريس .

أما التصميم العام للمساجد فمع أنه بدأ بسيطاً بحيث يتكون المسجد

من أروقة مغطاة وساحة مكشوفة ، إلا أنه أُدخلت على هذا التصميم إضافات في مختلف العهود الإسلامية ، فجاءت عمارة المساجد مثلاً رائعاً للعمارة الإسلامية .

وقبل أن نبدأ بذكر المساجد التي شيدت في العهود الإسلامية المختلفة ، لا بد من أن نقدم لها بالمسجد الحرام الذي هو أول بيت أقيم للناس ، إذ يقول رب العالمين في كتابه العزيز : (إِنَّكَ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ) (١) . ومع أن المسجد الحرام (البيت) بناه في الأصل إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام (وَأَذِیْرَفُعُ إِبْرَاهِیْمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِیْلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِیْعُ الْعَلِیْمُ) (٢) إلا أنه مرّ بتطورات عدة في العهود الإسلامية الماضية والحاضرة ، من حيث التوسعة والإضافات حتى صار في الوضع الذي نشاهده عليه الآن .

ففي عهد الخليفة معاوية أحضر للمسجد منبراً . واشترى له ابن الزبير ورأ مجاورة وضمها إليه حتى أصبحت مساحته ٢٢,٤٠٠ ذراع مربع . كما اتخذ في المسجد رواقاً مسقوفاً على عمد . كما أن ابن الزبير قام ببناء لكعبة على قواعد إبراهيم عندما مال جزء من جدارها وأصبح البناء عرضة للانحيار .

وفي زمن الخليفة عبد الملك بن مروان جُدِّدَ سقف المسجد الحرام وجُعِلَ من خشب الساج . وفي عهد ابنه الخليفة الوليد بن عبد الملك أقيم بناء المسجد بشكل محكم فوق العقود المزخرفة بالفسيفساء ووسعه وكسا داخله بالرخام وجاء بالأساطين الرخامية من مصر والشام .

وفي عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، اشترت دور حول المسجد وأضيفت إليه . وزين المسجد بزخارف من الفسيفساء والنقوش المتعددة . وزاد الخليفة العباسي المهدي مساحته حتى أصبحت ١٢٠ ألف

(١) الآية ٩٦ من سورة آل عمران
(٢) الآية ١٢٧ من سورة البقرة

ذراع مربع .

وفي العهد العباسي الثاني أضيف إلى المسجد أشياء كثيرة كالمنبر العظيم وأساطين الخشب والرخام .

وفي العهد الفاطمي عُمرَ سقف الكعبة وثبَّت فيها الرخام كما بُنِيَ من جديد الركن اليماني .

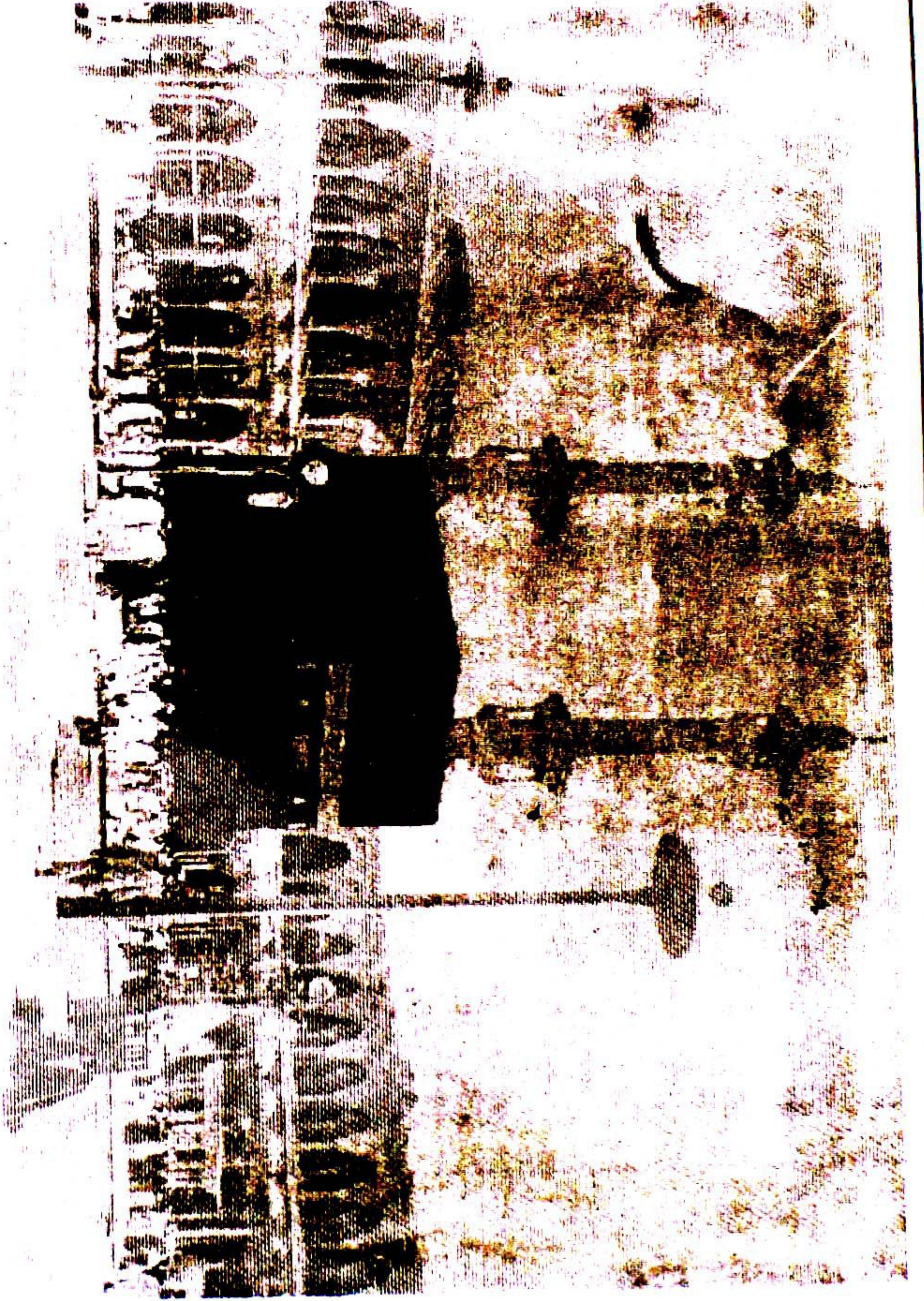
وفي العهد المملوكي استمرت الإصلاحات والإضافات . وفي العهد العثماني جددت المنائر وأصلحت الأبواب وجدد سطح الكعبة المشرفة . واستخدمت الأخشاب الغليظة لإسناد الأروقة . وفي زمن السلطان سليم الثاني ، بوشر ببناء المسجد جميعه من جديد على أيدي أشهر المهندسين المعماريين عام ٩٨٠ هـ .

ثم تم فيما بعد إصلاح جدران الكعبة لصيانتها وحفظها من التلف . كما اهتم العثمانيون بإرسال كسوة الكعبة المشرفة .

وفي عهد الدولة السعودية توالى الإصلاحات والتوسعات على المسجد الحرام حتى أصبح بناؤه على النحو الذي نشاهده عليه الآن من الروعة والفخامة والإتقان .

ومن بين تلك المساجد التي شيدت في مختلف العصور الإسلامية ما يأتي : المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة وبنى في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومساجد كل من : البصرة والكوفة والفسطاط وبنيت في عهد الخلفاء الراشدين . ومسجد القيروان ومسجد الصخرقة والأقصى (بالقدس) والجامع الأموي بدمشق ومسجد عقبة بالقيروان وجامع الزيتونة في تونس . وقد بنيت هذه في العهد الأموي . ثم مسجد الجامع الكبير ببغداد ومسجد الرقة وجامع سامرا ومسجد ابن طولون وكله بنيت في العهد العباسي . أما مسجد قرطبة بالأندلس فقد شيد في العهد الأموي الأندلسي . أما الجامع الأزهر وجامع الحاكم وغيرها فقد بنيت في العصر الفاطمي . أما في العصر السلجوقي فقد بنيت عدة مساجد من بينها

المنجد المصالح بمكة المكرمة



مسجد الجمعة بأصفهان ومسجد علاء الدين في قونية . ومن مساجد العصر المغولي المسجد الجامع في تبريز والمسجد الجامع في يزد ومسجد جوهرشاه في مدينة مشهد ، والجامع الأزرق في تبريز . وفي العصر المغولي شيدت عدة مساجد من بينها جامع تلمسان وجامع مراکش ثم مسجد طليطلة والمسجد الجامع بإشبيلية ومسجد بلنسية ومرسيه .

أما في العصر المملوكي فإن من أبرز مساجده جامع الظاهر . وفي العصر الصفوي شيد مسجد الشاه بأصفهان ومسجد الشيخ لطف الله .

أما في العهد العثماني فقد شيدت عدة مساجد من بينها : مسجد أولو في بورصة . ومسجد السلطان بايزيد الثاني ومسجد أيا صوفيا .

ومن مساجد العصر المغولي بالهند : مسجد اللؤلؤة .

وفيما يلي وصف موجز لتصميم وبناء بعض هذه المساجد مرتبة حسب العصر الذي شيدت فيه لأن في هذا ما يوضح مدى تطور فن العمارة الإسلامي ورقيه خلال كل عصر من عصور الدولة الإسلامية .

المسجد النبوي :

بنى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة مسجده بعد الهجرة إليها فوراً . وقد بناه بنفسه على أرض مربعة الشكل اشتراها من أربابها . وكان تصميم المسجد بسيطاً ، فجعل عليه الصلاة والسلام جزءاً منه مغطى للصلاة وترك جزءاً آخر مكشوفاً ، كما جعل جزءاً من الساحة مظلاً ليأوي إليه الفقراء المسلمون وسمى ذلك المكان بالصفة .

كانت جدران المسجد البالغ ارتفاعها سبعة أذرع مبنية بالطير والحجر . أما سقفه فكان من سعف النخل المغطى بطبقة من الطين ، ويرتك السقف على أعمدة من جذوع النخل . وجعل للمسجد ثلاثة أبواب متعامدة هذا بالإضافة إلى إقامة غرف لسكناه عليه الصلاة والسلام .

وفي السنة الرابعة للهجرة ، وبعد أن استشار عليه الصلاة والسلام



المسجد النبوي الشريف
بالمدينة المنورة

أصحابه ، أضاف منبراً مكوناً من ثلاث درجات وبعد فتح خيبر ، زاد عليه الصلاة والسلام في مساحة المسجد . وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصبحت مساحة المسجد ١٤٠ × ١٢٠ ذراعاً مربعاً واستعملت أعمدة من الخشب وفرشت الأرض بالحصباء وأصبح له ستة أبواب . وفي عهد عثمان بن عفان وسع المسجد بحيث أصبحت مساحته ١٥٠ × ١٦٠ ذراعاً مربعاً . واستعملت أعمدة من الحجر ، كما بنيت الجدران من الحجر أيضاً والسقف من خشب الساج . وفي عهد الوليد بن عبد الملك أدخلت زيادات وإصلاحات جعلت منه نموذجاً للمساجد ذات الصحن والأروقة وأصبح هذا النوع من التصميم ذا أثر في التطور الذي حدث على بناء المساجد فيما بعد . هذا وقد ظلت الزيادات والتحسينات تتوالى على المسجد حتى يومنا هذا .

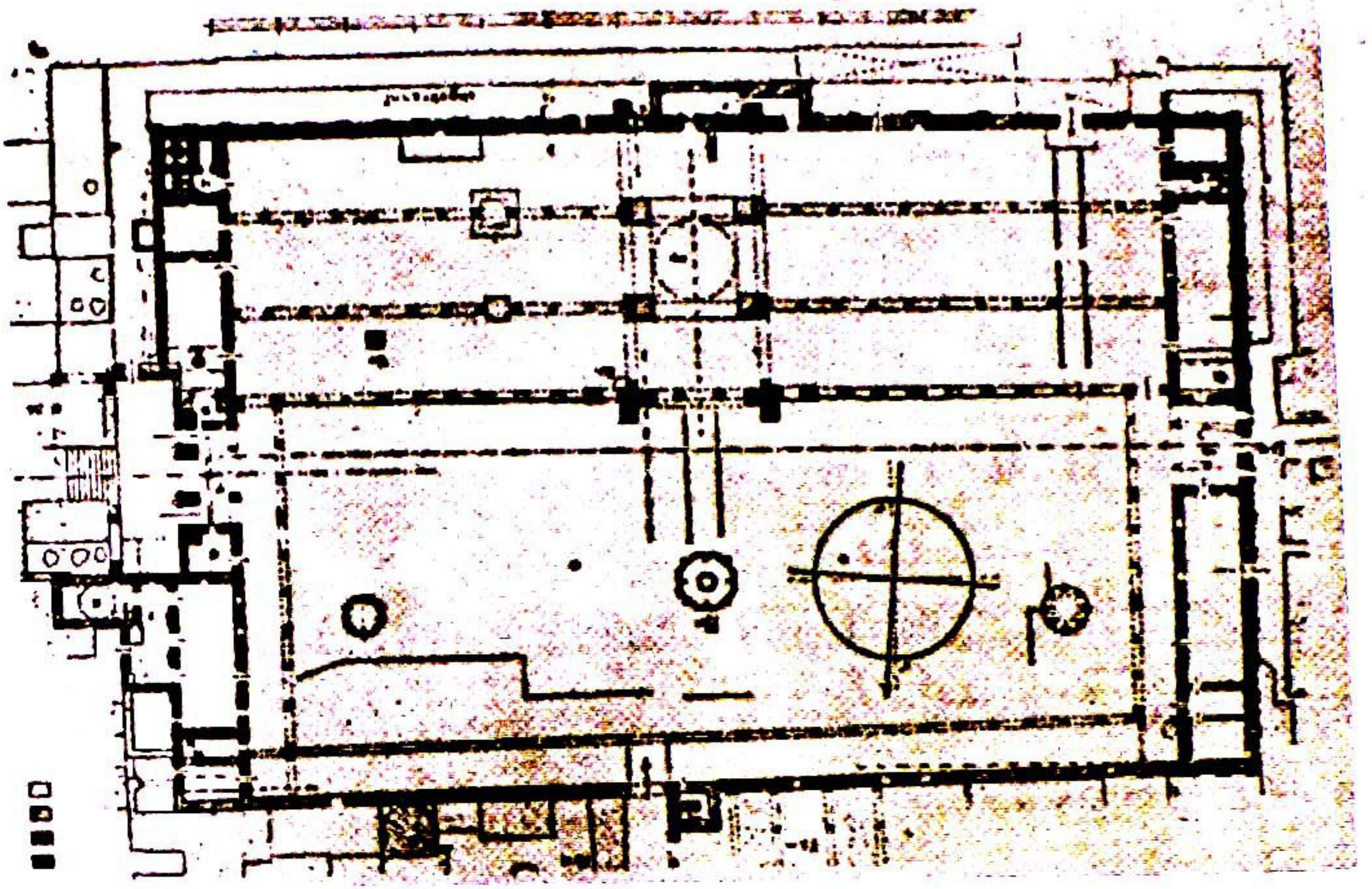
هذا وكانت الغاية من إنشاء المسجد النبوي ، جمع المسلمين في مكان واحد لإقامة صلاة الجماعة ووعظهم في خطبة الجمعة والتحدث إليهم في شئون دينهم ودنياهم ، ومقابلة من يفدون عليه صلى الله عليه وسلم .

وكنموذج لمساجد العهد الراشدي نذكر على سبيل المثال :

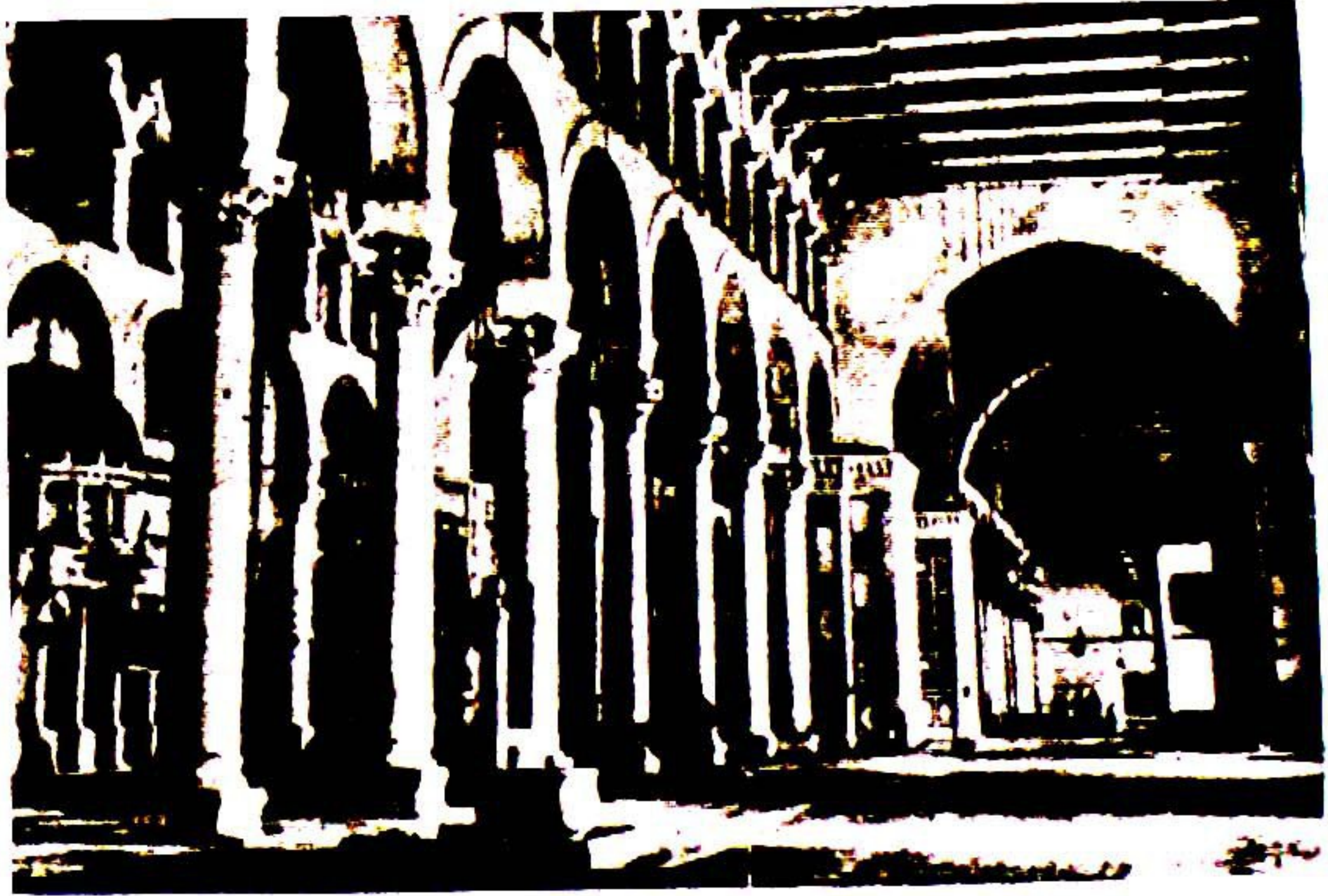
مسجد الكوفة: بنى هذا المسجد في منتصف مدينة الكوفة ، ثم أحيط بخندق بدلاً من السور . وفي جهة القبلة أقيمت مظلة على أعمدة أخذت من خرائب منزل من منازل الأمراء في الحيرة . وجدد بناؤه في عهد ولاية زياد بن أبي سفيان الذي جلب إليه أعمدة من الأهواز بعد أن ثبتت أجزاءها بالرصاص . وكان ارتفاع سقفه نحو ثلاثين ذراعاً تحمله الأعمدة مباشرة .

وقد روعى في بنائه وجود الأروقة الموازية لرواق القبلة وكذلك الصحن المكشوف . كما روعى إدخال المحراب والمئذنة فيما بعد .

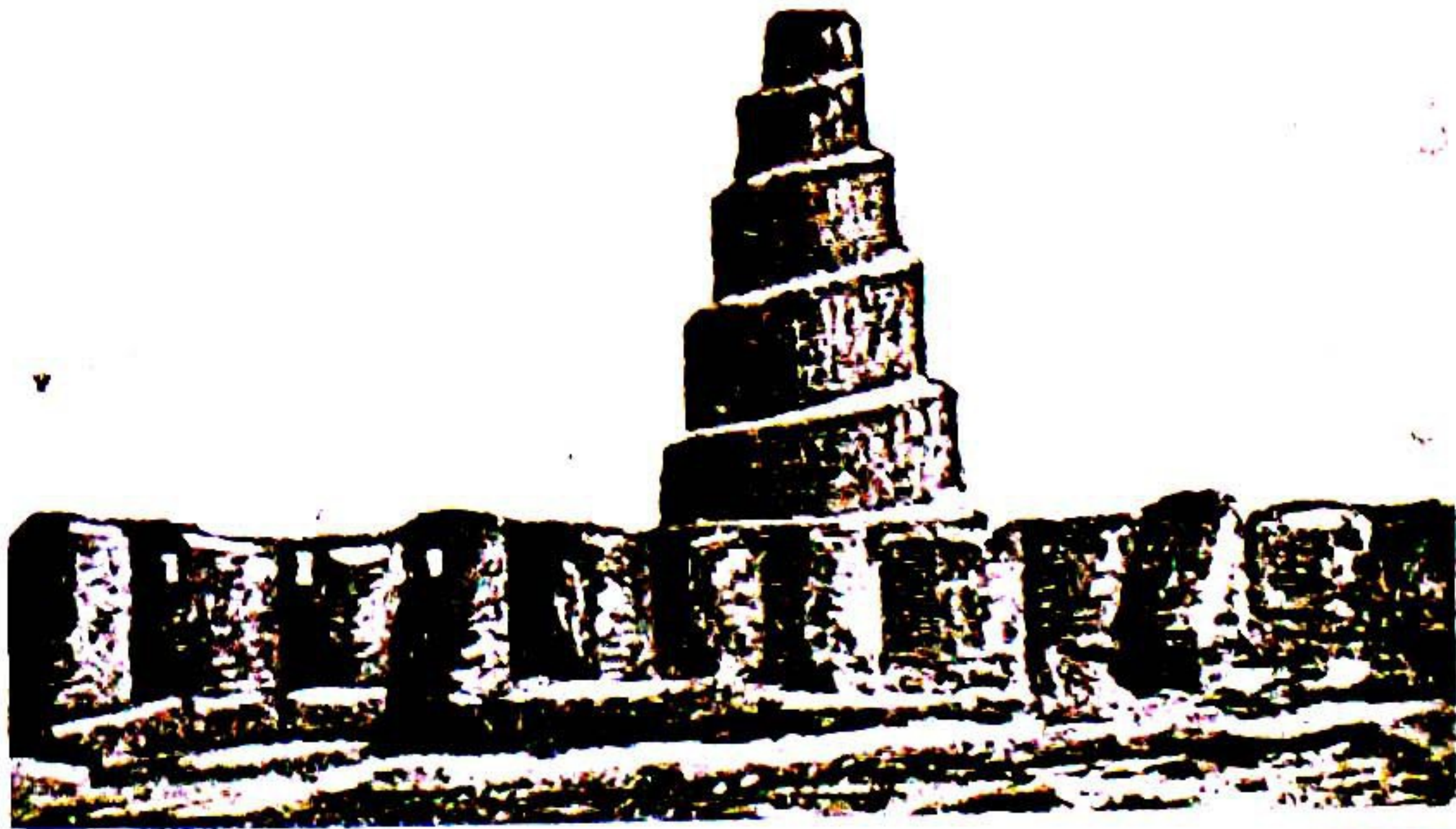
ومن **العصر الأموي** الذي تطورت فيه عمارة المساجد تطور كبيراً ، ذلك التطور الذي بدأ في عهد عبد الملك بن مروان وبلغ ذروته في عهد الوليد بن عبد الملك ، فإننا نذكر هنا على سبيل المثال وصفاً لمسجد الصخر بالقدس والمسجد الأموي بدمشق .



تصميم المسجد الكبير بدمشق (المسجد الأموي)



داخل المسجد الأموي
بدمشق



الجامع الكبير بأمرا

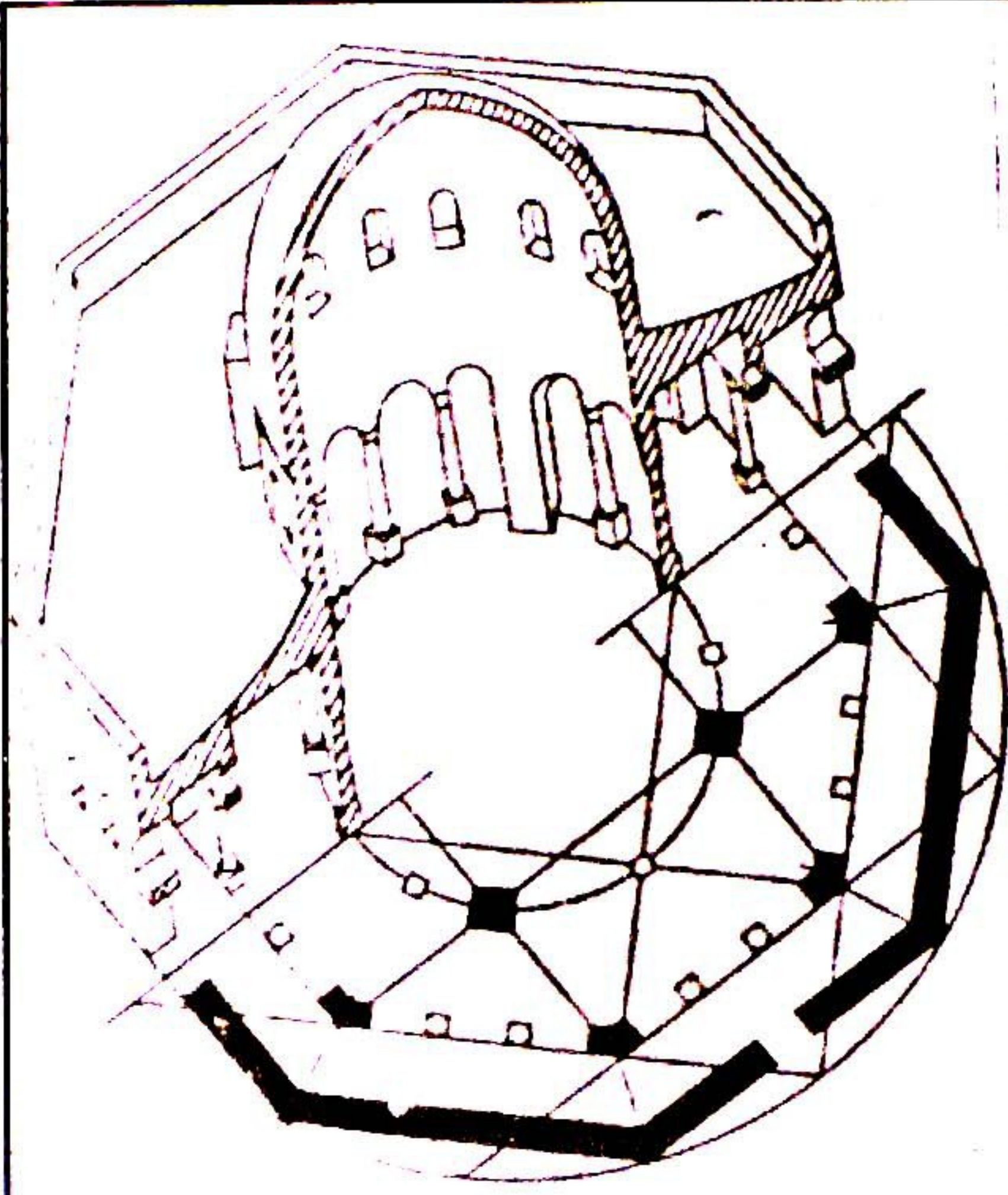
ولقد تميز مسجد الصخرة ، الذي وضع أساسه عبد الملك بن مروان عام ٧٢ هـ / ٦٩١ م ، بتصميم لم يعرف من قبل في عمارة المساجد الإسلامية ، كما لم يتكرر ظهوره مرة ثانية . فهو يمتاز بجمال زخارفه وفخامتها . والمسجد مبنى من الحجر والبناء مئمن الأضلاع في كل ضلع من أضلاعه الخارجية عقود مدببة تعلوها نوافذ بلغ عددها ٥٦ نافذة . بالإضافة ١٦ نافذة في رقبة القبة . ويتوسط الأضلاع المقابلة للجهات الأصلية الأربع ، أربعة أبواب . ويكسو الجزء الأسفل من الجدران الخارجية ألواح من الرخام ، أما الجزء الأعلى فمغطى بطبقة من الفسيفساء أزيلت في العهد العثماني زمن السلطان سليمان القانوني . ووضع مكانها لوحات من القاشاني . وتعتبر زخارف قبة الصخرة أقدم نموذج للزخارف الأموية . وفي داخل القبة كتابة كوفية طولها ٢٤٠ متراً كتبت بماء الذهب على أرضية زرقاء .

ويبدو واضحاً من دراسة تصميم هذا المسجد (أنظر الشكل) الذي يعتمد على رسم دائرة داخل مئمن ، أنه ابتكار جديد ظهر في تصميم المساجد الإسلامية .

أما المسجد الأموي الذي شيده الوليد بن عبد الملك فيتكون من مساحة مستطيلة الشكل يتوسطها صحن مستطيل مكشوف ويحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة (أنظر الشكل) ولهذا المسجد ثلاث مآذن . وسقف المسجد محمول على أعمدة رخامية . والأرض مفروشة بالمرمر والجدران مغطاة بالرخام والفسيفساء . وفيه ٦ شبابيك متنوعة تعتبر المثل الأول للزخارف الهندسية الإسلامية . هذا ولقد تأثرت المساجد الأخرى التي شيدت في العصر الأموي بهذا التصميم .

أما الخصائص الرئيسية التي تميزت بها مساجد العصر الأموي فهي : المآذن والتي أدخلت زمن معاوية بن أبي سفيان لرفع الأذان م أعلاها .

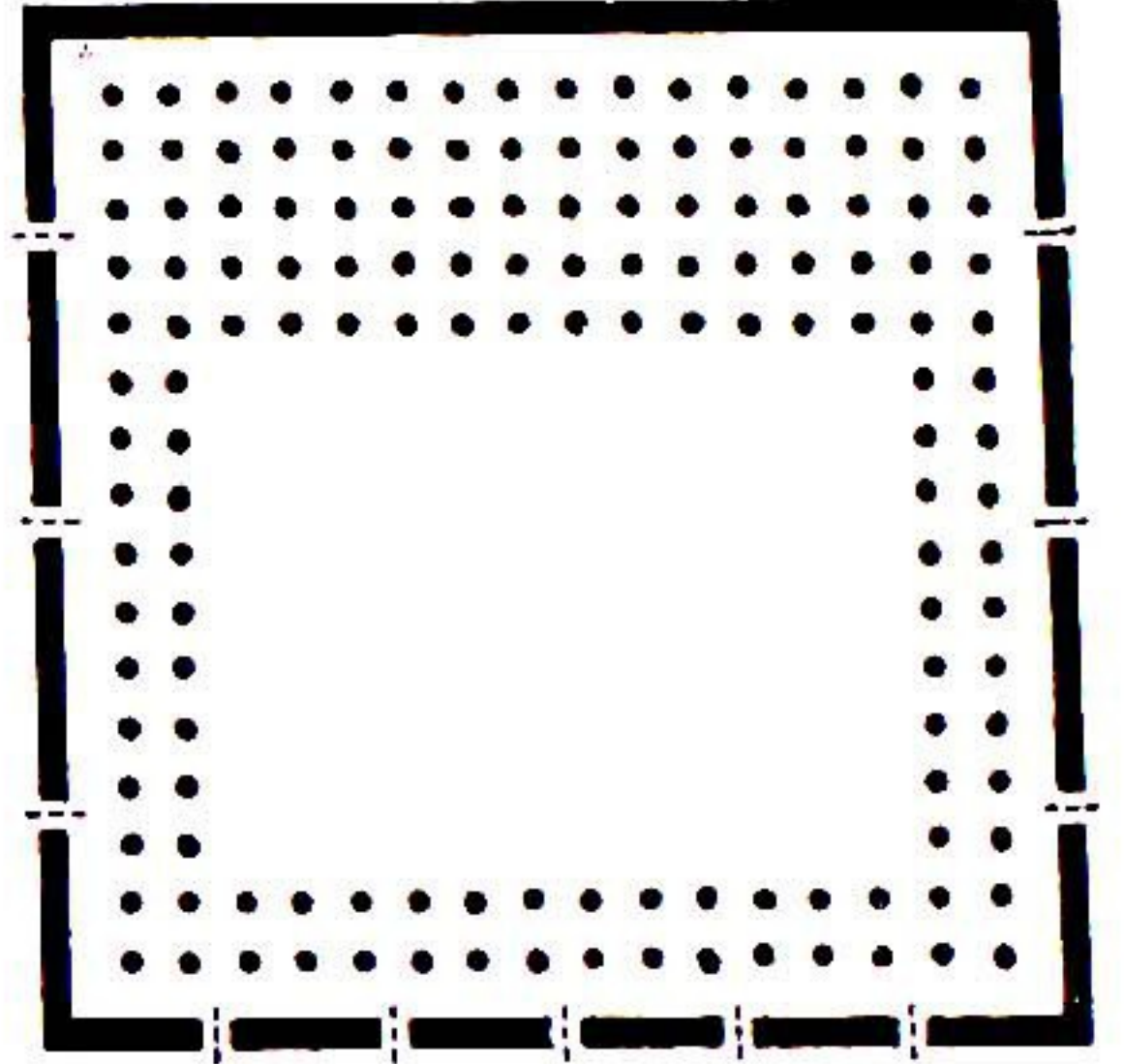
والمحراب المجوف وهو مكان الإمام الذي يؤم المصلين منه . والمذبح



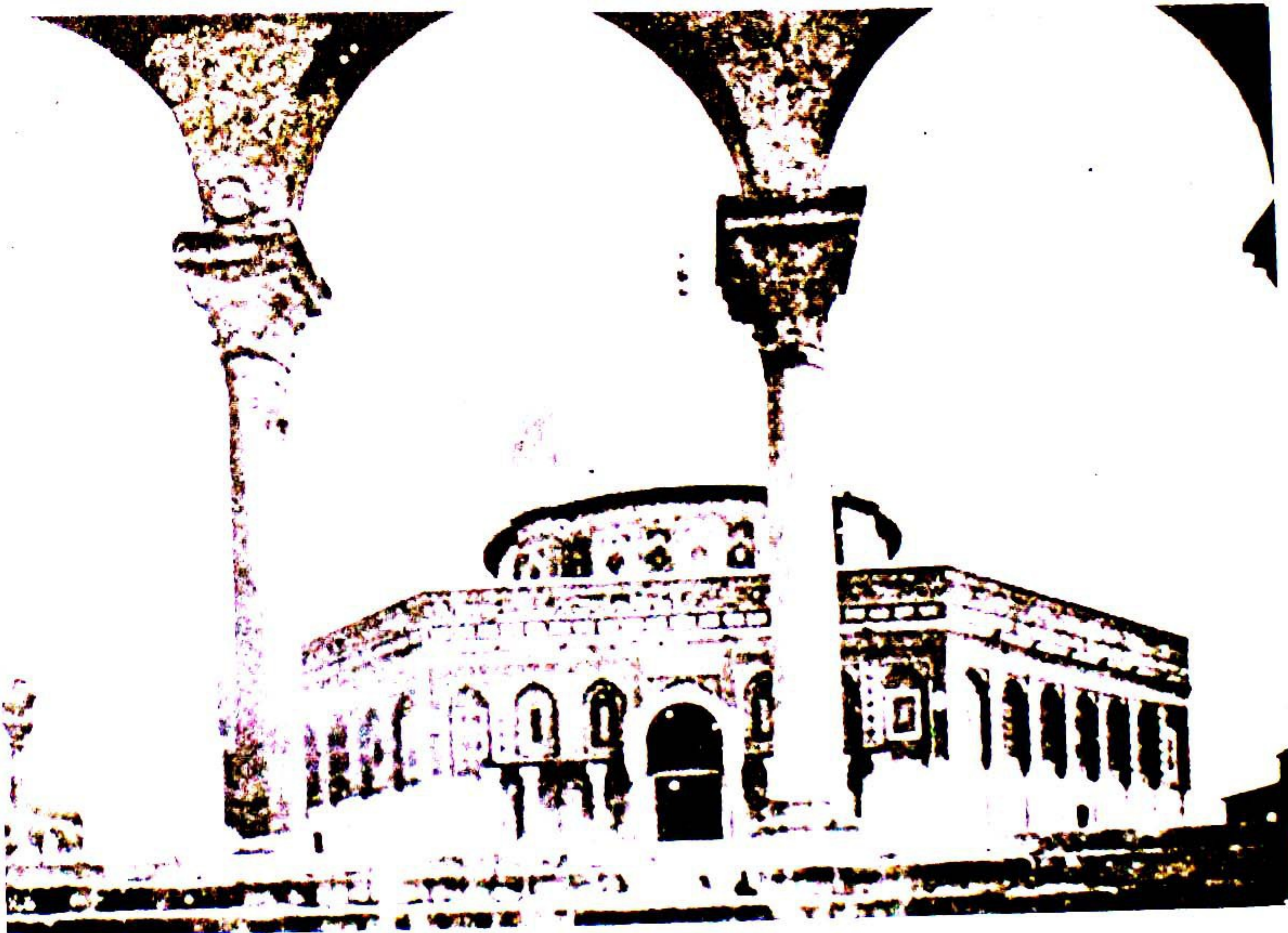
تصميم مسجد الصخرة بالقدس



مسجد سامري عمقة بالقيروان تونس
القرن ٥٢ - ٣٩



تصميم لجامع الكوفة



مسجد الصخرة بالقدس

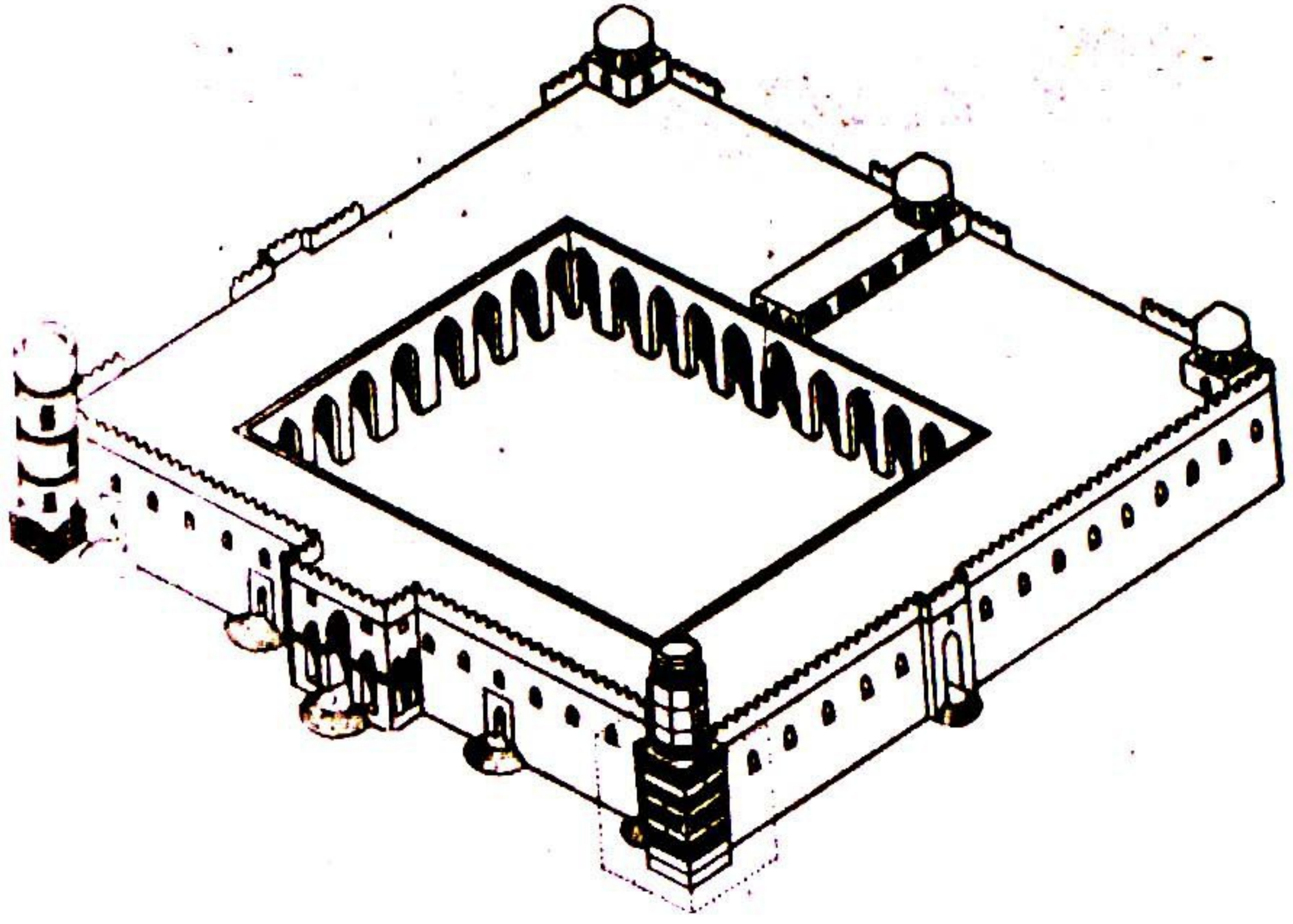
الذى يقف عليه خطيب الجمعة والعيدىن . والمقصورة التى وجدت بجانب
المحراب وكانت للخليفة معاوية .

وفى العصر العباسى، طراً تطور على بناء المساجد . إلا أن بعض
الأساليب الأموية بقيت على حالها .

ومن المساجد التى أقيمت فى هذا العصر : **الجامع الكبير الذى شيده**
المنصور فى بغداد . **ومسجد الرقة الذى شيده الرشيد عام ١٥٥ هـ** . **وجامع**
سامرا الذى شيده المتوكل عام ٢٣٤ هـ . ويعتبر هذا المسجد من أكبر
المساجد الإسلامية إذ أقيم على مساحة مستطيلة الشكل يتوسطها صحن
مكشوف تحيط به أروقة أكبرها رواق القبلة . وكان طول المسجد ٢٦٠ متراً
وعرضه ١٨٠ متراً ويحيط به سور من الخارج مبنى من الآجر ارتفاعه عشرة
أمتار ويدعمه أربعون برجاً بارزاً عن السور بارتفاع مترين . والجزء
المسكوف من المسجد يرتكز على دعائم مئذنة الأضلاع متصلة بأعمدة من
الرخام فى الأركان . وللمسجد مئذنة تتميز بتصميم فريد من نوعه لم يظهر
من قبل فى عمارة المساجد الإسلامية حيث أقيمت على قاعدة مكعبة الشكل
ارتفاعها ثلاثة أمتار يرتفع فوقها برج حلزوني درجاته من الخارج (أنظر
الشكل) .

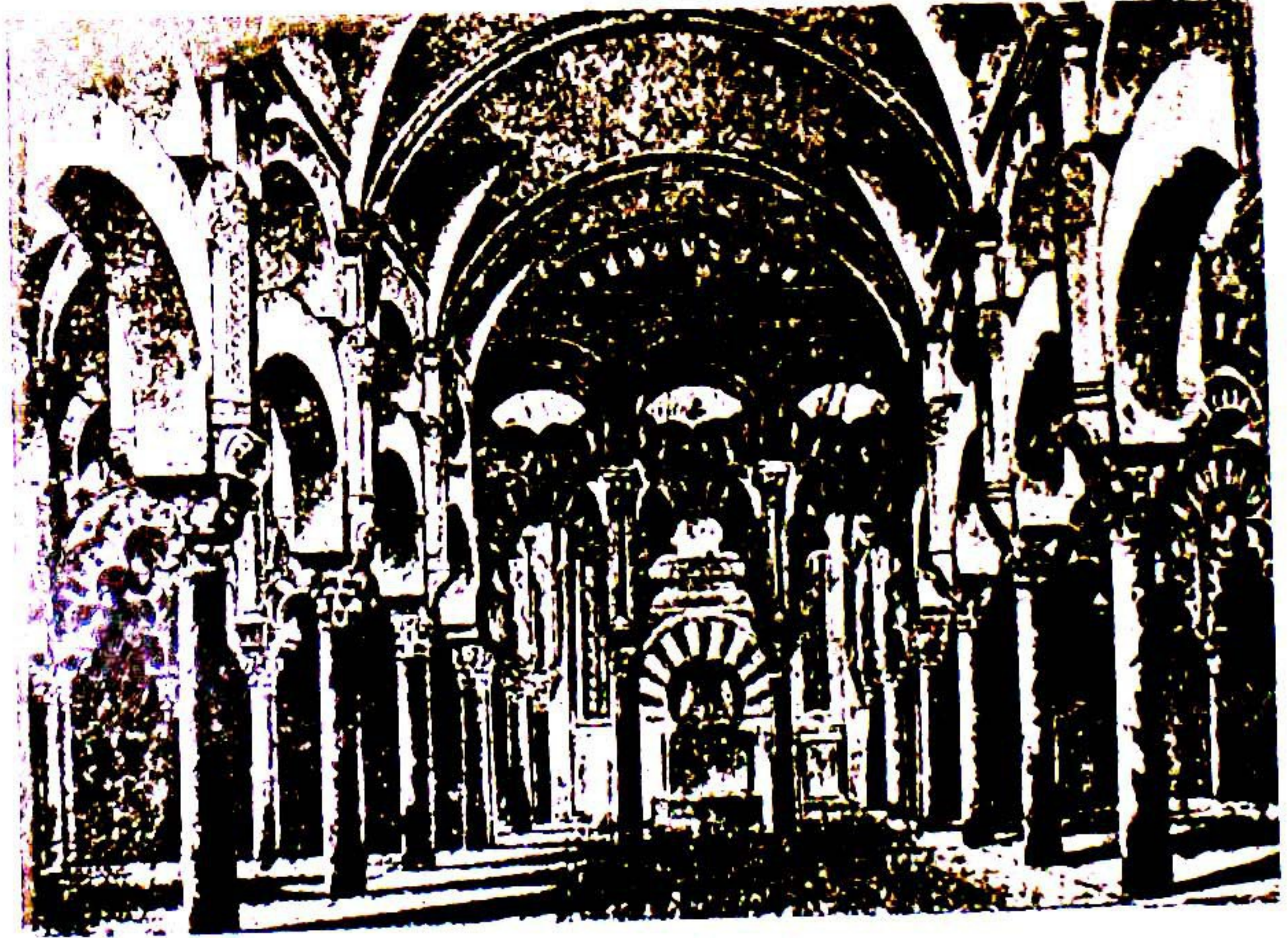
هذا ولقد انتشر طراز بناء المساجد فى العصر العباسى فى كثير من أجزاء
الدولة العباسية . فهناك **مسجد ابن طولون بمصر** (أنظر الشكل) **ومسجد**
تايبين فى إيران وقد شيده البويهيون . ولهذا المسجد ميزة معمارية خاصة
لكثرة ما يوجد فيه من الزخارف الجصية التى تشبه زخارف مسجدى سامر
وابن طولون . وتعد هذه المساجد أحسن نماذج الرياسة العباسية والتى
تتميز بكثرة زخارف ورق العنب وسعف النخيل .

أما فى العصر الأندلسى فيعتبر جامع قرطبة (أنظر الشكل) الذى
شيده عبد الرحمن الأول (الداخل) عام ١٦٩ هـ / ١٧٠ هـ من أجمل
العمارة الإسلامية . وكان تصميمه مستمداً من تصميم المسجد الأموى
بدمشق . ولقد تجدد بناء مسجد قرطبة . فزيدت مساحته حتى بلغ



تصميم جامع الحاكم بالقاهرة

جامع ابن طولون ، الفناء الداخلي
و واجهة البيوت الغربي ، والمذبة ،
القرن ٣ هـ - ٩ م ، القاهرة



جامع قرطبة من الداخل

الضعف . ونتيجة لهذه الزيادات خرج تصميمه العام عن النموذج الأموي .
أما أهم الزيادات فكانت إضافة سبع بلاطات إلى رواق القبلة ومئذنة كما
ظهر ابتكار في هندسة القبة الموجودة فوق المحراب الذي قسمت جدرانه إلى
أشكال ثمانية ورباعيّة متقاطعة .

هذا ويعتبر مسجد قرطبة أكبر المساجد بعد مسجد سامرا . أما في
العصر الفاطمي ، فقد أقيمت عدة مساجد لا سيما في مصر حيث شيد الجامع
الأزهر وجامع الحاكم والجيوش وغيرها . (أنظر الأشكال) . وقد ارتبط
أسلوب بناء هذه المساجد إما بالطولوني أو المغربي علماً بأن الفاطميين
اهتموا بواجهات مساجدهم منذ وجودهم في شمال إفريقيا . ويبدو ذلك
واضحاً في جامع المهديّة (١) وبوابته الضخمة . هذا وقد شاد الجامع
الأزهر في القاهرة جوهر الصقلي في الفترة ما بين ٣٥٩ هـ - ٣٦١ هـ بأمر من
الخليفة المعز لدين الله الفاطمي وذلك قبل قدومه إلى مصر . وقد استخدم هذا
الجامع بالإضافة إلى الصلاة فيه ، مدرسة دينية . أما من ناحية الطراز فقد
ظهر فيه أثر مسجد القيروان . أما مسجد الحاكم نسبة إلى الحاكم بأمر الله
الفاطمي ، فقد تأثر بالطراز الطولوني من حيث الأروقة والدعائم والمآذن .

أما في العصر السلجوقي بعهدده الثلاثة الإيراني والتركي والأتابكي
فقد تطورت عمارة المساجد تطوراً واضحاً . ففي العصر الإيراني أدخلوا
الإيوان العالي المقبب الذي يتوسط دعائم واجهته كل ضلع من أضلاع
الصحن المكشوف . كما ظهر في الواجهة طابقان . كما يتميز إيوان القبلة
بزيادة اتساعه عن بقية الإيوانات الثلاثة . كما زيد في ارتفاع المئذنة
وأضيف كذلك إيوان مستطيل خلف إيوان القبلة برز فيه شريط دائري
بالكتابة الكوفية وعليه اسم نظام الملك .

وأحسن نموذج لهذا الطراز من المساجد هو مسجد الجمعة بمدينة
أصفهان الذي أقامه الوزير نظام الملك عام ٤٦٦ هـ في عهد السلطان
السلجوقي ملك شاه .

(١) المهديّة عاصمة الفاطميين في إفريقيا (تونس)

وأما في العصر السلجوقي التركي فقد تغاضى المهندسون عن الفن الإيراني الذي يبرز فيه الأبواب والصحن المكشوف . وأصبحت أغلب المساجد بدون صحن مكشوف . وأصبح الاهتمام في التصميم على بهو للصلاة وهذا البهو متعدد الأروقة تظهر فيه دعائم منتظمة . وقد يعلو رواق القبلة أكثر من قبة . وأحسن مثال على مساجد هذا العصر جامع علاء الدين الذي شيده ركن الدين مسعود في مدينة قونية عام ٥١٠ هـ .

وفي العصر الأتابكي حافظ حكام آل زنكي على تصميم الجامع المستطيل الذي تنفتح أروقه على الصحن المكشوف ولا يوجد فيه قبة وأحسن نموذج لهذا النوع من المساجد هو جامع ركن الدين بدمشق الذي شيد عام ٦٢١ هـ .

أما جامع حلب الذي بدئ ببنائه زمن آل زنكي وانتهى زمن صلاح الدين الأيوبي فقد تميز - بالإضافة إلى الأساليب السابقة - ببساطة زخارفه . كما يوجد فيه محراب ملون وقد نقله صلاح الدين الأيوبي إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف .

أما في العصر المغولي فقد استمر الطراز السلجوقي الإيراني باستثناء استطالة العناصر الزخرفية والمداخل الفخمة والمآذن المرتفعة . وقد أصبح للمدخل بوابتان ومئذنتان عاليتان . بالإضافة إلى القباب الفخمة والزخارف الجميلة . ومن الأمثلة على ذلك الطراز المسجد الجامع في تبريز الذي شرع في بنائه على شاه تاج الدين عام ٧١٢ هـ والمسجد الجامع في يزد الذي شيد عام ٧٢٥ هـ . ومسجد جوهر شاه في مدينة مشهد وأشرف عليه المهندس قوام الدين الشيرازي .

أما من مبتكرات هذا العصر ، فهو الطراز الذي بدا واضحاً في المسجد الجامع الأزرق الذي شيد في تبريز عام ٨٧٠ هـ . إذ في وسط المسجد قاعة كبرى تعلوها قبة بدلاً من الصحن وتحيط بهذه القاعة قاعتان جانبيتان أصغر منها حجماً تعلوها قباب صغيرة .

أما الفن المغربي فقد استمر في تصميم مباني المساجد الذي كان

متبعاً من قبل في قرطبة والقيروان والذي ينحصر في صحن داخلي تحيط به أروقة ومجاز مرتفع يؤدي إلى المحراب ويتعامد مع رواق القبلة .

ولقد نشطت حركة بناء المساجد بشكل ملحوظ في عهد الموحدين ، حيث شيد جامع تلمسان وكتيبة في مراکش وتَنَمال الواقعة على الساحل . أما الشيء الذي طرأ على طراز بناء المساجد في عصر الموحدين فهو استبدال الأعمدة بدعامات من الآجر لها حواف مسننة وعقود على هيئة حذاء الفرس المستديرة تماماً أو مدببة أو مشرشرة . وخلافاً لما ظهر في تعدد المآذن في بعض مساجد العالم الإسلامي ، نجد أن المساجد المغربية تميزت بمئذنة واحدة . وظهرت المقرنصات المضلعة بقبة المحراب منذ عهد المرابطين . هذا وقد شيد الحكام المغاربة الذين استقروا بالأندلس على النمط المغربي . ومن أشهر تلك المساجد مسجد طليطلة والمسجد الجامع بإشبيلية المعروف باسم (لاجيرالدة) (انظر الشكل في لوحة المآذن) ومسجد بلنسية ومرسية وغيرها .

وفي العصر المملوكي نشطت حركة عمارة المساجد في مصر إبان عهد الظاهر بيبرس ومن أبرزها : جامع الظاهر الذي لم يخرج في تصميمه عن جامعى ابن طولون والحاكم بأمر الله .

وفي العصر الصفوي اتبع الطراز السلجوقي الإيراني الذي سبق ذكره ومن أهم مساجد هذا العصر : مسجد الشاه بأصفهان الذي يعد القمة في فن العمارة الإسلامي بإيران وهناك مسجد الشيخ لطف الله (انظر الشكل) الذي ترجع شهرته الفنية إلى زخارفه الداخلية . وهو يختلف في تصميمه عن مسجد الشاه حيث يتكون من حجرة كبيرة مربعة الشكل تعلوها قبة . وهو خلو من الفناء الأوسط والأبواب الداخلية ويغطي جدرانها الداخلي والخارجية الفسيفساء والزخارف .

ويعتمد تصميم المسجدين الرئيسى ، على وجود قبة صغيرة وأخرى كبيرة إلا أن قبة مسجد الشاه أكثر ارتفاعاً من قبة مسجد الشيخ لطف الله .

وفي العصر العثماني ، كانت مساجد الجزء الأول من هذا العو



مسجد الشيخ لطف الله في اسمرات
العصر الصهيوني ١١ هـ

بمثابة حلقة اتصال بين الطراز السلجوقي القديم والطراز العثماني الحديث الذي ظهر بعد فتح القسطنطينية . ومثال ذلك مسجد أولو في بورصة العاصمة الأولى للدولة العثمانية الذي بدأ في تشييده السلطان مراد الأول عام ٨٠٣ هـ . ويتكون هذا المسجد من مبنى مستطيل الشكل به أربعة صفوف من الأروقة وخمسة مربعات تعلوها قباب صغيرة ويوجد بالمربع الواقع في الرواق الأوسط حوض ماء . وينفذ النور إلى داخل المسجد من نوافذ موجودة في عنق كل قبة .

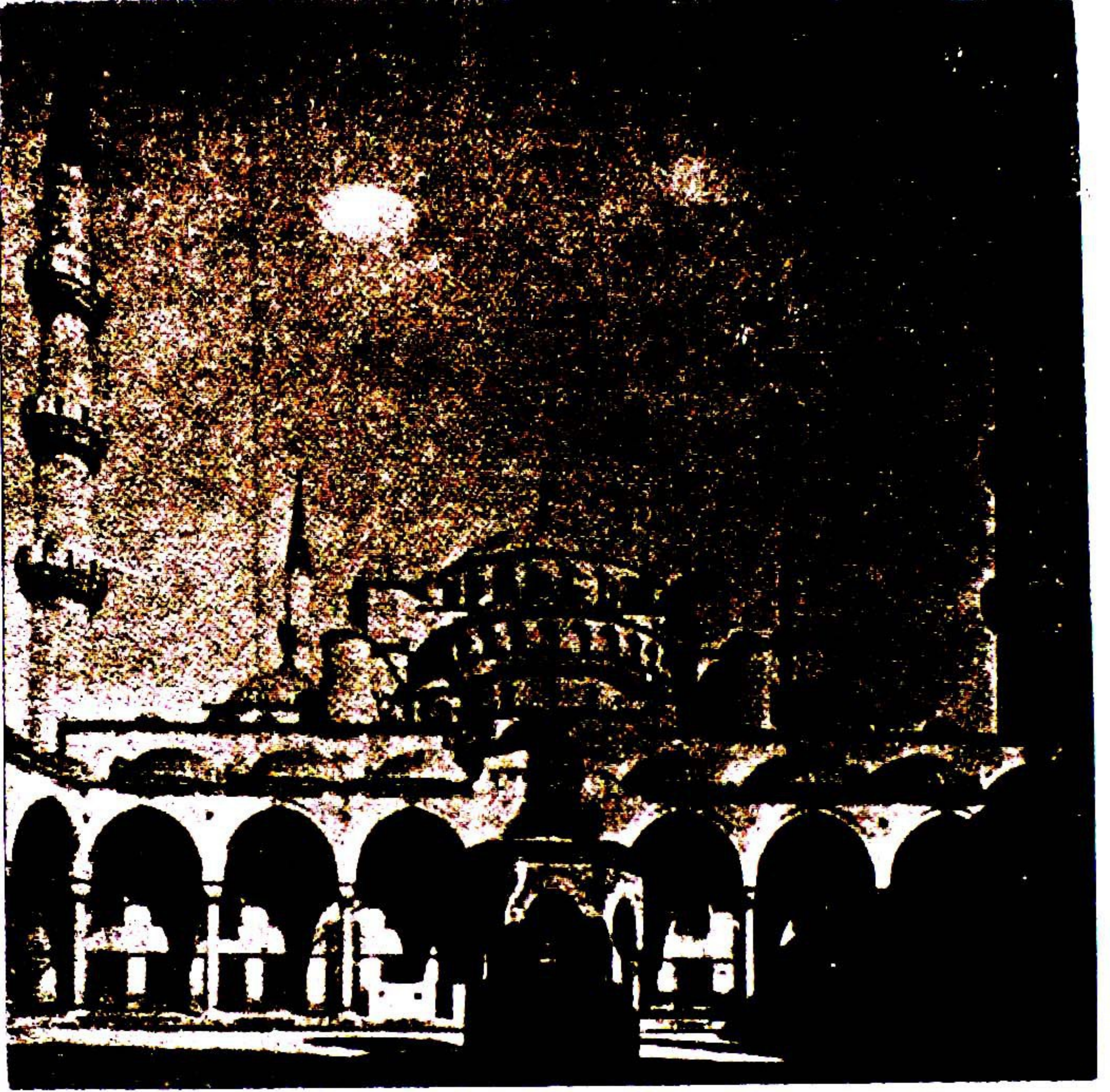
تأثرت بعد ذلك المساجد بالفن البيزنطي ويبدو ذلك واضحاً في مسجد السلطان بايزيد الثاني الذي شيد عام ٩٠٦ هـ . في المسجد قبة رئيسية محمولة على أربعة أكتاف فوق رواق الصلاة ورواقان جانبيان تعلو كل واحد منهما أربعة قباب صغيرة كالموجودة في مسجد أياصوفيا .

وفي العهد المغولي الإسلامي بالهند ازدهر فن العمارة الإسلامي لا سيما في عهد أكبر ، وشاه جهان . فقد توصل المهندسون المسلمون آنذاك بعد سلسلة من التجارب إلى الخروج بأجمل عناصر الفن الإسلامي بالهند . وقد تجلت مهارة أولئك المهندسين في مسجد اللؤلؤة الذي شيد عام ١٠٢٨ هـ - ١٦٢٨ م . وهو ملحق بقلعة شاه جهان في مدينة اكرأويتميز هذا المسجد بواجهة ذات عقود مسننة ، وترتفع خلفها قباب الحرم الثالث بشكلها البصل وتكرر هذه العقود المسننة داخل المسجد . ويغطي الجدران الداخلية ألواح من المرمر .

ب - بناء المدارس والمراسد والمستشفيات (البيمارستانات) :

بناء المدارس : بدأ العمل في بناء المدارس بشكل يتفق إلى حد والمفهوم المتعارف عليه للمدرسة ، إبان العهد السلجوقي الإيراني . وكما يلحق بهذا البناء مسجد .

ويمتاز تصميم المدرسة عن المسجد ، بالحجرات التي أقيمت م



مسجد السلطان أحمد الأول في إسطنبول - العصر العثماني
القرن الحادي عشر الهجري

دورين لسكن الطلبة والأساتذة . وكان من أكبر مشجعي بناء المدارس نظام الملك السلجوقي الذي أنشأ مدارس في كل من نيسابور وطوس وبغداد عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م . وفي العهد السلجوقي التركي ، استمرت العناية ببناء المدارس . وكثيراً ما كان يرتبط بها قبر بانيها . والمدارس في هذا العهد من حيث طراز البناء على نوعين :

الأول : وهو المدرسة ذات الصحن المكشوف وفيها إيوان بسبعة أروقة . وهذا النوع من مباني المدارس كان شائعاً في إيران والعراق وغيرها من بلدان العالم الإسلامي .

الثاني : وهو المدرسة التي تحتوى على قاعة مغلقة فوقها قبة وبها حوض ماء به نافورة بدلاً من الصحن المكشوف ، واقتصر هذا النوع من الطراز على تركيا السلجوقية وشاع استعماله في أنحاء آسيا الصغرى إبان القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى .

أما في عهد أتابكة السلاجقة ، فقد شجع آل زنكى فكرة تشييد المدارس في الموصل وبلاد الشام إذ انتشرت في دمشق وحماه وبعلبك والموصل وغيرها من البلدان الشامية والعراقية .

أما في العهد الأيوبي : فقد اهتم حكام هذا العهد في مصر وسوريا ببناء المدارس . واستخدم السلطان صلاح الدين الأيوبي طراز المدارس السلجوقية المنتشر في سوريا ومصر ، في بناء المدارس التي قام هو بتشبيدها . وكان تصميم المدرسة ينحصر في المبنى المستطيل الذي يتوسط فناء كبير مربع الشكل ويتوسط كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان كبير .

ومن المدارس التي شيدت في العصر الأيوبي : المدرسة الناصرية والصلاحية ، ومدرسة صلاح الدين في حلب وغيرها .

وفي العهد المغولى التيمورى : انتشر بناء المدارس في كثير من المدن مثل سمرقند وهراة ، وخرجرد قرب الحدود الأفغانية والتي شيدها المهندسون جوهر شاد عام ٨٤٩ هـ واتبع في البناء الطراز السلجوقي . ومبنى المدرس

(انظر الشكل) مؤلف من صحن مربع تحف به أربعة إيوانات مقببة وعفود مدببة وتوجد ردهة أمام الصحن مؤلفة من ثلاثة أماكن مقببة ومبنى مرتفع للبوابة في الواجهة ومئذنتين مستديرتين في الزاويتين .

وفي المغرب والأندلس ، انتشر بناء المدارس بشكل بارز في عهد الموحدين . والبناء يتكون من فناء مستطيل تحيط به مبان من طابقين ، وتضم قاعة للدرس وغرفاً لسكن الطلبة . وقد كثر عدد مباني المدارس في فاس وقرنطة .

وفي العهد المملوكي ، شيد العديد من المدارس لا سيما في عهد السلطان بيبرس ، والسلطان قلاوون الذي ألحق بمبنى المدرسة التي بناها عام ٦٨٢ هـ بيمارستانا . ومن ميزات مباني المدارس في هذا العهد الممر الطويل الذي يربط المدرسة بالمسجد . ومن أروع المباني الدينية في هذا العهد مسجد السلطان حسن ومدرسته وقد استغرق بناؤهما تسع سنوات . وهناك كذلك مدرسة السلطان قايتباي ومسجده وبها قاعات للدراسة وغرف لسكن الطلاب .

وفي العهد العثماني : اهتم العثمانيون ببناء المدارس التي كانت تلحق بالمساجد . ومن أمثلة ذلك المدرسة الملحقة بمسجد السلطان سليم .

أما في الهند : فقد كثرت العماير الدينية والمساجد . ومن أبرز العماير في الهند التي بلغت قمة الفن المعماري الإسلامي المغولي في الهند ممثلة في تاج محل (انظر الشكل) الذي شيده الأمبراطور شاه جهان عام ١٠٣٩ هـ لزوجته ممتاز محل .

هذا بصدد المدارس أما بالنسبة للمراصد : فبالإضافة إلى ما سبق ذكره من المراصد التي أقامها المسلمون ، فقد أقاموا مراصد أخرى في بلاد متعددة مثل : مرصد « ابن الشاطر » ، في الشام . ومرصد (الدينوري) بأصفهان . ومراصد عامة وخاصة بمصر والأندلس وأصفهان .

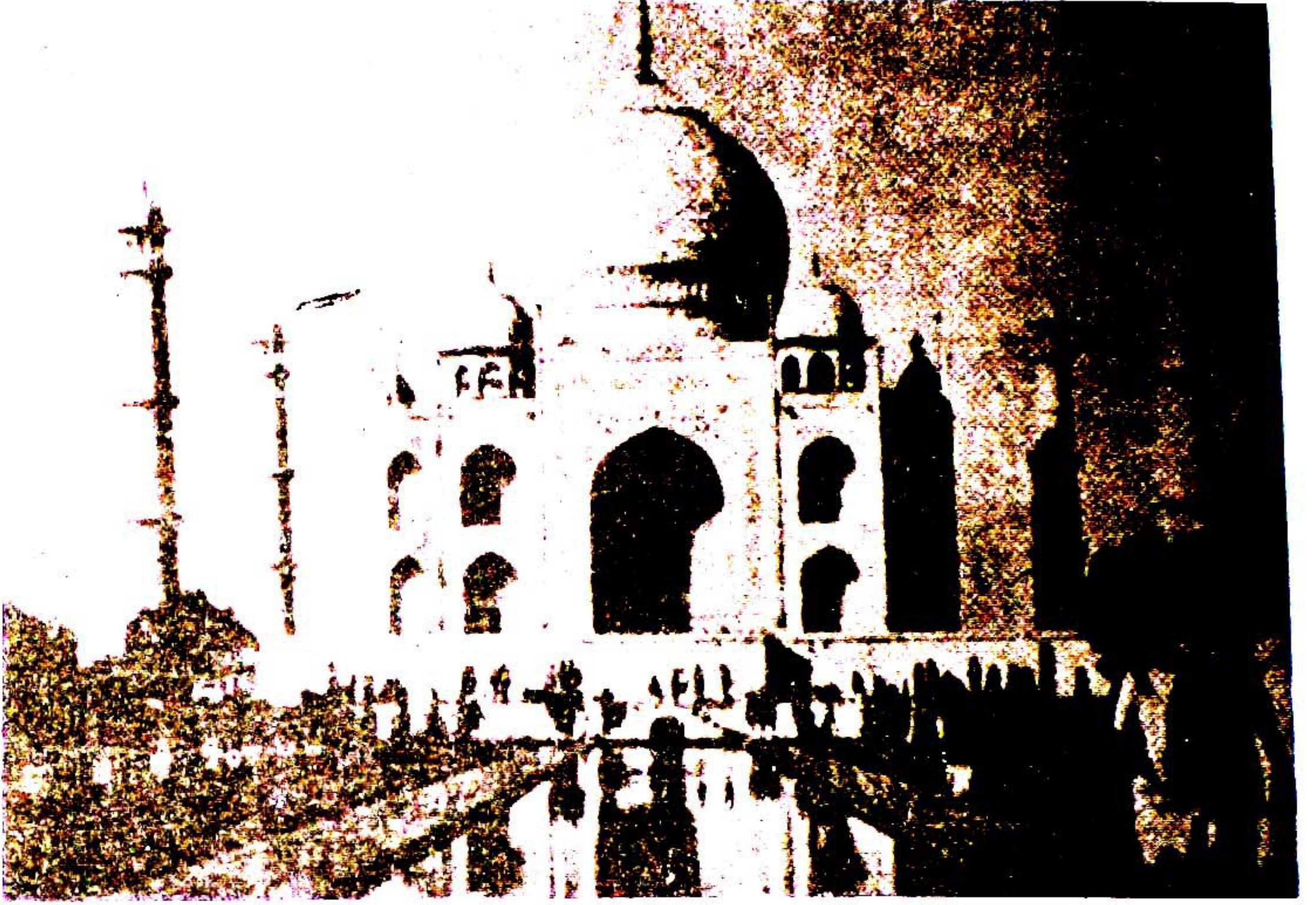
وأما بالنسبة للبيمارستانات (المستشفيات) فقد كانت منتشرة في

كثير من البلدان الإسلامية . فكان منها الثابت والمتنقل وكان يلحق بكل مستشفى ، كما ذكر في الكلام عن الأدوية ، سواء أكان ثابتاً أو متنقلاً صيداية خاصة لتزويد المرضى بالعلاج اللازم .

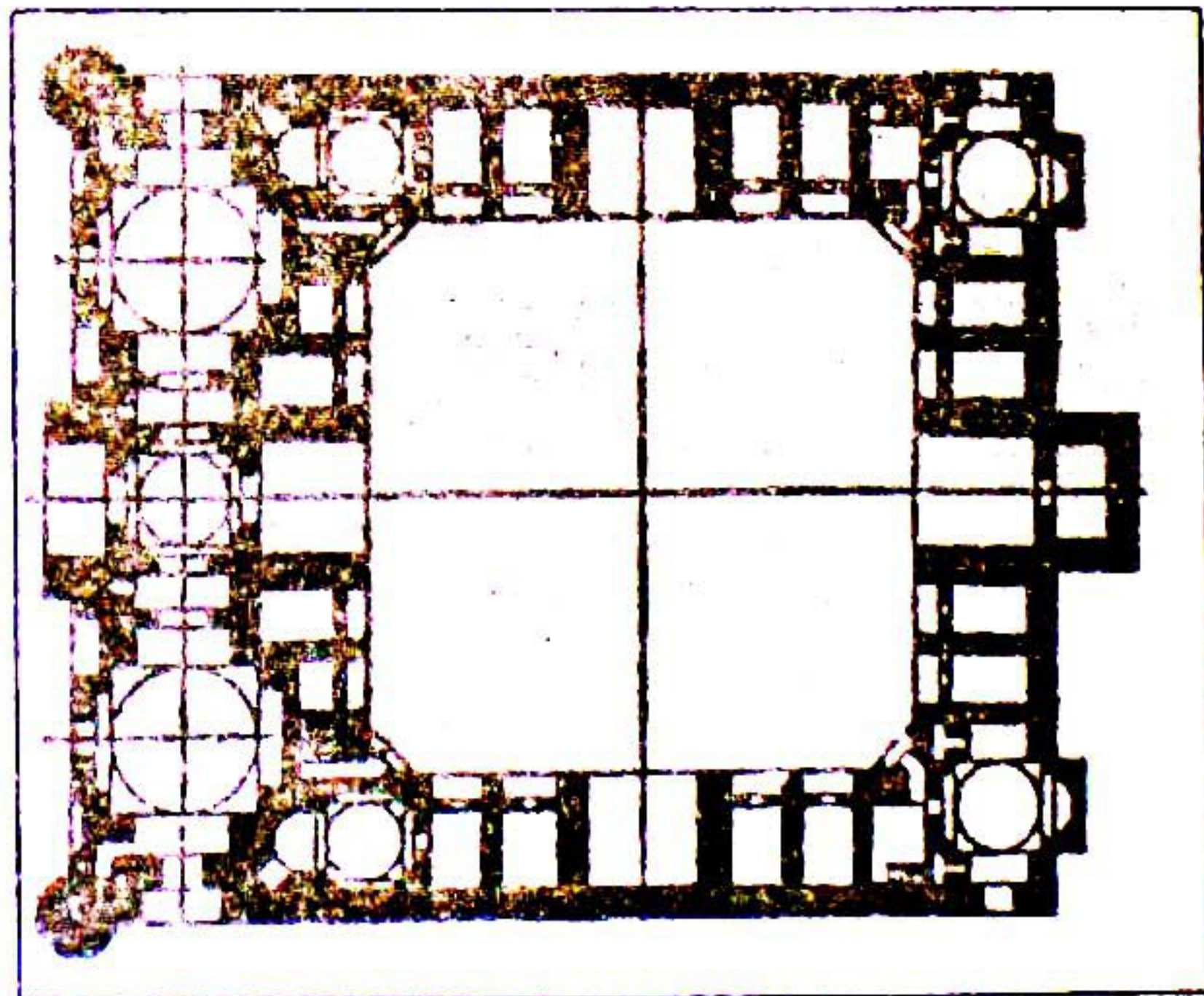
ولقد اعتنى المسلمون عناية فائقة بالمستشفيات فزودوها - بالإضافة إلى العلاجات - بالأطباء وأدوات الجراحة اللازمة . ومن يتأمل كتابات ابن بطوطة والمقريزي وغيرهما يخرج بصورة واضحة جداً في أن مستشفيات (مشافي) المسلمين لم تقل في الاستعداد والنظام والعناية عن المستشفيات الحديثة . كما فتحت أبوابها لجميع الناس على حد سواء . وكانت المستشفيات تضم جناحاً خاصاً بالنساء غير الجناح الخاص بالرجال . وكل جناح من هذين الجناحين يضم أقساماً مختلفة باختلاف الأمراض . فهناك قسم للعيون وآخر للكسور وثالث للجراحة وغيرها . كما كان المسلمون قبل إقامة أى مستشفى جديد يدققون في اختيار المكان الصحى المناسب . ويدل على هذا ما فعله الرازى عندما عهد إليه بإقامة بيمارستان في أحد أحياء بغداد . إذ علق بعض قطع لحم من ذبيحة واحدة في مختلف أحياء المدينة . وقال إن أصبح حتى لإقامة البيمارستان هو الذى يتأخر في فساد قطعة اللحم المعلقة عن الأحياء الأخرى .

لقد خصص لكل مريض فراشاً ، كما خصصت مستشفيات لأمرض معينة مثل الجذام والحميات المعدية . وفي هذا يقول ابن الخطيب المتوفى عام ١٣٧٤ م : إن وجود العدوى أمر مقرر وثابت بالخبرة والدراسة والمشاهدة . إذ تنتقل الأمراض المعدية عن طريق الملابس والأوعية والأقراط . ومن انتقال مصاب من منزل إلى آخر ومن بلد موبوء إلى آخر سليم . ومن القبائل الرحل وخلافه .

هذا وقد وجدت عند المسلمين فكرة إلحاق كليات الطب بالمستشفيات حتى تكون دراسة طلبة الطب عملية واقعية . وكان لا يحق لأحد أن يمارس مهنة الطب إلا بترخيص من الدولة . وكان على طالب الطب - كما كان ينصح على بن العباس المتوفى عام ٩٨٠ م . طلاب الطب بالملاحظة ودراسة الأمراض دراسة تجريبية عملية - أن يزور المستشفيات . (البيمارستانات) ودور العلاج وأن يلاحظ باستمرار أحوال وظروف من



الكلاخ محل / أجزا ١٠٥٨ له / ١٦٤٨ م - الهند



تصميم للمدرسة في فرجرد

فيها وهو برفقة أعظم أساتذة الطب ذكاء . وأن يكثر من الاستفسار عن حالة المرضى والأعراض الظاهرة عليهم .

هذا وكان أول بيمارستان أنشئ في الدولة الإسلامية كان زمن الوليد بن عبد الملك ثم تطور في زمن هارون الرشيد في بغداد . ثم أخذت المستشفيات تنتشر في جميع أرجاء الدولة الإسلامية . وقد أسس هذا البيمارستان (١) ، ووضعت له النظم بحيث كفلت إدارته والإشراف عليه . ولقد بذل سنان بن قره جهداً كبيراً في حسن إدارته .

وهناك بيمارستان دمشق الذي شيد عام ٧٠٦ م وهو أعظم المستشفيات التي عرفها العالم في العصور الوسطى . كما أقام أحمد بن طولون أول مستشفى في القاهرة حوالي عام ٨٧٢ م .

وللإشراف على أحوال المرضى في الدولة ، عيّن علي بن عيسى الوزير الطبيب عام ٩٣١ م هيئة من الأطباء الموظفين للطواف على مختلف أرجاء الدولة وعلاج المرضى كما خصص بعض الأطباء للتردد على السجون وعلاج من فيها .

هذا ولم يكتف المسلمون بالاهتمام بالطب البشري فقد اهتموا كذلك بالطب البيطري وقد اشتهر في أيام الخليفة المعتضد عام ٨٩٢ - ٩٠٢ م رجل اسمه يعقوب بن أخى حزام بالطب البيطري ووضع رسالة سماها « الفروسية وشياه الخيل » ضمنها معلومات عن الطب البيطري ، هذا ولقد عرف المسلمون كل هذا وما زالت أوروبا لا تهتم بالمرضى ويموت الآلاف منهم لقلّة العلاج أو العناية الطبية .

وفي مجال المستشفيات يقول غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» ص ٤٩٢ : ويظهر أن مشافي العرب التي أنشئت فيما مضى أفضل صحياً من مشافينا الحديثة . فقد كانت واسعة ذات هواء كثير وماء غزير . . . ويقول في ص ٤٩٣ : وكانت مشافي العرب كمشافي أوروبا في الوقت الحاضر : ملاجى

(١) بيمارستان هي كلمة فارسية مركبة من لفظين « بيمار » أى مريض و « ستان » بمعنى موضع .

للمرضى وأماكن لدراسة الطلاب الذين كانوا يتلقون دروسهم في فرش المرضى أكثر مما يتلقونها في الكتب . ولم تقلدهم جامعات أوروبا في العصور الوسطى إلا قليلا .

ويقول في نفس الصفحة : وأنشأ العرب للمصابين ببعض الأمراض كالمجانين مشافي خاصة بهم . وكان عند العرب جمعيات إحسان خاصة تقوم بمعالجة المرضى الفقراء مجانا في أيام معينة . وكان يرسل بين حين وآخر أطباء وأدوية إلى الأماكن التي لا تستحق أن يقام بها مستشفى ، لمعالجة المرضى هناك .

ج - القصور :

بعد أن انتهى عصر التقشف في الملبس والمأكل والمشرب والسكن إبان عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين من بعده ، أخذ خلفاء بني أمية يعنون ببناء القصور والقلاع . فقد أنشأ بعضهم القصور في الحيرة وفي مواقع من الصحراء بالأردن حيث جلبوا لها الماء من مسافات بعيدة . ومن بين القصور الأموية في الأردن : قصر عمره الذي بناه الوليد وقصر المشتى الذي بناه الوليد الثاني . وقصر خربة المعجز بالقرب من أريحا بفلسطين الذي بناه هشام بن عبد الملك . وهناك قصور أخرى مثل المنية قرب بحيرة طبريا والرصافة والحير الشرقي والغربي وغيرهما . أما قصر عمره^(١) (انظر التصميم) فقد بنى في الفترة ما بين ٧١٢م - ٧١٥م ويقع على بعد ٨٠ كم شرقي مدينة عمان عاصمة الأردن . ويشتمل هذا القصر على قاعة استقبال مستطيلة الشكل ذات عقدتين يقسمهما ثلاثة أروقة ولكل رواق سقف على شكل قبة نصف دائري . ويتصل الرواق الأوسط في الجهة الجنوبية بحنية كبيرة على جانبها غرفتان صغيرتان . وإلى جانب غرفة الاستقبال حمام مكون من ثلاث قاعات صغيرة .

أما البناء فهو مشيد بالحجر الجيري . والأرض مغطاة بالرخام والفسيفساء . أما الأقبية فقد غطيت بطبقة سميكة من الملاط . أما الجدران

(١) ويدعى أيضا قصر عمرا .

والسقوف فمحلاة بالرسوم ذات الموضوعات المتعددة مثل مناظر الصيد ،
والفتوة والرجولة والكهولة ، وقبة السماء مع بعض النجوم والأبراج .
ورجال الحرف .

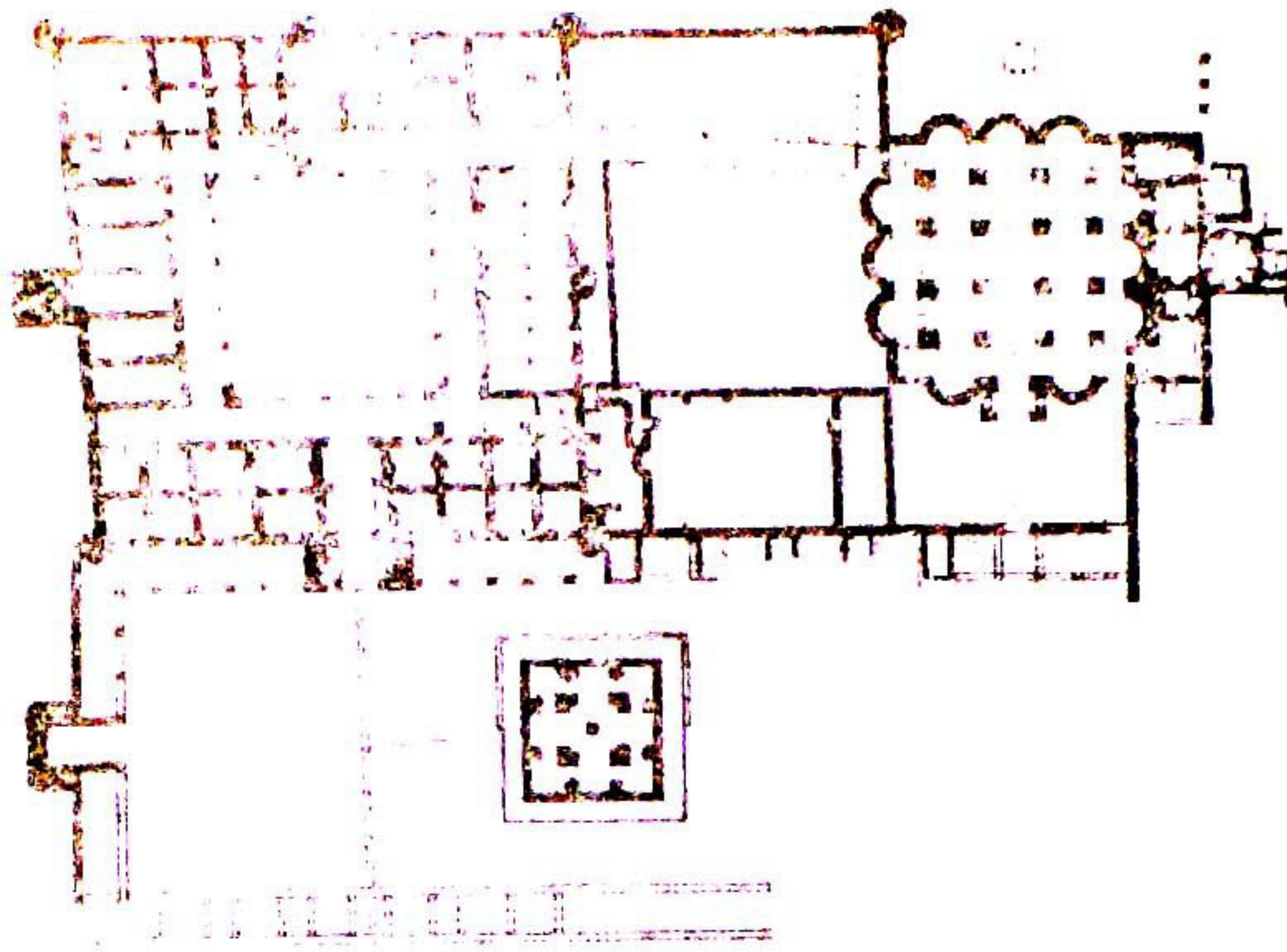
ومن أهم الصور التي تزين جدران هذا القصر ، صورة تمثل الأمير
جالساً على العرش وفوقه مظلة يحملها عمودان حلزونيان على عقدها كتابة
بالكوفية فيها دعاء . ويحف بالأمير شخصان . وهناك صورة أخرى تسمى
أعداء الإسلام وتمثل ستة أشخاص مرسومين على صفين .

أما قصر المشتى : (انظر التصميم) فقد بنى في الفترة ما بين ٧٤٠
- ٧٥٠ م ويقع على بعد ٣٢ كم إلى الشرق من عمان . والقصر مصمم على
شكل مربع طول ضلعه ١٤٤ م يحيط به سور مزود بأبراج نصف دائرية
ومدخل القصر من الجنوب والسطح من الداخل مقسم إلى ثلاثة أقسام . يلي
المدخل قاعة تؤدي إلى بهو وحولهما غرف ومسجد . كما يوجد في القصر قاعة
كبيرة مستطيلة الشكل مقسمة إلى ثلاثة أروقة تنتهي بقاعة العرش المكونة
من ثلاث حنيات كبيرة نصف دائرية . وحول هذه القاعة والأروقة مجموعات
من البيوت .

ولعل أهم أجزاء القصر هي الأوجه الرئيسية ، وذلك لما يوجد فيها
من زخارف رائعة منقوشة في الحجر الجيري والتي يُمثل معظمها أشكالاً
نباتية وبعضها يمثل أشكالاً حيوانية كتلك التي تصور حيوانين متقابلين
بينهما إناء تخرج منه النباتات . وتعتبر لوحة النقوش هذه من أنفس التحف
الاسلامية .

أما قصور العهد العباسي : فأبرزها قصر أخضر الذي بناه عيسى
ابن موسى حاكم الكوفة عام ١٦١ هـ . في عهد الخليفة موسى الهادي .
وقصر بلكوارة الذي بناه الخليفة المتوكل لابنه المعتز قرب سامرا . والقصر
الذهبي الذي بناه أبو جعفر المنصور ببغداد وقصر الرقة الذي بناه الرشيد
والجوسق في سامراء الذي بناه المعتصم . وغيرها كثير .

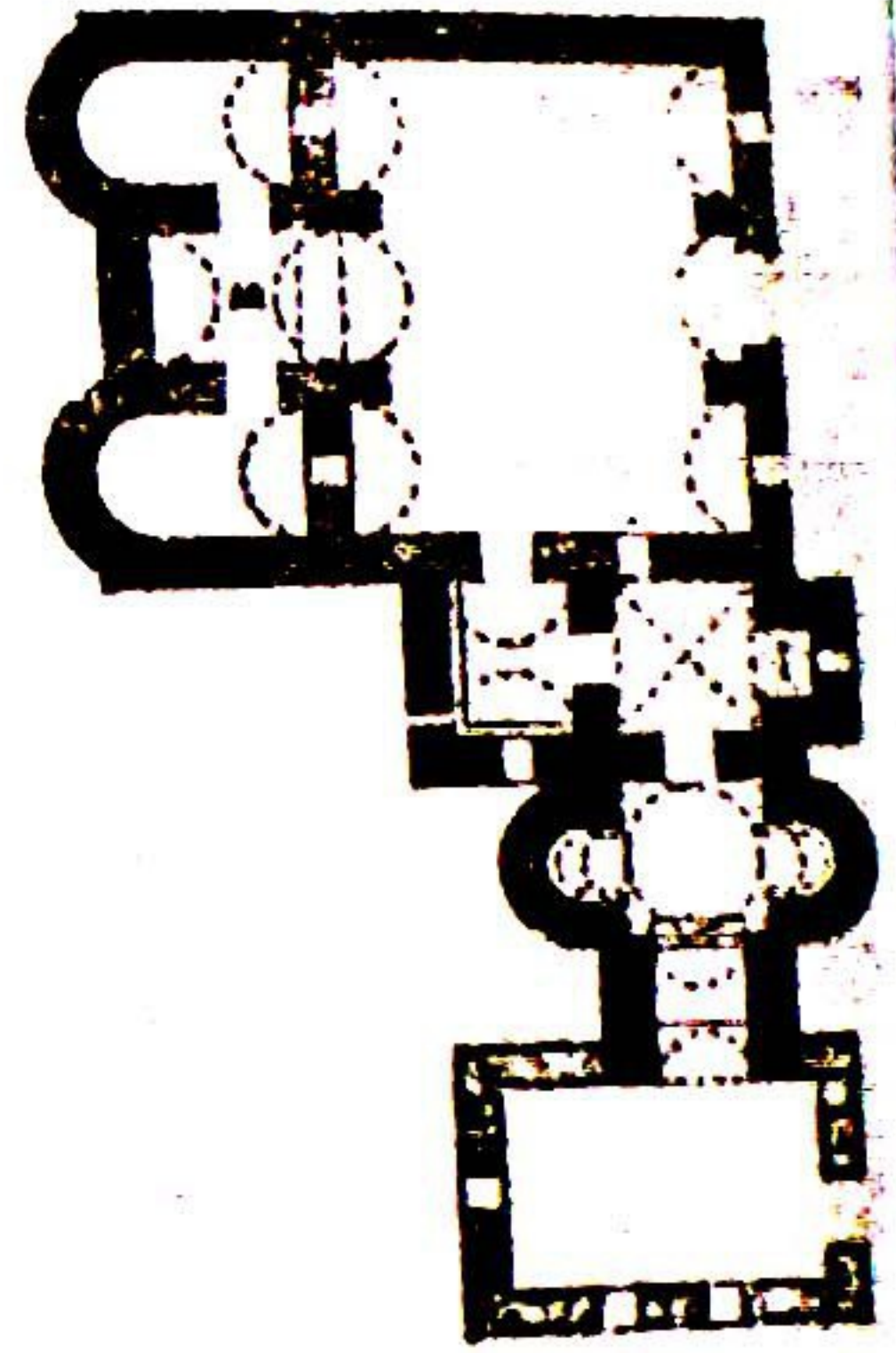
ولوجود توافق في طرز التصميم العام لهذه القصور نكتفى بوصف



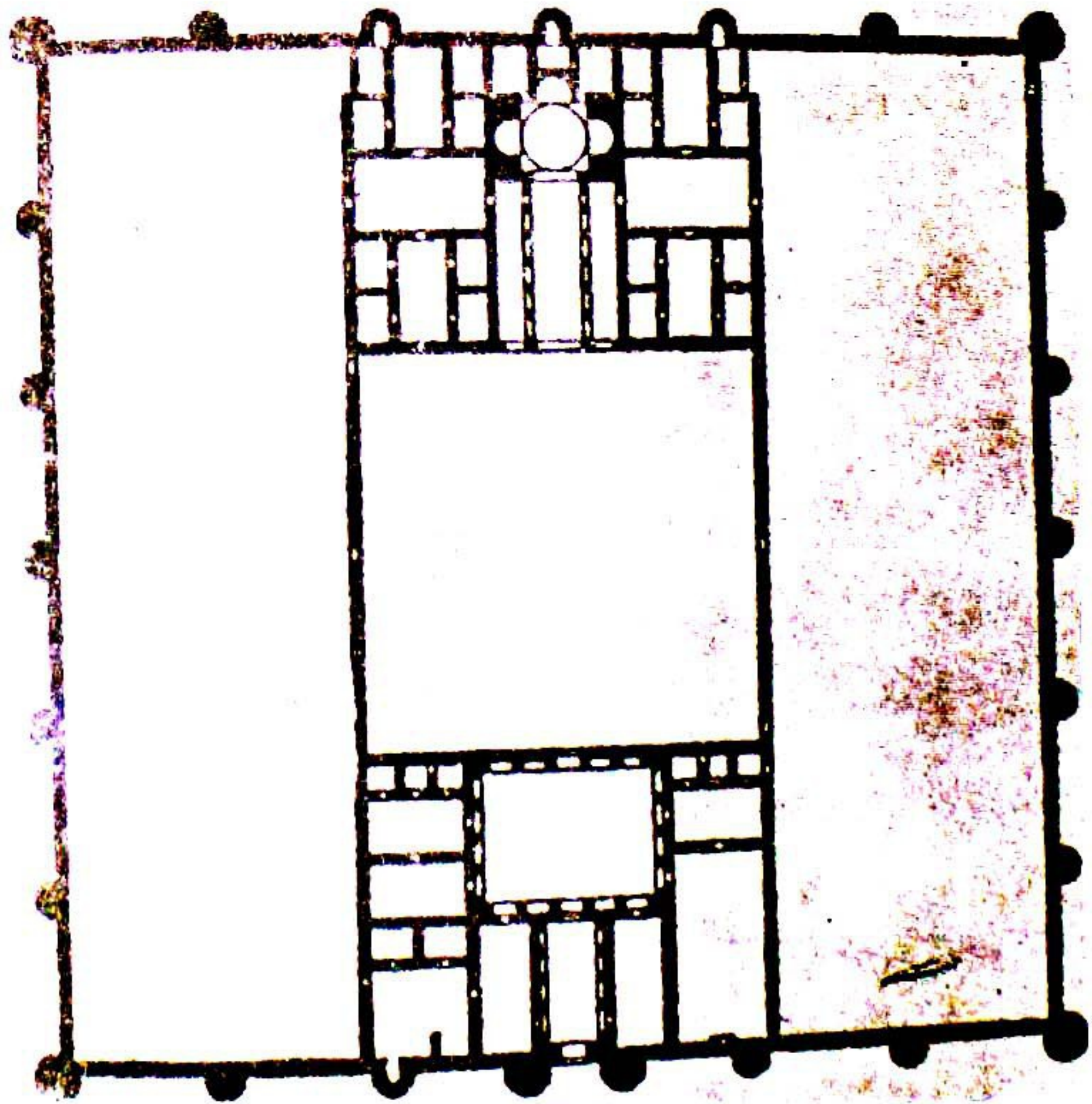
تصميم قصر
خربة المغر



قصر عمرة من الخارج، صحراء الأردن،
أوائل القرن ٨م، العصر الأموي.



تصميم قصر عمرة



تصميم قصر الشّي

أحدها وهو قصر أخضر :

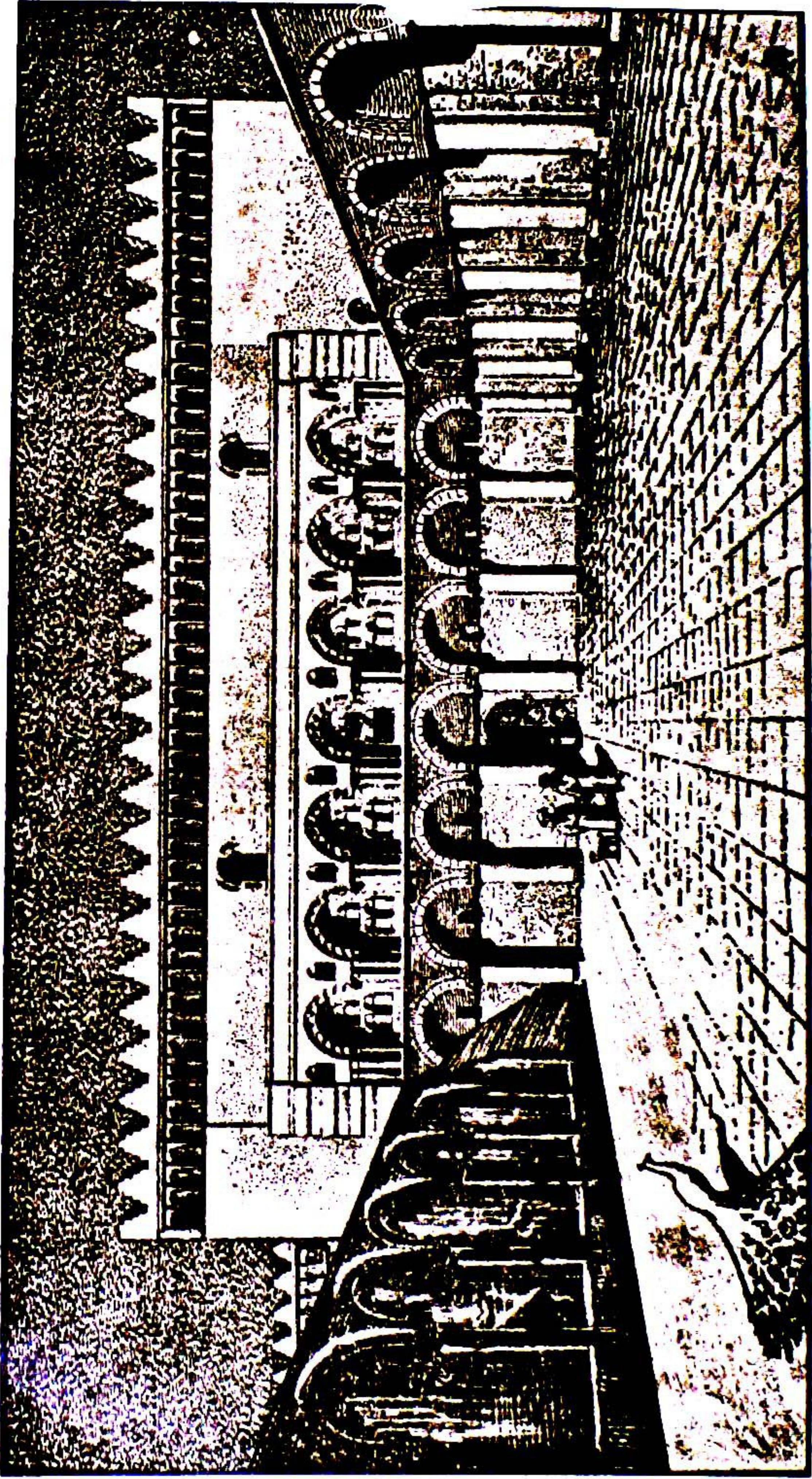
قصر أخضر : بنى هذا القصر على نهر الفرات وعلى بعد ٨٠ كيلومتراً من الكوفة . وقد أقيم على مساحة من الأرض مستطيلة الشكل ١٧٥ × ١٦٩ م . ويحيط بالقصر سور متين يوجد في كل زاوية من زواياه برج أسطوانى الشكل وبين كل زاوية وأخرى عشرة أبراج نصف دائرية . هذا عدا الأبراج التى تحف بالبوابة الرئيسية التى تقع فى وسط السور الشمالى والتى زودت بمختلف وسائل الدفاع اللازمة . علماً بأنه توجد للسور وفى منتصف كل ضلع بوابة .

ويلى البوابة ممر مغطى بقبو وخلفه حجرة لها قبة . ثم يأتى البهو الكبير وعلى يمينه ويساره غرف تستعمل كمستودعات . وخلف الغرف اليمنى أقيم المسجد . أما خلف الغرف اليسرى فتوجد غرف أخرى ذات قباب بارتفاع ثلاثة أدوار . وفى نهاية البهو الكبير توجد قبة يليها ممر يودى إلى قاعة العرش .

تبلغ مساحة البناء فى هذا القصر ١١٢ × ٨٢ م . وارتفاع جدرانها الخارجية ١٧ متراً مزودة بالأبراج . أما مواد البناء فكانت من الحجر الجيرى والجص . والقصر غنى بالعناصر المعمارية والزخارف المتنوعة الأشكال وهذا ما جعله من منجزات الطراز الأول من فن العمارة الإسلامى .

أما **قصور العصر الأندلسى** فى مختلف أدواره وكذلك العصر المغربى : فقد كثر تشييدها وتنافس الحكام فى العناية بها وتشييدها على أرفع مستوى وأروع . ومن بين تلك القصور : قصر الخلافة فى قرطبة ، قصر الزهراء الذى شيده الخليفة الناصر والذى امتاز بفخامته وزخارفه الجميلة حتى إن القاضى محمد سعيد البلوطى الذى سبق ذكره ، قد اعترض على كل ما أدخله عليه الخليفة من مظاهر الفخامة .

وهناك قصور ملوك الطوائف ومن بينها القصور التى بناها المعتمد بن عباد ومن جاءوا بعده فى إشبيلية . كما شيده هؤلاء الملوك القصور فى كل من



تصميم حديث للصحن الشريف في قصر أخضر

طليطلة وسرقسطة .

أما في الشمال الإفريقي فلم يعتن حكامه لا سيما المرابطون بالقصور لما عرف عنهم من التقشف وكانت لديهم بدلاً من القصور ما يعرف باسم الرباط إلا أن الموحدين قد اهتم حكامهم ببناء القصور في الأندلس لا سيما في عاصمتهم إشبيلية . أما أبداع الأمثلة على بناء القصور في تلك العصور فكان قصر الحمراء في غرناطة الذي بنى في عهد بنى نصر على ربوة عالية تشرف على العاصمة . ويتضح من تصميم هذا القصر أنه يتكون من ثلاث مجموعات من المباني يتوسط كل مجموعة فناء . تعرف المجموعة الأولى باسم « المشوار » . وتمتد مبانيها من الغرب إلى الشرق ، ويتوسط المبنى بهو عرف باسم « العريف » وهذا الجزء هو المكان المخصص للموظفين الذين يعاونون الحاكم في تدبير شؤون البلاد . وتعرف المجموعة الثانية باسم « الديوان » وتمتد مباني هذه المجموعة من الشمال إلى الجنوب . وهذا الجزء مخصص للاستقبالات الرسمية . ويشمل مساحة البركة أو بهو « الرياحان » وقاعة البركة وقاعة العرش أو قاعة الشعراء . وهذه المجموعة تكاد تكون مستقلة عن المجموعة الأولى . أما المجموعة الثالثة فتمتد مبانيها من الغرب إلى الشرق كذلك والمدخل من الجنوب . ويتوسط مباني هذه المجموعة بهو « السباع » وهو أشهر جزء في القصر . ويتوسط هذا البهو نافورة تتكون من حوضين من الرخام الأسفل كبير والأعلى صغير محمول على ١٢ عموداً قصيراً ترتكز على ١٢ أسداً . كما توجد بالواجهات الأربع التي تحيط بالبهو لواوين تقوم على أعمدتها الرشيقة ، عقود نصف دائرية مغطاة بالنقوش والزخارف . وكان هذا الجزء مخصصاً للحريم ولا يدخله إلا السلطان وأسرته وحريمه وخدمه . ويؤدي بهو السباع إلى حديقة القصر . ولجمال هذا القصر وفخامته ، أصبح نموذجاً يحتذى حكام الأندلس في قصورهم .

وفي العصر الصفوي : اهتم الشاه عباس والذين جاءوا من بعده بتشييد القصور ذات الحدائق الجميلة وأشهرها قصر جهل ستون المعد للسلطان ، وقصر علي قابو مركز الدولة . وللأول رواق مرتفع محمول على

عدة أعمدة خشبية وهذا الرواق للاستقبالات . ويتوسط القصر قاعة العرش وتحيط بها قاعات صغيرة للسكن تتكون من طابقين . وتغطي جدران القصر من الداخل صور آدمية ونباتية .

أما في الهند فقد دمج المهندسون المسلمون بين فن العمارة الهندي والثقافة المعمارية الإسلامية . وقد برز هذا الاتجاه في عهد السلطان أكبر الذى بنى له مدينة جديدة قرب أكرا عام ٩٧٧ هـ وأوجد فيها القصور ودواوين الحكومة والمباني العامة .

وتظهر في القصر مباني الاستقبالات الخاصة بالملك التى تضم قاعة العرش الكبرى (الديوان العام) ، وقاعة الاستقبالات (الديوان الخاص) الذى يتكون من مبنى مربع مؤلف من دورين وله أربعة أبواب ويتوسط هذه القاعة عمود ينتهى من أعلى بصفوف من المقرنصات .

ثانياً : خصائص الريادة الإسلامية (العمارة الإسلامية)

تتميز العمارة الإسلامية بشخصيتها المستقلة سواء أكان ذلك نتيجة للتصميم أم للعناصر المعمارية . فمن ناحية التصميم فقد نبغ المهندس المسلم فى أعمال الهندسة المعمارية ، حيث وضع الرسوم والتفصيلات الدقيقة اللازمة للتنفيذ . كما وضع النماذج المجسمة إلى جانب المقاسات الدقيقة . وهذا كله يتطلب تعمقاً فى العلوم الرياضية والميكانيكا . ومن خلال ما قد سبق من أنواع المباني المتعددة التى شيدها المسلمون ، يتضح مدى ما توصل إليه مهندسوهم فى مجال هندسة العمارة .

أما بالنسبة للعناصر الخاصة بفن العمارة الإسلامية فهى تتجلى فى الأمور الآتية :

١ - الأعمدة وتيجانها : ومع أن المسلمين استخدموا فى مبانيهم أعمدة وتيجان المباني المتداعية أو المهجورة ، إلا أنهم فيما بعد صمموا أعمدة وتيجاناً خاصة بهم لم تكن مشتقة من أى طراز آخر على حد قول مسيو. ج. دوبرانجه . وأبرز شاهد على تلك الأعمدة ما هو موجود منها فى

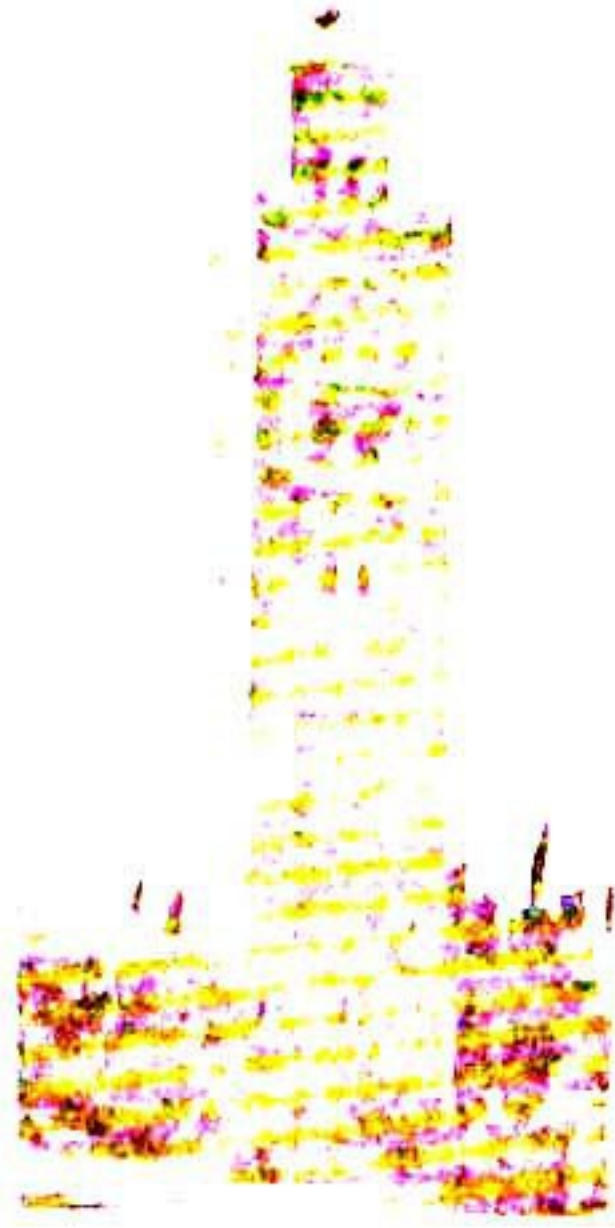
نماذج من المآذن



مئذنة جامع
أحمد بن طولون
بالقاهرة



مئذنة جامع
سیدی عقیبة بالقیروان



مئذنة جامع
كوتية براكند
العصر المماليك - القرن ٥٦ هـ



مئذنة الجامع الكبير
بأنطلييه



مئذنة
جامع الحاكم



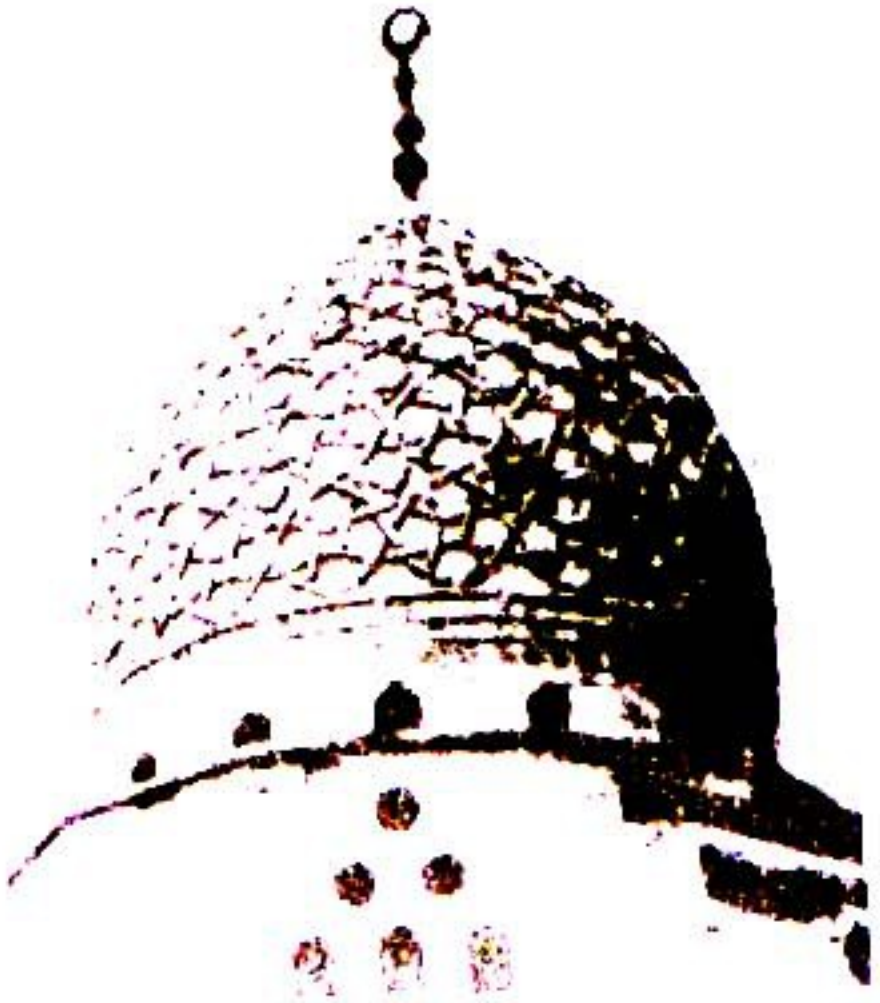
مئذنة جامع
الأمرأحمد عتمش



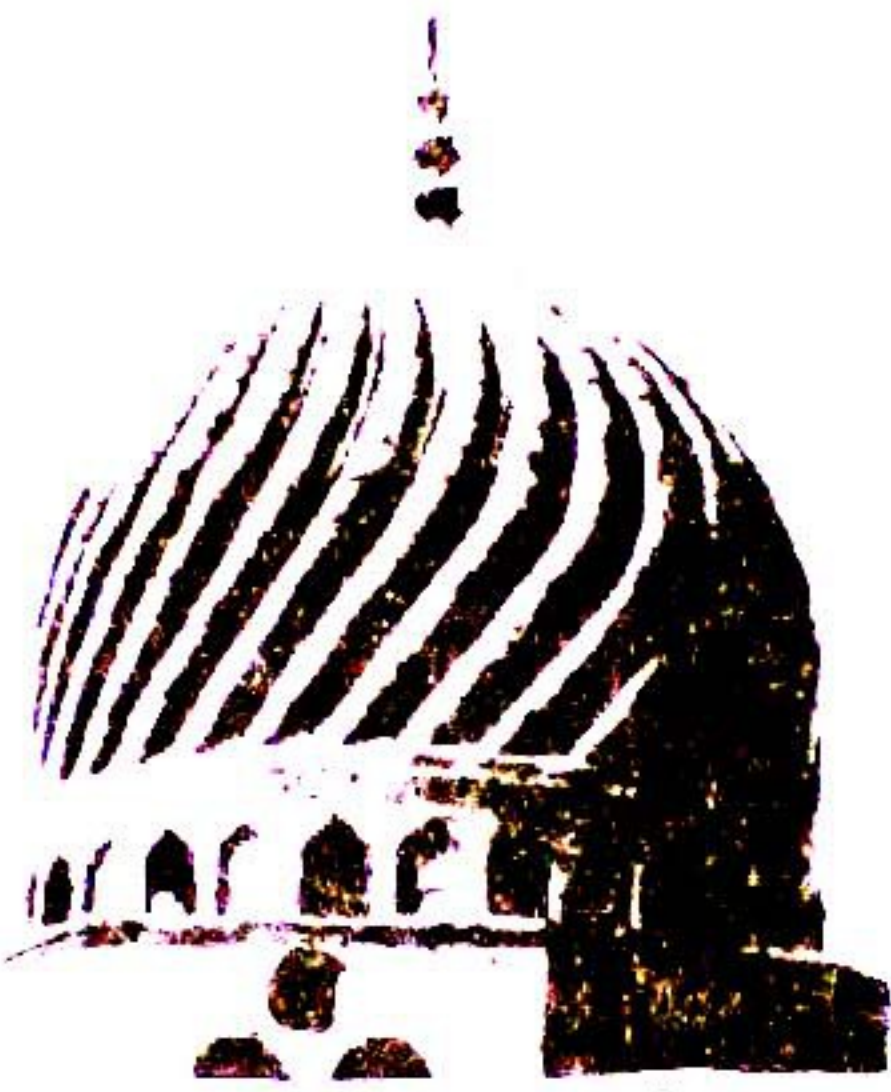
مئذنة جامع
منجك اليوسفي



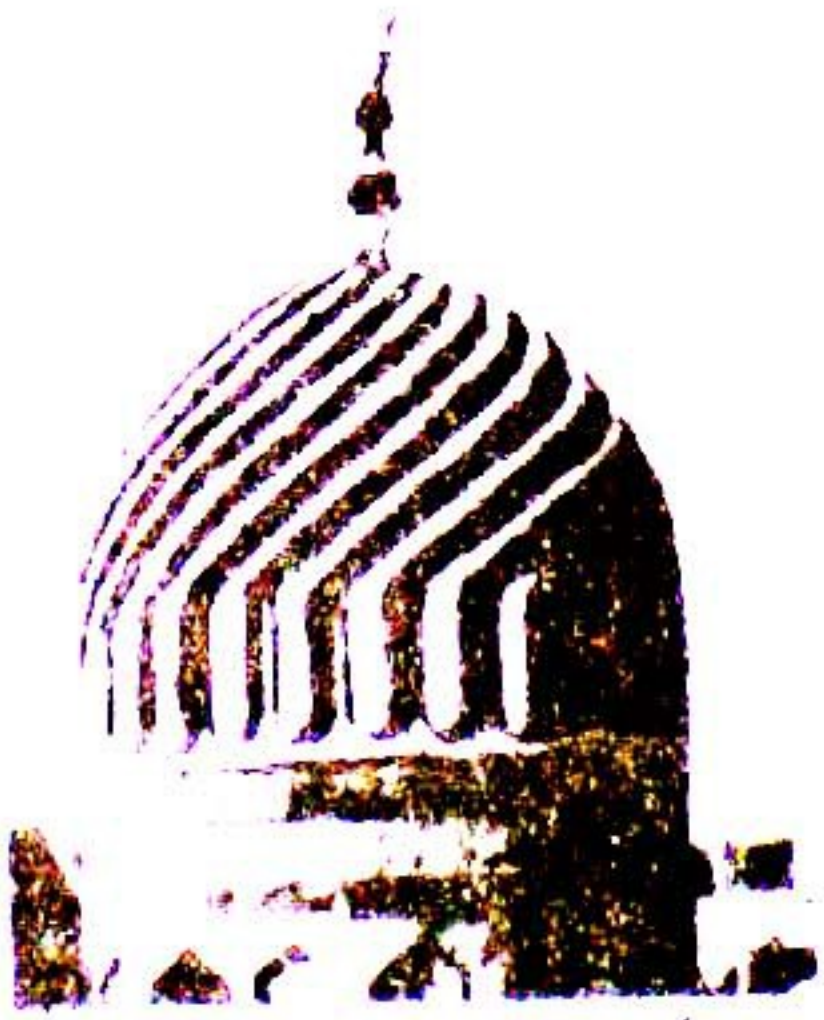
مئذنة
جامع السلطان حسن



الأشرف برسبای، نماذج من قبب في القاهرة



أجای الیوسی



أتمس البجاسی



یونس الدوادار



جامع أحمد بن طولون



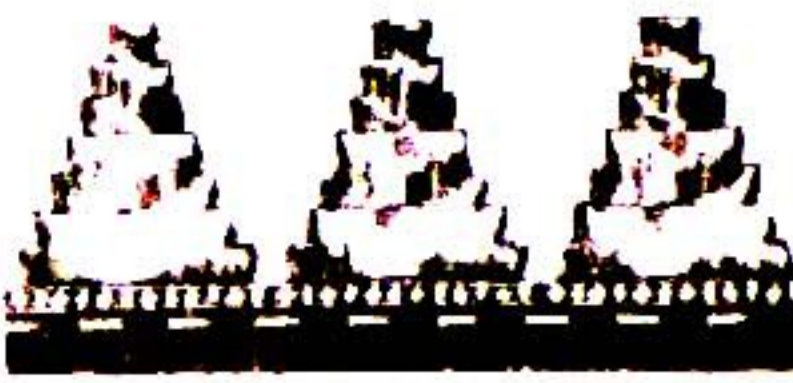
جامع الحاكم



قبة الجعفری وعاتكة



قبة الإمام الشافعی



قبة الصالح نجم الدين



مسجد قلاوون



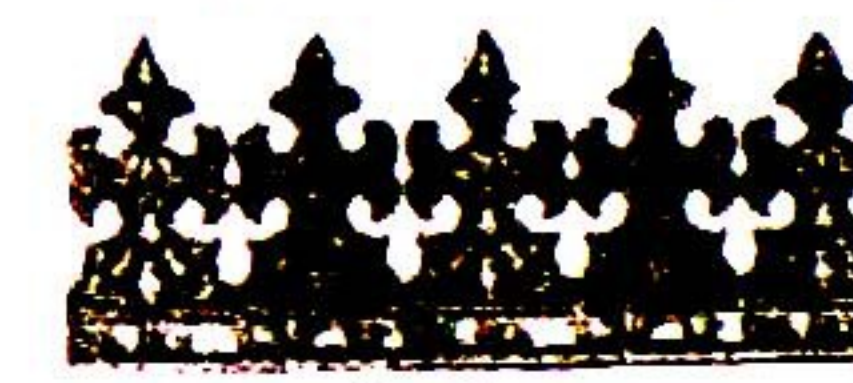
خانقاه بیبرس الجاشنکیر



مسجد السلطان حسن

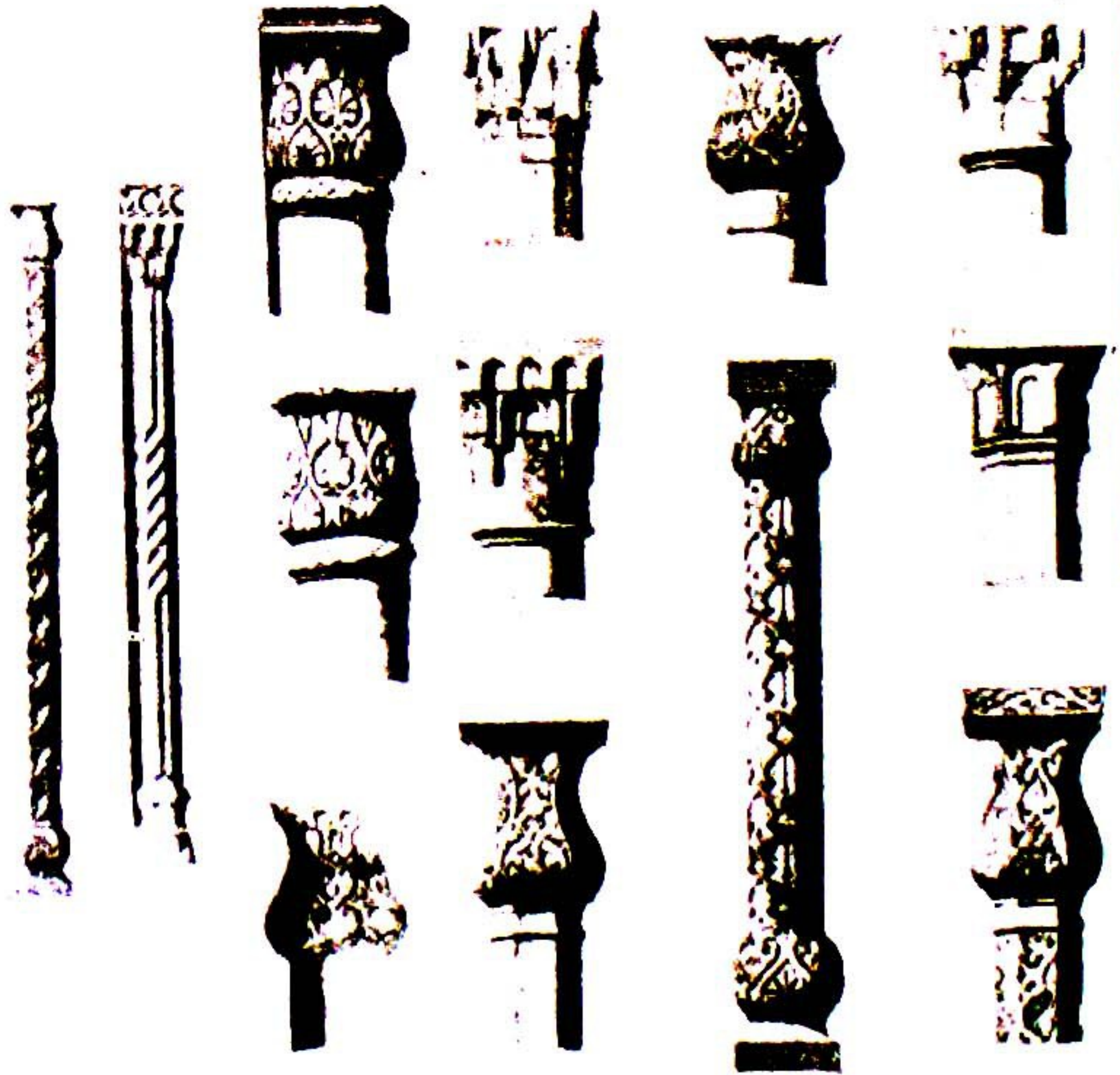


مسجد قانبای أمیر اخور



مسجد وقبة الفوری

نماذج من الشرفات والقباب والأعمدة



قاعة الأسود بقصر الحمراء . وبمجرد النظر إلى أشكال الأعمدة وتيجانها في الرسم السابق تتضح طرز بعض أنواع الأعمدة الإسلامية والتي منها الأسطوانية والمضلعة وتيجانها الرمانية أو الناقوسية .

٢ - الأقباس (العقود) : كانت الأقباس في العهود الإسلامية مصممة إما مدببة من أعلى أو على شكل حذاء الفرس أى أكثر من نصف دائرة . وهذا النوع من الأقباس والتطورات التي طرأت عليها هي طرز عربية خالصة . وفي الشكل السابق أيضا طائفة من تلك الأقباس .

٣ - المآذن : كانت إقامة المآذن ضرورة لرفع الأذان من أجل الإعلان عن حلول وقت صلاة الجماعة . أما أشكال تلك المآذن فهي تختلف باختلاف البلدان التي أقيمت فيها ، فهناك المآذن المخروطية في بلاد فارس والمربعة في الأندلس وإفريقيا وأسطوانية ذات مظفأة في أعلاها بتركيا والمآذن ذات الدرج الحلزوني من الخارج في العراق وأشكال متنوعة في مصر وغير ذلك كثير .

ويقول غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب : «ونرى كثيراً من المآذن في مصر ولا سيما مئذنة قايتباي في القاهرة التي تعتبر من العجائب . وإن دلت هذه على شيء فإنما تدل على دقة العرب وذوقهم الفني الرفيع . وأكثر مآذن العرب متوجة بأنواع الشرف ذات الأشكال المتنوعة والقائمة بين طاقات (كوى) المئذنة . ومن هذه الأشكال : الدرق (التروس) ، والنصل والحربة ، والمنشار . الخ . (انظر الشكل) .

٤ - القباب : ابتكر المسلمون طرزاً من القباب خاصة بهم . فمنها القباب الهيف (ذات الخصر النحيف) ومنها النصف دائرية أو الإهليلجية (البيضاضوية) أو الأسطوانية أو المخروطية أو المقرنة وغير ذلك كثير (انظر الشكل) . وكما أقام المسلمون أنواعاً متعددة من القباب من حيث الشكل ، أقاموا أنواعاً متعددة من حيث الارتفاع .

٥ - المقرنصات (المتدليات) : المقرنصات هي زخارف معمارية إسلامية تشبه خلايا النحل وتجدها بارزة ومدلاة في طبقات بعضها فوق

بعض في واجهات المساجد أو تيجان الأعمدة ، أو في المآذن أو الأقواس أو في زخرفة جلود المصاحف .

ويقول غوستاف لوبون : « لقد انفرد العرب في المقرنصات ولم توجد عند أية أمة حتى الآن » .

٦ - النقوش ودقائق الزخارف : تمتاز الزخارف الإسلامية بطابعها الخاص ويعرفها المرء بمجرد النظر إليها . وهذه الزخارف مؤلفة من رسوم هندسية ممزوجة بكتابات بالخط العربي الذي كان له شأن كبير في الزخرفة . أما النقوش الإسلامية فكانت إما أن تنقش في الحجر أو تصب في قوالب خاصة بها .

٧ - الزخارف الملونة : لقد فضل العرب بأنواقهم الفنية الغزيرة ، ملون المباني على بيضها . وكانت نقوشهم مغطاة بالألوان يدل تنسيقها على ذوق سليم ومعرفة كبيرة في الألوان .

كانت الجدران الداخلية والخارجية للمساجد مستورة بأزهى الألوان ، وقد استعمل المسلمون من الألوان بشكل خاص : اللون الأحمر ، والأزرق ، والأصفر (الذهبى) والأخضر .

الفصل الثالث

تخطيط المدن الإسلامية

أما وقد استعرضنا أهم خصائص فن العمارة الإسلامي ، فإننا نأتى فى هذا الفصل على تخطيط المدن والتطورات التى طرأت على بنائها بالإضافة إلى ما اشتملت عليه تلك المدن من منشآت متعددة كالمساجد التى سبق التحدث عن طرز بنائها . والمدارس التى كانت فى مساجد فى نفس الوقت ، بمعنى ما يسمى بالاصطلاح الحديث « المدرسة المسجد » ثم اتسع بناء المدرسة فأصبحت تتألف من دورين فشملت بذلك مساكن للطلاب والمدرسين ، والأربطة وهى نوع من التكنات العسكرية ، وهذه تشتمل على الأبراج والأسوار وساحات التدريب ومساكن المجاهدين ، والأسبلة وهى الأماكن التى يشرب منها المارة عند العطش وتكون هذه إما مستقلة او ملحقة بالمساجد او المدارس . والخانات وهى التى يقيم بها المسافرون فهى بمثابة الفنادق . وكانت هذه الخانات ذات بوابات ضخمة وحواصل واسعة تستخدم لإيداع المتاع وفوقها أماكن لسكن المسافرين ، والحمامات وهذه كانت منتشرة فى جميع المدن وتقسم إلى ثلاثة أقسام حسب درجة حرارة المياه . وكانت تسخن المياه بإيقاد النار تحت أرض البناء كما كانت المياه تجرى فى أنابيب فى الجدران ، والمساكن الخاصة كالقصور والبيوت ، والأسواق التى كانت تركز فى أماكن معينة وتمتاز بعقودها الضخمة .

هذا بالإضافة لما يتطلبه وجود هذه المنشآت كلها فى مواقع حسب تخطيط معين بعد تحديد الشوارع والساحات والحدائق وغيرها .

ويجلب الماء إلى المدن من الينابيع والأنهار بواسطة شبكة من القنوات المائية التى تمر فوق الجسور والقناطر المرتفعة وذلك حتى يزداد ضغطه ويوصل إلى جميع المباني المقامة داخل المدينة مهما بلغ ارتفاعها آنذاك

وحتى تبقى مياه الأنهار تسير بانتظام ويسر ، فقد اعتنى بكريها وتنظيف مجاريها كما عملت المقاييس لمعرفة منسوبها وكان للفاطميين باع طويل في هذا المضمار . هذا ولم تستخدم مياه الأنهار للشرب فقط بل لسقاية الحدائق والمزارع وسقاية الماشية وتزويد المساجد والمدارس والبيمارستانات والحمامات بالمياه وبشكل مستمر .

وفيما يلي استعراض لتخطيط المدن الإسلامية وتشبيدها : علماً بأنه يقصد بالمدن الإسلامية تلك المدن التي بناها المسلمون لأنفسهم في كثير من الأقطار التي فتحوها كالعراق والشام ومصر والشمال الإفريقي والأندلس وغيرها . ومن بين تلك المدن ما بنى في أول الفتح الإسلامي لتحقيق أغراض معينة سواء عسكرية أو دينية أو إدارية أو اجتماعية أو اقتصادية ومن هذه المدن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغيرها . ومنها ما بنى ليكون عاصمة لدولة إسلامية عند تأسيسها أو رغبة من المؤسس في نقل العاصمة إليها لأغراض معينة ومن هذه المدن : بغداد ، والزهاء ، والقاهرة ، ومراكش ، وفاس ، والرباط وغيرها . ومن تلك المدن ، التي اتخذت عواصم أو مراكز إسلامية هامة ، ما كان قائماً إلا أنه زيد في عمارتها وازدهارها مثل : دمشق ، قرطبة ، وغيرهما .

لقد خططت المدن التي بنيت في بداية الفتح الإسلامي بشكل مبسط . فهناك المسجد في وسط المدينة ومنه تتفرع الطرق والشوارع المؤدية إلى أماكن السكن . وهناك دار الإمارة وحصون الجنود . هذا بالإضافة إلى إقامة سور يحيط بالمدينة ليقىها من هجمات عدوانية مباغتة . ولم يهمل المخطط توفير آبار الماء داخل سور المدينة .

أما مواد البناء فكانت من الطين في بادئ الأمر في كثير من المدن الإسلامية التي أنشئت في بداية الفتح .

إن البساطة في التخطيط والبناء في بداية الأمر ، قد تحولت إلى ضخامة وروعة وجمال خلال عهود الدولة الإسلامية كما يبدو ذلك من المساجد والقصور والمباني المتعددة والمتنوعة الأخرى التي أقامها المسلمون

عبر عهودهم في مدنهم التي بلغت من الرقى والازدهار شأواً عظيماً في التاريخ . كما يبدو من الحدائق والمتنزهات والاعتناء بتوفير المياه وإقامة الجسور والترع ووسائل الري وكري الأنهار وغير ذلك . ومن بين تلك المدن : دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة والرباط وغيرها .

وفيما يلي وصف موجز لأهم المدن الإسلامية التي شيّدت إبان الفتح الإسلامي وخلال العهود المختلفة بالدولة الإسلامية ومن هذا الوصف يتضح مدى التطور الذي طرأ على فن العمارة في تلك العهود :

البصرة : هي أقدم المدن التي بناها المسلمون ولا تزال باقية حتى اليوم . وقد اختطها عتبة بن غزوان في مكان على الضفة الغربية لنهر الفرات بحيث لا يحول الماء بينها وبين مقر الخلافة في المدينة المنورة . جعل المسجد في الوسط وبجواره دار الإمارة ثم دور السكن التي كانت تكون مجمعات بحيث تختص كل قبلة بمجمع خاص بها .

بُنيت البصرة بالقصب أولاً عام ١٤ هـ . ثم بنيت باللبن سنة ١٦ هـ بعد إذن الخليفة عمر بن الخطاب تفادياً للحريق . ويخترق المدينة شارعها الأعظم وجعل عرضه ٦٠ ذراعاً . أما بقية الشوارع فكان عرضها ٢٠ ذراعاً . وعرض كل زقاق سبعة أذرع . وفي وسط كل حي مكان فسيح يستخدم كمرباط للخيل ومقابر للموتى .

ولموقع البصرة التجاري المتوسط بين بلاد الشام وبلاد فارس بالإضافة إلى كونها ميناء العراق ، أسرع إليها العمران واتخذتها الخلافة مقراً لإمارة العراق إبان العهد الأموي . ولقد اتسعت البصرة في ذلك العهد حتى إنها شغلت بقعة من الأرض مساحتها ٣٦ ميلاً مربعاً .

وفي العهد العباسي أثرت البصرة بسبب مركزها التجاري فكانت تجارتها تمتد من الهند والصين شرقاً إلى أقصى بلاد المغرب غرباً وحتى الحبشة جنوباً . وكانت ترسو في مينائها مئات السفن التجارية وهي تحمل أصناف السلع من الأقمشة والعمود والمواد الطبية وغيرها .

وبسبب ثراء أهل البصرة والقادمين إليها ذلك الثراء الذي جاءهم عن طريق التجارة ، شاد الأثرياء القصور وأحاطوها بالحدائق وأنشئوا الميادين والبرك .

وما قيل عن اتساع البصرة وكثرة أنهارها ومزارعها وعمرانها يوضح مدى ما نعمت به تلك المدينة في العهدين الأموي والعباسي من رخاء وتقدم وازدهار.

الكوفة : بنيت هذه المدينة بعد البصرة عام ١٧ هـ . على يد سعد بن أبي وقاص بعد أن استأذن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وذلك في مكان قريب من بلدة الحيرة بالعراق لا يفصله عن مقر الخلافة ماء . ولقد عهد سعد إلى أبي الهيجاء بن مالك الأسدي أن يصمم له مخططاً يوضح فيه شوارع الكوفة الرئيسية والأماكن الرئيسية والأزقة . وبعد أن تم المحصد أخذ سعد في تنفيذه : فبنى المسجد في وسط المدينة ومنه تفرعت الشوارع . وبنى في أحد تلك الشوارع داره أي دار الإمارة بحيث لا تبعد عن المسجد سوى مسافة مئتي ذراع . وجعل فيها مقر بيت المال . أما باقي بيوت السكن فكانت على جانبي الشوارع . وكانت مقسمة إلى أحياء تقطن كل حي أفراد القبيلة الواحدة . أما مواد البناء التي استعملت فكانت من اللبن بعد أن بدأت بالخيام والقصب وسعف النخل .

وفي عهد الخليفة علي بن أبي طالب ، اتخذ من الكوفة عاصمة له وذلك لموقعها المتوسط بين أجزاء الدولة الإسلامية ولخصب تربتها ولكثرة أتباعه وشيعته فيها .

الفسطاط : هي أول المدن الإسلامية التي بنيت في القطر المصري . وقد بناها عمرو بن العاص عام ١٨ هـ . وذلك بعد أن تم له فتح الإسكندرية وإجلاء الروم عنها وطردهم من مصر .

استشار عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب في بناء الفسطاط فأذن له شريطة ألا يفصل بينها وبين مقر الخلافة ماء . فاختر عمرو بن العاص

موقع الفسطاط في مكان بين النيل والمقطم تكثرت فيه أشجار النخيل والكروم وبين القاهرة ومصر القديمة . وهذا المكان سهّل المواصلات مع حاضرة الخلافة بالإضافة إلى أنه يشرف على قسمي الديار المصرية الشمالي والجنوبي . ولم يكن في ذلك المكان من بناء سوى حصن بابليون حيث كانت ترابط القوات الرومية ..

أما في التسمية بمدينة الفسطاط ففي ذلك أقوال كثيرة : منها أن عمرو بن العاص لما أراد السير لفتح الإسكندرية ، أمر بفسطاطه (خيمته) أن يرفع . فإذا بحمامة قد باضت في أعلاه . فقال : لقد أحرمت الحمامة بجوارنا . أقرروا الفسطاط في مكانه حتى تطير فراخها . فأقر الفسطاط في مكانه وأطلق على ذلك المكان اسم الفسطاط . وفي رواية أخرى أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط . ويقول المؤرخ بطر : إن لفظ مدينة الفسطاط مأخوذ من كلمة « Fossatum » ومعناه مدينة حصينة .

ولما عاد عمرو بن العاص من فتح الإسكندرية ، وجد الفسطاط لا يزال منصوباً فبنى في موقعه مدينة الفسطاط . وقد وضع المخطط لتلك المدينة أربعة من قواد عمرو بن العاص . وخصصوا مواقع لكل واحدة من القبائل العربية التي سكنت الفسطاط .

شملت الفسطاط عشرين حارة في كل منها بيت لإحصاء سكان ذلك الحي العاملين في الجيش . أما المسجد (جامع عمرو بن العاص الذي لا يزال قائماً بعد تجديده عدة مرات) فقد أقيم في منتصف المدينة . كما أقيمت دار الإمارة . أما البيوت التي تكونت منها أحياء المدينة فكانت في بادئ الأمر من طبقة واحدة . إلا أنه لما كبرت المدينة في العهود الإسلامية وزاد إقبال الناس عليها ، أخذت في الاتساع والازدهار حتى بلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال . وبسبب ازدحام السكان أصبح من الضروري تشييد مباني ضخمة وفعلاً بنيت في الفسطاط مباني مكونة من ٥ - ٧ طبقات يتسع المبنى الواحد لسكن ما لا يقل عن ٢٠٠ نسمة . وبلغت تكاليف البيت من هذا النوع حوالي ٧٠٠,٠٠٠ دينار وكانت هذه الدار لحرم خمارويه . ومن الأبنية

الأخرى التي اشتهرت بالفسطاط « دار عبد العزيز » المطلّة على نهر النيل (١) .
هذا ولقد ظلت الفسطاط قاعدة الديار المصرية حتى بداية العهد
العباسي حيث أقيمت مدينة العسكر والتي أقيم فيها مسجد جديد عرف
بمسجد العسكر . ومع ذلك فقد استفادت الفسطاط لأن مباني المدينتين
اتصلت مع بعضها البعض . وهذا مما زاد مساحة الفسطاط وزاد
عمرانها . وفي العهد الطولوني اختار أحمد بن طولون موقعا شرقي العسكر
والفسطاط وشيد عليه مسجده القائم حتى اليوم كما شيد قصره وقسم
الموقع بين قطائع جنده فسمى ذلك المكان بالقطائع . وبعد انتهاء الدولة
الطولونية عاد الاهتمام بالفسطاط والعسكر وبقيت المدينة المكونة لهما
عامرة حتى إنشاء القاهرة في العهد الفاطمي التي حلت محلها .

القيروان : أسسها عقبة بن نافع زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان
وذلك بعد أن تم له النصر على البربر . وذلك ليحمي جند المسلمين وأموالهم
من عدوان السكان المحليين . لقد اختار عقبة موقع القيروان لبعده عن
ساحل البحر وفي هذا ما يقى المسلمين غارات الروم البحرية .

جعل عقبة المسجد ودار الإمارة في الوسط واخطت الأهلون بيوتهم
حولها . وكان السكان أمشاجاً من قریش وسائر بطون العرب من مضر
وربيعة وقحطان . بالإضافة إلى فريق من فرس خراسان . وبلغت المدينة
أقصى اتساع لها في العهد العباسي واستمرت قائمة حتى يومنا هذا .

بغداد : بنى أبو العباس السفاح ، مؤسس الدولة العباسية ، مدينة
سماها الهاشمية واتخذها عاصمة له وتقع بالعراق بالقرب من الأنبار على
نهر الفرات . ولما تولى الخلافة من بعده أبو جعفر المنصور ، وجد أن
الهاشمية لا تصلح لأن تكون عاصمة للدولة العباسية ، وأنه لا بد من بناء
عاصمة جديدة تكون في وسط أرض يرويها نهر دجلة والجداول التي تستمد
مياها من نهر الفرات ، وذلك بالإضافة إلى سهولة مواصلاتها مع أجزاء

(١) وعدا البيوت الضخمة ذكر بعض المؤرخين أن مدينة الفسطاط اشتملت على ٢٦٠٠٠ مسجد ، ٨
ألف شارع ، ١١٧٠ حماماً . وأن عدد الأسطل المطلّة على نهر النيل والتي ترفع بواسطة
البكرات لانتشال الماء من النهر بلغت ١٦ ألف سطل .

دولته مع توافر أسباب المعيشة فيها .

شرع المنصور في بناء بغداد التي سميت بالمدينة المدورة في بادئ الأمر وسميت كذلك مدينة السلام ، بعد أن أحضر لها المهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والحفارين ، الذين بلغ عددهم جميعاً مئة ألف شخص ، من مختلف بلاد الشام والعراق . وعهد إلى من يثق بفضلهم وعدالتهم وأمانتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب .

هذا ولقد احتفل أبو جعفر المنصور بوضع حجر الأساس للمدينة عام ١٤٥ هـ . احتفالاً رائعاً شهدته رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والقواد والأعيان وخلق كثير .

جعل أبو جعفر المدينة دائرية الشكل ، وضع مسجده الذي بلغت مساحته ٤٠ ألف ذراع مربع وقصره الذي بلغت مساحته ١٦٠ ألف ذراع مربع ، في وسط المدينة ولم يجعل حولهما بناء آخر سوى الدار التي بناها للحرس من ناحية باب الشام ، وسقيفة لصاحب الشرطة .

وبعد ذلك بنيت قصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة وبعدها مساكن الأهلين والأسواق .

جعل للمدينة أربعة شوارع رئيسية ، تخترق الدائرة وتتصل بالأبواب الأربعة للمدينة . وتتفرع من هذه الشوارع ، عدة شوارع فرعية . أحاطت المدينة بسورين ، المسافة بينهما ستون ذراعاً . أما السور الداخلي ويسمى سور المدينة فكان عرضه من أسفل ٥٠ ذراعاً ومن أعلى ٢٠ ذراعاً وأما السور الخارجي ويسمى بسور الفصيل فكان ارتفاعه ثلاثين ذراعاً وعرضه كعرض السور الداخلي وحوله من الخارج خندق عميق أجرى فيه الماء من النهر . ولهذا السور أربعة أبواب هي : باب البصرة وباب الكوفة وباب خراسان وباب الشام . وكان قطر المدينة من باب الكوفة إلى باب خراسان ٢٢٠٠ ذراعاً ومثل ذلك من باب البصرة إلى باب الشام . وعلى السور أبرام سمك الواحد منها خمسة أذرع وبنيت عليه الشرفات . وكان يصل بين البواب الموجودة في السور الخارجي والبواب المقابل له في السور الداخلي دهليز وساحة .

وبعد أن فرغ أبو جعفر المنصور من بناء بغداد ، أقطع أعيان دولته قطعاً من الأرض رغبة منه في تخفيف الضغط على بغداد التي ازدحمت بالسكان من جهة ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من جهة أخرى .

لقد قسم أبو جعفر المنصور بغداد إلى أربعة أرباض جعل على كل منها رئيساً وعهد إلى كل رئيس إقامة سوق في القسم الذي يشرف عليه ، كما أمر أن تخطط الشوارع والدروب بحيث تكون المباني منتظمة وأن يسمى الشارع أو الدرب باسم القائد أو الرجل الشائع الذكر الذي يقيم فيه . وذلك كما تفعل البلديات في الوقت الحاضر .

وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات كما نمت بغداد بشكل عام وامتدت أبنيتها على ضفتي نهر دجلة وأطلق على الجانب الشرقي منها الواقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة اسم الرصافة وعلى الجانب الغربي منها الواقع على الضفة الغربية لنهر دجلة اسم الكرخ ولا تزال هذه التسمية باقية حتى اليوم .

وبلغت بغداد أوج عظمتها في العمران في عهد المأمون حتى قيل إنها شغلت ما مساحته ١٦ ألف فدان . كما أن عدد مساجدها بلغ ٣٠ ألف مسجد وعدد حماماتها ٦٥ ألف حمام . هذا عدا القصور والبيوت والحدائق العامة وغيرها .

سامرا : لم تكن بغداد هي العاصمة الوحيدة التي بناها العباسيون في العراق بل قام الخليفة المعتصم ببناء العاصمة الجديدة للدولة وهي سامرا التي تقع إلى الشمال من بغداد وفي مكان يسهل منه الوصول إليها . ولقد شرع المعتصم في تخطيط حاضرتة الجديدة عام ٢٢١ هـ وأحضر العمال والصناع وأرباب المهن من سائر الأقطار الإسلامية . وخصص في المدينة قطائع للأتراك ، كما خصص قطائع أخرى للمغاربة ، وأفرد للتجار وأرباب الحرف والصناعات أسواقاً خاصة . كما شيد المسجد الجامع والقصور الفخمة . وأكثر من الحدائق والأشجار فيها .

أخذت المدينة تنمو ويقصدها الناس من كل قطر فشيّدوا فيها المباني الشاهقة حتى أصبحت من أحسن مدن ذلك العصر . ولما ازدهرت سامرا ، أطلق عليها (سُرَّ من رأى) . ولما خربت سميت (ساء من رأى) واختصرت فأصبحت (سامرا) .

الزهاء : عندما تولى عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس ، كانت قرطبة عاصمة الدولة الإسلامية هناك وكان عدد سكانها ٥٠٠ ألف نسمة ولا يقل عدد دورها عن ١١٣ ألف دار عدا المساجد التي بلغت ثلاثة آلاف والقصور والحمامات وغيرها . ومع ذلك فقد قام عبد الرحمن الناصر ببناء مدينة الزهاء لتكون مقره له أسوة بغيره من الخلفاء الذين سبقوه مثل : أبي جعفر المنصور باني بغداد ، عبيد الله المهدي باني المهديّة والمعز لدين الله باني القاهرة .

وضع الناصر أساس مدينة الزهاء عام ٣٢٥ هـ على سفح جبل العروض وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الشمال الغربي من قرطبة . وقد بدأ ببناء قصره المدعو قصر الزهاء الذي يعتبر من مفاخر فن المعمار الإسلامي . وقد أطنب المؤرخون والرحالة والشعراء في وصفه ووصف المدينة ككل . كما بنى المسجد الجامع الذي لم يكن مكاناً للعبادة فقط بل مركز الحركة السياسيّة والاجتماعية والعلمية . وهذا المسجد يعتبر من روائع الفن الإسلامي . كما بنى الدور الفسيحة للحيوانات ومسارح الطيور ودور الصناعة الحربية وأدوات الزينة .

وحتى يوفر الناصر الماء للمدينة في حالة انخفاض منسوب ماء نهر الوادي الكبير الذي تقع عليه المدينة ، حفر قناة طولها ٨٠ كم لتزويدها بالماء الصافي من منبع النهر . ومع أن المدينة كلفت الخليفة مبالغ طائلة أنها تعدّ غرة في جبين الفن الإسلامي .

مدينة القاهرة : بعد أن أتم جوهر الصقلي ، قائد المعز لدين الله الخليفة الفاطمي فتح مصر عام ٣٥٨ هـ ، فكر في تأسيس مدينة جديدة بدأ من الفسطاط والعسكر ، تكون عاصمة للفاطميين ومركزاً لنشر دعوتهم

الدينية وحصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين أخذوا يهددون الحدود الشمالية لمصر .

بدأ جوهر في وضع أساس مدينة القاهرة وأساس قصر المعز لدين الله ، ثم اختطت كل قبيلة من قبائل البربر حياً خاصاً بها . ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة أقام السور حوله . كما أحاط المدينة بسور كبير من اللبن وجعل فيه عدة أبواب أشهرها باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح وباب العيد .

ومن المعالم البارزة في مباني القاهرة الفاطمية الجامع الأزهر الذي وضع أساسه جوهر الصقلي في ١٤ رمضان عام ٣٥٩ هـ واستغرق بناؤه سنتين وأقيمت فيه صلاة الجمعة لأول مرة في ٧ رمضان عام ٣٦١ هـ .

أنشأ الفاطميون في القاهرة كثيراً من المنشآت العامة كالفنادق والحمامات والدكاكين التابعة للدولة . هذا بالإضافة إلى عدد من القصور والمساجد والمدارس والحصون والجسور وغيرها .

وبعد الدولة الفاطمية تعاقبت على القاهرة عدة عهود إسلامية عملت كلها على إضافة الكثير من المنشآت العمرانية المتنوعة .

مدينة فاس : بنى هذه المدينة الأدارسة زمن رئيسهم إدريس الثاني وذلك في موقع فسيح كثير المياه العذبة معتدل الهواء وبالقرب منه غوطة كثيفة الأشجار ممتلئة بالعيون والأنهار . فاشترى إدريس ذلك الموقع بستة آلاف درهم من أصحابه ووضع أساساً لمدينة فاس في غرة ربيع الأول عام ١٩٢ هـ مبتدئاً بعدوة لثلاثمائة أسرة جاءت من قرطبة هرباً من الحكم الأول الأموي وأحاط إدريس هذه العدوفا فيما بعد بسور . ثم وضع إدريس أساساً لعدوفا القرويين الذين قدموا من القيروان وأسكن عليها ثلاثمائة أسرة . وكان ذلك عام ١٩٣ هـ وأحاط هذه العدوفا فيما بعد بسور كذلك . ثم أخذ إدريس الثاني في بناء المسجد الذي يعرف باسم مسجد الشرفا وهو مسجد مولاي إدريس اليوم وأقام فيه الخطبة . ثم أخذ في بناء داره المعروفة بدار القيطون . ثم بنى القيسارية إلى جانب المسجد الجامع . ثم بنى الأسواق

من كل جانب وطلب إلى الأهلين إقامة المباني بعد أن وهبهم أماكن تلك المباني . وفي ذلك الوقت وفد على إدريس جماعة من الفرس وأسكنهم في فاس .

أما تسمية المدينة بهذا الاسم فالبعض ينسبه إلى «فاس» من ذهب عمل لإدريس الثاني ليحفر به ، والبعض ينسبه إلى «فاس» وجد في أثناء الحفر . والبعض يقول إنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة «ساف» التي كانت قبلها ثم قلب الاسم إلى فاس . وبعضهم يقول إنها سميت بالنسبة إلى كلمة أسيف ومعناها بالبربرية النهر ثم قلبت بتصرف فأصبحت فأس .

اتسعت مدينة فاس كثيراً وازداد عدد سكانها وغرست الكروم والحدائق على ضفتي نهر سبو وأقام التجار وأرباب الحرف في تلك المدينة . توافرت في فاس المزايا التي يجب أن تتوفر في المدن الجميلة كما قال أحد الحكماء . ففيها النهر الجاري والحرث الطيب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان .

مدينة مراکش : بنى المرابطون مدينة مراکش لتكون عاصمة لهم لأن مدينة أغمات البربرية القديمة ذات البساتين والأنهار والتي لا تبعد عن مراکش أكثر من ثلاثين كيلومتراً ، ثم تلائم البيئة الصحراوية التي تعود عليها المرابطون بالإضافة إلى أن أغمات ضاقت بالمرابطين من سكانها . ولد يشأ هؤلاء مضايقة السكان الأصليين . كما أن مراکش تقع في مكان فسيح متوسط بين أجزاء المغرب الأقصى وملائم لطبيعة المرابطين ويمكن اتخاذ ذلك المكان مقراً للحكومة ومعسكراً للجند وحاضرة للبلاد .

يروى أن تسمية مراکش بهذا الاسم هو نسبة إلى عبد أسود يدعى «مُراکش» كان يقيم في غيضة موحشة تكثف فيها اللصوص . فكان المارة يقولون لرفاقهم «مراکش» أي مر بسرعة فعرف المكان باسم مراکش ويطلق اسم مراکش على المملكة المغربية كلها .

بدأ بناء مراکش الأمير أبو بكر بن عمر ابن عم يوسف بن تاشفين ببناء قصره . وتبعه الناس ببناء بيوتهم بدون أسوار لكراهية المرابطين

لتسوير المدن وذلك لطبيعة نشأتهم الصحراوية الطليقة . ثم بنى معسكراً ومخازن للسلاح والأموال بالإضافة إلى مسجد للصلاة . بدأت مراكش بشكل بسيط إذ سكن الناس في أول الأمر في خيام من الوبر . إلا أن المباني بعدئذ أصبحت من الحجر ، أو الحجر والطين . وجلب الماء إليها وإلى البساتين والمتنزهات كما حفر الآبار وجلب إليها الماء من أغمات .

وينسب البعض بناء مراكش إلى يوسف بن تاشفين لا سيما وأن هذا كان يشرف على البناء في أثناء انتقال ابن عمه أبو بكر في إخماد الفتنة التي قامت بين قبائل المرابطين . ومع كل هذا فإن ابن تاشفين قد أكمل البناء . علماً بأن بناء المدينة استغرق ثمانية أشهر .

اشتهرت مراكش باتساع أزقتها ورحابة دورها وارتفاع أبوابها .

ولما انتقل حكم مراكش إلى الموحدين عنوا بتشييد المباني والقصور والمساجد . وبنوا بجوارها مدينة أخرى تكثر فيها البساتين والأسواق والقصور والفنادق والمساجد . وقد بلغت مراكش أوج عظمتها في عهد الموحدين ثم في عهد بني مرين إذ بلغت مساحتها ١٦ ميلاً مربعاً وبلغت قصورها درجة عظيمة من الروعة والجمال . كما اشتهرت مراكش بصناعة زيت الزيتون . ويكونها مركزاً تجارياً مرموقاً .

مدينة الرباط: بنيت هذه المدينة زمن الخليفة الموحدى يعقوب المنصور على الساحل ليسهل عليه إرسال النجدات منها إلى الأندلس ولتكون المقر الصيفى له ولجنوده . وقد أتم البناء خلال بضعة أشهر وبنى فيها المساجد والمدارس والقصور . ونظم المدينة بحيث جعل حياً خاصاً لكل جماعة من السكان كالصناع والتجار والأدباء وغيرهم .

ازدهرت الرباط بسرعة حتى أصبحت من أغنى المدن الإفريقية وساعد على ذلك جودة موقعها ورواج تجارتها وكونها مقراً للحاكم الموحدى خلال الفترة ما بين شهرى نيسان وأيلول . وهذا الازدهار أدى إلى اتساع رقعتها . ولقد أصبحت الرباط حاضرة المغرب الأقصى منذ عام ١٩١٢ م .

أما المدن التي كانت موجودة قبل ظهور الإسلام واتخذها المسلمون عواصم لهم بعد أن زادوا في عمرانها لدرجة أصبحت مدناً إسلامية خالصة من ناحية الفن العمراني والتنظيم فهي :

دمشق : كانت دمشق قبل الفتح الإسلامي مقر حكام الروم . وقد أصبحت عاصمة للدولة الأموية منذ تأسيس تلك الدولة على يد معاوية بن أبي سفيان .

وكلمة دمشق اشتقت من الدمقس وهو نوع من الحرير الذي اشتهرت به تلك المدينة قبل الإسلام .

شيّد فيها معاوية قصر الخضراء . وعمل الوليد بن عبد الملك على تجميل المدينة وضواحيها بالمباني العامة كما بنى المسجد الأموي الذي لا يزال قائماً حتى اليوم . ومن آثار الأمويين الباقية في دمشق مجارى المياه والقنوات التي بلغت من الدقة بحيث أصبح لكل دار في المدينة نافورة خاصة بها .

هذا وقد توالى على دمشق عهود إسلامية متعددة عمل كل عهد على زيادة مبانيها واتساع رقعتها لا سيما في العهد الأيوبي والمملوكي والعثماني .

مدينة قرطبة : بعد أن وطد عبد الرحمن الأول (الداخل) الحكم الأموي في الأندلس ، اتخذ مدينة قرطبة عاصمة لإمارته وبنى فيها القصر والمسجد الجامع . وقال المقرئ في كتابه نفع الطيب ص ٢١٧ ، ٢١٨ أن عبد الرحمن الداخل اختار قرطبة مقراً له لاتساعها ووفرة مبانيها الضخمة ، ولوجود النهر الذي يجرى فيها ، ولهوائها المعتدل ، ولخصب تربتها ، ولوقعها المتوسط بين شرقي الأندلس وغربها .

ولقد جمل عبد الرحمن الداخل قرطبة بالرياض والقصور وجلب المياه العذبة بواسطة أنابيب الرصاص وتصب في أحواض الرخام ذات النقوش البديعة . ولما تولى هشام بن عبد الرحمن الحكم ، جمل قرطبة بالمباني

الضخمة والبساتين النضرة وجدد قناطر المياه بشكل محكم . هذا ولقد عني
عبد الرحمن الأوسط بتعمير قرطبة وتجميلها بالقصور الفخمة وبحيرات المياه
والبرك البديعة والصحاريج الغربية والقباب العالية .

إن كل هذه الإضافات عملت على اتساع عمران قرطبة وزيادة عدد
سكانها الذين بلغوا في القرن الرابع الهجري نصف مليون نسمة . وبلغ عدد
دورها ١٣١٠٠ دار غير القصور والمساجد التي بلغت ثلاثة آلاف
مسجد . ولم يتفوق على قرطبة سوى بغداد من حيث الاتساع . ولقد قال
أحد الشعراء في قرطبة ما يلي :

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها
فما على الأرض قط مثل قرطبة
ولا تعظم بلاد الفرس والصين
وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

الفصل الرابع

ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشارها

لقد سبق أن درست في الأبواب والفصول السابقة من هذا الكتاب المدى الحضارى الذى وصل إليه المسلمون فى شتى المجالات : كنظام الحكم والجيش والمال والقضاء ثم العلوم بمختلف موادها وكذلك الصناعات المتعددة وفنون العمارة وما إلى ذلك ، وعرفت أنهم وصلوا إلى أرقى مستوى عرفته البشرية فى المجالات الحضارية وأن علومهم ومعارفهم استمرت عدة قرون ينهل من معينها طلاب الجامعات فى الأقطار الإسلامية والقارة الأوربية . وأنهم وصلوا إلى هذا المستوى فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تتخبط فى دياجير الظلم والضلال والجهل والفقر والمرض .

ولعل من أبرز الدعائم وأقواها التى قامت عليها الحضارة الإسلامية وانتشرت ، دعامتان هما : الدين ، واللغة العربية .

أما الدين الإسلامى : فقد شمع نوره فى الجزيرة العربية وعم أرجاءها كلها . ثم حمل لواء ذلك الدين الحنيف قادة الفتح الإسلامى ومجاهدوه بعزم وقوة وإيمان لا يتزعزع حتى إنه لم تمض فترة وجيزة لا تتجاوز القرن من الزمان إلا وعمت تعاليم هذا الدين القويم مساحة واسعة جداً من الكرة الأرضية من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ومن شمال البحر الأسود وسهول سيبيريا شمالاً إلى المحيط الهندى جنوباً . وكيف لا تعم هذه التعاليم السمحة تلك المساحة الشاسعة والدين الإسلامى هو دين المساواة والرحمة والتسامح والانسانية ودين العمل إذ « لا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، والناس سواسية كأسنان المشط ، والراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا من فى الأرض ، يرحمكم من فى السماء ، وقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ أَعْمَالَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ . وَأَطْلَبُوا الْعِلْمَ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ . وَهَلْ يَسْتَوِي

الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ ... هذه الأمور كلها وغيرها مما لا يمكن حصره ، دخلت قلوب الشعوب التي فتحها المسلمون فاعتنقوا الدين الإسلامي عن رغبة لا عن رهبة لأنه أزال عنهم كابوس الظلم الذي كانوا يئنون تحته وساوى بين غنيهم وفقيرهم وترك لهم حرية العمل في المجال الذي يريدونه ، وأبقاهم في ديارهم آمنين مطمئنين .

وخسر الذين قالوا إن الإسلام فُرِضَ بحد السيف على الشعوب المغلوبة ولكن اعتناق تلك الشعوب للدين الإسلامي كان عن رغبة صادقة حتى ظهر من بين تلك الشعوب أئمة في العلوم الدينية وغيرها .

إن هذا الدين الحنيف انتشر مع حاملي لوائه من قادة ومجاهدين لم يكونوا كباقي الأقوام التي خرجت من آسيا متجهة نحو الغرب ، تلك الأقوام البربرية التي كانت لا تبقى ولا تذر من معالم مدنية كما عمل المغول والتتار والقبائل الجرمانية وغيرها . ولكن جاء حملة لواء الإسلام بذلك الدين الحنيف ، جاءوا بالعلم والمعرفة والنور والهداية . وجاءوا بلغة القرآن الكريم اللغة العربية الأصيلة . جاءوا بالعدل والإنصاف وبالرحمة والاطمئنان فدخل الناس في دين الله أفواجا وأصبح الغالب والمغلوب بفضل الله إخوانا . وبهذا شكلت الديانة الإسلامية رباطاً قوياً بين الفاتحين وأهل البلاد المفتوحة وجعلتهم وحدة متينة مترابطة . لأن الإسلام لم يكن عقيدة وأسلوباً للعبادة فحسب بل كان أيضاً تخطيطاً للأمة والمجتمع ومنهاجاً للفكر والسلوك ودستوراً للإنسانية في أسمى صورها . وفي هذا المجال يقول أحد الكتاب الأوربيين - والفضل ما شهدت به الأعداء - : «تقوم قوة الإسلام في امتلاء شخصيته واكتمالها . تلك الشخصية التي يستطيع الإسلام أن ينميها ، فالمسلم يتصف بالطمأنينة والكرامة والاتزان . وهي صفات لم تكن لتتطور وتنمو إلا في إطار صورة ثابتة للعالم المثالي والجماعة الإنسانية المثالية » .

ويقول المستشرق كويلر يونج :

لقد وجه الدين الإسلامي الحنيف تلك الحركة الفكرية والحضارية الكبرى وأظلمها بظله وطبعها بطابعه . إنه ليس هناك ثمة ميدان من ميادين

الخبرة الإنسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم ولم يزد ثروة التقاليد الغربية فيها غنى : فالدراسات النظرية والعملية والمواد الغذائية والعقاقير الطبية والأسلحة والفنون والنشاط التجارى والبحرى ... كل ذلك مدين للإسلام وحضارته المتجانسة .

لقد استطاع الإسلام بوصفه رابطة قوية أن يحافظ على أواصر الوحدة العقلية التي انبثقت منها الحضارة الإسلامية ، في البلاد التي شمع نوره عليها ، فاستمرت تلك الوحدة قائمة عصوراً طويلة رغم انحلال الوحدة السياسية التي ظهرت في العصور المتأخرة التي كانت تربط البلاد العربية والإسلامية في ظل حكومة واحدة . فكان رجال العلم المسلمون يقابلون بالترحاب أينما حلوا .

إن الدين الإسلامى الحنيف عنى عناية تامة بالعلم الذى هو أصل الحضارة وينبوعها الأول . فأعزه وأعلى قدره ورفع العلماء إلى مكانة عالية . وليس أدل على ذلك من الآيات الكريمة الكثيرة التي وردت في كتابه العزيز . وكانت أول تلك الآيات ما نزل في سورة القلم والتي كانت أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤**) (١) .

ومن تلك الآيات قوله عز وجل مخاطباً رسوله الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام :

(**وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**) (٢) .

وقوله جل شأنه لعباده :

(**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ**)

(١) الآيات ١ - ٥ من سورة العلق (٢) الآية ١١٣ من سورة النساء

وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفْضِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١)

وقوله جل من قائل :

(فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (٢)

وقوله :

(وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (٣)

وقوله في مجال الحث على التأمل والمشاهدة والتفكير السليم في

مخلوقات الله :

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ

كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) (٤)

وقوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ لَنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْ مَّتَجَرَاتٍ ﴿٣﴾ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفِضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾)

والأحاديث النبوية في مجال العلم كثيرة متعددة منها قوله عليه الصلاة

والسلام :

« طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ » .

« فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ

الكَوَاكِبِ » .

(١) الآية ٥ من سورة يونس

(٢) الآية ٤٣ من سورة النحل

(٣) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت

(٤) الآيات من ١٧ - ٢١ من سورة الغاشية

(٥) الآية ٣ - ٤ من سورة الرعد

« إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَالدُّ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ » .

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ »

وكما حث الدين على العلم ، حض على العمل ، لقوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) (١)

وقوله : (قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا

تَرْضَاهُ) (٢)

رقوله عليه الصلاة والسلام :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ » .

وقوله : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ . وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » .

وقوله : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ » .

وقوله : « إِنَّ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ إِلَّا تَقُومَ السَّاعَةَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا » .

وفي هذا كله يتضح أن الحضارة الإسلامية بجميع ألوانها ما هي إلا أصداء للإسلام وإن العلم والإنتاج والتعمير هي من مقتضيات الإسلام . لأن الإسلام دين العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة في الدنيا والآخرة .

أما اللغة العربية : فقد أجمع الباحثون على أنها أغنى اللغات

(١) الآيتان ١٠٧ - ١٠٨ من سورة الكهف

(٢) الآية ١٥ من سورة الاحقاف

السامية مادة وأوسعها أفقاً . كيف لا وقد نزل القرآن الكريم بلغة الضار فأعلاها شأنًا وزاد في غناها وثروتها وتثبيت أركانها . ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم بآياته المحكمات يعتبر مثلاً فريداً في قوة البلاغة وسحر البيان . لقد استطاعت اللغة العربية بقوتها وقوة الناطقين بها أن تنتصر في جميع البلاد التي فتحها العرب المسلمون من المحيط إلى الخليج فحلت محل اللغات المنتشرة آنذاك مثل : اليونانية واللاتينية والسريانية والبربرية والقبطية وغيرها . وأما الدول التي اعتنقت الإسلام والتي حافظت على نفسها مثل الفرس والأتراك فقد اتخذوا من اللغة العربية أداة للعلم والأدب . وأخذ الفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية . كما تم تدوين ما عرفته بلاد فارس من علوم بلغة العرب . أما الترك الذين ضموا فيما بعد الأقطار العربية إلى دولتهم ، فقد استخدموا الخط العربي في كتاباتهم وأصبح لا يوجد إنسان تركي على شيء من التعليم إلا ويستطيع قراءة القرآن بسهولة ويسر .

إن اللغة العربية بمفرداتها وأصالتها وغناها واشتقاقاتها وسهولة نحتها ليس بالكثير عليها أن تصبح أداة حضارية عظيمة . ولقد رأيت في دراستك السابقة في هذا الكتاب الكثير من الكلمات الأجنبية ذات الأصل العربي في شتى مجالات العلوم والصناعات والفنون والتنظيم العسكري .

لقد حفظت اللغة العربية تراث الأمم القديمة كاليونان والرومان والفرس وذلك لأن علوم أولئك الأقدمين قد ترجمت إلى اللغة العربية . كما أن اللغة العربية كتب بها منجزات العرب والمسلمين في شتى المجالات . وبالتالي نقلت هذه العلوم من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية فكانت هذه بمثابة قاعدة عريضة بنيت عليها الحضارة الأوربية قبيل عصر نهضتها . هذا ولقد عنى الكثيرون من علماء الغرب بترجمة الكتب العربية وما احتوته من علوم ومعارف .

ومما لا شك فيه أن حضارة أوربا الحديثة التي بنيت على جذور النهضة الأوربية التي أخذت ملامحها تظهر في القرن الثاني عشر الميلادي والتي أینعت ثمارها في إيطاليا بادئ ذي بدء في القرن الخامس عشر الميلادي ، قامت كلها على أساس واضح من الجانب المادي للحضارة

الإسلامية في مختلف المجالات .

إنتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا :

وقبل أن نأتى إلى انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، نلخص بـسطور قليلة الوضع الحضارى فى أوروبا إبان العصور الوسطى التى كانت الحضارة الإسلامية خلالها على أرفع مستوى عرفته البشرية .

كانت أوروبا فى العصور الوسطى (٤٧٦ م - ١٤٥٣ م) ، والتى يعرف الجزء الأول منها بالعصور المظلمة ، تغطيها فى ذلك الجزء المظلم من تاريخها سحابة كثيفة من التأخر الحضارى . فالبلاد تئن تحت كابوس ثقيل من الجهل والتأخر والانحطاط الأدبى والعلمى والفنى لا سيما وأن الكنيسة المسيحية سيطرت على التعليم ووجهته إلى الواجهة التى تريدها هى بحيث تجعل أفراد المجتمع لا يفقهون شيئاً من علوم الدنيا بل حصرتهم فى إطار من دراسات بعيدة كل البعد عن الدراسات الإنسانية وذلك ليبقوا تحت سيطرتها ونفوذها . ولقد كَفَّرَت الكنيسة ، كل من حاول أن يحدد عن الخط التعليمى الذى رسمته .

هذا بالنسبة للتعليم فى تلك الحقبة من الزمن . أما من حيث الجانب المادى من الحضارة ، فكانت معظم أوروبا تكسوها الأحرار والمستنقعات وتنتشر فيها الأمراض والأوبئة فلا طرق معبدة ولا مزارع مثمرة ولا مساكن مريحة ولا أى شىء من معالم الرقى الحضارى . لقد بقى الوضع فى أوروبا على هذا النحو من التأخر ، حتى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى عندما بهرت عيون الأوربيين معالم الحضارة الإسلامية فاستيقظوا من سباتهم وأخذوا يفترون من معين تلك الحضارة بنهمٍ وتَعْطُشٍ .

والآن نستعرض كيف انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عندما أخذت المدنية الإسلامية تشق طريقها إلى غرب أوروبا مارة بثلاثة جسور أو معابر رئيسية . وهذه الجسور هى : أسبانيا والتى كان تأثيرها فى نشر الحضارة العربية فى فرنسا . وصقلية والتى كان تأثيرها فى نشر الحضارة العربية بإيطاليا واضحاً . والشرق الأدنى والحروب الصليبية وتأثيرها فى

ألمانيا وفرنسا . وفيما يلي موجز لتوضيح دور هذه الجسور في الاتصال الحضارى بين العالم الإسلامى والغرب الأوروبى .

أسبانيا : لقد فتح المسلمون هذا القطر في مستهل القرن الثامن الميلادى ، ولم تكن أسبانيا بأفضل من باقى الدول الأوربية في المجال الحضارى بل الكل كان يعيش في جهل وتأخر وفوضى بسبب النزاع الاجتماعى والانحلال الداخلى والخلافات الطائفية والحروب على السلطة .

ولما فتح المسلمون تلك البلاد ، نقلوها إلى مرحلة من الاستقرار والبناء . فأحيوا الأرض بعد موتها ، وعمروا المدن الخربة ، ونشطوا التجارة الكاسدة ، وأنعشوا الصناعة المتأخرة حتى أصبحت عاصمتها قرطبة - عاصمة الأندلس في ظل الخلافة الأموية - أغنى الأقطار الأوربية وأكثرها ازدهاماً بالسكان . ثم انصرف المسلمون إلى العناية بالعلوم والآداب والفنون . فابتكروا وزادوا وجددوا أشياء كثيرة وهذا مما جعل من مناهل العلم في أسبانيا مورداً عذبا لأوروبا .

لقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها بالأندلس وذلك في النصف الثانى من القرن العاشر للميلاد عندما أصبحت قرطبة من أعظم مدن العالم المتحضر وقد بلغ سكانها آنذاك مليون نسمة . وقد حق لهؤلاء السكان أن يفخروا بأنهم يستطيعون المشى في شوارعها ليلا على ضوء المصابيح العامة في حين ظلت لندن سبعة قرون لا يوجد في طرقها مصباح عام واحد يضى ليلاً . لقد استمر نور الحضارة الإسلامية ساطعاً في الأندلس في مختلف مجالاته حتى امتد ليضىء غرب أوروبا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر وما بعدهما .

لقد ساعدت على انتشار النهضة سياسة التسامح تجاه أهل الذمة في أقطار الدولة الإسلامية ، ومن بينها الأندلس ، التى أقبل أهلها الأسبان على استخدام اللغة العربية التى فضلوها على اللاتينية . كما تتلمذ الكثير منهم على الأساتذة المسلمين وبذلك كوّن هؤلاء مدرسة استطاع أعضاؤها الطلبة القيام بدور السفراء بين الحضارة الإسلامية وأهل غرب أوروبا ، لا

سيما فرنسا ، الذين كانوا في لهف للاستفادة من تلك الحضارة الزاخرة بضروب العلم والمعرفة ومختلف الفنون والصناعات . ولقد قال أحد الكتاب المسيحيين من الذين عاشوا في القرن التاسع الميلادي : «إن المسيحيين كانوا يدرسون كتب فقهاء المسلمين ليتعلموا الأسلوب العربي البليغ ، وإن المتعلمين منهم أقبلوا على كتب العرب في نَهَمٍ وشغفٍ وأخذوا يجمعونها بمكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي كانوا يحتقرون فيه الكتب المسيحية » .

ولقد ازداد تدفق سيل الطلبة على جامعات الأندلس لا سيما بعد أن أخذت بعض المدن تسقط في أيدي المسيحيين ، هذا وقد نشطت حركة الترجمة عن اللغة العربية نشاطاً كبيراً حتى إنه عام ١١٣٠ م بدأ مكتب للترجمة في طليطلة بنقل الكتب العربية إلى اللاتينية تحت رعاية أحد الأساقفة . ومن بين ما ترجم مؤلفات الرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم . كما ترجم عن العربية كثير من مؤلفات اليونانيين أمثال جالينوس وبقرات وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وغيرهم . ولقد اهتم بعض حكام أسبانيا المسيحيين بالثقافة العربية الإسلامية مثل ألفونس الخامس ملك قشتاله وليون (١٢٥٢ - ١٢٨٤ م) .

هذا ولقد استمرت حركة الترجمة هذه حتى القرن الخامس عشر الميلادي . كما استمرت ترجمات الكتب العربية تدرس في الجامعات الأوروبية طيلة ستة قرون .

أما صقلية : وهي التي تشكل الجسر الثاني التي انتقلت منها الحضارة الإسلامية إلى جنوب ثم وسط أوروبا ، فإنه عندما ثبت المسلمون أقدامهم في تلك الجزيرة إبان القرن التاسع الميلادي ، اهتموا بالزراعة فحفروا الترع والقنوات وأنشئوا المجرى المعقودة ، وأدخلوا زراعة القطن وقصب السكر واستغلوا ثروة الجزيرة المعدنية فاستخرجوا الفضة والحديد والنحاس والكبريت ، وأدخلوا إليها صناعة الحرير . أما التجارة فقد اتسعت بعد أن كانت متدنية جداً قبل مجيء المسلمين إلى تلك الجزيرة . ومع أن المباني الإسلامية الباقية في الجزيرة قليلة إلا أنها تشهد بروعة للبناء

وجماله . وحسبنا في ذلك ما ذكره الإدريسي في وصف بالرمو^(١) إبان حكم روجر الثاني . إن الحضارة الإسلامية في الجزيرة لم تنته بانتهاء الحكم الإسلامي لها لكنها وجدت في ملوك النورمان خير مشجع لها لأنهم أدركوا ولسوا تقدم عرب ومسلمي صقلية في العلوم والفنون والصناعات وإن التشجيع لهؤلاء يعود عليهم بفوائد عظيمة . ومن الأمثلة على هذا التشجيع ما قام به روجر الأول ملك صقلية النورمانى (١٠٦١ - ١١٠١ م) من العناية بالمسلمين وحمايتهم . ولم يقتصر على هذا فحسب بل كتب مراسيمه باللغة العربية إلى جانب اللاتينية واليونانية . وكذلك كتب على أحد وجوه النقود بالعربية والآخر باليونانية واللاتينية واشتمل بعض تلك النقود على رمز الإسلام والآخر على رمز المسيحية .

ومن الحكام المشجعين كذلك روجر الثاني (١١٢٩ - ١١٥١ م) الذى استعان بالعلماء المسلمين . كما درس وليم الثاني (١١٦٦ - ١١٨٤ م) اللغة العربية ورجع إلى مستشاريه المسلمين فى كثير من شئونه .

واتخذ ملوك النورمان بصقلية لأنفسهم حراساً من العرب كما أن الشعر العربى كان يمارس فى بلاط ملوك صقلية النورمان . وقد اعتنى فردريك الثانى (القرن الثانى عشر الميلادى) بكتب وعلوم المسلمين وأحاط نفسه بمظاهر شرقية إسلامية وجمع حوله العلماء المسلمين كما شجع ترجمة الكتب العربية .

ومن صقلية انتقلت الحضارة الإسلامية إلى إيطاليا التى سبقت ، بتأثير المسلمين ، باقى الدول الأوروبية فى الحضارة .

الشرق الأدنى والحروب الصليبية : كان لبلاد الشام والشرق الأدنى شأن كبير فى نقل مظاهر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى وذلك عن طريق الحروب الصليبية التى نشأ عنها صلات سياسية وحضارية وتجارية بين المشرق الإسلامى والمغرب المسيحى . ولو أنه يحسن ألا نغالى فى أهمية هذه الحروب كمدخل للحضارة الإسلامية إلى

(١) بالرمو هى عاصمة صقلية .

أوروبا لأن الصليبيين جاءوا للحرب والمنافع الاستعمارية كما أن مدة وجودهم في المشرق العربي كانت غير مستقرة لمباشرة النشاط الفكري والحضارى . ولم تتح لهم كذلك فرصة الاتصال بالمسلمين كالفرصة التي أتاحت لسكان كل من أسبانيا وصقلية الاتصال بهم .

نعم إن الصليبيين أقاموا وحدات لهم في بلاد الشام لكنها كانت بمثابة قلاع عسكرية متناثرة في وسط محيط من المسلمين . ومع كل هذا فإنه لا بد من وجود اتصالات حضارية وثقافية بين المسلمين والصليبيين . فمن الناحية اللغوية دخلت كلمات ومصطلحات عربية في اللغات الأوربية . كما أن الحروب الصليبية أثرت في تطوير فن الحرب عند الأوربيين لا سيما فيما يتعلق ببناء القلاع والحصون واستخدام آلات الحصار والدروع وألعاب المبارزة واستخدام الإشارات العسكرية (الرنوك) . كان كل ذلك نتيجة لاتصال الصليبيين بمسلمى بلاد الشام . ولا ننسى أن الاتصال التجارى بين المشرق الإسلامى وأوروبا في فترة الحروب الصليبية وما بعدها ، أدخل الكثير من السلع الشرقية والنباتات والعادات والنظم الإسلامية إلى أوربة .

وللوقوف على منابع الحضارة الإسلامية فإن كثيراً من علماء وفناني أوروبا قد طافوا بالبلاد الإسلامية مشرقها ومغربها للتعرف عن كثب على ما قام به المسلمون في مختلف أوجه الحضارة .

جانبا الحضارة الإسلامية المادى والمعنوى :

في ضوء كل ما تقدم يتضح أن ما اقتبسته أوروبا من حضارة إسلامية كان الجانب المادى من تلك الحضارة الزاهرة .

ونذكر الجانب المادى هذا يقودنا إلى ضرورة التحدث عن جانبى الحضارة الإسلامية المادية والمعنوية .

أما الحضارة المادية فهي ما يدرك ثمارها الإنسان بحواسه كالزراعة والصناعة والتجارة والعمران وكل ما يتصل بها من دراسات ونظريات وابتكارات والتي سبق أن تناولناها بالحديث في الأبواب والفصول

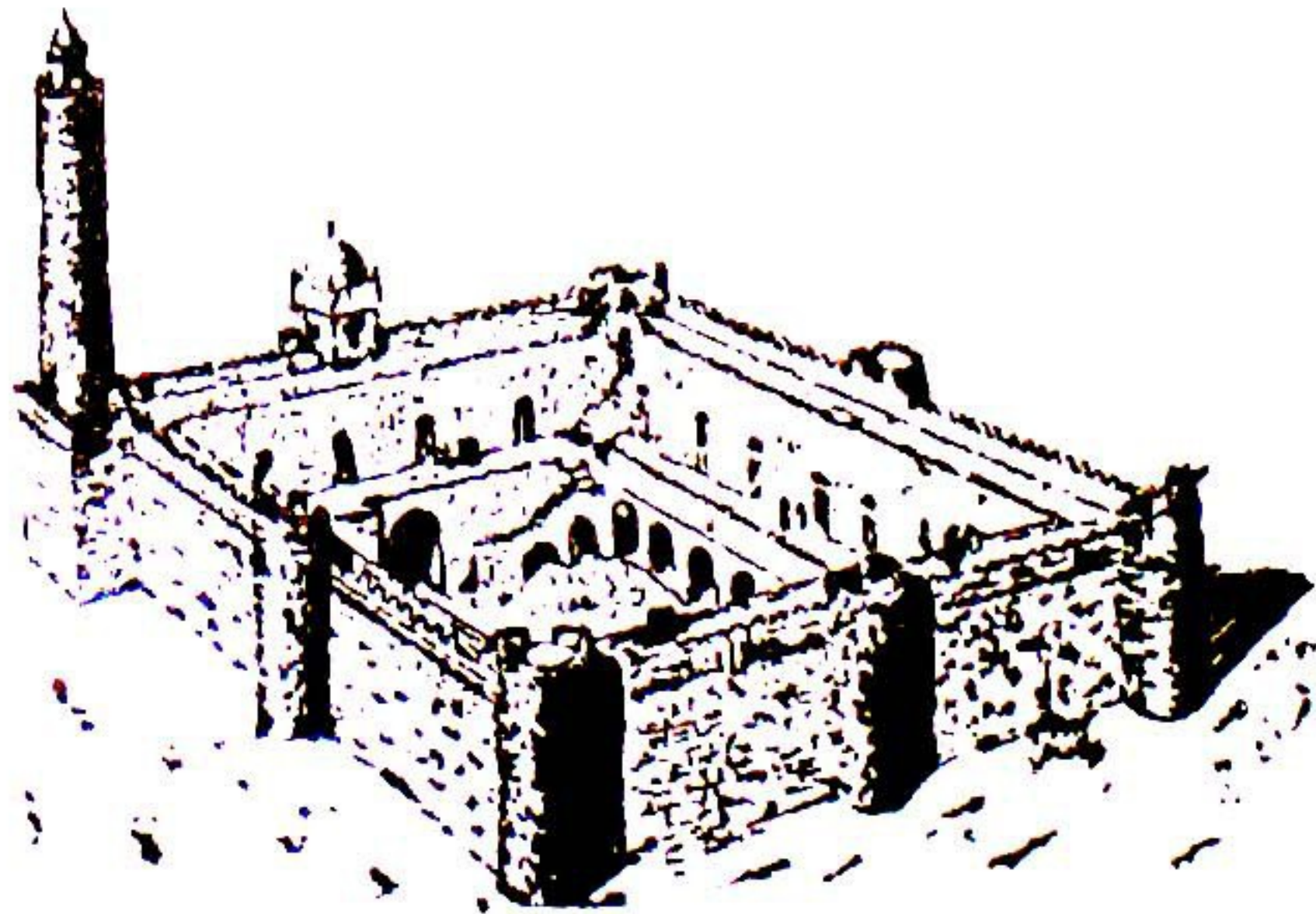
نماذج من أنواع المنشآت الإسلامية



جسوف نهر زنده رود في اصفهان



قلعة حلب



«رباط صوصة» في تونس

السابقة . أما الحضارة المعنوية فهي تلك الحضارة الإنسانية العالمية بكل ما في كلمة إنسانية من معنى ، والتي نصت عليها تعاليم الدين الإسلامي الحنيف بكل تفاصيلها ، فهي تتعامل مع الإنسان من حيث كونه إنساناً بغض النظر عن اللون والجنس واللغة والدين والوطن . وهي الحضارة التي توفر السعادة الروحية لبنى البشر ، إذ الحضارة المادية وحدها لا تكفي لتوفير السعادة للأفراد ، إن لم تكن سبباً في تعقيد الحياة وزيادة المتاعب والقلق والاضطرابات النفسية .

ولاكتمال السعادة لا بد من إيجاد حضارة متوازنة بثقيها المادى الذى تتجسم فيه مظاهر التقدم والرخاء ، والروحى الذى يجلب للمرء صفاء النفس والطمأنينة والارتياح ونقاء السريرة والبعد عن الخداع والكذب والرياء والأنانية .

إن هذه الحضارة المتوازنة المتكاملة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتعاليم الدين الإسلامى الحنيف وشريعته السمحة . وكل ركن من أركان الإسلام له دوره فى تأسيس الحضارة الإسلامية وبنائها .

فالركن الأول من أركان هذا الدين القويم وهو وحدانية الخالق عز وجل وقدرته على كل شئ ، وعدالته المطلقة وهو المعبود الوحيد وهو الرحمن الرحيم . هذه كلها تحرر النفس البشرية وترفع معنوياتها وتصلق مشاعرها فيحسّ المسلم أنه أخو المسلم لا يرهبه ولا يخشى إلا الله . وهذا النوع من المساواة النفسية التى أغفلها العالم المتقدم صناعياً ، تعتبر نقطة البداية فى مجرى حياة الإنسان وما يصنع . لأن الإنسان متى آمن برب واحد له كل الصفات الحسنى ، يطمئن كل الاطمئنان فلا يخشى الفقر لأن الله هو الرزاق ، ولا يحرص على الحياة لأن الله وحده هو الذى يحيى ويميت ، ويتحرر من عبودية المنصب لإيمانه بأن الله هو مالك الملك ، ولا يخشى من أن يهضم حقه لأن الله أحكم الحاكمين . هذه الأمور والإحساسات كلها ترفع من شخصية الفرد لازدياد صلته المباشرة بالله تلك الصلة التى وضحتها الله تعالى فى أماكن كثيرة من كتابه العزيز :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِالْعَلَمِ يُرْشِدُونَ (١)

إن الإنسان متى شعر بكل هذا الاطمئنان وراحة النفس والضمير ، أصبحت عنده القدرة على العمل والإنتاج والابتكار . وأصبح لديه الاطمئنان الكافي والراحة النفسية لنتائج ما يقوم به من أعمال لخيره وخير المجتمع .

وفي الصلاة بأوقاتها وما لها من تأثير في النهي عن الفحشاء والمنكر ولما تحتويه من ذكر الله عز وجل تجعل المرء يراقب نفسه ويقومها في إطار هذا الركن من أركان الإسلام ، كما أن في صلاة الجماعة ما يقوى ارتباط المرء بأفراد مجتمعه ويتأصل فيه حب العمل الجماعي الذي له نتائج في كل المجالات والصوم وما فيه من ترويض للنفس وكبح جماحها عن شهواتها خلال فترة من الزمن ، تجعل المرء في وضع يمكنه من تحمل كل ما يتعرض له من صعوبات خلال حياته . التحمل والصبر يجعلان الإنسان دعواً على العمل المتواصل للوصول إلى أفضل النتائج . وفي الزكاة وما في مال المرء من حق للسائل والمحروم تقريب الشقة بين الغنى والفقير وتكون مجتمع متحاب عند القدرة التامة على التعاون وإنجاز الأعمال بكل يسر . وفي الحج الأكبر وتجمع الناس في مكان واحد وما ينتج عن ذلك من تواد وتحاب ومساواة وتبادل في العلوم والمعارف والمتاجر والآراء ، كل ذلك مما يكون مجتمعاً إسلامياً في إطار العقيدة السمحة ومما يساعد على نشر الحضارة الإسلامية بين الشعوب .

هذه الأركان كلها مجتمعة تكون حضارة روحية ، تكون مجتمعاً صالحاً طاهراً خالياً من الدنس ، أفراده يتحلون بالصدق والاخلاص والأمانة والعفاف والطهارة ومحاسبة النفس وضبط نوازعها وإيثار الحق وسعة النظر والقلب وعلو الهمة والكرم والسخاء والفداء والتضحية والتواضع والشعور بالواجب والصبر والاستقامة والشجاعة والقناعة واحترام النظام والقانون .

وأى مجتمع أفضل من هذا المجتمع الذى يتحلى أفراده بكل هذه الصفات وأى حضارة أرقى وأفضل من هذه الحضارة التى تعمل على إيجاد مثل هذا المجتمع .

إنه متى وجدت هذه الصفات بين أفراد المجتمع ، استطاع وهو مطمئن البال وهادئ الأعصاب ومتفتح الذهن ، أن يصمم ويخترع ويبنى وينتج ويسعى فى مناكب الأرض ويتعامل مع الآخرين بالصدق والأمانة .

إن العالم المادى اليوم والذى بنى حضارته أصلاً على الجانب المادى من الحضارة الإسلامية وطور ذلك ، الجانب بحيث اخترع ما لم يكن فى حسابان أحد . انحدر فى مهاوى الرذيلة لدرجة لم تكن فى حسابان أحد .

وعندما برزت هذه الحضارة البراقة إلى العالم أجمع انبهرت الشعوب - لا سيما النامية منها ونحن المسلمون منهم - بذلك البريق فأعمى العيون وصم الآذان عن كل فضيلة وعن كل مثل عليا ، فابتعد الأخ عن أخيه والقريب عن قريبه والجار عن جاره والمسلم عن المسلم وطغت عليه المادية المجردة وأصبح لا ينظر بغير هذا المنظار الضيق ونسى الله فأنساه نفسه .

إن ما ندعو إليه الآن - وقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه - أن نعود إلى رشدنا ونكون حضارة متكاملة روحياً ومادياً فنجمع بين الدين والدنيا وبذلك نكون حضارة متكاملة ومجتمعاً متحاباً متراصاً وأى شئ أفضل من هذه النتيجة وأى حضارة أرقى من حضارة كهذه .

وإذا ما أراد المسلمون التوصل إلى هذه النتيجة ، فلا بد من تفجير مختلف القوى والإمكانات التى يتمتع بها الإسلام ، والتخلص من كل عوامل التخلف (عد بذاكرتك إلى ما سبقت دراسته فى الصف الثانى الثانوى بهذا الصدر) وإن ما ينبغى عمله لتحقيق ذلك لا يمكن أن يقوم به شخص واحد بمفرده . إذ إن الصفات الفردية اللازمة لذلك الشخص الذى يأخذ على عاتقه مثل هذا الواجب الخطير تشمل بصفة أساسية ما يأتى :

١ - معرفة تامة بالقرآن الكريم وبكل ما يتصل به .

- ٢ - حفظ القرآن عن ظهر قلب مع معرفة تفسيره .
- ٣ - معرفة تامة بالأحاديث النبوية الشريفة ، أو على الأقل ثلاثة آلاف منها . مع معرفة بمصادرها وتاريخها وأغراضها وعلاقتها بالتشريعات التي جاءت في القرآن .
- ٤ - حياة ورع وتقشف وعفة وتجرد .
- ٥ - معرفة تامة بعلوم القانون والعلوم الأخرى .
- ٦ - معرفة تامة بمذاهب الفقه الإسلامي .
- ٧ - معرفة تامة بما لدى الأمة الإسلامية والعربية من إمكانات مادية وثقافية وعلمية .

ولما كان من الصعب توافر كل هذه الصفات والإمكانات في شخص واحد ، فإن الحل يتطلب إحالة هذا العمل إلى مجلس متخصص يتولى هذه الشئون للحيلولة دون أى خوف أو وجل من الانشقاق الدينى في المجتمع الإسلامى .

وحتى تكون للمجلس القدرة على التخطيط والتنفيذ لعمل عظيم من هذا القبيل ، لا بد وأن يكون أعضاؤه لهم مكانتهم العلمية في مختلف مذاهب الفكر وشتى العلوم في كافة الأقطار العربية والإسلامية . ولا بد من أن يعنى هؤلاء الأعضاء على وجه الدقة الغرض الذى من أجله أسس هذا المجلس والذي يتمثل في دراسة العقيدة الإسلامية ، وتطويرها الثقافى والتاريخى والسياسى والاقتصادى والحضارى . ثم استنباط تفسيرات سليمة تعمل على تقدم الشعوب الإسلامية . كما يتمثل ذلك الغرض في دراسة التراث الثقافى المتراكم فيختار منه ما ينفع وي طرح جانباً ما لا قيمة له . ثم يرسم خطة العمل على هذا الأساس . وبعدئذ يبدأ العمل والبناء على قاعدة متينة سداها ولحمتها القسم النافع من تراثنا ، مستغلين بذلك كل الطائعات الروحية والبشرية والمادية في الأقطار العربية والإسلامية للوصول إلى الهدف المنشود .

ولعل خير من يتولى هذا العمل الضخم الذى يتوقف عليه رفعة الأمة العربية والإسلامية ويجعلها تتبوأ مكانتها المرموقة بين الأمم ، الرابطة

الإسلامية التي أصبح لديها من التنظيم الدينى والفكرى والمالى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى والإدارى ما يمكنها من تحقيق الأهداف المنشودة . لا سيما بعد أن تنال هذه الرابطة الدعم كل الدعم والمساندة كل المساندة فى مختلف المجالات من كافة الأقطار الإسلامية والعربية والتنسيق التام بينها وبين المنظمات الإسلامية والعربية الأخرى . وفى هذا كله نكون حضارة إسلامية عربية متكاملة مادة وروحاً . وما ذلك على الله بعزيز .

تم بحمد الله



المراجع

القرآن الكريم

الأحاديث النبوية الشريفة

مباحث في علوم القرآن

علوم القرآن

النظم الاسلامية

النظم الاسلامية

النظم الاسلامية

الأحكام السلطانية

الوزراء

النظام المالي المقارن في الاسلام

تاريخ قضاة الأندلس

القضاء في الاسلام

القضاء والقضاة

أخبار القضاة

الحضارة الاسلامية والعربية على العالم

وفيات الاعيان

حضارة العرب

مناح القطان

أحمد السيد الكومي وزميله

حسن ابراهيم حسن

صبحى الصالح

أنور الرفاعى

الماوردى

الجهشياري

بدوى عبد اللطيف

أبو الحسن الأندلسى

عطيه مشرفة

محمد شهير ارسلان

وكيع

زكريا هاشم

لابن خلكان

غوستاف لوبون / ترجمة عادل

زعيتر

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى آدم متر

المدنية الاسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية سعيد عبد الفتاح عاشور

حسن ابراهيم حسن

زيغريد هونكه

أبو صالح الألفى

نعمت عبد السلام ابراهيم

أرنست كونل / ترجمة أحمد

موسى

قدرى حافظ طوقان

محمد أبو زهرة

أبو الاعلى المودودى

تاريخ الاسلام السياسى والحضارى

شمس العرب تسطع على الغرب

الفن الاسلامى

فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية

الفن الاسلامى

تراث العرب العلمى (في الرياضيات والفلك)

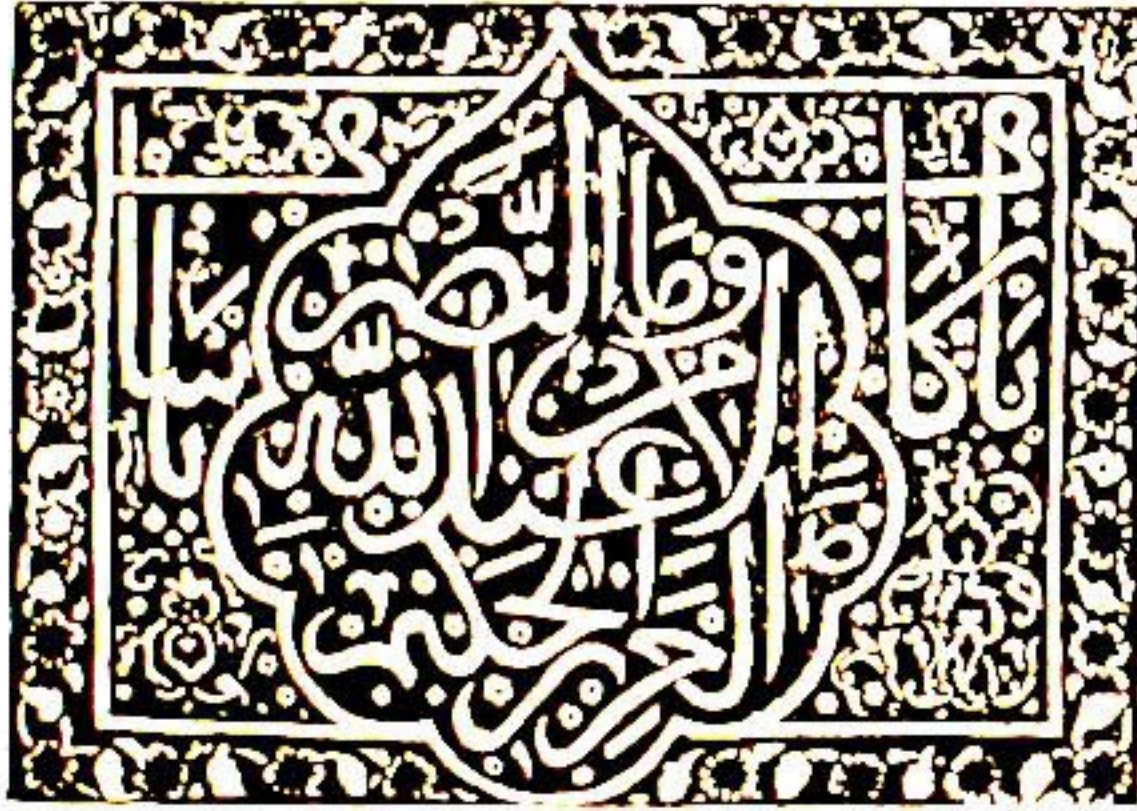
محاضرات في الوقف

الحضارة الاسلامية / أسسها ومبادئها

أثر العرب في الحضارة الأوربية
الاتجاه الجماعى فى التشريع الإسلامى
الإدارة العربية

عباس محمود العقاد
محمد فاروق نبهان
مولوى حسينى / ترجمة
ابراهيم أحمد العدوى

مقدمة ابن خلدون
دائرة المعارف الإسلامية
الموسوعة البريطانية



فهرس الكتاب

رقم الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٥	المنهج
١١	الباب الأول: النظم الإسلامية
١١	الفصل الأول: خصائص النظم الإسلامية
١٥	الفصل الثاني: النظام السياسي
٣٥	الفصل الثالث: النظام الإداري
٦٩	الفصل الرابع: النظام المالي
٩٤	الفصل الخامس: النظام القضائي
١٣٤	الباب الثاني: الحياة العلمية
١٣٤	الفصل الأول: اهتمام المسلمين بالعلم والتعليم
١٥٥	الفصل الثاني: نظام التربية الإسلامية
١٩٥	الفصل الثالث: العلوم الشرعية
٢٣٠	الفصل الرابع: العلوم الكونية
٢٤٢	الباب الثالث: معالم الحضارة الإسلامية
٢٤٣	الفصل الأول: الصناعات الإسلامية وانتشارها
٣٠٨	الفصل الثاني: العمارة الإسلامية
٣٤٢	الفصل الثالث: تخطيط المدن الإسلامية
٣٥٦	الفصل الرابع: ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشارها
٣٧٣	المراجع
٣٧٥	الفهرس